

هكذا تعمس على النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف وجمع وترتيب و تنسيق

أحمد عبد الملك أحمد محمد هزير
(لعواضي لقباً)

تعصيد وتقديم العلامة المريني الحبيب

أبو بكر العدني ابن علي المشهور



هَذَا كِتَابُ تَعَامُلِ النَّبِيِّ

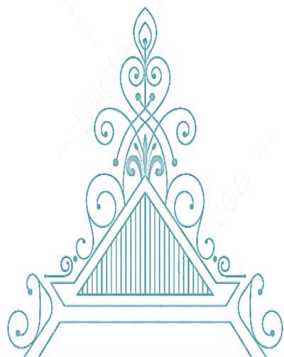
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

نماذجٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ تَعَامُلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
وَمَوَاقِفِهِ مَعَ جَمِيعِ شَرَائِحِ الْمُجْتَمَعِ

جَمْعٌ وَتَأْلِيفٌ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ
أَحْمَدُ عَبْدُ الْمَلِكِ أَحْمَدُ مُحَمَّدُ هِزْبَرُ
الْعَوَاضِي لَقَبًا

تَعْضِيدٌ وَتَقْدِيمُ الْعَلَّامَةِ الْمُرَبِّيِّ الْحَبِيبِ
أَبُو بَكْرٍ الْعَدْنِيِّ ابْنُ عَلِيِّ الْمَشْهُورِ

النَّفْسِ
الْمُحِبِّينَ



هَكَذَا اتَّعَامَلُ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ



هَكَذَا تَعَامَلُ النَّبِيُّ ﷺ وَالرَّسُولُ

تأليف وجمع وترتيب وتنسيق :

أحمد عبد الملك أحمد محمد هزبر : (العواضي : لقباً) .

عدد الصفحات : [٤٤٨] .

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة لعام / ١٤٤٥ هـ الموافق ٢٠٢٣ م

لإبداء الملاحظات والتصويب والمراجعة والتصحيح والنصيحة التواصل مع المؤلف ؛

وسأكون شاكراً لكل من يكرمني بذلك ..

تلفوني والوتساب برقم : ٠٠٩٦٧٧١١٤٢٤٠١٢ أيضاً ٠٠٩٦٧٧٧٥٧١٨٢١٩

صفحتي على الفيس بوك : أحمد عبد الملك العواضي العواضي ..

مكتبة تريم الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
حضرهوت - تريم

E.M: tmb417130@hotmail.com

هاتف: 417130 هـ 967 +

O.R: mab418130@hotmail.com

فاكس: 418130 هـ 967 +

Facebook: مكتبة تريم الحديثة (مجموعة)

جوال: 777418130 هـ 967 +

هَكَذَا تَعَامَلُ النَّبِيَّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

نَمَازِجٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ تَعَامُلِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَمَوَاقِفِهِ

مَعَ جَمِيعِ شَرَائِحِ الْمُجْتَمَعِ

جَمْعٌ وَتَأْلِيفٌ لِفَقِيرٍ إِلَى اللهِ

أَحْمَدُ عَبْدُ الْمَلِكِ أَحْمَدُ مُحَمَّدُ هَزَبِي

الْعَوَاضِيُّ لِقَا

تَعْضِيدٌ وَتَقْدِيمٌ : الْعَلَّامَةُ الْمُرَبِّي الْحَبِيبُ :

أَبُو بَكْرٍ الْعَدْنِيُّ ابْنُ عَلِيِّ الْمَشْهُورِ

مكتبة تريم الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
حضر موت - تريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المطلع القرآني

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ
يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾





عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم :
 «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وُلْدِهِ،
 وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١).



الإِهْدَاءُ

بِكُلِّ حُبٍّ وَفَخْرٍ وَاعْتِزَّازٍ أُهْدِي هَذَا الْكِتَابُ ، وَكُلِّي حَيَاءً وَخَجَلٍ
 وَخُشُوعٍ إِلَى سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، إِلَى أَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ ، إِلَى
 حَبِيبِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، إِلَى مَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْفُرْقَانَ ، وَنَشَرَ لَوَاءَ الْإِسْلَامِ ،
 إِلَى مَنْ أَدَّبَهُ اللَّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ ، إِلَى مَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ،
 سَيِّدِي وَقَرَّةَ عَيْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .

إِلَى آلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، وَأَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينَ ،
 وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
 إِلَى كُلِّ مُتَعَشِّقٍ وَمُحِبِّ وَمُشْتَاقٍ لِمُرَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ ..

إِلَى كُلِّ الدَّعَاةِ وَالْخُطَبَاءِ وَالْمُرْشِدِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ النَّفْعَ لِلْأُمَّةِ .
 إِلَى قَادَةِ الْأُمَّةِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى شُؤْنِهَا ..

إِلَى جَمِيعِ أُمَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أُهْدِي هَذَا الْكِتَابُ ..



نَقْدٌ وَتَعْضِيدٌ الْعَلَامَةِ الْمُرْتَبِيَةِ الْحَبِيبِ
 أَبُو بَكْرٍ الْعَدْنِيُّ ابْنُ عَلِيِّ الْمَشْهُورِ
 بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وله الفضل والمِنَّة ، والصلاة والسلام على صاحب الكتاب والسُنَّة سيِّدنا محمد وآله وصحبه السَّالِكِينَ طريق الوصول إلى الجَنَّة ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ إلى يوم الدين ، وبعد؛
 فقد عَرَّضَ عَلِيُّ الْوَلَدَ الْمُبَارَكَ أَحْمَدَ عَبْدِ الْمَلِكِ الْعَوَاضِي كِتَابَهُ : [هَكَذَا تَعَامَلُ النَّبِيُّ ﷺ] ،
 فَوَجَدْتَهُ قَدْ نَقَلَ الْعَدِيدَ مِنْ مَوَاقِفِ صَاحِبِ الرَّسَالَةِ ﷺ مَعَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالذَّكْرَ وَالْأُنْثَى ،
 وَحَتَّى مَوَاقِفَهُ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ ..

فصار كتاباً مُفِيداً في موضوعه يَجِدُ فِيهِ الْبَاحِثُ عَنْ لُبِّ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ أُسُسَ الْمَعَامَلَاتِ
 الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي رَسَمَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ مِنْهُجَ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُتَمَيِّزِ ، هَذِهِ الْأَخْلَاقُ الَّتِي هِيَ
 أُسَاسُ الشُّعُوبِ وَسَعَادَتِهَا ؛

ولعل الأمة اليوم هي أكثر حاجة لتذكيرها بهذه الأخلاق العالية لتعود إلى صافي المنبع
 القيمى المشروع ، فالأمة اليوم قد أخذ بها الجُنُوحَ والانحرافَ مَأْخِذاً خَطِيراً حَتَّى أَنَّهُمْ لَمْ تَعُدْ تُؤَدِّي
 وَظِيفَتِهَا الْأَزَلِيَّةَ الَّتِي كَرَّمَهَا اللَّهُ بِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وليس لهذه الأمة من مَخْرَجٍ من أزماتها إلا بالعودة الواعية إلى منهج الرِّسَالَةِ والأخلاق ..
 ونرجو الله أن يحقق ذلك بمحض جوده وفضله وكرمه آمين .

أبو بكر العدني ابن علي المشهور

٢٥ / رجب : ١٤٤٠ هـ ..



شكري تقديري

- مرّت سنين في حياتي استفدت كثيراً من مشايخ كرام وإخوان وأحباب ،
 ولا زلت مُستمداً وطالب علمٍ إن شاء الله ، وازدادت ديون الشكر عليّ كثيراً ؛
- ♦ وإني أتقدم بالشكر الجزيل إليّ : سيّدي وتاج راسي الحبيب العلامة القدوة المربي /
 أبي بكر العدني ابن علي المشهور الذي منه استمديتُ ولا زلتُ أستمد الأخلاق ،
 وحُسن الاقتداء والاهتداء بالحبيب الأعظم ﷺ ، رحمه الله رحمةً واسعة ونفعنا الله
 به وبجميع عباد الله الصالحين آمين .
- ♦ وأيضاً إليّ كافة مشايخي وأساتذتي وأخصّ منهم سيّدي الحبيب العلامة القدوة
 المربي / عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ حفظه الله ونفعنا به وأمتعنا الله به آمين .
- ♦ وإليّ سيدي وتاج راسي والدي الشيخ عبد الملك بن أحمد بن محمد هزّبر : العواضي
 الذي أعانني على طلب العلم وحثني على الصبر والاجتهاد والالتزام بالأخلاق
 والإتباع والاقتداء بمنهج الحبيب الأعظم ﷺ ؛ رحمه الله رحمةً واسعة ونفعنا الله به
 وبجميع عباد الله الصالحين آمين .
- ♦ وإليّ كل من أعانني على إنجاز ونشر وطبع هذا الكتاب علمياً أو معنوياً أو مادياً
 أو تكّرم عليّ بالمرجعة أو بالملاحظات ..

الشكر للجميع وجزاهم الله عنّي خير الجزاء ..

لِقْدَامَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أنتظم بها في سلك أهل عنايته، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المحبوب منه بخوارق هباته، المفوض إليه إمداد الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين بمعاني القرب وبيئاته، صلى الله عليه صلاةً وسلاماً دائمين بدوام نعم الله، وعلى آله وأصحابه حُماة الدين القويم ، عن زيغ كل زائغ وتحريفاته ، وهداة الخلق إلى الصراط المستقيم بإيضاح كلياته وجزئياته، وعلى من تبعهم بإحسان ، وعلى خواصه وأهل طاعته، وأسأله أن ينظر إلينا نظرةً من عنده تصلح أحوالنا ظاهرها والباطن ، ويحوّل حال الأمة المحمدية إلى أحسن حال إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.. أمّا بعد:

فمِمَّا يَتَعَيَّنُ عَلَى كُلِّ مَكَلَّفٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ نَبِيَنَا مُحَمَّدًا ﷺ أَكْمَلَ النَّاسَ وَأَزْكَاهُمْ وَأَوْفَاهُمْ وَأَطْهَرَهُمْ، فَأَحْوَالَهُ وَصِفَاتُهُ لَا تَحْصَى، وَشَمَائِلُهُ لَا تَسْتَقْصَى، وَأَنَّ خِصَائِصَهُ وَمُعْجَزَاتِهِ لَمْ تَجْتَمِعْ قَطُّ فِي مَخْلُوقٍ، وَأَنَّ حَقَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَعْظَمِ الْحَقُوقِ، فَهُوَ ﷺ الصُّورَةُ الْعَمَلِيَّةُ التَّطْبِيقِيَّةُ لِهَذَا الدِّينِ، وَجَمِيعِ الطَّرِيقِ مَوْصُودَةٌ وَمَغْلُوقَةٌ إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِ ﷺ فَهِيَ مَوْصِلَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ إِلَى الْجَنَّةِ؛ وَلَا يَقُومُ بِبَعْضِ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ وَهَمَّتَهُ وَوَسَعَهُ فِي مَعْرِفَتِهِ ﷺ فِي جَمِيعِ شُؤُونِ حَيَاتِهِ، وَكَيْفَ كَانَ هَدْيِهِ وَعَمَلُهُ وَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَمَنْهَجُهُ وَسُنَّتُهُ، وَاسْتِجْلَاءُ مَنَاقِبِهِ وَمَآثِرِهِ وَحِكْمِهِ وَأَحْكَامِهِ، فَإِذَا تَعَرَّفَ عَلَى ذَلِكَ أَزْدَادَ لِهَذَا الْحَبِيبِ ﷺ مَحَبَّةً وَإِجْلَالًا وَتَوْقِيرًا وَإِعْظَامًا وَاقْتِدَاءً، فَقَدْ لَاقَى ﷺ كُلَّ صَنُوفِ الْأَذَى وَأَشَدِّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَالْبَلَاءِ، وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ وَالنَّصْرُ لَهُ؛

فقد سالم وحارب، وأقام وسافر، وباع واشترى، وأخذ وأعطى، وما عاش ﷺ وحده، ولا غاب عن الناس يوماً واحداً، ولا سافر وحده.

بعثه الله تبارك وتعالى على فترة من الرُّسل، فأنذر وحذر وبشّر ونور، فهدى الله من أراد هدايته فأخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة، فأحبّوه وفدّوه بأرواحهم وأنفسهم وأهليهم وأموالهم وجعلوه قدوة لهم ونبراساً ونوراً يستضيئون به، ويهتدون بهديه فأصبحوا أئمة الهدى وقادة العالم:

هل تطلبون من المختار معجزة يكفيه شعب من الأجدات أحياء
من وحد العرب حتى كان وا ترهم إذا رأى ولد الموتور أخاه
وما أصاب المسلمين من وهنٍ وضعف، وتخبُّط وانحراف، ومشاكل وفتن .. إلا بسبب
الإخلال والابتعاد عن نهجه وهديه واتباع سنته ﷺ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ
اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإنَّ الأخذ بسيرته، وتطبيقها عملياً في حياتنا تكون سبب سعادتنا ونجاتنا في الدنيا والآخرة،
ولا يمكن أن نكتفي بقراءتها في المجالس والمنتديات والاحتفالات فقط، أو قراءتها بقصد البركة
أو الاطلاع على الأحداث والوقائع، أو حفظ غزواته وأيامه وبعوثه وسراياه من غير تأمل ولا
تطبيق، فالسيرة حياة، وهي عظةٌ وعبرٌ للتأسي وليس للتسلي.

لذا أحببت أن أتشرّف بجمع ما استطعت أن أجمعه عن هَذَا الحبيب العظيم سيّدنا ومولانا
محمد ﷺ من نماذج تعامله مع أهل بيته وأقاربه ومجتمعه الذي حوّلته من ضلالٍ إلى نور، ومن
جهلٍ إلى علم، ومن تخبُّطٍ إلى رُشدٍ وسداد، ومن تخلفٍ إلى تقدم وتطور وتحضّر وإمداد؛

فجمعت ما استطعت جمعه وبذلت الجهد حسب فهمي وقدراتي البسيطة والمراجع القليلة
حسب ما أمكن، وقسمته على ثمانية مباحث وخاتمة وسميته:

[هَكَذَا تَعَامَلَ النَّبِيُّ ﷺ]

وإني لأعلم وكما هو معلومٌ للجميع أنّ الكثير قد كتبوا عن سيرته ﷺ فمنهم من أطال ومنهم من اختصر، وكتابتي وجمعي لهذا الكتاب إنما هو قطرة من بحرهم ورشفة من مَهرهم ، فقصدي الأكبر هو إفادة الأمة ولفت نظر الجميع إلى القدوة الحقيقية ، وأيضاً مقصودي الأكبر رضا المولى ﷺ ، وأن أنال شفاعة الحبيب المصطفى ﷺ في ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى

اللَّهِ يَاقِلِّبِ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ، وكما قال الإمام العارف بالله الشيخ عمر بن علي ابن الفارض :

كَمَلَّتْ مَحَاسِنُهُ فَلَوْ أَهْدَى السَّنَا الْبَدْرَ ، عِنْدَ تَمَامِهِ ، لَمْ يُحْسَفِ
وَعَلَى تَفَنُّنٍ وَاصْفِيهِ بِحُسْنِهِ ، يَفْتَنِي الزَّمَانَ ، وَفِيهِ مَالٌ يُوصَفِ
وكما يقول أيضاً شيخنا الحبيب العلامة / أبوبكر العدني ابن علي المشهور رحمه الله تعالى :

وَمَدِيحِي فِي الْحَبِيبِ قُرْبَةٌ أَبْتَغِي الرِّضْوَانَ وَالصَّفْحَ غَدًا
وَأَرَى وَجْهَ الْحَبِيبِ رَاضِيًا فِي حَيَاتِي وَمَمَاتِي مُسْعِدًا
وقال أيضاً شيخنا الحبيب العلامة / عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ حفظه الله ونفعنا الله به :

وَلَقَدْ أَشْرْتُ لِنَعْتِ مَنْ أَوْصَافُهُ تُحْيِي الْقُلُوبَ تَهَيِّجُ الْأَشْجَانَا
وَاللَّهُ قَدْ أَتْنَى عَلَيْهِ فَمَا يُسَا وَي الْقَوْلُ مِّنَّا أَوْ يَكُونُ ثَنَانَا
لَكِنَّ حُبًّا فِي السَّرَائِرِ قَدْ دَعَا لِمَدِيحِ صَفْوَةِ رَبِّنَا وَحَدَانَا

واعلم أيها المؤمن المحب أنّ إيجاد الحلول والمعالجات لمشاكلنا الأسرية الداخلية منها والخارجية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، لن نجدها إلا في الدراسة الواعية ، وأقول : الواعية لسيرة الحبيب المصطفى ﷺ دراسةً علمية وعملية ، مع المحبة والأدب والتعظيم ، فبذلك سنتعرّف على الحلول والمخارج ، ونسَلِّم من المشاكل ، ونعيش بأمانٍ واطمئنان وصفاءٍ وانسجام ، ومحبة وسعادة وسلام.

وقد أكرمني الله ووفقني وأعانني بتفضّل منه بأن ألقيت من هُذا الكتاب المبارك مقتطفات ونماذج لبرنامج [هكذا تعامل النبي] والذي عُرضَ على قناة الإرث النبوي في شهر رمضان لعام ١٤٣٨ هـ الموافق ٢٠١٧م وقد اقتبست من هُذا الكتاب نماذج لكل الحلقات التي عُرضت ، ولكنها مختصرة جداً بِحُكم ضيق الوقت وقِلّته .. فلم أستطع الإتيان بكل التفاصيل والمواقف والقصص ونماذج تعامل النبي ﷺ مع كل فئة ونموذج ، وإنما اقتبست اقتباسات فقط ، وأما التفصيل لأغلب النماذج فهي هنا في هُذا الكتاب ..

والله أسأل أن يلهمني الرّشد دائماً فيما أدرك وأجمع وأكتب .. وأن يُمتّعني بنعمة الإخلاص لوجهه ، وأن يختم حياتي بأحبّ الأعمال إليه حتّى أرحل إليه وهو عني راضٍ ، وأسأل الله العلي العظيم الكريم ربّ العرش العظيم أن يكرمنا بالتوفيق والقبول ، وأن يرزقنا الإخلاص في أقوالنا وأفعالنا وفي ما كتبت ونقلت وجمعت ، وأن يجعل فيه النفع والانتفاع والإفادة والاستفادة للأمة كلها ، وأن يجعلنا من الذين أَحْيَوْا سُنَّةَ الْحَبِيبِ ﷺ وعملوا بها ظاهراً وباطناً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم .

الفقير إلى الله / أحمد عبد الملك أحمد محمد هزّبر ، العواضي: لقباً

٢٣ / محرم ١٤٤٢ هـ الموافق ١١ / ٩ / ٢٠٢٠ م.

القويرة / دوعن / حضرموت / اليمن .



خُطَّةُ الْكِتَابِ

كانت خطة هذا الكتاب كالتالي :

المبحث الأول : أهمية دراسة سيرة الحبيب المصطفى ﷺ .

المبحث الثاني : مختصرٌ من سيرة الحبيب محمد ﷺ .

المبحث الثالث : بعضٌ من صفات خَلْقِهِ وشمائله ﷺ .

المبحث الرابع : محبة الحبيب محمد ﷺ .

المبحث الخامس : الأخلاق النبوية ودعوة النبي ﷺ إلى مكارم الأخلاق .

المبحث السادس : الرسول القدوة ﷺ .

المبحث السابع : تعامل النبي ﷺ مع جميع شرائح المجتمع :

تعامله ﷺ مع أهل بيته ..

مع نسائه عليه أفضل الصلاة والسلام. تعامله ﷺ مع أولاده وبناته وأحفاده..

تعامله ﷺ مع أقاربه .. مع خدمه عليه أفضل الصلاة والسلام ..

تعامله ﷺ مع أهل بيته بشكلٍ عام تعامله ﷺ مع جيرانه .

تعامله ﷺ مع الأسير . تعامله ﷺ مع العصاة والمذنبين

تعامله ﷺ مع الأعراب .. تعامله ﷺ في الحرب ومع من يغزوهم

تعامله ﷺ مع المحاربين له .. تعامله ﷺ مع المنافقين ..

تعامله ﷺ مع اليهود والنصارى .. تعامله ﷺ مع المشركين ..

تعامله ﷺ مع أهل لا إله إلا الله .. تعامله ﷺ مع المسلمين الجدد ..

تعامله ﷺ مع من يريد قتله ..

تعامله ﷺ مع الحيوانات والجمادات ..

تعامله ﷺ مع ذوي الهيئات وكبار القوم

تعامله ﷺ مع الملوك ومخاطبته لهم ..

تعامله ﷺ مع ذوي الاحتياجات الخاصة

تعامله ﷺ مع اليتيم ..

تعامله ﷺ مع الأطفال وصغار السن ..

تعامله ﷺ مع الشباب ..

تعامله ﷺ مع كبار السن ..

تعامله ﷺ مع عموم النساء ..

تعامله ﷺ مع لغات الناس

تعامله ﷺ مع من يدعون إلى المواطنة بالعُنصرية

تعامله ﷺ مع الضيوف والمستضيفين ..

تعامله ﷺ مع الفقراء وكيف وجههم ..

تعامله ﷺ في المزاح والضحك ..

تعامله ﷺ مع أصحابه الكرام ﷺ

تعامله ﷺ مع النابغين ..

تعامله ﷺ مع المختلفين والمتنازعين من أصحابه.

المبحث الثامن : تعامله مع شجاعته ﷺ وقُوَّتِهِ في مواجهة الأعداء وغيرهم ..

الخاتمة ..





لدراسة السيرة النبوية أهمية عظيمة في مسيرة الحياة البشرية ؛ فإذا كان العظماء والقادة دائماً يحرصون على كتابة مذكراتهم وسيرهم الذاتية حتى يتلمس الناس في تلك السيرة مواطن الاقتداء والاستفادة ؛

فإن سيرة الحبيب محمد ﷺ هي أولى السير بالدراسة ، بل هي أعظم وأزكى السير ، يقول الشيخ العلامة محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله في كتابه : فقه السيرة :
وليس الغرض من دراسة السيرة النبوية وفهها ، مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية ، ولا سرد ما طرف أو جمل من القصص والأحداث ؛

وإنما الغرض منها : أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في حياته ﷺ وتكمن أهمية دراسة السيرة النبوية في النقاط الأساسية الآتية :

١ (التَّثْبُتُ والتوثق من سيرة الرسول ﷺ ، لأن سيرته ﷺ تُعدُّ رسماً لطريقه التي سلكها وقد أمرنا الله تعالى باتباع هديه ، فكان لابد من توثيق وإثبات كل ما ينسب إلى سيرة النبي ﷺ لأن ذلك أصل من أصول الدين .

لذلك امتلأ القرآن الكريم بذكر سير الأنبياء السابقين ، وقد ذكر الله تعالى الحكمة من ذلك في كثير من الآيات من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]. بعد أن ذكر الله تعالى تسعة عشر

رسولاً في آيات متتالية في سورة الأنعام ، أمر الرسول ﷺ بالافتداء بهديهم فقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنِهِمْ أقتَدِهٖ ﴾ [الأنعام ٩٠] .

(٢) معرفة رسول الله ﷺ معرفة شاملة ، كمعرفة : نسبه ومولده ونشأته ، وأسلوب دعوته من بعثته إلى وفاته ﷺ ، تلك المعرفة التي تورث القرب منه ، ومحبتة التي ينبغي أن تملأ بها القلوب بعد محبة الله ﷻ .

(٣) معرفة تفاصيل سيرته ﷺ حتى يمكن الاقتداء به في جميع شؤون الحياة ، حيث كانت سيرته تطبيقاً عملياً لأحكام الإسلام وشريعته ، حتى لا يظن ظان أن هذه الأحكام غير قابلة للتطبيق ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب ٢١] .

ولما سُئِلت سيدتنا عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول ﷺ قالت : [كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ] .

(٤) معرفة هديهِ ﷺ في الأمور كلها ، هديه في المنام والطعام والشراب والنكاح ، هديه في الحل والترحال هديه في السلم والحرب ، هديه في التعامل مع ربه ومع نفسه ومع المخلوقين ، هديه في التعامل مع الموافقين والمخالفين ، هديه في التربية والتعليم والدعوة والإرشاد ، هديه في كل ما يحتاجه البشر ، مما يترتب على ذلك محبته ﷺ وإتباعه والافتداء به ، وتلك عبادة واجبة لا بد منها ، وهي سبيل إلى الهداية ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاسُ الْمَيْتِ ﴾ [النور : ٥٤] .

(٥) أخذ الدروس والعبر ، التي تضيء للسالك الطريق ، وتوصله إلى بر الأمان ، تلك الدروس التي تؤخذ من سيرته ﷺ في جميع الأحوال ، ولجميع الفئات ، والوقوف على التطبيق العملي لأحكام الإسلام التي تضمنتها الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، وأيضاً الوقوف على دلائل معجزاته ﷺ ، مما يقوي الإيمان ويزيده .

٦) بيان ما كان عليه هَذَا القائد العظيم من صفات وشمائل ، فلم ولن تجد سيرة أحدٍ ممن خلق الله

تماثلها ، فضلاً عن أن تنافسها وتزيد عليها ، فهو قدوة في كل شيء يحتاجه الإنسان ، قال تَعَالَى : ﴿

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۗ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٧) معرفة الإسلام ، عقيدة ، وشريعة ، وأخلاقاً والاستعانة بدراسة السيرة في تفسير القرآن

الكريم ، وشرح السنة النبوية ، ومعرفة موقف الإسلام وتعامله مع جميع الناس من أهل وأقارب

وزوجة وولد وخادم و صديق وعدو ، مسلم وكافر ، معاهد وخائن وغير ذلك .

ومن جوانب أخرى نجد بعض الفوائد الهامة لدراسة السيرة وأهميتها وهي :

١) فهم شخصية الرسول ﷺ (النبوية) من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها ، للتأكد من أن

سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن عبقرية سميت به عبقريته بين قومه ، ولكنه رسولٌ أيده

الله بوحى من عنده وتوفيق من لدنه .

٢) أن يجد الإنسان في دراسة سيرته عليه الصلاة والسلام ما يعينه على فهم كتاب الله تَعَالَى

وتذوق روحه ومقاصده ، إذ إن كثيراً من آيات القرآن إنما تُفسَّرُها وتجليها الأحداث التي مرّت

برسول الله ﷺ ومواقفه منها .

٣) أن يتجمع لدى المسلم من خلال دراسة سيرته ﷺ ، أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية

الصحيحة ، سواء ما كان منها متعلقاً بالعقيدة أو الأحكام أو الأخلاق ، إذ لا ريب أن حياته عليه

الصلاة والسلام إنما هي صورة مجسدة نيّرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه .

٤) أن يكون لدى المعلم والداعية الإسلامية نموذج حيّ عن طرائق التربية والتعليم ، فلقد كان

سيدنا محمد ﷺ معلماً ناصحاً ومربياً فاضلاً لم يأل جهداً في تلمّس أجدى الطرق الصالحة إلى كل

من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته .

وإن من أهم ما يجعل سيرته ﷺ وافية بتحقيق هذه الأهداف كلها أن حياته عليه الصلاة والسلام شاملة لكل النواحي الإنسانية والاجتماعية التي توجد في الإنسان من حيث إنه فرد مستقل بذاته أو من حيث إنه عضو فعّال في المجتمع..

فحياته عليه الصلاة والسلام تُقدّم إلينا نماذج سامية للشباب المستقيم في سلوكه، الأمين مع قومه وأصحابه، كما تقدم النموذج الرائع للإسلام الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، الباذل منتهى الطاقة في سبيل إبلاغ رسالته، ولرئيس الدولة الذي يسوس الأمور بحذقٍ وحكمةٍ بالغة، وللزوج المثالي في حسن معاملته، وللأب في حنو عاطفته، مع تفريق دقيق بين الحقوق والواجبات لكل من الزوجة والأولاد، وللقائد الحربي الماهر والسياسي الصادق المحنك، للمسلم الجامع - في دقة وعدل - بين واجب التبعّد والتبتل لربه، والمعاشرة الفكاهة اللطيفة مع أهله وأصحابه .

لا جرم إذن، أن دراسة سيرة النبي ﷺ ليست إلا إبرازاً لهذه الجوانب الإنسانية كلها مجسدة في أرفع نموذج وأتم صورة^(١).

فِقْهُ الْعَلَاقَةِ بِالذَّاتِ النَّبَوِيَّةِ :-

يقول شيخنا العلامة المربي الحبيب / أبو بكر العدني ابن علي المشهور رحمه الله تعالى :

لابد أن نتعرف ونفهم علاقتنا بالذات النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ، لأن الذات النبوية هي مصدر التشريع والقُدوة الحسنة للأمة ومرجعية النُّسك والأخلاق والمواقف .

فالنظر في فقه الذات النبوية واجب ومُتحتّم ، ولا يزال علماء الملة منذ قرون البعثة والرسالة وهم يحدون الناس ويُفَقِّهونهم فيما يجب علمه عليهم نحو الذات النبوية من المحبة والاعتداء والولاء ، وصدق الخدمة في الدين ، باتباع الأوامر واجتناب النواهي وبذل المعروف وأداء

(١) منقول بشيء من التصرف من كتاب: فقه السيرة للشيخ العلامة مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي رحمه الله.

الحقوق ودراسة نسب النبي وشرف محتده وفضل الصلاة والتسليم عليه وزيارة قبره ومسجده وغيرها من المآثر المعبرة عن الشرف الموهوب له من مولاه .

إن جزءاً من حوادث السيرة بيّنت موقف العديد من الكائنات كالجدع والحجر والشجر من شرف الذات النبوية ، وأبرز بإذن الله سر الانفعال الوجداني المعبرة عن عمق التعلق والحب له عليه الصلاة والسلام حتّى في غير بني الإنسان .. وهذا نوعٌ خاص من فقه التحول وسنن المواقف .
ولهذا فإن من كوارث العصر الفصل بين الكتاب والسنة وثمراتها وبين الذات النبوية ..
ودراسة الخصوصيات الموهوبة .. وهذا ما تعانيه المدارس الإسلامية المعاصرة سواءً كانت أكاديمية أو مؤسسات تعليمية وثقافية ^(١) .





لابد لنا قبل أن نتحدث عن تعامل النبي ﷺ مع أسرته ومجتمعه ومن يحيطون به ، وقبل أن نذكر الاقتداء به وأهمية ذلك ..

فإننا لابد علينا بادئ ذي بدءٍ أن نعرف سيرته وحياته العظيمة ، وشأنه الكريمة .
 فإذا أردنا أن نعرف ونوضح مكانته ﷺ ، فإننا سنجد الكثير والكثير من الفضائل ، ولكننا سنبدأ من حيث يجب أن تكون البداية ، وسنعرّف بنسب هذا النبي الكريم ﷺ وبعضاً من سيرته على حسب التاريخ الزمني لحياته ﷺ الذي جاء إلى الدنيا حاملاً لها الخير والسعادة والقيم والفضائل ، وباختصارٍ أيضاً ، هذا النبي الكريم الذي سطعت شمس رسالته على العالم أجمع ، فأضاءت ظلمات غلفت النفوس لسنوات طوال ، هذا الإنسان الكامل الذي أراد للإنسانية أن تعيش في رحابة الأخلاق، وتحرر من قيد الرذائل والمعاصي ﷺ .

نَسَبُهُ الشَّرِيفُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ :

هو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شَيْبَةَ - بن هاشم - واسمه عمرو بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قُصَيٍّ - واسمه زيد - بن كِلَابِ بن مُرَّةَ بن كَعْبِ بن لُؤَيِ بن غالب بن فِهْرٍ - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النَّضْرِ - واسمه قيس - بن كِنَانَةَ بن حُزَيْمَةَ بن مُدْرِكَةَ - واسمه عامر - بن إلياس بن مُضَرَ بن نِزَارِ بن مَعَدِّ بن عدنان (١) .

(١) الرحيق المختوم - (ج ١ / ص ٣١) .

وأُمه آمنَة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب .

ولد سيد المرسلين محمد ابن عبد الله ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر وقيل : التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل .

وَرَوَى ' ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ آمنَة بنت وهب قالت : لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام . وَرَوَى ' أحمد والدارمي وغيرهما قريباً من ذلك .

وقد روي أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كِسْرَى ، وخذت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، ^(١) ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له ، واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفاً في العرب - وَخَتَنَهُ يوم سابعه كما كان العرب يفعلون .

وأول من أرضعته من المراضع - وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع - ثُوَيْبَة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له : مَسْرُوح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي في بني سعد .

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر؛ ولتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، وهي حليلة بنت أبي ذؤيب - عبد الله بن الحاث - وزوجها الحارث ابن عبد العزى - المكنى بأبي كبشة - من نفس القبيلة .

(١) رَوَى ذلك الطبري والبيهقي وغيرهما .

وإخوته عليه السلام هناك من الرضاعة : عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث [وهي الشيباء ؛ لقب غلب على اسمها] وكانت تحضن رسول الله عليه السلام ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله عليه السلام وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله عليه السلام يوماً وهو عند أمه حليلة، فكان حمزة رضيع رسول الله عليه السلام من جهتين، من جهة ثوية ، ومن جهة حليلة السعدية ، وأقام عند حليلة السعدية إجمالاً أربعة أعوام .

وفي السنة الخامسة من ميلاده عليه السلام : عادت به حليلة السعدية إلى أمه في مكة المكرمة .

وفي السنة السادسة من ميلاده عليه السلام : خرج مع أمه إلى المدينة المنورة - التي كانت تُسمى يثرب - وذلك لزيارة أخواله من بني النجار ومكثت شهراً ثم رجعت قاصدة مكة المكرمة فماتت بالطريق بمكان يُسمى (الأبواء) ما بين مكة والمدينة ، فعاد النبي عليه السلام يتيم الأبوين ، فكفله جده عبد المطلب ورعاه حق الرعاية .

وفي السنة السابعة من ميلاده عليه السلام : وفد جده عبد المطلب على سيف بن ذي يزن الحميري فأخبره سيف والكهان بنبوة محمد عليه السلام .

وفي السنة الثامنة من ميلاده عليه السلام : مات جده عبد المطلب سيد قريش وكفله عمه أبو طالب .

وفي السنة الثالثة عشرة من ميلاده عليه السلام : خرج به عمه أبو طالب إلى (الشام) فلما بلغوا : (بصرى) رآه بحيرى' الراهب فتحقق فيه صفات النبوة فأمر عمه برده فرجع به إلى مكة المكرمة .

وفي السنة الرابعة عشرة من ميلاده عليه السلام : كانت حرب الفجار بين قريش وهوازن وكانت الدائرة لهوازن على قريش فشهداها النبي عليه السلام ، مع قومه يوماً فانقلبت الدائرة لقريش على هوازن ثم عقدت قريش حلف الفضول لنصرة المظلوم فشهده مع قومه .

وفي السنة الخامسة والعشرون من ميلاده ﷺ : خرج ﷺ مع ميسرة - غلام السيدة خديجة عليها السلام - في تجارة لها فرآه نسطور - بفتح النون - الراهب فقال :

(أشهد أن هَذَا نبي وأنه آخر الأنبياء) ، فلما رجعا أخبرها ميسرة بذلك وبما شاهد منه ﷺ فخطبته إلى نفسها فتزوجها وكان عمرها أربعين عاماً ، وعمره ﷺ خمسةً وعشرون عاماً .

وفي السنة الخامسة والثلاثين من ميلاده ﷺ :

بَنَتْ قريش الكعبة ووضع ﷺ الحجر الأسود في مكانه .

وفي السنة الثامنة والثلاثين من ميلاده ﷺ : حُبب الله إليه الخلوة فكان يخلو بغار :

(حراء) ثم كان يَرَى الأنوار ويسمع الهوائف ، وكانت تُسَلِّم عليه الأحجار والأشجار وقبل مبعثه ﷺ بستة أشهر كان وحيه مناما وكان لا يَرَى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح - أي الصبح المفلوق - .

ولما بلغ ﷺ أربعين سنة من ميلاده : جاءه جبريل عليه السلام بالوحي من ربه ﷻ بسورة اقرأ ثم

القلم ثم المدثر ثم المزمل فكان في أول أمره يدعو الناس إلى الله ﷻ سراً حَتَّى أنزل الله عليه : ﴿

فَأصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] . أي شق جموعهم بالتوحيد فأظهر الدعوة

وفي السنة الخامسة من مبعثه ﷺ : هاجر جماعة من الصحابة منهم : عثمان والزبير وعبد

الرحمن وجعفر ~~عليهما السلام~~ ومن معهم إلى (الحبشة) فأقاموا بها عشرة سنين .

وفي السنة السادسة من مبعثه ﷺ : أسلم حمزة وعمر ~~عليهما السلام~~ فعزَّ بإسلامهما الإسلام .

وفي السنة السابعة من مبعثه ﷺ لمستهل المحرم منها : تعاهدت قريش على قطيعة بني

هاشم إلا أن يسلموا إليهم النبي ﷺ ووبرؤوا منه وكتبوا بذلك بينهم صحيفة وعلقوها في الكعبة

، فاعتزل بنو هاشم بن عبد مناف وتبعهم إخوانهم بنو المطلب بن عبد مناف مع أبي طالب إلى

شعب أبي طالب فأقاموا به نحو ثلاثة سنين إلى أن سَعَى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف

وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد في نقض الصحيفة فخرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشعب في أواخر السنة التاسعة .

وفي السنة العاشرة من مبعثه ﷺ : مات عم النبي ﷺ أبو طالب ثم ماتت بعده السيدة خديجة عليها السلام بثلاثة أيام فحزن النبي ﷺ لموتها حزناً شديداً ، ونالت قريش منه ﷺ ما لم تكن تناله في حياة عمه أبي طالب فخرج النبي ﷺ إِلَى (الطائف) وأقام بها شهراً يدعو ثقيفاً إِلَى الله تَعَالَى ، فردوا عليه قوله وأغروا به عند انصرافه سفاءهم فرجع إِلَى (مكة) فلم يدخلها إلا بجوار المطعم بن عدي .

وفي السنة الحادية عشرة اجتهد ﷺ : في عرض نفسه عَلَى القبائل في الموسم ، فأمن به ستة من رؤساء الأنصار ورجعوا إِلَى (المدينة) ففشا فيها الإسلام .

وفي السنة الثانية عشرة من مبعثه ﷺ - وقيل في السنة العاشرة - في رجب منها أو رمضان أسرى به مولاة من المسجد الحرام إِلَى المسجد الأقصى ثم إِلَى سدره المنتهى وفي تلك الليلة فرض الله عليه وعلى أمته الخمس صلوات .

وفي آخر تلك السنة في الموسم وافاه اثنا عشر رجلاً من الأنصار بـ (العقبة) ليلاً فبايعوه بيعة النساء المذكورة في قوله تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ [المتحنة: ١٢] .، وبعث معهم مصعب بن عمير يُقرئهم القرآن ، فأسلم عَلَى يديه السعدان : سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج فأسلم لإسلامهما كثير من قومها .

وفي السنة الثالثة عشرة من مبعثه ﷺ في آخرها في الموسم وافاه سبعون رجلاً من مسلمي الأنصار فبايعوه عند (العقبة) أيضاً عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ إِنْ هَاجَرُوا إِلَيْهِمْ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ ونساءهم وأبنائهم وأخرجوا له اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ثم رجعوا

إِلَى (المدينة) فأمر النبي ﷺ حينئذ أصحابه بالهجرة إِلَى (المدينة) فهاجروا إليها وأقام ﷺ ينتظر الإذن من ربه تَعَالَى في الهجرة وحبس معه علياً وأبا بكر رضي الله عنهما فاجتمعت قريش في دار الندوة للمشاورة في أمر النبي ﷺ فأجمعوا عَلَى قتله فنزل جبريل عليه السلام بالوحي من عند الله تَعَالَى فأخبره بذلك وأمره بالهجرة إِلَى (المدينة) فهاجر إليها وذلك في أواخر صفر من السنة المذكورة الرابعة عشرة لتام ثلاث عشرة من مبعثه ﷺ .

ودخل ﷺ من عوالي (المدينة) يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول فلبث في (قباء) عند بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وبنَى فيها مسجد (قباء) ثم انتقل فنزل في بني النجار أحوال جده عبد المطلب في منزل أبي أيوب الأنصاري شهراً إِلَى أن بنَى مسجده الشريف ومساكنه ، وفي تلك السنة وهي الأولى من سنين الهجرة شرع الأذان .

وفي أول السنة الثانية من هجرته ﷺ أو آخر الأولى نزل قوله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَجٍ يُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ١١] . فأمر بالجهاد .

وفي السنة الثانية في رجب من هجرته ﷺ : نزل قوله تَعَالَى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] . فحوّلت القبلة إِلَى الكعبة بعد أن صَلَّى النبي ﷺ إِلَى بيت المقدس نحو ستة عشر شهراً .

وفي شعبان منها أي السنة الثانية من هجرته ﷺ نزل قوله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] . ففرض صوم رمضان وفرض فيه ﷺ صدقة الفطر .

وفيها أيضاً (أي السنة الثانية) من هجرته ﷺ - في يوم الجمعة السابع عشر من رمضان كانت وقعة (بدر) الكبرى وهي يوم الفرقان يوم ألتقى الجمعان ونزلت سورة الأنفال في قسمة غنائمها .

وفيها - (أي السنة الثانية) - بعد (بدر) أمر النبي ﷺ بقتل كعب ابن الأشرف الطائي وأمه من بني النضير وهو في حصن من (يثرب) فقتله خمسة من الأوس عليهم محمد بن مسلمة .

ثم أمر ﷺ بقتل أبي رافع بن أبي الحقيق وهو في حصن بـ (خيبر) فقتله سبعة من الخزرج عليهم عبد الله بن عتيك وكان قتلهم بسبب تحريضهم للمجتمع والقبائل ضد المسلمين .

- وفيها - (أي السنة الثانية) - نقضت يهود (المدينة) - بنو قينقاع رهط عبد الله بن سلام الخبر الإسرائيلي - العهد فحاصروهم النبي ﷺ حَتَّى نزلوا عَلَى حكمه فاستوهبهم منه عبد الله بن أبي ابن سلول وكانوا حلفاء فوهبهم له .

وفي السنة الثالثة من هجرته ﷺ : في شوال في اليوم الخامس عشر منه كانت وقعة أحد فأكرم الله تعالى فيها من أكرم بالشهادة ومنهم حمزة هَيْبَتُهُ ، ونزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٢١] .

وفيها - (أي السنة الثالثة) من هجرته ﷺ - بعد أحد بعث النبي ﷺ عاصم بن ثابت في عشرة عيناً فلما كانوا في بعض الطريق بـ الرجيع ، وهو ماء لهذيل بين عسفان وممر الظهران ، ظفر بهم بنو لحيان بعد أن أعطوهم العهد بالأمان فقتلوا منهم ستة وهرب اثنان وأسروا اثنين وهما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فباعوهما بـ (مكة) لقريش فأشتروهما وقتلوهما .

وفيها أيضاً أي السنة الثالثة من هجرته ﷺ - بعد (أحد) بعث النبي ﷺ مع عامر بن مالك العامري - ملاعب الأسيئة - سبعين رجلاً وهم القراء بجواره فقتلهم قبائل سليم - عصية ورعل وذكوان - وأخفروا جوار عامر بن مالك فقتت النبي ﷺ يدعو عليهم وَعَلَى بني لحيان

وكانوا أطلقوا عمرو بن أمية الضمري فلما رجع وجد اثنين من بني عامر قتلها ومعها جوار من النبي ﷺ لم يعلم به فوداهما النبي ﷺ .

وفيها أو في الرابعة قصد النبي ﷺ بني النضير ليستعينهم في دية الرجلين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري فاستند إلى جدار حصن لهم فهموا بطرح حجر عليه فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقام موهماً لهم أنه غير ذاهب ثم صبحهم ﷺ بالجيش فجلاهم إلى : (الشام) وفيهم نزلت سورة الحشر : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ [الحشر: ٢] . إلى آخرها فجلوا إلى (الشام) إلا حبي بن أخطب فلحق بخيبر .

وفي السنة الرابعة من هجرته ﷺ : خرج النبي ﷺ بأصحابه في شهر رمضان في موعد له مع أبي سفيان يوم (أحد) إلى (بدر) فلم يأته أبو سفيان وقومه فرجع النبي ﷺ .

وفيها - أي السنة الرابعة - من هجرته ﷺ : كانت غزوة ذات الرقاع فخرج ﷺ إلى (نجد) يريد غطفان فالتقى بهم ولم يكن قتال فنزلت :

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ [النساء: ١٠٢] .

فصلوا صلاة الخوف ولما قفل ﷺ منها - أي رجع - نام تحت - شجرة وقت القيلولة وتفرق عنه الناس وعلق سيفه بالشجرة فهم غورث بن الحارث بقتله به فعصمه الله منه ونزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ [المائدة: ١١] . في ذلك أو في قصة بني النضير .

وفي السنة الرابعة أيضاً من هجرته ﷺ : بلغه أن بني المصطلق من خزاعة أجمعوا لحربه فخرج ﷺ إليهم حتى لقيهم بـ (المريسيع) وهو ماء لهم من ناحية (قديد) وهو مكان بين (مكة والمدينة) فهزمهم وسبى أموالهم وذرايعهم واصطفى منهم أم المؤمنين جويرية بنت الحارث المصطلقية ولما قفل ﷺ منها ازدحم المهاجرون والأنصار على ماء وكان من أمر عبد الله بن

أبي ابن سلول ما كان من قوله: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. فنجم نفاقه - أي ظهر - ونزلت فيه سورة: (المنافقون).

ولما دنا ﷺ من (المدينة) تخلفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن الجيش ليلاً في قضاء حاجة لها فَرَحَلُوا هودجها ولم يشعروا بها فقال فيها أهل الإفك ما قالوا ونزلت عشر الآيات من سورة النور في تبرئتها مما قالوا فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

وفي السنة الخامسة - من هجرته ﷺ - كانت وقعة الخندق - وهي الأحزاب أيضا - في شوال سنة خمس بعد غزوة (بدر) الصغرى وكان المشركون فيها أحد عشر ألفا واشتد الحصار على أهل (المدينة) ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ كما حكى الله عنهم وكانت مدة الحصار نحو شهر ثم كشف الله عنهم بما ذكره في قوله: ﴿فَآرَسْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَّجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

ونزلت سورة الأحزاب ووقع في أيام (الخندق) ما وقع من معجزاته ﷺ الباهرة كحديث الكدية التي اعترضت فهدَّها النبي ﷺ بالمعول وحديث جابر حيث دعا النبي ﷺ خامس خمسة إلى عناق وصاع من شعير فأشبع من ذلك جيش الخندق كله وهم ألف فأكثر وحديث أبي طلحة حيث بعث أنسا بأقراص تحت إبطه فأشبع منها ﷺ ثمانين رجلاً جِيعاً، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

وكانت بنو قريظة معاهدين له ﷺ فنقضت العهد في مدة الحصار وأعانوا المشركين فلما هزم الله الأحزاب وانقضى الحصار جاء جبريل عليه الصلاة والسلام إلى النبي ﷺ وقت القيلولة فأمره بالخروج إليهم فخرج ﷺ فحاصرهم فأرسلوا إلى أبي لبابة رضي الله عنه يستشرونه فكان من أمره رضي الله عنه ما كان فلما اشتد بهم الحصار نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه وكانوا حلفاءه وكان

قد أصيب بسهم يوم (الخندق) فحكّم فيهم بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذرائعهم وقسمة أموالهم فقال ﷺ لقد وافقت حكم الله تعالى ثم مات ﷺ فاهتز العرش لموته ﷺ فرحاً بقدوم روحه .

وفي السنة السادسة من هجرته ﷺ : زوجه الله تعالى زينب بنت جحش أم المؤمنين ﷺ كما نطق به القرآن : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفيها - أي السنة السادسة أيضاً - من هجرته ﷺ : خرج ﷺ معتمراً في ذي القعدة فصدته قريش عن البيت فوعدت بيعة الرضوان ثم صلح الحديبية لوضع الحرب عشر سنين ، وفيه أنه لا يأتيه أحد مسلماً إلا رده إليهم ، وأن بني بكر في صلحهم وخزاعة في صلحه ﷺ وألا يدخل مكة إلا من عام قابل فنحر هديه وحلق ورجع ﷺ ونزلت سورة الفتح:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨].

وفيها - أي السنة السادسة - من هجرته ﷺ : انفلت أبو بصير إلى (المدينة) مسلماً فرده النبي ﷺ فقتل واحداً من الرجلين اللذين رجعا به وانفلت فلاحق بسيف البحر فانفلت إليه أبو جندل بن سهيل بن عمرو ورجال من المسلمين المستضعفين بـ (مكة) فاجتمعت منهم عصابة فقطعوا سبيل قريش إلى (الشام) حتى سألت قريش من النبي ﷺ أن يضمهم إليه ومن جاء فهو آمن فضمهم إليه .

وفي السنة السابعة - من هجرته ﷺ : أسلم جماعة من رؤساء قريش منهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد بعد أن أسلم عمرو بـ (الحبشة) على يد النجاشي .

وفيها - أي السنة السابعة - من هجرته ﷺ : - أرسل النبي ﷺ رسله بكتبه إلى ملوك الأقاليم ، ومنهم عبد الله بن حذافة السهمي بعثه بكتابه إلى كِسْرَى فمزقه ، فدعا عليهم أن يُمَزَّقُوا كل ممزق ؛

ومنهم دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه بعثه بكتابه إلى قيصر ملك الروم فوجد عنده أبا سفيان فاستدعاه قيصر فسأله عن صفات النبي ﷺ وشرائع دينه فأخبره أبو سفيان بها فاعترف قيصر بنبوته ﷺ ولم يوفق للإسلام لعدم مساعدة جنوده له مع شقاوته فوقع الإسلام من يومئذ في قلب أبي سفيان .

وفي السنة السادسة وبعض أهل السير يذكر أنها في السنة السابعة : في المحرم منها افتتح النبي ﷺ (خيبر) بعد أن حاصرهم سبع عشرة ليلة ثم قسم أموالهم نصفين نصفاً لنوائبه ونصفاً بين المسلمين وقدم عليه جعفر فيمن بقي من مهاجرة (الحبشة) رضي الله عنه فأسهم لهم وأهدت إليه اليهودية الشاة المصلية - أي المشوية - المسمومة فأخبره الذراع بذلك ؛

وإصطفى رضي الله عنه من سبايا (خيبر) أم المؤمنين صفية بنت حُبي الإسرائيلية الهارونية رضي الله عنها .

وفي ذي القعدة منها - أي السنة السابعة من هجرته ﷺ : - اعتمر رضي الله عنه عمرة القضاء وأقام بـ (مكة) ثلاثاً ثم رجع فدخل رضي الله عنه بميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين رضي الله عنها خالة ابن عباس وذلك ليلة منصرفه من (مكة) بـ (سرف) وهو بين (التنعيم ومر الظهران) وبذلك المكان كان موتها وقبرها رضي الله عنها .

وفي السنة السابعة أيضاً من هجرته ﷺ : اتخذ له المنبر رضي الله عنه وكان من قبل يخطب إلى جذع نخلة فحن إليه الجذع حتى مسح عليه وضمه إليه .

وفيها _ أي السنة السابعة أيضاً - في رجب من هجرته ﷺ : قَدِمَ عليه وفد عبد القيس يسألونه عن الإسلام ورئيسهم الأشج فأتى عليه النبي ﷺ وعليهم خيراً .

وفي السنة الثامنة من هجرته ﷺ : في جمادى الأولى منها كانت غزوة مؤتة : وهي قرية من قُرَى (البلقاء) من أرض (الشام) فأكرم الله فيها جعفرًا وزيداً وابن رواحة وجماعة رضي الله عنهم بالشهادة

ثم أخذ الراية خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتح الله على يديه وانحاز بالمسلمين وكانوا ثلاثة آلاف وكان هرقل ملك الروم في مئتي ألف .

وفيها - أي السنة الثامنة أيضاً - من هجرته ﷺ: في رمضان كان فتح (مكة) وسبب انتفاض الصلح أن قريشاً أعانت حلفاءهم (بني بكر) على (خزاعة) حلفاء النبي ﷺ فقدم أبو سفيان (المدينة) يطلب من النبي ﷺ صلحاً فلم يجبه إليه فرجع وقدم عمرو بن سالم الخزاعي الكعبي يستنصر النبي ﷺ على قريش فأجابته إلى ذلك وتجهز النبي ﷺ إلى مكة في عشرة آلاف فلما بلغ (الجحفة) على ثلاث مراحل من (المدينة) لقيه عمه العباس رضي الله عنه مهاجراً بأهله فرده معه وكان قد أسلم بعد (بدر) واستأذن النبي ﷺ في أن يقيم بـ (مكة) على سقاية الحاج فأذن له .

ولقيه أيضاً ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد أقبل مسلماً معتذراً مما كان جرى منه فرده معه وأخذ الله العيون على قريش بدعوته ﷺ فلم يشعر أحد بخروجه ﷺ إليهم فلما بلغ (مَرَّ الظهران) أدركت العباس الرقة على قومه فركب بغلة النبي ﷺ بإذنه ليخبرهم أن يأخذوا أماناً منه ﷺ فلقي أبا سفيان بن حرب في نفر من قريش خرجوا يتطلعون وذلك في الليل فردهم إلى (مكة) وأتى بأبي سفيان إلى النبي ﷺ فأسلم ثم أصبح ﷺ فدخل (مكة) ضحى من أعلاها وذلك لعشر بقين من رمضان وأقام بها ثمانية عشر يوماً يقصر الصلاة .

ثم بلغه أن (هوازن) اجتمعت لحربه في أربعة آلاف عليهم مالك بن عوف النصري فخرج ﷺ إليهم لعشرين من شوال في عشرة آلاف جيش الفتح وألفين ممن أسلم يوم الفتح فكانوا اثني عشر ألفاً فأعجبتهم كثرتهم فقالوا :

لن نغلب اليوم من قلة فلم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ووجدوا المشركين قد كمنوا لهم في شعاب (حنين) وهو واد بين (مكة والطائف) فلما توسط المسلمون فيه شدوا عليهم ورشقوهم بالنبل وكانوا رماة فانهزم المسلمون وثبت النبي ﷺ في جماعة فنزل عن بغلته وأخذ كفاً من الحصى

فرمى به في وجوه المشركين فانهمزوا ونصر الله المسلمين فغنموا ذراريهم وأموالهم وكانوا قد جعلوهم معهم ليقاتلوا دونهم فانهمز منهم طائفة عليهم دريد بن الصمة وساقوا المال والذراري فأدركهم أبو عامر الأشعري في سرية بـ (أوطاس) ؛

فهزموهم بعد أن قتل أبو عامر رضي الله عنه ولحق أكثرهم بـ (الطائف) فتوجه النبي ﷺ إلى (الطائف) وقاتلهم قتالاً شديداً وحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة فلم يظفر بهم فدعاهم بالهداية ورجع فأتوه بعد رجوعه إلى (المدينة) مسلمين على يدي مالك بن عوف .

ولما قفل ﷺ من (الطائف) قسم غنائم (حنين) بـ (الجرعانة) - على مرحلتين من مكة ثم أحرم منها بعمره وذلك في ذي القعدة فدخل (مكة) ففضى نسكه ثم رجع إلى (المدينة) فدخلها في آخر ذي القعدة فولد له ﷺ في ذي الحجة إبراهيم وعاش ثلاثة أشهر ثم مات وانكسفت الشمس يوم موته وذلك وقت الضحى في أول ربيع من سنة تسع ، فقال الناس: انكسفت الشمس لموت إبراهيم ، فجمع ﷺ الناس وصلى بهم صلاة الكسوف ثم خطب فقال «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْرَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ» (١) .

وفي السنة التاسعة من هجرته ﷺ : دخل الناس في دين الله أفواجا كما أخبر الله تعالى بذلك وجعله علما على وفاته ﷺ .

ووفدت عليه الوفود فمنهم وفد (بني حنيفة) في جمع كثير عليهم مسيلمة الكذاب وأبى أن يسلم إلا أن يجعل له النبي ﷺ الأمر من بعده ورجع خائبا ومنهم وفد (نجران) وكانوا نصارى فحاجوه في عيسى عليه الصلاة والسلام أنه ابن الله لكونه خلقه من غير أب فنزلت : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] . - أي من غير أم ولا أب - ونزلت

(١) رواه أحمد في المسند وابن ماجه وغيرهما ..

آية المبالهة - أي الملاعنة - ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾
فقال لهم رئيساهم - السيد والعاقب - لا تفعلوا ثم صاحوه على الجزية وقالوا ابعث معنا رجلاً
أميناً فقال ﷺ: «لَا بَعَثَنَّ مَعَكُمْ أَمِينًا» .

فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ»
فأرسله معهم .

ومنهم وفود (اليمين) فأسلموا فقال ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرْقُ قُلُوبًا، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، الْفِقْهُ
يَمَانٍ، الْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ»^(١) .

وبعث معهم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما وقدم عليه كعب بن زهير رضي الله عنه وكان
النبي ﷺ قد أهدر دمه لشعر عرض فيه بالنبي ﷺ فأسلم واعتذر إليه مما كان منه وأنشده في
المسجد قصيدته المشهورة (بانت سعاد) فقبل عذره وكساه برده رضي الله عنه .

وفيها - أي السنة التاسعة أيضاً من هجرته ﷺ: - كانت غزوة (تبوك) إلى الشام
لقتال الروم فخرج ﷺ في سبعين ألفاً من المسلمين وخلف على (المدينة) علياً كرم الله وجهه
وعلياً رضي الله عنهما فقال أتخلفني في الصبيان والنساء فقال ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ
مُوسَى غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(٢) .

فلما بلغ (تبوك) وهي أدنى بلاد الروم أقام بها بضع عشرة ليلة ولم يلق عدواً وصالح جملة من
أهل تلك الناحية على الجزية ثم رجع إلى (المدينة) .

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه وغيره .

وجاء المنافقون يعتذرون إليه لتخلفهم عنه وقد سماه الله جيش العسرة وحلفوا له بالكذب

فقبل عذرهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى ففضحهم الله تعالى بما أنزله في سورة براءة كقوله :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنۡ ءَاتٰنَا مِنْ فَضْلِهٖ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتٰهُمْ مِّنۡ فَضْلِهٖ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيۡ قُلُوْبِهِمْ اِلَىۡ يَوْمٍ يَلْقَوْنَهٗۤ اِمْۡاَ اَخْلَفُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴾ [التوبة: ٧٧]. وغير ذلك فسميت الفاضحة ؛

وأما الثلاثة الذين خلفوا وصدقوه واعترفوا بأنهم لا عذر لهم فأخّر أمرهم إلى قضاء الله تعالى فيهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن الربيع فتاب الله عليهم فسميت سورة التوبة .. وفيها - أي السنة التاسعة أيضاً - من هجرته ﷺ :

في رجب نعى لهم النبي ﷺ النجاشي ، وصلى عليه في المصلى جماعة .

وفي خاتمة هذه السنة - أي السنة التاسعة - من هجرته ﷺ :

أمر النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يحج بالناس فسار بهم ثم بعث بعده علياً كرم الله وجهه و عليه السلام ليبرأ من المشركين بصدر سورة براءة يوم الحج الأكبر فنبذ إلى كل مشرك عهده .

وفي السنة العاشرة من هجرته ﷺ : حج الحبيب المصطفى ﷺ حجة الوداع وحج بأزواجه كلهن وبخلق كثير ، فحضرها من الصحابة مئة وأربعة وعشرون ألفاً ، وقيل أربعون ، وقيل تسعون ألفاً رضي الله عنهم .

فودّع النبي ﷺ الناس وحذرهم وأنذرهم وقال : « إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَآءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا فِي بَلَدِكُمْ هَٰذَا فِي شَهْرِكُمْ هَٰذَا ، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ ؟ » . قالوا : نَعَمْ . قَالَ : « اللّٰهُمَّ اشْهَدْ » . ثُمَّ قَالَ : « وَيَلِكُمْ - أَوْ وَيَحْكُمُ - انظُرُوا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » .

ثم قفل النبي ﷺ إلى (المدينة) فدخلها في أواخر ذي الحجة فلبث بها المحرم وصفر ثم أمر الناس في أول ربيع بالجهاد إلى (الشام) وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه فأخذوا في

جهازهم فمرض النبي ﷺ وثقل مرضه فأقاموا ينتظرون أمره فتوفي ﷺ لتام عشر سنين من هجرته في السنة الحادية عشرة ضحى يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول في الوقت واليوم والشهر الذي دخل فيه (المدينة) .

ودفن يوم الثلاثاء بعد العصر ﷺ وزاده الله فضلاً وشرفاً لديه^(١) .



(١) باختصار وتصرف نقلاً من سيرة ابن هشام وحدائق الأنوار ومطالع الأسرار لبحرق الشافعي والرحيق المختوم وفقه السيرة للبوطي والغزالي .



إليك أخي الكريم بعضاً من صفات الحبيب ﷺ الخلقية المروية عن سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما الذي رواه عن خاله هند بن أبي هالة لكي نتعرف على بعض من صفاته ﷺ لعل الله أن يكرمنا بمشاهدة طلعه النورانية في الدنيا والآخرة آمين .

عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَأَلْتُ خَالَيَ هِنْدَ بْنَ أَبِي هَالَةَ وَكَانَ وَصَافًا عَنِ حَلِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا اشْتَهِي أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيْئًا اتَّعَلَّقُ بِهِ، فَقَالَ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، «فَحْمًا مَفْحَمًا ، يَتَلَأَأُ وَجْهُهُ تَلَأُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، أَطْوَلَ مِنَ الْمَرْبُوعِ ، وَأَقْصَرَ مِنَ الْمَشْدَبِ ، عَظِيمَ الْهَامَةِ ، رَجَلَ الشَّعْرِ إِنْ انْفَرَقَتْ عَقِيْقَتُهُ فَرَقَ ، وَإِلَّا فَلَا يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ ، إِذَا هُوَ وَفْرَةٌ ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ ، وَاسِعَ الْجَبِينِ ، أَزَجَّ الْحَوَاجِبِ ، سَوَابِغٍ فِي غَيْرِ قَرْنٍ بَيْنَهُمْ ، عِرْقٌ يُدْرُهُ الْغَضَبُ ، أَقْنَى الْعَرْنَيْنِ ، لَهُ نُورٌ يَعْلُوهُ ، يُحَسِّبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْهُ أَشَمَّ كَثَّ اللَّحْيَةِ ، سَهْلَ الْحَدَّيْنِ ، صَلِيْعَ الْفَمِ ، أَشْنَبَ مُفْلَجِ الْأَسْنَانِ .

دَقِيْقَ الْمَسْرِيَّةِ ، كَانَ عُنُقُهُ جَيِّدَ دُمِيَّةٍ فِي صَفَاءِ الْفِضَّةِ ، مُعْتَدِلَ الْحَلْقِ ، بَادِنًا مُتَمَاسِكًا ، سَوَاءَ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ ، عَرِيضَ الصَّدْرِ ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ ، ضَخْمَ الْكَرَادِيْسِ ، أَنْوَرَ الْمُتَجَرِّدِ ، مَوْصُولَ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ وَالسَّرَّةِ بِشَعْرٍ يَجْرِي كَالْخَطِّ ، عَارِيَّ الشَّدِيْنِ وَالْبَطْنِ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، أَشَعَرَ الذَّرَاعِيْنِ ، وَالْمَنْكِبَيْنِ وَأَعَالِي الصَّدْرِ ، طَوِيْلَ الزَّنْدَيْنِ ، رَحْبَ الرَّاحَةِ ، شَنَّ الْكُفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، سَائِرٌ أَوْ سَائِلٌ يَعْنِي الْأَطْرَافَ .

خَمْصَانَ الْأَخْصَيْنِ ، مَسِيحَ الْقَدَمَيْنِ يَبُوءُ عَنْهُمَا الْمَاءُ ، إِذَا زَالَ قَلْعًا ، يَخْطُو تَكْفُؤًا وَيَمْشِي هَوْنًا إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ وَإِذَا التَّفَّتْ : التَّفَّتْ جَمِيعًا ، خَافِضَ الطَّرْفِ ، نَظَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، جُلَّ نَظَرِهِ الْمُلَاحَظَةَ ، يَسُوقُ أَصْحَابَهُ ، يَبْدُرُ مَنْ لَقِيَ بِالسَّلَامِ . قَالَ : قُلْتُ : صِفْ لِي مَنْطِقَهُ ؟

قَالَ : كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، «مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ ، دَائِمَ الْفِكْرِ ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ ، طَوِيلَ السَّكْتِ ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ ، يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ ، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، فَضُولَ ، لَا فَضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ ، دِمْتَ ، لَيْسَ بِالْجَافِي وَلَا الْمُهِينِ ، يُعْظِمُ النِّعْمَةَ ، وَإِنْ دَقَّتْ ، لَا يَدُمُّ مِنْهَا شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَدُمُّ ذَوَاقًا وَلَا يَمْدَحُهُ ، لَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا ، وَلَا مَا كَانَ لَهَا ، فَإِذَا تُعَدِّي الْحَقُّ ، لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ وَلَمْ يَقُمْ لِعَظْبِهِ شَيْءٌ ، حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ ، وَلَا يَغْضِبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا ؛ إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا ، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلْبُهَا ، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا يَضْرِبُ بِرَاحَتِهِ الْيُمْنَى بَاطِنَ كَفِّهِ الْيُسْرَى ، وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ ، جُلَّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ وَيَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْعَمَامِ ﷺ .»

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنه وَوَجَدْتُهُ رضي الله عنه : فَكَتَمْتُهَا الْحُسَيْنَ زَمَانًا ، ثُمَّ حَدَّثْتُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ ، فَسَأَلَهُ عَمَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، وَوَجَدْتُهُ قَدْ سَأَلَ أَبَاهُ عليه السلام ، عَنْ مَدْخَلِهِ وَخُرُجِهِ وَشَكْلِهِ ، فَلَمْ يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا قَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام :

فَسَأَلْتُ أَبِي عَنْ دُخُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَ : كَانَ دُخُولُهُ لِنَفْسِهِ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَاءً دُخُولَهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ : جُزْءٌ لِلَّهِ ﷻ وَجُزْءٌ لِأَهْلِهِ ، وَجُزْءٌ لِنَفْسِهِ ، ثُمَّ جُزْءٌ جُزْءَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالْخَاصَّةِ عَلَى الْعَامَّةِ وَلَا يَدْخُرُ عَنْهُمْ شَيْئًا ، وَكَانَ مِنْ سِيرَتِهِ فِي جُزْءِ الْأُمَّةِ إِثَارُ أَهْلِ الْفَضْلِ بِأَذْنِهِ ، وَقَسَمَهُ عَلَى قَدْرِ فَضْلِهِمْ فِي الدِّينِ ، فَمِنْهُمْ ذُو الْحَاجَةِ وَمِنْهُمْ ذُو الْحَاجَتَيْنِ وَمِنْهُمْ ذُو الْحَوَائِجِ ، فَيَتَسَاغَلُ بِهِمْ وَيَسْغَلُهُمْ فِيمَا أَصْلَحَهُمْ وَالْأُمَّةُ كَذَا مِنْ مَسْأَلَتِهِ عَنْهُمْ وَإِثَارِهِ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ وَيَقُولُ : « لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ وَأَبْلُغُونِي حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ

إِبْلَاغَهَا ، فَإِنَّهُ مَنْ أْبْلَغَ سُلْطَانًا حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغَهَا ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يَذْكُرُ عِنْدَهُ إِلَّا ذَلِكَ وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ يَدْخُلُونَ رُؤَادًا وَلَا يَفْتَرِقُونَ إِلَّا عَنِ ذَوَاقٍ وَيَجْرُجُونَ أَدِلَّةً ، يَعْنِي عَلَى الْخَيْرِ .»

قَالَ: وَسَأَلْتُهُ عَنْ مَخْرَجِهِ ، كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟

فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، يَحْزَنُ لِسَانَهُ إِلَّا مِمَّا يَعْنِيهِ ، وَيُؤَلِّفُهُمْ وَلَا يُتَفَرِّقُهُمْ ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُؤَلِّيه عَلَيْهِمْ ، وَيَحْذَرُ النَّاسَ وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ بَشْرَهُ ، وَلَا خَلْقَهُ وَيَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ ، وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ ، وَيُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيُقَوِّيه ، وَيُقَبِّحُ الْقَبِيحَ وَيُوهِنُهُ ، مُعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرٌ مُخْتَلِفٍ ، لَا يَعْغُلُ مَخَافَةَ أَنْ يَعْغُلُوا أَوْ يَمَلُّوا ، لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عِتَادٌ ، لَا يَقْضِرُ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يُجَاوِزُهُ ، الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ أَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةٌ وَأَحْسَنُهُمْ مُوَاسَاةً وَمُؤَازَرَةً .»

قَالَ: وَسَأَلْتُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟

قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، لَا يَقُومُ وَلَا يَجْلِسُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ ، وَلَا يُوَطِّنُ الْأَمَاكِينَ ، وَيَنْهَى عَنِ إِيْطَانِهَا ، وَإِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ ، يُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ بِنَصِيْبٍ ، لَا يَحْسَبُ جَلِيْسُهُ أَنْ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ ، مَنْ جَالَسَهُ أَوْ قَاوَمَهُ لِحَاجَةٍ صَابَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُنْصَرِفَ ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ قَدْ وَسِعَ النَّاسَ مِنْهُ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ ، فَصَارَ لَهُمْ أَبَا وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ ، لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ وَلَا تُؤَبَّنُ فِيهِ الْحُرْمُ ، وَلَا تُتَنَى فَلَئِنَّهُ ، مُتَعَادِلِينَ يَتَفَاضَلُونَ فِيهِ بِالتَّقْوَى مُتَوَاضِعِينَ ، يُوقِرُونَ الْكَبِيرَ وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ ، وَيُؤَثِّرُونَ ذَا الْحَاجَةِ ، وَيَحْفَظُونَ الْغَرِيبَ»

قَالَ: وَسَأَلْتُهُ عَنْ سِيرَتِهِ فِي جُلَسَائِهِ؟

فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، دَائِمَ الْبَشْرِ ، سَهْلَ الْخُلُقِ لِيِنَّ الْجَانِبِ ، لَيْسَ بِفَطْطٍ ، وَلَا عَلِيْظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ ، وَلَا عِيَّابٍ ، وَلَا مَدَّاحٍ يَتَغَافَلُ عَنْ مَا لَا يُشْتَهَى فَلَا يُؤَسَّ مِنْهُ وَلَا يَحِيْبُ فِيهِ ، قَدْ تَرَكَ

نَفْسُهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الْمِرَاءِ، وَالْإِكْثَارِ وَمَا لَا يَعْنِيهِ، وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَدْمُ أَحَدًا وَلَا يُعَيِّرُهُ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلْسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤْسِهِمُ الطَّيْرُ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، وَلَا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الْحَدِيثَ، مَنْ تَكَلَّمَ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوْلِهِمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَصْحَابُهُ يَسْتَجْلِبُونَهُمْ وَيَقُولُ: «إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يَطْلُبُهَا فَأَرْفُدُوهُ»، وَلَا يَقْبَلُ الشَّعَاءَ إِلَّا عَنِ مُكَافِيٍّ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَجُولَ، فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ.

وَسَأَلْتُهُ كَيْفَ كَانَ سُكُوتُ النَّبِيِّ ﷺ؟

فَقَالَ: عَلَى أَرْبَعٍ: عَلَى الْحِلْمِ، وَالْحَذَرِ، وَالتَّقْدِيرِ، وَالتَّفَكِيرِ، فَأَمَّا تَقْدِيرُهُ فَبِئْسَ تَسْوِيَةِ النَّظَرِ وَالِاسْتِيعَابِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَمَّا تَفَكُّرُهُ فَبِئْسَ يَفْنَى وَيَبْقَى، وَجَمَعَ لَهُ الْحِلْمُ فِي الصَّبْرِ، فَكَانَ لَا يُغْضِبُهُ شَيْءٌ وَلَا يَسْتَمِرُّهُ أَحَدٌ، جَمَعَ لَهُ الْحَذَرُ فِي أَرْبَعٍ: أَخَذَهُ بِالْحَسَنِ لِيُقْتَدَى بِهِ، وَتَرَكَهُ الْقَبِيحَ لِيُنْتَهَى عَنْهُ، وَاجْتِنَاهُ الرَّاْيَ فِيهَا أَصْلَحَ أُمَّتَهُ، وَالْقِيَامُ فِيهَا، وَجَمَعَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﷺ..

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ رحمته الله: قَدْ ذَكَرْتُ مِنْ صِفَةِ خَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحُسْنِ صُورَتِهِ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ ﷻ بِهَا وَصِفَةِ أَخْلَاقِهِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي خَصَّهُ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِهَا مَا فِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ تَعَلَّقَ مِنْ أُمَّتِهِ بِطَرْفٍ مِنْهَا.

وَسَأَلَ اللَّهُ مَوْلَانَا الْكَرِيمَ الْمَعُونَةَ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِشَرَائِعِ نَبِيِّهِ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ إِلَّا مَنْ اخْتَصَّهُ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِمَنْ أَحَبَّ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَصَحَابَتِهِ، وَإِلَّا فَمَنْ دُونَهُمْ يَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ وَمُرَادُهُ فِي طَلْبِ التَّعَلُّقِ بِأَخْلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَجَوْتُ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ أَنْ يُبَيِّبَهُ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ وَمُرَادِهِ وَإِنْ ضَعُفَ عَنْهَا عَمَلُهُ، كَمَا رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام أَنَّهُ وَصَفَ الْمُؤْمِنَ بِأَخْلَاقِ كَرِيمَةِ شَرِيفَةٍ، فَقَالَ فِيهَا وَصَفَهُ بِهِ: إِنْ سَكَتَ تَفَكَّرَ،

وَإِنْ تَكَلَّمْ ذَكَرَ ، وَإِذَا نَظَرَ اعْتَبَرَ ، وَإِذَا اسْتَعْنَى شَكَرَ ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ ، نِيَّتُهُ تَبْلُغُ ، وَقُوَّتُهُ تَضَعُفُ ،
يَنْوِي كَثِيرًا مِنَ الْعَمَلِ ، يَعْمَلُ بِطَاقَتِهِ مِنْهُ ؛

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ رحمته الله : أَمْ تَسْمَعُونَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عليه السلام لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ عليه السلام ، ﴿ وَإِنَّكَ
لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القم: ٤] يُقَالُ : عَلَى أَدَبِ الْقُرْآنِ ، فَمَنْ كَانَ اللَّهُ عليه السلام مُتَوَلِّئَهُ بِالْأَخْلَاقِ
الشَّرِيفَةِ ، فَلَيْسَ بَعْدَهُ وَلَا قَبْلَهُ مِثْلُهُ فِي شَرَفِ الْأَخْلَاقِ ^(١) . ^(٢) .

وأما تفسير بعض معاني كلمات هذا الحديث فانظر في كتب الحديث الشريف وشرحها أو
الشفاء بتعريف حقوق المصطفى أو وسائل الوصول إلى شمائل الرسول للإمام النبهاني .
وأعلم أن العلماء قالوا : إن من تمام الإيمان به عليه السلام الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه
الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله .

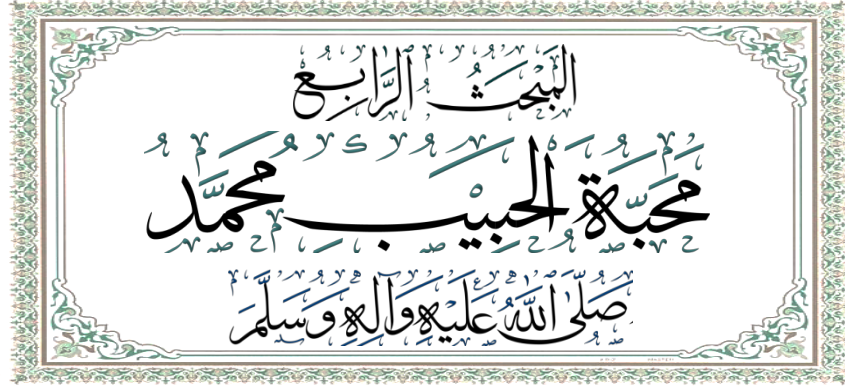
ولله در الإمام البوصيري رحمته الله حيث قال :

فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيبًا بَارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّةٌ عَنْ شَرِيكَ فِي مَحَاسِنِهِ فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ



(١) من كتاب الشريعة للأجري رحمه الله .

(٢) أ ه باختصار من الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ص (١٠٧ - ١١٠)



قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكفى بهذا حُضاً وتنبهاً ودلالةً وحُجَّةً على إلزام محبته ووجوب فرضها وعِظَمِ خَطَرِهَا واستحقاقه لها ﷺ إذ قرَّعَ تَعَالَى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تَعَالَى: ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ ﴾ ، ثم فَسَّقَهُم بِتَمَامِ الآيَةِ وأَعْلَمَهُم أَنَّهُمْ مِنْ مَنْ ضل ولم يهده الله.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَاَلِدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» ^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه وعن أنس عنه رضي الله عنه «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْعَبْدَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ يُقَدِّفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعَادِيَ فِي الْكُفْرِ»^(١).

قال سهل من لم ير ولاية الرسول عليه في جميع الأحوال ويرى نفسه في ملكه رضي الله عنه لا يذوق حلاوة سنته لأن النبي رضي الله عنه قال: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ .
ولقد كان النبي رضي الله عنه يؤصل هذا المعنى في أصحابه وهو المحبة للنبي رضي الله عنه ودرجتها ومكانتها من حياتنا .

فَعَنْ زُهْرَةَ بِنِ مَعْبِدٍ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ رضي الله عنه وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، فَقَالَ: وَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِلَّا نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ رضي الله عنه : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ» .

قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ وَ اللَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ رضي الله عنه : «الآنَ يَا عُمَرُ»^(٢) .

فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعاً.

وفي رواية فقال رضي الله عنه : «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» .

قال بعض الزهاد:

تقدير الكلام، لا تصدق في حبي حتى تؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه الهلاك.

وأما وقوف عمر رضي الله عنه في أول أمره ، واستثناؤه نفسه ، فلأن حُب الإنسان نفسه طبع ، وحُب

غيره اختيار بتوسط الأسباب ، وإنما أراد رضي الله عنه منه حُب الاختيار، إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه.

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه أحمد والطبراني والبيهقي وغيرهم .

وَعَلَى هَذَا فِجْوَابِ عَمْرٍ أَوْلَى كَانَ بِحَسَبِ الطَّبْعِ، ثُمَّ تَأْمَلُ فَعَرَفَ بِالِاسْتِدْلَالِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ لِكَوْنِهِ السَّبَبُ فِي نَجَاتِهَا مِنْ اَهْلِكَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا اقْتَضَاهُ الْاِخْتِيَارُ، فَذَلِكَ حَصَلَ الْجَوَابُ بِقَوْلِهِ «الآن يا عمر» أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب.

وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فِي مَحَبَّتِنَا لَهُ وَوَجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ أَنْفُسِنَا وَأَوْلَادِنَا وَوَالِدِينَا وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(١).

وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ يَأْتِي بَعْدَهُ وَعِلَاقَتَهُمْ بِالْحَبِيبِ ﷺ وَصَلَتَهُمْ وَتَعَلَقَهُمْ فَقَالَ: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»^(٢).
وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ - أَوْ أَعْرَابِيٌّ - إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَا أَعَدَدْتُ لَهَا؟». قَالَ: مَا أَعَدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أَحَبُّ إِلَيْكَ وَرَسُولُكَ، فَقَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَّبْتَ».

قَالَ أَنَسٌ: «فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَشَدَّ مَا فَرِحُوا يَوْمَئِذٍ»^(٣).
وَفِي رِوَايَةٍ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٤).



(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٢/ ٦١٧).

(٢) رواه مسلم.

(٣) ومثله عن أبي ذر، أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم.

الفصل الثاني

فيماروي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي وشوقهم إليه

كان الصحابة رضوان الله عليهم قد بلغوا في محبتهم للنبي ﷺ منتهى الغاية وأقصى النهاية ، وقد تقدم في الفصل الأول حديث عمر رضي الله عنه وقوله للنبي ﷺ : (لأنت أحب إليّ من نفسي) وما تقدم عن الصحابة في مثله، وعن عمرو بن العاص: ما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ ؛ وعن عبدة بنت خالد بن معدان قالت ما كان خالد يأوي إليّ فراش إلا وهو يذكر من شوقه إليّ رسول الله ﷺ وإليّ أصحابه من المهاجرين والأنصار يُسمّيهم ويقول (هم أصلي وفصلي وإيهم يحنُّ قلبي طال شوقي إليهم فعجّل ربّ قبضي إليك حتّى يغلبه النوم) (١).

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ : والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقرّ لعيني من إسلامه - يعني أباه أبا قحافة - وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقرّ لعينك ونحوه عن عمر بن الخطاب قال للعباس رضي الله عنه أن تسلم أحب إليّ من أن يُسلم الخطاب لأن ذلك أحب إليّ رسول الله ﷺ (٢).

وعن ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا خيرا هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيه حتّى أنظر إليه فلما رأته قالت ((كل مصيبة بعدك جَلٌّ)) (٣).

(١) ذكره القاضي عياض في الشفاء .

(٢) رواه ابن عساکر والبيهقي والبخاري عن ابن عمر .

(٣) رواه البيهقي عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص ..

وَسُئِلَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ كَانَ حَبْكُمُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: كَانَ وَاللَّهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَيَّ الظَّمَاً .

وعن زيد بن أسلم خرج عمر رضي الله عنه ليلة يحرس الناس فرأى مصباحاً في بيت وإذا عجوز تنقش صوفاً وتقول:

عَلِيٌّ مُحَمَّدٌ صَلَاةُ الْأَبْرَارِ صَلَّى عَلَيْهِ الطَّيِّبُونَ الْأَخْيَارُ
قَدْ كُنْتَ قَوَّامًا بَكَ بِالْأَسْحَارِ يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمَنَايَا أَطْوَارُ
هَلْ تَجْمَعُنِي وَحَبِيبِي الدَّارِ

تعني النبي ﷺ ، فجلس عمر رضي الله عنه يبكي ، وفي الحكاية طول^(١) .

وروي أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقبل له اذكر أحب الناس إليك يزل عنك ؛ فصاح يا محمداه فانتشرت .

ولما احتضر بلال رضي الله عنه نادت امرأته: واحزنه ، فقال : وا طرباه ، غداً ألقى الأَجَبَّةَ ، محمداً وحزبه ، فكان بلال يمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء^(٢) . ويروى أن امرأة قالت لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها اكشفي لي قبر رسول الله ﷺ فكشفتها لها فبكت حتى ماتت^(٣) .

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك يضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال زيد: (والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وإني جالس في أهلي) ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحُبِّ أصحاب محمد (محمداً)^(٤) .

(١) رواه ابن المبارك في الزهد .

(٢) من كتاب : السيرة الحلبية - (ج ٢ / ص ١٤٣) .

(٣) ذكرها القاضي عياض في الشفاء. أه باختصار وتصرف من الشفا بتعريف حقوق المصطفى - (ص ٢٤٩) .

(٤) ذكره ابن إسحاق عن عروة ابن الزبير .

وعن ابن عباس كانت المرأة إذا أتت النبي ﷺ حلفها بالله ما خرجت من بغض زوج ولا
 رغبة بأرض عن أرض وما خرجت إلا حباً لله ورسوله، ووقف ابن عمر على ابن الزبير رضي الله عنه بعد
 قتله فاستغفر له وقال كنت والله ما علمت صوماً قواماً تحب الله ورسوله .
 وتقدم الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ
 يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ».



الفصل الثالث في علامات المحبة للنبي ﷺ

صلى الله عليه وآله وسلم

اعلم أن من أحب شيئاً أثره وآثر موافقته ، وإلا لم يكن صادقاً في حبه ، وكان مُدّعياً ، فالصادق في حُبِّ النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه .

إذا للمحبة علامات يُعرَفُ بها المحبون وهي كثيرة جداً ، نختصر منها الآتي : —
العلامة الأولى :

[الاعتداء به واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله ، وسلوك طريقته ، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه والتأدب بآدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه] ، وشاهد هذا قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران ٣١] .

وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] . وإسقاط العباد في رضى الله تعالى .

العلامة الثانية : [سلامة القلب من الحقد والغش] ؛

قَالَ: قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بُنَيَّ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ» ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْبَبَنِي، وَمَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ»^(١) .

(١) رواه الترمذي و أبو يعلى ، وأبو الحسن القطان ، والطبراني في الصغير .

فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله ، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة ولا يخرج عن اسمها، ودليله قوله : ﷺ للذي حدّه في الخمر فلعنه بعضهم وقال ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي ﷺ : «لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» (١) .

العلامة الثالثة : [كثرة الذكر للمحسوب] ؛

ومثال ذلك عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي ، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي ، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ ، فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ ، فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعَتْ مَعَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ . فَلَمْ يُرِدْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ [الآية [النساء: ٦٩] (٢) .

وقيل نزلت هذه الآية في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عليه فاتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه فقال له رسول الله : ﷺ ما غير لونك ؟ ، فقال يا رسول الله : ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أراك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك لأنك ترفع مع النبيين وإني إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدا فنزلت الآية (٣) .

وهذه علامة من علامات المحبين حتى أن العرب كانوا يتغنون بالشعر والغزل لمن يحبون ويبالغون في ذلك : قال عنتر بن شداد :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وببيض الهند تقطر من دمي

(١) أخرجه البزار و عبد الرزاق في مسنده والهندي في كنز العمال .

(٢) رواه الطبراني ..

(٣) ذكر ذلك الإمام البغوي في تفسيره عند هذه الآية.

فوددتُ تقبيل السيوف لأنهما لَمَعَتُ كبقارقِ ثغركِ المتبسّمِ
فمن علامات محبة النبي ﷺ كثرة ذكره ، و من أحب شيئاً أكثر ذكره .

العلامة الرابعة: [الانقياد لأمره والطاعة له] : قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال الشاعر :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في القياس بـديعُ
لو كنت حقاً صادقاً لأطعته إِنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

وقال شيخنا العلامة الحبيب أبو بكر العدني بن علي المشهور رحمه الله تعالى :

يَا مُدَّعِي حُبِّ طَه لَا تَعْصِيَنَّ الْإِلَهَ
فإن للحبِّ جاهاً يمدعو إلى الاتصـالِ

العلامة الخامسة: [الشوق للمحبوب] ؛ ومنها كثرة شوقه إلى لقاءه فكل حبيب يحب

لقاء حبيبه وفي حديث الأشعرين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون :

غداً نلتق الأجابة محمداً ووصـحبه

وتقدم قول بلال ومثله قال عمار قبل قتله وما ذكرناه من قصة خالد بن معدان .

يقول شيخنا الحبيب عمر بن حفيظ حفظه الله في مولد الضياء اللامع :

والله ما ذُكِرَ الحبيبُ لدى المحبِّ إلا وأضحى والهـا نشوانا

أين المحبُّون الذين عليهمُ بذلُ النفوسِ مع النَّفائسِ هانا

لا يسمعونِ بذكرِ طه المصطفى إلا به انتعشوا وأذهب رانا

فاهتاجت الأرواح تشـتاق اللقا وتحنُّ تسأل ربهـا الرضوانا

حالُ المحبِّين كذا فاسمع إلى سيرِ المشفِّعِ وارهب الآذانا

وانصتِ إِلَى أوصافِ طه المجتبيِ واخْضِرْ لقلبِكِ يمتلئِ وجدانا
وقال الآخر :

والصبر يُحمد في المواطن كلها وعن الحبيب فإنه لا يُحمدُ
وقال الآخر :

ما أحسن الصبر وأما على أن أرى وجهك يوماً فلا
لو أن يوماً منك أو ساعةً تباع بالدنيا إذاً : ما غلا

العلامة السادسة : [الإقبال على سماع حديث المحبوب] وتعظيمه ﷺ عند ذكره ، وإظهار الخضوع والانكسار ، والخشوع مع سماع اسمه ، فكل من أحب شيئاً خضع له ، كما كان كثيرٌ من الصحابة رضي الله عنهم إذا ذكروه خشعوا واقتسرت جلودهم وبكوا ، وكذلك كان كثيرٌ من التابعين فمن بعدهم .

فكان أيوب السخيتاني إذا ذكِرَ النبي ﷺ بكى حتى ترحمه جلساؤه .

وكان جعفر الصادق بن محمد الباقر كثير الدُعابة والتبسم ، فإذا ذكِرَ النبي ﷺ عنده اصفرَّ لونه . وكان عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق إذا ذكِرَ النبي ﷺ يُنظر إلى لونه كأنه قد نَزَفَ منه الدَّم ، وقد جفَّ لسانُه في فمه ؛ هيبَةً لرسول الله ﷺ .

ومنها أن يحب القرآن الذي أتى به ﷺ وهدى به واهتدى وتخلق به حتى قالت عائشة رضيها
عن النبي ﷺ ((كان خلقه القرآن))^(١) . وحبهُ للقرآن تلاوته والعمل به وتفهمه .

قال سهل بن عبد الله : علامة حبِّ الله حبُّ القرآن وعلامة حبِّ القرآن حبُّ النبي ﷺ وعلامة حبِّ النبي ﷺ حبُّ السنة ، وعلامة حبِّ السنة حبُّ الآخرة ، وعلامة حبِّ الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا أن لا يدخر منها إلا زاداً وبلغه إلى الآخرة .

(١) رواه أحمد في المسند وغيره .

وقال ابن مسعود لا يسأل أحد عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله .
وهذا أيضاً ما فعله النبي ﷺ عندما كان يحب أن يسمع كلام الله ﷻ مثل ما قاله ابن مسعود
ﷺ قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «أَقْرَأْ عَلَيَّ». قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟!
قال: «نَعَمْ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». قال: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ (سُورَةَ النَّسَاءِ)، حَتَّى إِذَا
بَلَغْتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾؛ قَالَ لِي:
«أَمْسِكْ» وفي رواية: «حَسْبُكَ الْآنَ»، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ (١).

وكذلك ما ورد عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ رَأَيْتَنِي
الْبَارِحَةَ، وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ لَقَدْ أُوتَيْتَ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» قَالَ: قُلْتُ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ
لِقِرَاءَتِي لَحَبَّرْتُمَا لَكَ تَحْيِيرًا» (٢).

فأجل ما يسمعه المحب للنبي ﷺ هو أحاديثه الشريفة و سيرته العطرة والمدائح النبوية وكثرة
الصلاة عليه وعلى آله .

وأيضاً الإقبال على سماع حديثه وتعظيمه له بعد كلام الله تعالى وتوقيره وإظهار الخشوع
والانكسار مع سماع اسمه ؛ قال إسحاق التجيبي كان أصحاب النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إلا
خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا وكذلك كثير من التابعين منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقاً
إليه، ومنهم من يفعله تهيئاً وتوقيراً.

العلامة السابعة :

[محبة دار المحبوب] ؛ ومثل ذلك في مكة المكرمة التي هي بيت الله المحرم فالشوق إليها
ومحبتها علامة على صدق المحبة لله وكذلك المدينة المنورة دار الحبيب الأعظم ﷺ وقد ظهر ذلك

(١) رواه البخاري وأخرجه الحاكم في المستدرک .

(٢) رواه الترمذي وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ الْبَزَارُ .

في أشعار السابقين من السلف حتى تجاوز هذا الشوق من الإنسان إلى الحيوانات مثل الجمل على سبيل المثال كانت تتعب في السفر الطويل ولكنها حين تقترب من المدينة المنورة تنسى هذا التعب وتسرع إليها ، وقد ذكرها الحافظ الديلمي في أبيات في مولد الديلمي فقال :

حَدَى حَادِي الشَّرَى بِاسْمِ الْحَبَائِبِ فَهَزَّ الشُّكْرُ أَعْطَافَ الرَّكَائِبِ
أَلَمْ تَرَهَا وَقَدْ مَدَّتْ حُطَاهَا وَسَالَتْ مِنْ مَدَامِعِهَا سَحَائِبِ
وَمَالَتْ لِلْحِمَا طَرَبًا وَحَنَّتْ إِلَى تِلْكَ الْمَعَالِمِ وَالْمَرَاتِبِ
فَدَعُ جَذْبَ الزَّمَامِ وَلَا تَسْقُهَا فَقَائِدِ شَوْقِهَا لِلْحَيِّ جَاذِبِ
فَهُمْ طَرَبًا كَمَا هَامَت وَإِلَّا فَإِنَّكَ فِي طَرِيقِ الْحُبِّ كَاذِبِ
ويقول مجنون ليلي :

أَمْرٌ عَلَى الدِّيَارِ : دِيَارِ لَيْلِي أَقْبَلْ ذَا الْجَدَارِ وَذَا الْجَدَارِ
وَمَا حُبَّ الدِّيَارِ شَغَفَنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حَبَّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارِ

العلامة الثامنة : [محبة أحباب المحبوب] :

فالنبي ﷺ يحب آل بيته :

فعن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : عن أبيه عن جده عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْدُو كُمْ بِهِ مِنْ نِعْمِهِ ، وَأَحِبُّوا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي الْحَبِيَّ » (١) .
وكان النبي ﷺ يصلي والحسن والحسين على ظهره فباعدهما الناس فقال النبي ﷺ « بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي ، مَنْ أَحَبَّنِي ، فَلْيُحِبِّ هَذَيْنِ » (٢) .

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) رواه أبو يعلى وابن عساکر .

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ ، يَأْخُذُنِي وَالْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا» ، وَهَذَا الْحَدِيثُ إِنَّمَا يَرَوِي عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ : قَالَ لِلْحَسَنِ، وَالْحُسَيْنِ، وَقَالَ فِي حَدِيثِ أَبِي عُمْتَانَ، عَنْ أُسَامَةَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ وَلِلْحَسَنِ ^(١).

ويحب النبي ﷺ زوجاته والأحاديث مشهورة في ذلك وهن أمهات المؤمنين وعرض الحبيب الأكرم ﷺ .

وكذلك يحب أصحابه ؛ فعن عبد الله بن المغفل ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » ^(٢) .

وكذلك يحب النبي ﷺ الأنصار ؛ فعن عدي بن ثابت قال سمعت البراء رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال في الأنصار « لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ، من أحبهم أحب الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » ^(٣) .

يقول الشاعر :

فيا ساكني أكناف طيبة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

العلامة التاسعة : [انجلاء الهموم عند زيارته] . قال أحدهم :

يزور فتنجلي عني همومي لأن جلاء حُزني في يديه

وقال الآخر :

مَرِضٌ الْحَبِيبُ : فزرتُه فَمَرِضْتُ مِنْ حَزْنِي عَلَيْهِ

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه أحمد ، والبخاري في تاريخه ، والترمذي وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان .

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

وَأَتَى الْحَبِيبَ يَعُودُنِي فَبُرِّئْتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهِ

العلامة العاشرة : [الغيرة له والغيرة عليه] ؛ ومثال ذلك ما ورد عن سعد بن

عبادة رضي الله عنه قال لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَ اللَّهِ لَأَنَا أَعْيَرُ مِنْهُ، وَ اللَّهُ أَعْيَرُ مِنْهُ، وَ اللَّهُ أَعْيَرُ مِنِّْي وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ ، حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَ لَا شَخَصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَ لَا شَخَصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ»^(١).

العلامة الحادية عشرة : [بَدُلْ كُلَّ شَيْءٍ فِي رِضَاهُ] .

ومثال ذلك ما قاله سيدنا سعد بن معاذ عندما شاورهم النبي ﷺ قبل غزوة بدر وقصة ذلك قام سعد بن معاذ، رضي الله عنه وجزاه خيراً، فقال: يا رسول الله، كأنك تعرض بنا ؟ قال: أجل، وكان إنما يعينهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم، فاستشارهم ليعلم ما عندهم، فقال سعد: يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض لما أردت، ولعلك يا رسول الله تَحْشَى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاطعن حيث شئت، ووصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان - وفي رواية: برك الغماد من ذي اليمن - لنسيرن معك، والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلَّفَ مِنَّا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، ولعلك خرجت لأمر فأحدث الله

غيره، فسر بنا على بركة الله، فنحن عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك، ولا نكون كالذين قالوا
لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون فأشرق وجه رسول الله ﷺ، وسرّ بقول سعد،
فقال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، وابشروا، فإن الله تعالى وعدي الطائفتين، والله
لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(١).

✚ العلامة الثانية عشرة: [السرور بما يسرُّ به الحبيب]. فأَيَّ سرورٍ يُسرُّ به الحبيب
يكون المحب لهذا السرور مسروراً به؛ قال الشاعر:

لئن ساءني أن نلتني بمساءةٍ لقد سرنى أي خطرت ببالك

✚ العلامة الثالثة عشرة: [حب الخلوة مع الحبيب].

فالاختلاء مع الله هو بذكره وبالذعاء وبقراءة كلامه؛ والخلوة مع النبي ﷺ هو بقراءة
أحاديث وسيرته وشأنه والتفكير في حياته حتى كأنه يعايش النبي ﷺ في زمانه فعادةً معروفة
وهي أن المحب يتمنى أن يختلي بحبيبه دائماً.

✚ العلامة الرابعة عشرة: [التذلل للمحبوب].

ومثال ذلك ما كان من الصحابة من الأدب والتذلل للنبي ﷺ والفداء له بكل حياتهم ومن
تلك الأمثلة ما وقع من حوار بين أبي سفيان وبين زيد ابن الدثنة عندما صلبوه ليقتلوه قال له أبو
سفيان أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟

قال: والله ما أحب أن محمداً تصيبه الآن في مكانه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي فقتلوه.

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحُبِّ أصحاب محمد محمداً..

قال الشاعر:

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٣ \ ١١٠ وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣ \ ١٦٦.

إذا كنت تهوى من تحب ولم تكن ذليلاً له فاقر السلام على الوصل
وقال آخر :

تذلل لمن تهوى تكسب عزةً فكم عزة قد نالها المرء بالذل
ويعجبني ذلي لذيك ولم يكن ليعجبني لولا محبتك الذل
العلامة الخامسة عشرة: [بغض من أبغض الله ورسوله] :-

ومنها بغض من أبغض الله ورسوله ومعاداة من عاداه ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه
واستثقاله كل أمر يخالف شريعته قال الله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ﴾ ، وهؤلاء أصحاب النبي ﷺ قد قتلوا أحياءهم وقتلوا آباءهم
وأبناءهم في مرضاته وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي: لو شئت لأتيتك برأسه يعني أباه .

قال صاحب كتاب منهل الصفاء في شمائل المصطفى: قال في المواهب اللدنية: ومن علامات
الحب المذكور لرسول الله ﷺ: أن يعرض الإنسان على نفسه أنه لو خيّر بين فقد غرض من
أغراضه ، وفقد رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة ، فإن كان فقدّها أشد عليه من فقد شيء من
أغراضه فقد اتصف بالأحبيّة المذكورة لرسول الله ﷺ ، ومن لا فلا . انتهى .

وأعلم أن كل مسلم في قلبه محبة لله ورسوله إذ لا يدخل في الإسلام إلا بها ؛ لكن الناس
متفاوتون في محبته ﷺ (١) .

وكل ذلك يخلص إلى معادلة وخلاصة في حب النبي ﷺ :

الولاء الباقي والإتباع الراقى والالتزام الأخلاقي



(١) إه من كتاب منهل الصفا في شمائل المصطفى للشيخ أبي بكر الملا الأحساني ص : [٤٤] ط ١ .

الفصل الرابع في معنى المحبة للنبي وحققتها

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ وكثرت عباراتهم في ذلك وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال ولكنها اختلاف أحوال. فقال سفيان: المحبة اتباع الرسول ﷺ كأنه التفت إلى قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ الآية، وقال بعضهم: محبة الرسول اعتقاد نصرته والذب عن سنته والانقياد لها وهيبة مخالفته؛

وقال بعضهم: المحبة دوام الذكر للمحجوب، وقال آخر: إيثار المحجوب، وقال بعضهم: المحبة الشوق إلى المحجوب، وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمراد الرب، يحب ما أحب ويكره ما كره. وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له، وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها وحقيقة المحبة:

الميل إلى ما يوافق الإنسان وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشبابها من كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة كحب الصالحين والعلماء وأهل المعروف المأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم والتشيع من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان وهتك الحرم واخترام النفوس، أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، فإذا تقرر لك هذا نظرت هذه الأسباب كلها في حقه ﷺ فعلمت أنه ﷺ جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة.

إِذَا فَأَيَّ إِحْسَانٍ أَجَلَ قَدْرًا وَأَعْظَمَ خَطَرًا مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ ؟

وَأَيُّ إِفْضَالٍ أَعْمَ مَنْفَعَةٍ وَأَكْثَرَ فَائِدَةٍ مِنْ إِعْنَامِهِ عَلَى كَافَةِ الْمُسْلِمِينَ ؟ إِذْ كَانَ ذَرِيعَتَهُمْ إِلَى الْهُدَايَةِ وَمُنْقَذَهُمْ مِنَ الْعِمَايَةِ وَدَاعِيَهُمْ إِلَى الْفَلَاحِ وَالْكَرَامَةِ وَوَسِيلَتَهُمْ إِلَى رَحْمَتِهِ وَشَفِيعَهُمْ وَالْمُتَكَلِّمَ عَنْهُمْ وَالشَّاهِدَ لَهُمْ وَالْمَوْجِبَ لَهُمُ الْبَقَاءَ الدَّائِمَ وَالنَّعِيمَ السَّرْمَدَ فَقَدْ اسْتَبَانَ لَكَ أَنَّهُ ﷺ مُسْتَوْجِبٌ لِلْمَحَبَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ شَرَعًا .

فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَجِبُ مِنْ مَنْحِهِ فِي دُنْيَاهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ مَعْرُوفًا أَوْ اسْتَنْقَذَهُ مِنْ هَلَاكَةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ مَدَّةَ التَّأْذِي بِهَا قَلِيلٌ مَنْقُطِعٌ فَمَنْ مَنْحَهُ مَا لَا يَبِيدُ مِنَ النَّعِيمِ وَوَقَاهُ مَا لَا يَفِي مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ أَوْلَى بِالْحُبِّ، وَإِذَا كَانَ يَجِبُ بِالطَّبِيعِ مَلَكًا لِحَسَنِ سِيرَتِهِ أَوْ حَاكِمًا لِمَا يُوَثِّرُ مِنْ قَوَامِ طَرِيقَتِهِ أَوْ قَاصٍ بِعِيدِ الدَّارِ لِمَا يَشَادُ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ كَرَمِ شَيْمَتِهِ فَمَنْ جَمَعَ هَذِهِ الْخِصَالَ عَلَى غَايَةِ مَرَاتِبِ الْكَمَالِ أَحَقُّ بِالْحُبِّ وَأَوْلَى بِالْمِيلِ، وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَتِهِ ﷺ: «مَنْ رَأَاهُ بَدِيهَةً هَابَةً وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ» وَذَكَرْنَا عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَنْهُ مَحَبَّةً فِيهِ^(١).

وَهُنَا نَوْرِدُ مَوْقِفَيْنِ عَظِيمَيْنِ مِنْ مَحَبَّةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ

الموقف الأول : صورة من مقام النبي ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري :

رَوَى أَبُو بَكْرٍ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ إِسْحَاقَ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ مِنْ طَرَفٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِالْفِظَافِ مُتَقَارِبَةٍ أَنَّ أَبَا أَيُوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ وَهُوَ يَحْدُثُ عَنْ أَيَّامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَهُ : لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي فِي أَسْفَلِ الْبَيْتِ وَأَنَا وَأُمُّ أَيُوبَ فِي الْعُلُوِّ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنِّي لِأَكْرَهُ وَأَعْظَمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ وَتَكُونَ تَحْتِي، فَظَهَرَ أَنْتَ فَكُنْ فِي الْأَعْلَى، وَنَزَلْنَا نَحْنُ نَكُونُ فِي السُّفْلِ، فَقَالَ : « يَا أَبَا أَيُوبَ، إِنَّهُ لَأَرْفَعُ بَنًا وَبِمَنْ يَعْشَانَا أَنْ نَكُونَ فِي أَسْفَلِ الْبَيْتِ » .

قال : فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن ، ولقد انكسرت جرة لنا فيها ماء يوماً

(١) أه باختصار وتصرف من الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص: (٢٥٢ - ٢٥٤) .

، فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه ، فنزلت إليه وأنا مشفق ، فلم أزل أستعطفه حتى إنتقل إلى العلو .

قال : وكنا نضع له العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشاءه وقد جعلنا له بصلاً وثوماً ، فرده رسول الله ﷺ ولم أر ليدته فيه أثر ، فبعثته فزعاً فقلت يا رسول الله بأبي أنت و أمي ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيتم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة ، فقال : «إِنِّي وَجَدْتُ مِنْهُ رِيحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَأَنَا رَجُلٌ أَنَا جِي فَلَمْ أَحَبَّ أَنْ يُوجَدَ مِنِّي رِيحُهُ، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ». قال : فأكلناه ، ثم لم نضع في طعامه شيئاً من الثوم أو البصل بعد^(١).

قال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله في كتابه : (فقه السيرة) :

هذه الصورة التي رأيناها في مقامه ﷺ عند أبي أيوب الأنصاري في منزله ، تكشف لنا مظهر آخر من مظاهر محبة أصحاب رسول الله ﷺ له . والذي يهمننا من ذلك هنا ، هو التأمل في تبرُّك أبو أيوب وأم أيوب ، بآثار أصابع رسول الله ﷺ في قطعة الطعام ، حينما كان يردّ عليهما فضل طعامه . إذاً فالتبرُّك بآثار النبي ﷺ مشروع قد أقرّه ﷺ .

وقد رَوَى البخاري ومسلم صوراً كثيرة من تبرُّك الصحابة بآثار النبي ﷺ و التوسل بها للاستشفاء أو العناية و التوفيق وما شابه ذلك .

من ذلك ما رواه البخاري في كتاب اللباس ، في باب ما يذكر في الشيب ، من أن أم سلمة زوج النبي ﷺ كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبي ﷺ في جلجل لها (ما يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته) فكان إذا أصاب أحداً من الصحابة عين أو أذى أرسل إليها إناء فيه ماء ،

(١) الإصابة لابن حجر ٤٠٥/١ ، وسيرة ابن هشام : ٤٧٩/١ ، وترتيب مسند الإمام أحمد : ٢٩٢/٢٠ .

فجعلت الشعرات في الماء ، ثم أخذوا الماء يشربونه توسلاً للاستشفاء والتبرك به .

ومن ذلك ما رواه مسلم في كتاب الفضائل باب : (طيب عرقه ﷺ) أنه عليه الصلاة والسلام كان يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست هي في البيت ، فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فجاءت أم سليم وقد عرق رسول الله ﷺ واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدها ^(١) فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ، فأفاق النبي ﷺ فقال : « ما تصنعين يا أم سليم ؟ » فقالت يا رسول الله : نرجو بركته لصبياننا ، قال : « أصبت » ^(٢) .

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين من استباق الصحابة إلى فضل وضوئه ﷺ والتبرك بالكثير من آثاره كألبسته والقدر الذي كان يشرب به ^(٣) .

فإذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية فكيف بالتوسل بمنزلته عند الله ﷻ وكيف بالتوسل بكونه رحمة للعالمين ؟ ولا يذهبن بك الوهم إلى أننا نقيس التوسل على التبرك ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون استدلالاً بالقياس ، فإن التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد وهو

(١) العتيذة كالصندوق الصغير تجعل فيه المرأة ما يعز من متاعها .

(٢) رواه مسلم .

(٣) يرى الشيخ ناصر الألباني أن مثل الأحاديث لا فائدة منها في هذا العصر ، ذكر ذلك في نقد له على أحاديث كان قد انتقاها الأستاذ محمد المنتصر الكتاني لطلاب كلية الشريعة .

ونحن نرى أن هذا الكلام خطير ما ينبغي أن يتفوه به مسلم ، فجميع أقوال الرسول وأفعاله وإقرارته تشريع ، والتشريع باقٍ مستمر إلى يوم القيامة ما لم ينسخه كتاب أو سنة صحيحة .

ومن أهم فوائد التشريع ودلالاته معرفة الحكم والاعتقاد بموجبه . وهذه الأحاديث النابتة الصحيحة لن ينسخها كتاب ولا سنة مثلها فمضمونها التشريعي باقٍ إلى يوم القيامة .

ومعنى ذلك أنه لا مانع من التوسل والتبرك بآثار النبي عليه الصلاة والسلام فضلاً عن التوسل بذاته وجاهه عند الله تعالى ، وإن ذلك ثابت ومشروع مع الزمن ، فكيف يقال مع ذلك إنه لا فائدة منها في هذا العصر ؟ ..

أكبر الظن أن السبب الذي ألقى فائدتها بنظر الشيخ ناصر ، أنها تخالف مذهبه في التوسل ، غير أن ذلك وحده لا يكفي موجباً لنسخها وانتهاء فائدتها كما هو معلوم .

التماس الخير و البركة عن طريق المتوسّل به .

وكلُّ من التوسل بجاهه ﷺ عند الله و التوسل بآثاره أو فضلاته أو ثيابه، أفراد وجزئيات داخله تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذي ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة ، و كل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يُسمّى بـ (تنقيح المناط) عند علماء الأصول^(١) .

الموقف الثاني : ما رآه عروة ابن مسعود الثقفي في صلح الحديبية من محبة أصحاب

رسول الله لرسول الله ﷺ :

لما خرج الرسول ﷺ في العام السابع للهجرة إلى مكة يريد العمرة ، وتوقف في الحديبية ، وحصل ما حصل من المنع ، وجاءه من يمثل قريش الكثير ، منهم عروة ابن مسعود الثقفي ، ولما وصل عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه ، قال: فَوَاللَّهِ مَا تَنَحَّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكْ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا، خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيماً لَهُ.. فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يَعْظُمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يَعْظُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ! وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ حُطَّةً رُشِدٍ فَاقْبَلُوهَا.

يقول الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه : (فقه السيرة) معلقاً على هذا الموقف :

إنها لصورة بارزة حية أوضحتها عروة ابن مسعود لمدى محبة أصحاب رسول الله ﷺ له وإن فيها لدلالات هامة يجب أن يقف عندها كل مسلم ، إنها تدل أولاً: على أنه لا إيمان برسول الله ﷺ بدون محبة له ، وليست المحبة له معنى عقلانياً مجرداً ، وإنما هي الأثر الذي يستحوذ على القلب فيطبع صاحبه بمثل الطابع الذي وصف به عروة ابن مسعود أصحاب رسول الله ﷺ .

وهي تدل ثانياً: عَلَى أن التبرك بآثار النبي ﷺ أمر مندوب إليه ومشروع ، ولقد وردت أحاديث صحيحة ثابتة عن التبرك بشعر النبي وعرقه ووضوئه وبصاقه والقوح الذي كان يشرب فيه ﷺ^(١).

(١) وقد ذكر الشيخ محمد رمضان البوطي معلقاً عَلَى ما قام به بعض المغرضين الذين يتقنون هذه الصورة الجميلة التي تدل عَلَى محبة وفناء الصحابة برسول الله ﷺ بما رآه عروة ابن مسعود الثقفي من فعل أصحاب النبي ﷺ معه ، واشتمتازاه من فعلهم .. إِلَى أن قال : أما ما قصد إليه هَذَا الإنسان ، من وراء ذلك ، من تشويه مكانة محمد عليه الصلاة والسلام في القلوب ، وإظهاره في أعين الناس في مظهر المُمَدِّل عَلَى أصحابه ، المتلذذ برؤية هَذَا الذي يتسابقون إليه ، وإبرازه في صورة الثقليل السمج ، دأبُهُ أن يُرِي الناس من نفسه ما كان خليقاً به أن يستره عنهم ، يروّضهم بذلك عَلَى حَبِّه والاستئناس بكل ما قد يتصل به أو ينفصل عنه ... أقول : أمّا ما قصد إليه هَذَا الرجل من ، فقد أبعد النُجْعَةَ ، وأخطأ الطريق ، وخانه الهدف !..

كثيرون هم الذين سعوا هَذَا السعي ؛ واعتصروا الفكر ، واستنجدوا بالحيله ، وناشدوا التاريخ ، كي يُتاح لهم أن ينسجوا صورة من هَذَا القبيل لمحمد رسول الله ﷺ ، فما عادوا من سعيهم أو محاولتهم بأيّ طائل . وظلّ كل من العقل والتاريخ والفكر الحرّ أميناً عَلَى الكلمة الجامعة التي وصف الله به محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ اقرأ ما تشاء من صفحات أي كتاب في شمائل هَذَا الرسول العظيم ، تجد نفسك أمام المثل الأعلى ، والنموذج الأتم للإنسانية السامية الصافية عن الشوائب ، وللدوق الرفيع في مقاييس المعاملة والسلوك ، وللإحساس المرهف في رعاية الآخرين والاهتمام بهم ، وللنظافة والرتابة وأناقة الشكل والمظهر ، وللتواضع المتناهي أمام كل فئات أصحابه . لم يكن يستقبل الوافدين إليه إلا بأنظف الثياب وأبهى الحلل .

كان أشد ما يكون حرصاً عَلَى أن لا يَرَى الناس منه إلا ما تَسُرُّ به العين ، وأن لا تقع أنوفهم منه إلا عَلَى أطيب رائحة ، وقد ثبت أنه كان يُنْفِقُ جُلّ ماله في الطيب . لم يكن يأكل ثوماً أو بصلاً ، أو أي طعام يتأذى الناس منه برائحة كريهة .

ولما كان ضيفاً في دار أبي أيوب الأنصاري ، في أيامه الأولى من هجرته إِلَى المدينة ، وعادت قصعة الطعام من عنده مرّة دون أن يطعم منها شيئاً ، فزَع أبو أيوب ، وهَرَع إِلَى رسول الله يسأله عن سبب ذلك ، فقال : ((لقد شممت فيه رائحة تلکم الشجرة (أي الثوم) وأنا أناجي (أي يزورني الناس وأحاديثهم) أما أنتم فكلوا)) .

وكان إذا مضى لقضاء حاجة ، أَبْعَدَ ، ثم أَبْعَدَ ، حتّى لا يقع الناس منه عَلَى أثر .

وكان يُرَجِّل شَعْرَهُ ، ويتعهّد فمه وأسنانه ؛ وربما أبصر صُفْرَةً في أسنان بعض جلسائه ، فتوجّه إِلَى الجميع بنصيحة =

وإذا علمت أن التبرك بالشيء إنما هو طلب الخير بواسطته ووسيلته علمت أن التوسل بآثار النبي ﷺ أمر مندوب إليه ومشروع ، فضلاً عن التوسل بذاته الشريفة .

وليس ثمة فرق بين أن يكون ذلك في حياته ﷺ أو بعد وفاته ، فأثار النبي ﷺ وفضلاته ، لا تتصف بالحياة مطلقاً ، سواء تعلق التبرك و التوسل بها في حياته أو بعد مماته كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في باب شيب النبي ﷺ . ومع ذلك فقد ضل قوم لم تشعر أفئدتهم بمحبة رسول الله ﷺ وراحوا يستنكرون التوسل بذاته ﷺ بعد وفاته بحجة أن تأثير النبي ﷺ قد إنقطع بعد وفاته ، فالتوسل به إنما هو توسل بشيء لا تأثير له البتة ! وهذه حجة - كما ترى - تدل على جهل عجيب جداً ..! فهل ثبت لرسول الله ﷺ تأثير ذاتي في الأشياء في حال حياته ، حتى نبحت عن مصير هَذَا التأثير بعد وفاته ؟ ! إن أحداً من المسلمين لا يستطيع أن ينسب أي تأثير ذاتي في الأشياء لغير الله الواحد الأحد ﷻ ، ومن اعتقد خلاف هَذَا يكفر بإجماع المسلمين كلهم .

فمناط التبرك و التوسل به أو بآثاره ﷺ ، ليس هو إسناد أي تأثير إليه ، والعياذ بالله ، وإنما المناط ،

= عامة ، ونقد رفيق ، وقال : ((مالكم تأتونني قُلْحاً لا تتسوّكون ؟)) . هَذَا هو محمد عليه الصلاة والسلام ، في بعضها تتحدث عنه شائله المعبرة عن سمو أخلاقه ، ورِقَّة شعوره ، وشفافية ذوقه ، ونبَل إحساسه . فهل ترى في هذه اللوحة الإنسانية النموذجية ، مساحة ما ، لقبول أي عبث أو تزوير وتشويه ؟

إذاً فليس في شيء من حديث عروة ابن مسعود الثقفي عن حب الصحابة لرسولهم ، ما يلحق بالرسول أي منقصة في طبعه أو يصمه بأي غلظة في تعامله وسلوكه ، أو يبرزه في مظهر المدلل زهواً على أصحابه ، أو الدافع لهم إلى ما فعلوا . فإذا أراد هَذَا الرجل أن يتحوّل ، بعدئذ ، بالنقد والاشمئزاز إلى أولئك الناس الذين ساقهم الحب إلى ما صنعوا ، فإن عليه أن يتبين قبل كل شيء خصمه الحقيقي الذي أثار في نفسه بواعث النقد والاشمئزاز حتى لا يتهم البرآء ظلماً وعدواناً . وإنما خصمه في هذه الدعوى هو الحب !...

الحب هو الذي حمل أولئك الناس على فعل ما وصفه عروة ابن مسعود ، وفعل ما هو أبلغ من ذلك !.. والحب ، هو الذي لئن تحت سلطانهم الحديد ، وقرب إليهم البعيد ، وجعل المستحيل بين أيديهم ممكناً ، وجعل القبح جميلاً ، والملح الرعاق حلواً طيب المذاق !..

هَذَا هو شأن الحب ، وذلك جبروته وسلطته . إهـ ، فقه السيرة ص : [٢٣٨ - ٢٣٩] .

كونه صلى الله عليه وآله أفضل الخلائق عند الله عَلَى الإِطْلَاق ، وكونه رحمة من الله للعباد فهو التوسل بقربه صلى الله عليه وآله إِلَى ربه ، وبرحمته الكبرى للخلق .

وبهَذَا المعنى توَسَّل الأعمى به صلى الله عليه وآله في أن يردّ عليه بصره ، فردّه الله عليه ^(١) ، وبهَذَا المعنى كان الصحابة يتوسلون بآثاره وفضلاته دون أن يجدوا منه أيّ إنكار .

وقد مرّ في الكتاب بيان الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى وأهل بيت النبوة في الاستسقاء وغيره ، وأن ذلك مما أجمع عليه جمهور الأئمة و الفقهاء بما فيهم الشوكاني وابن قدامة الحنبلي ، والصنعاني وغيرهم . والفرق بعد هَذَا بين حياته وموته صلى الله عليه وآله خلط عجيب وغريب في البحث لا مسوّغ له ^(٢) .



(١) حديث توَسَّل الأعمى برسول الله صلى الله عليه وآله ، ورجوع بصره إليه ، حديث صحيح رواه الترمذي والنسائي والبيهقي وغيرهم عن عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ رضي الله عنه أن رجلاً أعمى جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وهم جلوسٌ معه، فَشَكَاَ إِلَيْهِ ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ ، فَقَالَ: لَيْسَ لِي قَائِدٌ، وَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ فَقَدْ بَصْرِي، فَقَالَ: « ائْتِ المِيضَاةَ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي لِتَقْضِي لِي ، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ » ، وفي بعض الروايات بزيادة : فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ . قَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: فَوَاللَّهِ مَا تَفَرَّقَ بِنَا المَجْلِسِ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا فَكَانَ بَصِيرًا .

(٢) فقه السيرة ص : [٢٣٨ - ٢٤١] .



إن أخلاق النبي ﷺ مما تفتنى الأعمار في تحريرها ، ولا تزال فيها فيوضٌ لمستدرِك على سابقيه ،
أو متعقب على من عني بالتأليف فيها، وصدق الإمام البوصيري حين قال :

دَعَّ مَا أَدَعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ واحكم بما شئتَ مدحاً فيه واحتكم
وأنسب إلى ذاته ما شئتَ من شرفٍ وأنسب إلى قدره ما شئتَ من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حدٌ فيُعرب عنه ناطقٌ بفم

ومن خلال هذه السطور الآتية والتي تتحدث عن أخلاق رسول الله التي أنبأنا عنها القرآن الكريم ، وتحدثت عنها السنة المطهرة ، - لأننا سنتحدث عن كيفية تعامله ﷺ مع المجتمع كله - ، وما كان هذا التعامل إلا لأن النبي ﷺ تمثل بالأخلاق العالية .

فالنبي ﷺ تمثل بأخلاق القرآن العظيم في ذاته وسلوكه مع ربه ونفسه ، في بيته ومجتمعه ، كأوفى ما يكون التمثل وأعظمه ، وبذلك وافق الخبر الخبر ، واتضح لنا ما كان خافياً عن الإدراك والنظر ، وتجلت لنا حقائق كثيرة ما كان عندنا فيها خبر .

ومن أبرز ما تجلّى لنا في ذلك من حقائق ونتائج ، ما نسطره ونختصره في المجالين الآتين:

الأول : منزلة الأخلاق العظيمة في الإسلام ، وتجلت لنا في هذا المجال نتائج كثيرة منها :

(١) إن من غايات بعثة رسول الله ﷺ تزكية أخلاق الأمة كما نطقت بذلك آيات كثيرة ،

وأحاديث شهيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا

وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ١٥١].

قوله ﷺ: ((إنها بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))^(١) يتبين لنا:

(أ) أنه لم يبق حال من أحوال المرء في حياته إلا وقد صبغه الإسلام بصبغة الأخلاق كما دلت عَلَى ذلك الدلائل الكثيرة ، حتَّى العبادات المحضة فإنها ذات صبغة أخلاقية واضحة كما علم فيها بابه .

(ب) إن السياسة والقيادة في الإسلام قائمة عَلَى مكارم الأخلاق في صغيرها وكبيرها، مما يتعلق بالفرد أو الجماعة، أو الأمة المسلمة ، أو العلاقات الخارجية مع الأمم الأخرى ، بخلاف ما تواضع عليه طواغيت البشر من عزل الأخلاق عن هذه المواطن ذات التأثير البالغ في الناس .

الثاني: مبلغ عظمة أخلاق النبي ﷺ ، وتتجلى لنا فيه حقائق ونتائج كثيرة منها:

(١) أن عظمة أخلاق النبي ﷺ كانت معلومة منذ شب وترعرع ، حيث أدبه ربه ، ونشأ عَلَى مكارم الأخلاق لا يرضى عنها بديلاً .

(٢) أنه ﷺ كان يترجم القرآن العظيم بسلوكه في باطنه وظاهره، وأقواله وأفعاله وأحواله ، وأن سلوكه كله كان مرآة لعظمة القرآن كله .

(٣) توازن أخلاقه ﷺ بحيث كانت جميعاً كأنها في قلب واحد تتعاون ولا تتناقض ، في ذاته وأفعاله ﷺ .

(٤) ثبات أخلاقه ﷺ ثبوتاً راسخاً مدة حياته بحيث لم يحصل منه ما يناقض أخلاقه العظيمة في أي حال من الأحوال .

(٦) عظيم الأثر الذي تركته أخلاقه ﷺ في نفوس مشاهديه أو قارئيه سيرته من أمتة أو غير أمتة ، في حياته وبعد وفاته ﷺ .. إِلَى غير ذلك من النتائج التي كانت تمر أثناء القراءة والبحث ، وَعَلَى ضوء هذه النتائج الواضحة والمهمة التي دلّتنا عَلَى خطر الأخلاق ، وضرورتها في الحياة

(١) أخرجه البيهقي عن أبي هريرة ؓ .

الإنسانية ، وأهميتها القصوى فيها ، عَلَى مستوى الفرد والمجتمع والسائس والمسوس ، في الدين والدنيا .

وإذا أردنا أن نلقي نظرة عامة عَلَى أخلاق النبي محمد ﷺ ، وأن نطل عَلَى هذه المكارم من أفق واقعي ، فعلينا أن نعود إِلَى واقعه ، وكيف كان يعيش ، كيف كان يعامل الناس ، كيف كان يحادثهم ، كيف كان يتعامل في لحظات الغضب والرضا ، كيف كان يعامل العدو والحبيب عند القضاء ، وكيف كان يدعو إِلَى سبيل ربه . كل هذه الأمور ، لابد وأن ينظر الباحث عنها بعين بصيرة وعقل ناضج ، قبل أن ينظر إليها بقلب ينبض بحب هَذَا الرجل العظيم ﷺ .

والباحث في سيرة النبي ﷺ ، حين يتعامل معها بموضوعية تامة ، سيجد ما يجعل قلبه يتعلق به ، وإن كان من مبغضيه . فقد كان ﷺ جامعاً لمكارم الأخلاق كلها ، وكيف لا وهو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ؟ .

دعوة النبي ﷺ إِلَى مكارم الأخلاق .

كما كان النبي ﷺ يتمتع بأجل الأخلاق ، فقد أراد للبشرية أن تتمتع بهذه الأخلاق السامية ، فراح يدعو إِلَى مكارم الأخلاق ، ويبين فضلها ؛ حَتَّى يتهافت الناس إِلَى نيلها ، والتمتع بها ، لتعيش البشرية في هناء وهدوء .

وكان النبي ﷺ يكثر من الحديث عن فضل حُسن الخلق ، وعن حبه لذوي الأخلاق الحسنة ، وعن قيمة الأخلاق في حياة المسلم وآخرفته ؛ ومن أمثلة ذلك : أوضح النبي لمن حوله أن الخيرية المطلقة تنبع من حسن الخلق . قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا »^(١) .

هذه الخيرية التي ضمنها النبي ﷺ لفئات معينة من الناس ، اقترنت بحسن الخلق ، وهي دعوة من النبي ﷺ للتمسك بحسن الخلق ، من أجل أن نصبح ممن شهد لهم النبي بهذه الخيرية . وقد

(١) رواه أحمد والبخاري وغيرهما ..

قرن النبي ﷺ حبه لمن حوله وشدة هذا الحب بأن يكونوا ممن يتمتعون بحسن الخلق، فعن أبي ثعلبة رضي عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَبُّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي، مُحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرَثَارُونَ، الْمُتَشَدِّقُونَ، الْمُتَفِيهِقُونَ»^(١).

فهي دعوة لكل أتباعه ومحبيه: إن أردت أن يحبك المصطفى ﷺ، فما عليك سوى أن تتمتع بحسن الخلق، فتضمن حُبَّ هذا الحبيب بإذن الله. ومن منا لا يسعى لأن يكون مكتمل الإيمان؟ من منا لا يريد أن يهنا بهذا الأمر؟ إذا أردنا أن نكون من مكتملي الإيمان، فحسن الخلق وسيلتنا الوحيدة إلى ذلك. وهذا ما أوضحه لنا النبي ﷺ حين قال «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»^(٢).

قد يعتقد البعض أن الدين الإسلامي دين يحننا على العبادة من صلاة وصيام وزكاة، وما إلى ذلك فقط، وأنا إن فعلنا ذلك، ستفتح لنا أبواب الجنان على مصراعها، ولكن النبي ﷺ يعلمنا أن العبادة التي لا يتمتع صاحبها بحسن الخلق، ليست هي ما يأمرنا الله به، بل قد يكون هناك عابد معذب في النار بسبب سوء خلقه.

فعن أبي هريرة رضي عنه، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذَكِّرُ مِن كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهُ تُوذِي جِرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذَكِّرُ مِن قَلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدِّقُ بِالْأَنْوَارِ مِنَ الْأَقْطِ، وَلَا تُؤْذِي جِرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ»^(٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ خُذْ مَا تَيْسَّرَ، وَاتْرُكْ مَا عَسَرَ، وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللَّهُ: هَلْ

(١) رواه أحمد والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) رواه أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي هريرة رضي عنه .

(٣) رواه أحمد في المسند .

عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لِي غَلَامٌ، وَكُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا بَعَثْتُهُ يَتَفَاضِي، قُلْتُ لَهُ: خُذْ مَا تَيْسَّرَ، وَاتْرُكْ مَا تَعَسَّرَ، وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. قَالَ اللَّهُ: فَقَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ»^(١).

أما المسلم ذو الخلق القويم، فقد يبلغ درجة الصائم القائم بحسن خلقه، وإن كانت عبادته تقتصر على الفرائض فحسب؛ يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(٢).

والنبي ﷺ يعزز لنا قيمة الخلق القويم ويحببه إلينا، حين يعلمنا أن حسن الخلق سبب لثقل ميزاننا يوم الدين؛

رَوَى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِاللَّعَانِ، وَلَا الطَّعَانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَدِيءِ» وَرَوَى الترمذي أيضاً عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَدِيءَ».

ليس ذلك فحسب، بل هو يخبرنا بأن أكثر أهل الجنة من ذوي الأخلاق الكريمة، عن أبي هريرة، قال: قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَكْثَرُ مَا يَلِجُ بِهِ النَّاسُ النَّارَ؟، قَالَ: «الْأَجْوَفَانِ: الْفَرْجُ وَالْفَمُ» قِيلَ: فَمَا أَكْثَرُ مَا يَلِجُ بِهِ النَّاسُ الْجَنَّةَ؟، قَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(٣).

ثم يخبرنا بالهدية العظيمة، وهي حب الله لنا إن نحن سرنا في طريق الخلق القويم، وإن نحن كنا ممن يتمسكون بمكارم الأخلاق؛

قال الصحابة في حديثٍ ..، قالوا: فَمَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٤).

(١) رواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه النسائي وغيرهما .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) رواه الطبراني وغيره ..

هذه الأخلاق التي كانت طبيعة في شخصية النبي ﷺ ، وهذه الدعوة لنيل مكارم الأخلاق، تضع أيدينا على حقيقة هذا الدين وحقيقة شخصية حامل رسالة هذا الدين، وكيف أن هذه الرسالة رسالة الأخلاق أولاً وأخيراً.

وهذه الأخلاق النبوية نحتاجها كلنا وهي المعادل الثالث في كل حياتنا ؛
 فمنهج الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ونشر الإسلام في العالم ؛ لابد من
 انتهاجها ثلاثة ثوابت مع كل مرحلة وزمن والثوابت هي :
 (١) كتاب الله . (٢) سنة رسول الله ﷺ . (٣) الأخلاق النبوية .
 ولهذا فإن المعادل الثالث وهي ما عُبر عنها (بأخلاق النبوة) تُعد عاملاً مهماً في إنجاح
 الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فدعوة للكتاب والسنة من غير أخلاق جنوح
 وتعدٍ وتطرف ..





لماذا نبحت في هذه السيرة العطرة؟ ولماذا نُبيِّن للناس تعامل النبي ﷺ؟ ولماذا نجمع هذه الفصول والمباحث..؟

من أجل أن نجد القدوة العلياء والمثلى في هذا الوجود للجميع؛

وأعظم قدوة وأسوة في هذا الوجود على الإطلاق هو: حبيب رب العالمين، وسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ. فالرسول ﷺ قدوتنا.. نعم، "الرسول قدوتنا" قولاً وفعلاً وتطبيقاً؛ وهكذا نسعى جاهدين إلى أن نكون به مقتدين؛ وسأبيِّن هذه الأهمية في الآتي:

إن وجود القدوة الحسنة في حياة الأمم والشعوب والدعوات ضرورة حتمية، ليقتدى بها وتكتسب منها المعالم الإيجابية في الحياة، سواءً مع الله تعالى في أداء العبادات والفرائض، أو مع النفس وتزكيتها وتربيتها على الأخلاق الفاضلة، أو مع الأهل والأبناء داخل الأسرة من أجل بناء أسرة متماسكة، أو مع المجتمع في أمور الدين والدنيا؛

لذلك جعل الله تعالى الرسول ﷺ قدوةً ونموذجاً يُحسِّد الدين الذي أرسل به، حتى يعيش الناس مع هذا الدين ورسوله واقعاً حقيقياً بعيداً عن الأفكار المجردة، فكان هذا الرسول عليه الصلاة والسلام خير قدوة للأمم في تطبيق هذا الدين، ليكون مناراً لها إلى يوم القيامة، لذا فإنه يجب على كل مسلم الاقتداء والتأسي برسول الله ﷺ، فالإقتداء أساس الاهتداء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ

كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

لقد كان النبي ﷺ قدوةً كاملةً في جميع جوانب سيرته، إيمانياً وعبادةً وخلقاً وسلوكاً وتعاملاً مع غيره، وفي جميع أحواله، كانت سيرته مثاليةً للتطبيق على أرض الواقع، ومؤثرةً في النفوس البشرية؛ فقد اجتمعت فيها صفات الكمال وإيحاءات التأثير البشري، واقرن فيها القول بالعمل، ولا ريب أن القدوة العملية أقوى تأثيراً في النفوس من الاقتصار على الإيحاء النظري؛ لهذه العلة أرسل الله تعالى الرسل ليخالطهم الناس ويقتدوا بهداهم، وأرسل الله ﷻ الرسول ﷺ ليكون للناس أسوةً حسنةً يقتدون به، ويتأسون بسيرته..

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَانِهِمْ آقَدَةٌ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ذلك أن القدوة لا تزال مؤثرةً، وستبقى مؤثرةً في النفس الإنسانية، وهي من أقوى الوسائل التربوية تأثيراً في النفس الإنسانية، لشغفها بالإعجاب بمن هو أعلى منها كمالاً، ولأنها مهياة للتأثر بشخصيته ومحاولة محاكاته، ولا شك أن الدعوة بالقدوة أنجح أسلوب لبث القيم والمبادئ التي يعتنقها الداعية .

إن سيدنا المصطفى الكريم ﷺ هو إمام الدعاة، وهو القدوة والأسوة والمعلم والمرى الحكيم، الذي أمر الله تبارك وتعالى باقتفاء نهجه، وأن نقتدي به في عبادتنا ودعوتنا وخلقنا وسلوكنا ومعاملاتنا وجميع أمور حياتنا، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

هكذا يجب فهم شعار: [الرسول قدوتنا] كمنهاج حياة، فمنهج الإسلام يحتاج إلى بشر يحمله ويترجمه بسلوكه وتصرفاته، فيحوّله إلى واقع عملي محسوس وملمس، ولذلك كان ﷺ الصورة الكاملة للمنهج.

وهكذا ينبغي أن نتعامل مع هَذَا الشعار [الرسول قدوتنا] كمشروع للتطبيق العملي علينا قبل غيرنا، اقتداءً به ﷺ في جميع مناحي حياتنا، وما المناهج والبرامج العملية والحركات والسكنات إلا لتحقيق هَذَا المشروع عملياً، وتحويله لواقع ملموس يَرَى أثره عليهم سلوكاً وتطبيقاً.

لذا وجب الاقتداء بالمصطفى ﷺ في جميع مسارات الحياة دون استثناء؛ في البيت والمجتمع والقيادة والدعوة والإرشاد، والعمل الحثيث عَلَى تحقيق هَذَا الاقتداء والتأسي.

الحبيب ﷺ قدوة في بيته :

إن عَلَى أفراد الأمة بكل فئاتها وطوائفها اتباع منهج النبي الداعية ﷺ ، في بيته ودعوته وسيرته ومسيرته، والتخلُّق بأخلاقه، والتعامل مع الأهل والأبناء والأصحاب، كما تعامل النبي الأمين ﷺ ، وفي هَذَا رضا الله واستجلاب لثواب الاقتداء بخير خلق الله. فلقد انبثقت سائر أعماله عليه الصلاة والسلام من قوله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وكان هَذَا الخلق واضحاً جلياً في سيرته العطرة في جميع مناحي حياته الأسرية مع زوجاته وبناته وأحفاده ؛ حيث كان يحدِّثهم بأطيب الكلمات وأرقِّ التعابير، وكان يلاعبهم ويلطفهم، ويدخل السرور عَلَى قلوبهم، ويعدل بينهم ولقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خُلُق النبي ﷺ حين قالت: « كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ » ، وسنَّين ذلك في ذكر نماذج عديدة في تعامله ﷺ مع أهل بيته بجميع مكوناته في الأبواب الآتية .

الحبيب ﷺ قدوة في مجتمعه :

لقد كان عليه الصلاة والسلام عَلَى درجة رفيعة من الخلق والوعي الكبير والحب العظيم في التعامل مع مجتمعه، فلم يكن يستعلي عَلَى أحد منهم، يقابلهم بالوجه الحسن المبتسم، ويشاركهم

في أفراحهم وأتراحهم، ويهتَمُّ بقضاياهم، ويسعَى لخلها، ويساوي بينهم جميعاً دون تمييز أو تفریق، عرباً كانوا أو عجماً، صغاراً كانوا أو كباراً؛

ومن هنا استمد المجتمع قوته وصلابته واستحالته على الهزيمة والانكسار وهذا ما سنعرفه في الصفحات القادمة والتي هي المقصود من هذا الكتاب بتعامل النبي ﷺ مع المجتمع .
لذا يجب أن يقتدي المجتمع المسلم بجميع عناصره بالمصطفى ﷺ ، فلا يتكبر على عباد الله ولا يظلمهم ولا يغشهم ولا يصعب أمورهم، ويتواصى بالحق ويتواصى بالصبر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ حتى يطمئن الناس إلى بعضهم البعض، وتزداد ثقتهم ببعض، فيزول من المجتمع البغض والكراهية، ويحل الوئام والمودة، ومن ثم ينتصر ويحقق ما يصبوا إليه من آمال وطموحات.

الحبيب ﷺ قدوة في القيادة :

في هذا العصر أهدرت حقوق الإنسان وحرية، واستُبيحت حرمانه، وحلّت الوحشية محلّ الرحمة، والرذيلة محلّ الفضيلة، وجميعها معاول هدم ودمار على العالم..
هي في الحقيقة من نتائج غياب عدم الاقتداء والتخلق بالأخلاق والقيم التي جاء بها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، واستئثار القادة والحكام بمصالحهم الشخصية وتسلطهم وتجبرهم في استخدام سلطاتهم وتغوّلهم على حقوق شعوبهم.
لقد اعتنى المصطفى ﷺ بالفرد كأساس لقيام الدولة، والمشروع كله تربيةً وتنشئةً وتقويةً، ومن ثم أرسى في المجتمع أسس العدل والحرية والمساواة بين جميع أفراد المجتمع، مسلمين وغير مسلمين؛

ولقد أدهشت العالمَ معاملةً رسول الله ﷺ مع أعدائه وهو متمكّن منهم، فلم يظهر في التاريخ أرحمُ منه مع أعدائه، رغم ما كان يلاقيه منهم من الأذى والعذاب والتشريد.

وكان ﷺ القائد المتواضع الرفيق بالمؤمنين ، الذي يسهر على مصالح الناس، ويستشعر قدر المسئولية الملقاة على عاتق المسئول، ويغرس لهذا الفهم في النفوس؛ فهو القائل ﷺ: «أَلَا كَلُّكُمْ رَاعٍ، وَكَلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكَلُّكُمْ رَاعٍ، وَكَلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

وعلى هذا ربي ﷺ أصحابه، فلما تولوا أمر الناس من بعده جعلوه قدوتهم في ذلك، فعزوا وسعدوا وأعزوا أمتهم ودينهم، فهذا سيدنا عمر رضي الله عنه كان حينما يعطي عماله - أي الذين سيتولون أمور الناس - خطاب التكليف.. يقول لهم: ((أيها الناس.. إن الله عظم حقه فوق خلقه))، ثم يقول: «إني لم أبعثكم أمراء ولا جبابرة، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يُقتدى بكم، فلا تمنعوا الناس حقوقهم فتظلموهم».

الحبيب ﷺ قدوة في الإصلاح والتغيير :

كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم ولد وبُعث المصطفى ﷺ؛ فالأوضاع الفاسدة والأعراف البالية التي واجهها لا تختلف كثيراً عن الأعراف والقيم التي تعيشها البشرية في الفترة الراهنة، غير أنها قد أخذت شكلاً مغايراً حينما اكتست ثوب التقدم العلمي، وتزينت بزخارف المدنية الحديثة.

فلقد واجه النبي ﷺ أوضاعاً سياسية غاية في الفساد، على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، ولمواجهتها وتغييرها أعلن منذ البداية أن الإيمان الصحيح والعقيدة السليمة هما وحدهما طريق الإصلاح وسبيل التغيير، وأرسى منذ اللحظة الأولى أهم قاعدة للإصلاح والتغيير حين قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»^(٢).

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن حبان والدارقطني وغيرهم.

وظل ﷺ يغرس الإيمان في القلوب ويزكي به النفوس ويطهر به الأفتدة، ويُقيم به بعد ذلك دعائم الدين ؛ وهذه كانت نقطة الانطلاق لتحقيق التغيير والإصلاح عَلَى كافة الجوانب وفي مستوياتها المختلفة، عَلَى أساسٍ متين من الإيمان الصحيح والفطرة السليمة في قلوب أفرادِ ربانيين، أنشأوا مجتمعًا صالحًا إيمانيًا، ودولةً فاضلةً ربانيةً، غَيَّرت وجه التاريخ.

كيفية الاقتداء :

إِنَّ أَوَّلَ خطوة عَلَى طريق الاقتداء بالنبي الكريم ﷺ هي أن نعرف بمن نقتدي وفيما نقتدي به، وذلك بمدارسة سيرة النبي الكريم وسنته ؛ حَتَّى نتعلَّم كيف كانت حياته، وكيف كانت معاملاته، وكيف كان يسير في جوانب حياته كُلِّها، فإنه ﷺ هو الإنسان الوحيد عَلَى وجه البسيطة الذي كانت حياته كُلِّها كتابًا مفتوحًا للجميع، فلم يكن في حياته الجانب الخاص الذي لا يعرفه الناس، بل إِنَّ حياته كانت معروفةً لأصحابه، بل إِنَّهَا دُوِّنت حَتَّى تقرأها أمته من بعده إِلَى قيام الساعة. فالواجب علينا الارتباط بمنهجه ، ومحاولة تكييف حياتنا بما فيها من تنوعاتٍ مختلفةٍ ؛ كي تتواءم وتماشى مع هذه القِيم العظيمة حَتَّى نجعلها حاكمةً لحياتنا ..

لذا ينبغي أن تكون قراءتنا لحياة نبينا قراءةً الباحث عن المنهج الذي يضبط له أموره ، ولا يجب أن يكون اقتداؤنا بالنبي ﷺ في جانبٍ دون آخر، أو تكون تعاملاتنا خلاف منهجه ؛ فعلى اقتداء الشامل بالنبي الكريم ﷺ في كافة الجوانب وبذل أقصى جهد لتحقيق ذلك.

إِنَّ الاقتداء الحقيقي بالنبي ﷺ يتطلَّب منّا:

العمل بسنته باطنًا وظاهرًا، وحبًّا لصاحب المنهج، ومعرفةً بمنهجه الذي نريد الاقتداء به فيه، ووعيًا بالقيم العظيمة التي نستلهمها من حياته، والتدرُّج بالنفوس شيئًا فشيئًا حَتَّى تكون صبغتها الدائمة هي الحياة عَلَى المنهج النبوي، والاسترشاد بمن اقتدى بالنبي ﷺ من المصلحين

والدعاة، ومحاولة التزام الصحبة الصالحة التي تعين على الثبات على هَذَا النهج ، ولا ننسى أن نكثر دوماً من الصلاة والسلام على النبي الخاتم ﷺ ؛

والخلاصة..

يجب أن نقتدي بالمصطفى الأمين ﷺ في كل قولٍ وفعلٍ وعمل ، وأن نكون كما يحب ربنا ويرضى ، وأن نتمثل بالحبيب في كل الأوقات ، وبخاصة قول السيدة عائشة في وصفها للمعصوم ﷺ : «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ».

فلنعيش كتاب الله وسنة المصطفى عملياً، ولنستخرج منها العبرَ والدروس، ونطبقها على أنفسنا قبل غيرنا، وأن نبذل غاية ما في وسعنا لتحقيق النموذج القدوة ولتتمثل شعار (الرسول قدوتنا) ونحوه إلى حقيقة واقعة في نفوسنا وواقعنا، وعلينا الاستعداد الذاتي المتمثل في طهارة القلب وسلامة العقل واستقامة الجوارح ؛

ولنتبن ما يمكن تسميته بـ: وِرْدِ الاقتداء ، وهو أن نبدأ بتطبيق ما نتعلمه منه ﷺ بشكلٍ تدريجيٍّ ومحاسبة أنفسنا على ذلك، وأن نجعل لنا تقييماً ذاتياً بشكلٍ مستمر، وفي كلِّ أفعالنا نسأل أنفسنا: ما الذي كان سيفعله المصطفى ﷺ لو كان في مثل هذا الموقف؟!
وبهذا يظل الرسول ﷺ حياً في نفوسنا وقلوبنا .



البَيْتِ السَّابِعِ

تَعَامُلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ جَمِيعِ فِئَاتِ الْمَجْتَمَعِ



تَعَامُلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ



تَعَامُلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

أَمَعَ نَزْوِجَاتِهِ

كما سبق وأن تحدثت عن رسول الله القدوة ، وأمر المولى ﷺ لنا بالافتداء به ، والتأسي به بقوله
تَعَالَى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١].
فمن هنا فإن على الجميع أن يعرفوا رسول الله ﷺ بحسب مواقعهم ليتمكنوا من التأسي به ﷺ .
فلا يَسَعُ الزوج إلا أن يعرف الرسول الزوج ، ولا يَسَعُ الحاكم إلا أن يعرف الرسول العادل في
حُكمه ، ولا يَسَعُ القائد إلا أن يعرف الرسول القائد القدوة .

وقد كان النبي ﷺ قدوةً كما تقدّم وسيأتي في فنّ التعامل مع الزوجة ، ونبراساً ؛ لإرشاد الناس
إلى الرقيّ بالتعامل مع الزوجة معاملةً حسنة يظهر أثرها الإيجابي في الحياة الزوجية والاجتماعية .
فقد كان ﷺ حسن العشرة مع أزواجه ؛ وخص الله تعالى رسوله سيدنا محمداً بخصائص
منها : أنه أباح له الزواج بأكثر من أربع نساء ، لمقاصد شرعية ودعوية اختصت ببيانها بعض
الكتب ، وكانت زوجاته أمهات المؤمنين على النحو التالي :

خديجة بنت خويلد ، وسودة بنت زمعة و عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر ،
وزينب بنت خزيمة الهلالية ، وأم سلمة بنت أبي أمية المخزومية ، وزينب بنت جحش الأسدية ،
وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنهن .

قال الإمام العارف بالله العلامة عبدالرحمن بن عبدالله بالفقيه في الرشفات :

وَلَيْسَ حُبُّ الطَّيِّبِ وَالنَّكَاحِ إِلَّا لَجْمَعِ الْقَلْبِ وَالْأَرْوَاحِ
وَنُسُوءَةٍ عَوْنًا عَلَى الصَّالِحِ يَرَوِينَ عَنْهُ أَكْرَمَ الْأَحْوَالِ

وكان تعامله مع زوجاته يقوم على أسس واضحة من تعاليم الإسلام، ومن ذلك ما يلي :
حبه لزوجاته وإخلاصه لهن :

كان النبي ﷺ يبادل زوجاته الحب والإخلاص، ويعاملهن على هذا الأساس، وحينما سأله عمرو بن العاص من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة؛

ولم يكن ذلك ليخجله أن يسمعه الناس وينقلوه عنه في كل زمان ومكان، بل إنه ﷺ كان يحتفظ بحبه وإخلاصه لزوجاته ولو بعد أمد طويل، فحينما حاولت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها استكشاف مكانة خديجة عليها السلام عنده بعد وفاتها لم يسعه إلا أن يذكرها بخير وبر؛

فَعَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَتْنَىٰ عَلَيْهَا، فَأَحْسَنَ الثَّنَاءِ، قَالَتْ: فَغَرْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشُّدُقِ، قَدْ أَبَدَلَكِ اللَّهُ ﷻ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ: «مَا أَبَدَلَنِي اللَّهُ ﷻ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنْتَ بِي إِذْ كَفَرْتُ بِالنَّاسِ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسْتَنِي بِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ ﷻ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»^(١).

وفي هذا درس عملي بليغ للأزواج الذين ينسون تضحيات زوجاتهم أو ينكرونها ..

حسن عشرته ﷺ لزوجاته وحرصه على إكرامهن :

كان النبي ﷺ حسن العشرة مع زوجاته، دائم البشر، حريصاً على إدخال السرور إلى نفوسهن، يجلس إليهن، ويأكل معهن، ويحادثهن، ويبازحهن، ويشاورهن، ويستمع إليهن، ويواسيهن، ويطمئن عليهن، ويتغاضى عن تقصيرهن وأخطائهن، عملاً بقول الله تعالى :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء ١٩].

وحيثما جاءت زوجته صفية بنت حبي تزوره أثناء اعتكافه في المسجد، قام يودعها حتى جاوز بها باب المسجد احتفاءً بها وإكراماً لها واطمئناناً عليها ، وطالما كان يوصي بالنساء خيراً ويقول: «لَا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»^(١) . وقد عاش رسول الله ﷺ مع زوجاته الطاهرات حياة سعيدة طيبة، تمثل تطبيقاً علمياً دقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء ١٩]. والمعروف كلمة جامعة لكل فعلٍ وقولٍ وخلقٍ نبيلٍ.

والنبي ﷺ كان خير الناس في تعامله مع زوجاته، كيف لا وهو القائل: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٢)، فكان ﷺ حلواً للمعاشرة لزوجاته، حسن التعامل معهن، وقد بدا ذلك واضحاً في سيرته ﷺ معهن.

ولو اقتدى الناس بالنبي ﷺ في تعامله مع زوجاته؛ لانحلّت كثيرٌ من المشكلات الزوجية التي نسمع عنها اليوم، فإن المرء ليعجب من كثرة ما يرى ويسمع ويقرأ من المشكلات الزوجية التي تعاني منها الأسر والبيوت، وتشير الإحصائيات إلى أن معدّل الطلاق في العالم الإسلامي وصل إلى حدٍّ مخيفٍ، وفي ازدياد مستمرٍّ؛

ومع هذه المشكلات الزوجية، وكثرة حالات الطلاق نحتاج أن نستعرض كيف كانت الحياة في بيت النبوة، وكيف كان رسول الله ﷺ يعامل زوجاته، وكيف كان يصبرُ عليهن؛ ويتغاضى عن بعض أخطائهن؛ فإن لنا في رسول الله ﷺ أسوةً حسنةً.

وفي مجمل صفاته وحسن عشرته مع زوجاته وإكرامه لهن يصدق قوله: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي».

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ؓ .

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن حبان وغيرهم ..

قيامه ﷺ بحقوقهن في النفقة والرعاية : كان النبي ﷺ حريصاً على القيام بحقوق زوجاته المادية والمعنوية، من نفقة، ومسكن، ومبيت، ومأكل، وملبس، ونحوه مما تحتاجه الزوجة، عملاً بقول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة / ٢٣٣].

وقد روي عنه ﷺ فيما رواه عن العزْباضِ بْنِ سَارِيَةَ التَّمِيمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَقَى امْرَأَتَهُ الْمَاءَ أَجَرَ» قَالَ: فَكُنْتُ إِلَيْهَا فَسَقَيْتُهَا مِنَ الْمَاءِ، وَأَخْبَرْتُهَا بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١).

فضل ثواب الإنفاق على الأهل : فقد روى أبو هريرة رضي عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ» (٢).

وكان ﷺ يتفقد زوجاته، ويرعاهن، ويؤنسنهن، ويتلطف بهن، وينام مع المرأة من نسائه في فراش واحد، ويعلمهن أمور دينهن، وينصحهن، ويوجههن إلى سبيل الخير، فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي عنها، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَاذَا أَقُولُ؟ فَقَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» ؛

وهو بعد كل هذا يحذر من تضييع الأهل، أو التقصير في القيام باحتياجاتهن ومطالبهن فيقول : «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ» (٣).

فمن مبادئ الإسلام السامية أنه اعتبر النساء شقائق الرجال، ومن هذا المنطلق قامت أم المؤمنين عائشة رضي عنها تصف أحوال النبي ﷺ في بيته بأنه كان يعمل بيده، كما يعمل أحدكم في بيته، يخدم أهله، ويحيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، كما كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، يتغافل عما لا

(١) رواه أحمد والطبراني وابن أبي شيبة ..

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وأبو داود ..

يشتهي، ولا يتكلم في غير حاجة، برغم المكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة التي يتمتع بها الرسول الكريم ﷺ، فهو سيّد البشر، وهو أول شافعٍ ومشفّع، فإن الرّقة التي كان يتعامل بها مع زوجاته تفوق الوصف.

وكذلك زوجاته فإن بيت النبوة كانت تعترضه بعض الخلافات والمناوشات بين الحين والآخر، إلا أن ثمة فارقاً مهماً ينبغي أن نلتفت إليه وهو أن الله ﷻ قد جعل رسولنا الكريم هو القدوة والأسوة الحسنة، وهو نعم القدوة ونعم الأسوة، فقد قال عنه ربنا في كتاب يُتلى إلى يوم الدين:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ولذلك إذا استعرضنا المواقف الخلافية "بين النبي ﷺ وأزواجه فسنبجد تصرفاته نموذجاً يجب على كل مسلم ومسلمة أن يهتدي به حتّى ينالوا السعادة في الدنيا والآخرة.

ففي صحيح مسلم تروي لنا السيدة عائشة أم المؤمنين رضيها طرفاً من أخلاق رسول الله فتقول:

«مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ ﷻ».

وعندما يشتد الغضب يكون الهجر في أدب النبوة أسلوباً للعلاج، فقد هجر الرسول ﷺ زوجاته يوم أن ضيقن عليه في طلب النفقة، حتّى عندما أراد الرسول الكريم أن يُطلق إحدى زوجاته نجاهه ودوداً رحيماً؛

فتحكي (بنت الشاطيء) في كتابها (نساء النبي ﷺ) ذلك الموقف الخالد قائلة عن سودة بنت زمعة رضيها أرملة مسنة غير ذات جمال، ثقيلة الجسم، كانت تحس أن حظها من قلب الرسول هو الرحمة وليس الحب، وبدا للرسول آخر الأمر أن يسرحها سراحاً جميلاً كي يعفيها من وضع أحس أنه يؤذيها ويجرح قلبها، وانتظر ليلتها وترفق في إخبارها بعزمه على طلاقها.

وفي رواية أخرى أنه قد بعث إليها ﷺ فأذهلها النبأ ومدت يدها مستنجدة فأمسكها رسول الله ﷺ، وقالت: والله ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني يوم القيامة زوجة

لك وقالت له: أبقني يا رسول الله، وأهب ليلتي لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ فيتأثر عليه السلام لموقف سودة العظيم فيرق لها ويمسكها ويبقيها ويعطينا درساً في المروءة رضي الله عنها.

وكان عليه السلام في تعامله مع زوجاته رؤوفاً رحيماً، فكان مع العديد من زوجاته كسيدتنا عائشة رضي الله عنها، تقول: (وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب)، (وإذا تعرقت عرفاً، وهو العظم الذي عليه اللحم أخذه فوضع فمه على موضع فمها)، (وكان يتكئ في حجرها ويقبلها وهو صائم) ..

الخلاصة: انظر معي إلى كيفية تعامل الرسول عليه السلام مع زوجاته في الآتي:

(١) يعرف مشاعرها وأحاسيسها:

كان رسول الله عليه السلام يقول لعائشة رضي الله عنها: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي» قالت فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟

قال: «أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد وإذا كنت غضبي، قلت: لا، ورب إبراهيم» قالت قلت: أجل، والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك^(١).

(٢) يقدر غيرتها وحبها: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنهم كانوا يوماً عند رسول الله عليه السلام في بيت عائشة زوج النبي عليه السلام و عليه السلام قال: فبينما نحن عند رسول الله عليه السلام إذ أتى رسول الله عليه السلام بصحفة خبز ولحم من بيت أم سلمة رضي الله عنها، فوضعت بين يدي النبي عليه السلام، فقال: «ضعوا أيديكم». فوضع نبي الله عليه السلام ووضعنا أيدينا، فأكلنا، وعائشة تصنع طعاماً عجلة (مُعجَلَةً)، فدارت الصحفة التي أتت بها، فلما فرغت من طعامها جاءت به فوضعت به، ورفعت صحفة أم سلمة، فكسرتها، وقالت وقالت ..

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّوا بِاسْمِ اللَّهِ غَارَتْ أُمَّكُمْ»، ثُمَّ أُعْطِيَ صَحْفَتَهَا أُمُّ سَلَمَةَ وَقَالَ: «طَعَامٌ مَكَانَ طَعَامٍ، وَإِنَاءٌ مَكَانَ إِنَاءٍ»^(١).

٣) يتفهم نفسياتها وطبيعتها: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلَا يُوْذِي جَارَهُ، وَاسْتَوْصَا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضَلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضَّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ؛ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ»، وفي طريق: «الْمَرْأَةُ كَالضَّلَعِ: إِنْ أَقْمَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»^(٢).

والحديث ليس على سبيل الذم كما يفهم العامة بل لتفهيم وتعليم الرجال، وفي الحديث فهم عجيب لطبيعة المرأة وفيه إشارة إلى إمكانية ترك المرأة على اعوجاجها في بعض الأمور المباحة، وألا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص كفعل المعاصي وترك الواجبات.

٤) يشتكي لها ويستشيرها: وفي الوقت الذي ينظر فيه الرجال إلى النساء على أنهن ناقصات عقل ودين، وأنه لا يجب أن يأخذ برأيهن ..

لم يجعل الرسول الكريم وقائد الأمة العظيم ﷺ في الأخذ برأي زوجته؛ ويتجلى ذلك في استشارته ﷺ لأم سلمة في صلح الحديبية عندما أمر أصحابه بنحر الهدى و حلق الرأس فلم يفعلوا، لأنه شق عليهم أن يرجعوا، ولم يدخلوا مكة، فدخل مهموماً حزينا على أم سلمة في خيمتها فما كان منها إلا أن جاءت بالرأي الصائب فقالت:

اخرج يا رسول الله فاحلق وانحر، فحلق ونحر، فإذا بأصحابه كلهم يقومون قومة رجل واحد فيحلقون وينحرون.

(١) رواه الطبراني ...

(٢) رواه البخاري ..

٥) يظهر محبته ووفاءه لها : ربما انتاب المرأة القلق على حياتها مع من تحب ، فطبيعة المرأة النفسية تجعلها قلقة من حين إلى آخر على مكانتها لدى زوجها، وعلى مشاعر زوجها تجاهها مما يجعلها تبدي أنواعاً من السلوك لا تتفق مع طبيعتها التي اعتادها زوجها.

ودواعي الرحمة تقتضي أن يبتّ الزوج مشاعر الاطمئنان في قلب زوجته، حتى لو كانت ظنونها لا أساس لها من الصحة، لا أن يصفها بالقلقة أو المتشائمة، أو أن يستغل هذا القلق لصالحه فيزيد من قلقها من أجل استمتاع يجده في قلقها على مكانتها لديه ؛

فالمرأة تبحث دوماً عن الأمان، وربما تحاول أن تنتزع كلمة من زوجها تؤكد لها استمرار ذلك الأمان ، ولهذا ما كان مع السيدة عائشة رضي الله عنها حين حدثت عن النبي ﷺ قوله لها في حديث أم زرع الطويل والذي رواه البخاري: «كُنْتُ لِكَ كَأَبِي زَرَعٍ لِأُمِّ زَرَعٍ»، أي : أنا لك كأبي زرع في الوفاء والمحبة فقالت عائشة بأبي وأمي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَلْ أَنْتَ خَيْرٌ لِي مِنْ أَبِي زَرَعٍ ؛

فيا له من ذكاء وذوق رفيع للتعامل مع المرأة برحمة وتقدير لمشاعرها ونفسياتها في شتى الظروف والمواقف ، يعرف ما يثير قلق زوجته فيرحم ضعفها تجاه هذا القلق ويمنحها أماناً لا مثيل له . وهناك مثال آخر في سيدتنا خديجة عليها السلام ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : «لَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيَّ خَدِيجَةَ حَتَّى مَاتَتْ»^(١).

٦) يختار أحسن الأسماء لها : كان يقول ﷺ لـ عائشة «يَا عَائِشُ هَذَا جَبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. قَالَتْ: وَهُوَ يَرَى مَا لَا أَرَى^(٢).

وكان يقول لعائشة رضي الله عنها أيضاً: يا حميراء، والحميراء تصغير حمراء يراد بها البيضاء^(٣).

(١) رواه مسلم ..

(٢) رواه مسلم ..

(٣) رواه ابن ماجه والطبراني والبيهقي .

(٧) يأكل ويشرب معها : هَذَا النَّبِيُّ ﷺ المحب لزوجته ، يعلم الرجال أدب المعاشرة مع الأزواج، حين تشرب عائشة، فيبحث عن موضع فمها، ليشرب منه ؛

صورة جميلة حقاً، تأتينا من رجل يحمل أعباءً لا مثل لها ، ومع ذلك، لا تطغو عليه أعباء وهموم الحياة ، ولا تُؤثِّرَ عَلَى بيته ، صورة تعلمنا كيف يكون التعامل بحبٍ ومعاشرةٍ مع شريك الحياة.

(٨) لا يتأفف من ظروفها : تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : (كُنْتُ أُرْجِلُ رَأْسَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا

حَائِضٌ)^(١) ، وَهَذَا مِنْ خُلُقِ الْمُصْطَفَى ﷺ أَنَّهُ لَا يَتَأَفَّفُ مِنْهَا حِينَ تَأْتِيهَا الدُّورَةُ الشَّهْرِيَّةُ كَمَا يَفْعَلُ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ ، حَتَّىٰ وَصَلَ بَعْضُهُمْ لَهْجِرَانِ زَوْجَتِهِ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ مِنْ حَيْضَتِهَا ..

(٩) يتكى وينام عَلَى حجرها :

تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَكِي فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ^(٢) .

(١٠) يتنزه معها ويصطحبها :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ ، سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ مَعَهَا ، الْحَدِيثُ^(٣) .

(١١) يساعدها في أعباء المنزل : وفي وقت ينجل كثير من الرجال من مساعدة زوجاتهم معتقدين أن ذلك قد يقلل من مكانتهم ، نجد رسولنا الكريم لا يتأخر أبداً عن مساعدة زوجاته ، فقد روي عن السيدة عائشة في أكثر من رواية أنه كان في خدمة أهل بيته .

فَعَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ بَرِيدٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ : أَيُّ شَيْءٍ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ؟ قَالَتْ : «كَانَ يَكُونُ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ قَامَ فَصَلَّىٰ»^(٤) ؛ وفي حادثة أخرى عَنْ عُرْوَةَ ، قَالَ :

(١) رواه ابن ماجة . والتزجيل : يعني تُسْرَحُ شعره ..

(٢) إنما مراد عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : أن قرب الطاهر من الحائض لا يمنع من القراءة . فتح الباري (١٩ / ٢) .

وأيضاً إنما مراد عائشة : أن قرب الطاهر من الحائض لا يمنع من القراءة . فتح الباري لابن رجب (١٩ / ٢) .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه أحمد والنسائي وابن حبان والترمذي وقال : « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ » .

قُلْتُ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: «مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَحْيِطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْفَعُ دَلْوَهُ»^(١).

(١٢) يقوم بنفسه تخفيفاً عليها :

عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: «مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَحْيِطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْفَعُ دَلْوَهُ»^(٢).

(١٣) يتحمل من أجل سعادتها :

عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ: ((أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَيْهَا فِي أَيَّامٍ مِنِّي، وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ تُغْنِيَانِ وَتَضْرِبَانِ بِدِفْيَنٍ - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسَجَّى بِثَوْبٍ عَلَى وَجْهِهِ، لَا يَأْمُرُهُنَّ وَلَا يَنْهَاهُنَّ - فَنَهَاهُنَّ أَبُو بَكْرٍ، فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ وَجْهِهِ الثَّوْبَ وَقَالَ: دَعْنِي يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّهَا أَيَّامٌ عِيدٍ))^(٣).

(١٤) يعطيها حقها عند الغضب : وفي عصر تمتد فيه أيدي الأزواج إلى نساءهم إذا ما أخطأن، ننظر إلى حكمة الرسول ﷺ ورفقته ولطفه في التعامل مع نساءه إذا ما حدث أي خلاف بينه وبين زوجاته ؛ فعن النعمان بن بشير، قال: جاء أبو بكرٍ يستأذن على النبي ﷺ، فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله ﷺ، فأذن له، فدخل، فقال: يا ابنة أم رومان وتناولها، أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟ قال: فحال النبي ﷺ، بينه وبينها، قال: فلما خرج أبو بكرٍ جعل النبي ﷺ يقول لها يترضاها: «ألا ترين أنني قد حُلْتُ بين الرجل وبينك». قال: ثم جاء أبو بكرٍ، فاستأذن عليه، فوجده يضاحكها، قال: فأذن له، فدخل، فقال له أبو بكرٍ: يا رسول الله أشركاني في سلمكم، كما أشركتاني في حربكم^(٤).

(١) صحيح ابن حبان ..

(٢) صحيح ابن حبان ..

(٣) رواه أحمد والترمذي والطبراني وابن حبان.

(٤) رواه أحمد والطبراني ..

(١٥) يهدي ويتودد لأحبتها :

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها ، قَالَتْ: مَا غَرْتُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ، إِلَّا عَلَى خَدِيجَةَ وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، فَيَقُولُ: «أَرْسَلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ» قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: خَدِيجَةَ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنِّي قَدْ رَزَقْتُ حُبَّهَا»^(١).

(١٦) يمتدح ويشكر فيها :

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمَلَمَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ، كَفَضْلِ الشَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»^(٢).

(١٧) يفرح عند فرحها :

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها ، أَنَّهَا كَانَتْ تَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَتْ: وَكَانَتْ تَأْتِينِي صَوَاحِبِي فَكُنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَتْ: «فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَرِّمُهُنَّ إِلَيَّ»^(٣).

(١٨) يسعد بفرحها ولعبها :

عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها ، أَنَّهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ ﷺ وَأَنَا أَلْعَبُ بِاللُّعْبِ، فَرَفَعَ السِّتْرَ، وَقَالَ: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟» فَقُلْتُ: لُعْبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى بَيْنَهُنَّ؟» قُلْتُ: فَرَسٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: «فَرَسٌ مِنْ رِقَاعٍ لَهُ جَنَاحٌ؟» قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَلَمْ يَكُنْ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ حَيْلٌ لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٤).

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهما ..

(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي ، ومعنى: (ينقمعن) أي يتغيبن حياء منه وهيبة وقيل يدخلن في بيت ونحوه وهو قريب من الأول (يسرمن) أي يرسلهن].

(٤) رواه ابن حبان ..

(١٩) يعلن حبه لها ويسعد بذلك : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، يَقُولُ: «اذْهَبُوا بِذِي إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ»، قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا»^(١).

(٢٠) ينظر إلى أحسن طباعها : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» أَوْ قَالَ: «غَيْرُهُ»^(٢).

(٢١) لا ينشر خصوصياتها : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»^(٣).

(٢٢) يتطيب لها في كل حال : قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَبِصِ الْمِسْكِ فِي مَفْرَقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُحْرَمٌ»^(٤)؛ عَنِ الْمَقْدَامِ بْنِ شَرِيحٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَبْدَأُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ؟ قَالَتْ: «بِالسَّوَاكِ»^(٥).

(٢٣) يحتمل صدودها ومناقشتها : فرغم المكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة التي يتمتع بها الرسول الكريم ﷺ وتحمله لهموم الأمة الإسلامية بأكملها .. فإن رفقته في التعامل مع زوجاته تفوق الوصف .. فلا تتعلل بمسئولياتك أخي الزوج ، وكن كما كان رسول الله ﷺ لتكون زوجتك كزوجات رسول الله ﷺ .

ويؤكد العلماء على أنه ليس من حسن الخلق مع الزوجة كف الأذى عنها فقط ، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام، وراجعت امرأة

(١) رواه ابن حبان ..

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي ..

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وأبو داود ..

(٤) رواه أحمد ومسلم وغيرهما ..

(٥) رواه أحمد ومسلم وغيرهما ..

عمر رضي الله عنه فقال: أترجعيني؟ فقالت: إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك ، وفي روايةٍ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: صحبت عليّ امرأتِي فراجعتي ، فأنكرت أن تراجعني! قالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فو الله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه فلا يغضب .

(٢٤) لا يضربها ولا يعنفها : هَذَا خطاب ولفظ لانتباه جميع الناس عَلَى أن الضرب للنساء أمر شنيع ، وليست الرجولة باستعراض العضلات عَلَى المرأة المسكينة وليست شجاعة أبدأً فعل ذلك ، فقد كان رسول الله ﷺ أشجع الناس ومع ذلك تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَادِمًا لَهُ قَطُّ، وَلَا امْرَأَةً لَهُ قَطُّ، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ فَانْتَقَمَهُ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الْآخَرِ، إِلَّا أَحَدَهُمَا بِأَيْسَرِهِمَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَأْتَمًا، فَإِنْ كَانَ مَأْتَمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ» (١) .

(٢٥) يواسيها ويمسح دموعها : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَهَا فَأَبْطَأَتْ فِي الْمَسِيرِ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ: «حَمَلْتَنِي عَلَى بَعِيرٍ بَطِيءٍ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ بِيَدَيْهِ عَيْنَيْهَا وَيُسَكِّتُهَا» (٢) ..

وفي موقف آخر يحاول الرسول الكريم ﷺ أن يهدأ من الحالة السيئة لإحدى زوجاته ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ: إِنِّي ابْنَةُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكِ؟» فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي ابْنَةُ يَهُودِيٍّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكِ ابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكَ لَنَبِيٍّ، وَإِنَّكَ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكَ؟»، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ يَا حَفْصَةُ» (٣) . وهكذا نرى كيف يحل الخلاف بكلمات بسيطة وأسلوب طيب .

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ..

(٢) رواه النسائي في سننه ..

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى الموصلي ..

(٢٦) يضع اللقمة في فمها : عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفَقَ نَفَقَةً إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعَهَا إِلَى فِي أَهْلِكَ» (١).

(٢٧) يحرص على احتياجاتها : عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ «مَا حَقُّ أَرْوَاجِنَا عَلَيْنَا؟»، قَالَ: «أَطْعِمَ إِذَا طَعِمْتَ، وَاكْسُ إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ» (٢).

(٢٨) يثق بها ولا يخونها : رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «نَبِيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا، أَنْ يُخَوِّنَهُمْ، أَوْ يَلْتَمِسَ عَثْرَاتِهِمْ».

(٢٩) يتفقد حالها ويسأل عنها : فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهِنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِأَنْسٍ: هَلْ كَانَ يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلَاثِينَ» (٣). بل كان رسول الله يمر على نساءه التسع بعد الإشراق وأيضاً بعد العصر فلا يوجد واحدة من نساءه تفتقده ﷺ.

(٣٠) أثناء الحيض : وحسبنا المصطفى ﷺ كان مراعيًا للحالة التي عليها المرأة في الأوقات التي تكون حالتها النفسية والبدنية مختلفة عن باقي الأوقات ، فعن مَنبُودٍ، عَنْ أُمِّهِ، قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ مَيْمُونَةَ، فَأَتَاهَا ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، مَا لَكَ شَعْنًا رَأْسُكَ؟ قَالَ: أُمُّ عَمَّارٍ مَرَجَلْتِي حَائِضٌ. قَالَتْ: أَيُّ بُنَيَّ، وَأَيْنَ الْحَيْضَةُ مِنَ الْيَدِ؟ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيَّ إِحْدَانَا وَهِيَ حَائِضٌ، فَيَضَعُ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهَا، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهِيَ حَائِضٌ، ثُمَّ تَقُومُ إِحْدَانَا بِحُمْرَتِهِ، فَتَضَعُهَا فِي الْمَسْجِدِ وَهِيَ حَائِضٌ»، أَيُّ بُنَيَّ، وَأَيْنَ الْحَيْضَةُ مِنَ الْيَدِ؟ (٤). وفي رواية عن ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: يَبَاسِرُ نِسَاءَهُ فَوْقَ الْإِزَارِ وَهِيَ حَائِضٌ.

(١) من حديث رواه أحمد والنسائي وغيرهما ..

(٢) رواه النسائي في سننه ..

(٣) رواه أحمد وابن خزيمة والنسائي وابن حبان ..

(٤) رواه أحمد ..

(٣١) يصطحبها في السفر : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها.

ويستفاد من هذا الحديث: أن يصحب الرجل زوجته في سفره ، وأن يهيء من الظروف ما يسهل عليه أمر سفرها معه ، وقد غاب هذا الأدب النبوي عن كثير من الأزواج في المجتمع الإسلامي، وأصبح الرجل يعيش حياته في سفره وحضره منفرداً، وأصبحت المرأة تعيش حياتها منفصلة عن الزوج في كثير من الأحيان، وهذا أمر له آثاره السلبية على الأسرة المسلمة مما يؤدي إلى انفصام العلاقة بينهما، وقد يؤدي ذلك إلى الفراق .

وعلى المسلم أن يهتدي بالهدي النبوي في ذلك، فإن صحبته لأهله في سفره، وسيره معهم ليلاً، وتجاذبه معهم أطراف الحديث له أثر كبير في زيادة الألفة والمودة والتفاهم بينهما.

(٣٢) يسابقها ويلعب معها : فالرسول الكريم ﷺ كان يرفع من شأن زوجته ويقدرهن ، ويدللهن ، ، فيها هو صلوات ربي وسلامه عليه بعد رجوعه من إحدى الغزوات ، يطلب من القافلة أن تسبقه، ويقوم بمسابقة السيدة عائشة وليست مرة واحدة بل مرتين ، فبعد أن كان القائد الباسل في المعركة منذ ساعات ، أصبح الزوج الحنون المعطاء مع زوجته ؛

فعن عائشة، قالت: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «تَقَدَّمُوا»، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالِ حَتَّى أُسَابِقَكَ»، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَفَرٍ وَقَدْ جَمَعْتُ اللَّحْمَ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «تَقَدَّمُوا»، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالِ حَتَّى أُسَابِقَكَ»، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَضْرَبَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، وَقَالَ: «هَذِهِ بِتِلْكَ»^(١). يدل الحديث على حسن تعامل المصطفى ﷺ مع أهله، وانبساطه لهن، كما أنه يدل على مشروعية الرياضة البدنية للزوجة إذا كانت هذه الأعمال

الرياضية منضبطة بالضوابط الشرعية، لأنها تنشيط الأعضاء، وتريح النفوس، وتبعث على النشاط، وتذهب عن النفس السامة والملل.

(٣٣) يشاركها الفرحة والسعادة : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ فِي أَيَّامِ مِنِّي ، تُغْنِيَانِ وَتَضْرِبَانِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسَجًى بِثَوْبِهِ ، فَأَنْتَهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ ، فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ ، وَقَالَ : «دَعُوهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهَا أَيَّامٌ عِيدٌ» وَقَالَتْ : «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ وَأَنَا جَارِيَةٌ ، فَأَقْدِرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ» (١).

وكانت تطلب من النبي ﷺ أن تبقى فترة أطول، تقول :

وما بي حب النظر إليهم ولكن كان هدفها أن تسمع النساء مكانتها عنده... ومع ذلك صبر النبي ﷺ على إطالتها محبة لها ومراعاة لمشاعرها .

(٣٤) يمهلهما حتى تتزين له : عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ حَتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةَ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغْيِبَةَ» (٢).

من أجل أن يصلح النساء أنفسهن (حتى تمتشط الشعثة) أي: تُسرح شعرها، وتستحد المغيبة (أي: تزيل الشعر الزائد في جسدها).

(١) رواه مسلم .. (في أيام مني) هي أيام عيد الأضحى أضيف إلى المكان بحسب الزمان ، قال النووي : يعني الثلاثة بعد يوم النحر وهي أيام التشريق (مسجى بثوبه) أي مغطى به (فاقدروا قدر الجارية العربية الحدِيثَةِ السن) قال النووي معناه أنها تحب اللهو والتفرج والنظر إلى اللعب حبا بليغا وتحرص على إدامته ما أمكنها ولا تمل ذلك إلا بعد زمن طويل وقولها فاقدروا هو بضم الدال وكسرهما لغتان حكاهما الجوهري وغيره وهو من التقدير أي قدروا رغبته في ذلك إلى أن تنتهي أي قيسوا قياس أمرها في حداتها وحرصها على اللهو ومع ذلك كانت هي التي تمل وتنصرف عن النظر إليه والنبي ﷺ لا يمسه شيء من الضجر والإعياء وفقا بما وقولها العربية معناها المشتبهة للعب الحجة له]..

(٢) صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

(٣٥) يحمل لها البشري والفرح : عَنْ أَبِي رُزَعَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةٌ قَدْ أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ، فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنِّي، وَبَشَّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَحْبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ^(١) .

فعلى الرغم من كل المسئوليات التي يتحملها الرسول الكريم ﷺ، إلا أنه لا ينسى حقوق زوجاته عليه، فيعاملهم بمتهمي الرقة والحب ، ولم يقلل أبدا منهم، فهو القائل في حديثه الشريف ((إِنَّمَا النَّسَاءُ شَقَائِقُ الرَّجَالِ))^(٢) .

ويستدل من حديثه الشريف أنه أبداً لم يقلل من قيمتها كما هو مفهوم عند الكثير فهو يضعها في منزلة مساوية له وفي مكانة كبيرة ، ولم لا وهي الأم والزوجة والأخت والعمة والابنة والخالة ، فإعلاءً لمكانة الزوجة ، ومن أجل الرفعة من مكانتها ، والحث على إدخال الفرحة إلى قلبها ، بين الرسول لأتمه أن اللهو واللعب مع الزوجة مما يثاب عليه الرجل ، بل لا يعد من اللهو أصلاً : ففي حديث رسول الله ﷺ : «ارْمُوا وَارْكَبُوا وَلَا تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا» وَقَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمِيَ الرَّجُلُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيئُهُ فَرَسَهُ، وَمَلَاعِبَتُهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُمْ مِنَ الْحَقِّ»^(٣) .

وقد بلغت رقة النبي ﷺ الشديدة مع زوجاته أنه كان صلوات ربي وسلامه عليه يخشى عليهن حتى من إسراع الحادي في قيادة الإبل التي يركبن عليها ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ أُمُّ سَلِيمٍ مَعَ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُنَّ يَسُوقْنَ مِنْ سَوَاقٍ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ أَنْجَشَةِ رُوَيْدًا سَوَاقَ بِالْقَوَارِيرِ»^(٤) .



(١) رواه مسلم وغيره . (قد أتتك) معناه توجهت إليك (فإذا هي أتتك) أي وصلتك (فاقرأ عليها السلام) أي سلم عليها ، (من قصب) قال جمهور العلماء : المراد به قصب اللؤلؤ الخوف كالقصر المنيف ، وقيل قصر من ذهب منظوم بالجواهر . قال الخطابي المراد بالبيت هنا القصر (صخب) الصخب الصوت المختلط المرتفع (نصب) النصب المشقة والتعب ..

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبي داود ..

(٣) رواه أحمد والدارمي وغيرهما ..

(٤) رواه أحمد ومسلم والترمذي ..

تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

ب [مَعَ أَوْلَادِهِ وَبَنَاتِهِ وَأَحْفَادِهِ]

الأولاد زينة الحياة الدنيا، سواء كانوا بنين أو بنات، وقد رُزق النبي ﷺ بثلاثة بنين، وأربع بنات؛ وهم عليّ التوالم، القاسم، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، وإبراهيم، وولدوا كلهم من زوجته خديجة عليّ الجميع السلام، إلا إبراهيم فأمه مارية القبطية، التي أهداها إليه المقوقس ملك مصر، وكانت بيضاء جعدة جميلة، فتسرّى بها، -تزوجها-، وقد مات أولاده قبله، إلا فاطمة عليّكآ مات بعده بستة أشهر، وكانت قد أنجبت من زوجها سيدنا علي أحفاداً للنبي ﷺ، ومن هم: الحسن والحسين رضي الله عن الجميع .

فقد كان للنبي ﷺ سبعة أحفاد، كما كان له سبعة من الأولاد؛

وأحفاده ﷺ هم :

١- الحسن بن علي ﷺ: وكان أشبه الناس برسول ﷺ، وهو الابن البكر لسيدنا الإمام علي ابن أبي طالب وفاطمة الزهراء البتول ﷺ، وُلِدَ في السنة الثالثة من الهجرة، وتوفي سنة (٤٩) من الهجرة، وكان سنه عند وفاة الرسول ﷺ نحو سبع سنوات .

٢- الحسين بن علي ﷺ: الابن الثاني لعلي وفاطمة ﷺ، وُلِدَ في السنة الرابعة من الهجرة واستشهد سنة (٦١) من الهجرة .

٣- أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: ولدت قبل وفاة رسول الله ﷺ، تزوجها سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فولدت له زيد بن عمر، ورقية، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد عام (٧٥) من الهجرة .

٤ - زينب بنت علي بن أبي طالب : ولدت في حياة النبي ﷺ ، وتزوجها ابن عمها عبد الله ابن جعفر ، فماتت عنده ، وقد ولدت له ، وأولادٌ وذُرِّيَّةُ زينب من عبد الله ابن جعفر موجودون بكثرة .

٥ - عبد الله بن عثمان ابن عفان رضي الله عنه : ابن رُقِيَّة بنتِ رسول الله ﷺ ، ولدَ بأرض الحبشة وعاش ست سنين .

٦ - أمّامة بنت أبي العاص : وهي من زينب بنت رسول الله ﷺ ، تزوجها عليُّ ابن أبي طالب كرم الله وجهه بعد فاطمة ، فلم تلد ، ومات عنها ، فتزوجها المغيرةُ بنُ نوفلٍ ، فماتت عنده ، ولم تلد له .

٧ - علي بن أبي العاص : وهو أخو أمّامة بنت زينب ، توفي وقد ناهز الحلم في حياة رسول الله ﷺ . ولقد كانت معاملته رضي الله عنه مع أولاده وأحفاده مليئةً بالعطف والشفقة والرحمة^(١) ؛ وقد تجلّى تعامله مع أولاده وأحفاده بالعديد من المظاهر الإنسانية الكريمة الرحيمة ومن ذلك ما يلي :

١ - فرحه بولادتهم وحبهم ورحمته لهم وممازحته إياهم :

كان النبي ﷺ يحب أولاد المسلمين عامة وأولاده وأحفاده خاصة، ويفرح لولادتهم، وإذا ولد له مولود أذن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى، ليكون أول ما يترك سمعه في الدنيا تمجيد الله وتعظيمه، ويحنكه بشيء حلو كالتمر، ويسميه باسم حلو جميل، ويذبح عنه عقيقة، ويختن الصبي، ويخلق رأسه ويتصدق بوزنه فضة، وكانت هي النقد يومئذ .

وكان أرحم الناس بالصغار، يمسح رؤوسهم، ويقبّلهم، ويداعبهم، ويطيب خواتمهم، ويحملهم بين يديه وينفق عليهم، ويسوي بينهم في العطية ؛

(١) من كتاب : كيف عاملهم ص : (١٣٧-١٣٨).

وكان يقبل ابنه إبراهيم ويشمه ، وحمل حفيدته أمامة بنت زينب وهو يصلي، رحمة بها وكفا لبكائها. وحينما عجب الأقرع بن حابس من تقبيله لحفيده الحسن بن علي ، وأن له عشرة من الأولاد ما قبل واحداً منهم، أجابه النبي ﷺ قائلاً: «إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(١).
وروي عنه أنه كان ييازح الحسن أو الحسين، ويأخذ بكفيه ويجعله يرقى' بقدميه على صدره، ثم يُقبّله ..

٢- تعليمه ﷺ لهم واهتمامه بتربيتهم وتنشئتهم على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور:
كان النبي ﷺ حريصاً على تعليم أولاده وأحفاده وتربيتهم وإرشادهم إلى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، وقد روى عنه أنه ﷺ قال: «أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدْبَهُمْ»^(٢).
وروي عنه أنه صافح وبايع أطفالاً صغاراً من أقربائه، منهم الحسن والحسين ، وليست هذه بيعة تكليف ، وإنما يراد بها تعويد الأولاد على تحمل المسؤولية، والتأسي بالكبار ..
وحينما أراد حفيده الحسن وهو صغير ، أن يأكل ثمرة من الصدقة، نهاه عن ذلك، ولأنها محرمة على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد ، وتنشئة له على معالي الأمور ومكارمها.

٣- تدريبهم على أنواع النشاطات البدنية والرياضية:

اهتم النبي ﷺ القدوة بتدريب أولاده وأقربائه على أنواع من النشاطات البدنية، لتقوى أجسامهم، وتصلب أعوادهم، ويذهب عنهم الخمول والكسل، ويتعودون على النشاط والعمل الجماعي ، وكان يصف عبد الله، وعبيد الله، وكثيراً بني عمه العباس، ثم يقول: من سبق إليّ فله كذا وكذا، فيتسابقون فيقع بعضهم على صدره وبعضهم على ظهره، فيلتزمهم ويُقبّلهم .

(١) رواه مسلم والترمذي وابن حبان ..

(٢) رواه ابن ماجه ..

وفي هذا ونحوه ما لا يخفى من التعويد على العمل الجماعي، فضلاً عما فيه من إضفاء جو الحماس والفرح والمنافسة الشريفة بين الأولاد .

٤ - تحصيلهم بالأذكار الشرعية :

لقد كان الحبيب المصطفى ﷺ يُحَصِّن أولاده بالأذكار الشرعية ليجنبهم الأمراض الحسية والمعنوية . فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُعَوِّدُ حَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَيَقُولُ: «أَعِيدُكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ». وَكَانَ يَقُولُ: «كَانَ أَبُوكُمْ يُعَوِّدُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»^(١).

وَعَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ جَبْرِيلَ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَوَافَقَهُ مُغْتَمًّا فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا هَذَا الْغَمُّ الَّذِي أَرَاهُ فِي وَجْهِكَ؟ قَالَ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ أَصَابَتْهُمَا عَيْنٌ»، قَالَ: صَدَّقْ بِالْعَيْنِ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، أَفَلَا عَوِّدْتُمَا بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، قَالَ: «وَمَا هُنَّ يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: قُلِ: اللَّهُمَّ ذَا السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ، ذَا الْمَنْ الْقَدِيمِ، ذَا الْوَجْهِ الْكَرِيمِ، وَلِي الْكَلِمَاتِ التَّامَّاتِ وَالِدَعَوَاتِ الْمُسْتَجَابَاتِ، عَافِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مِنْ نَفْسِ الْجَنِّ وَأَعْيُنِ الْإِنْسِ، فَقَالَهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَا يَلْعَبَانِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَوِّدُوا أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ بِهَذَا التَّعْوِيدِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّذِ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِ»^(٢).

٥ - تربيته الأولاد على السلوك والعادات الصحية السليمة :

اهتم الإسلام بصحة الإنسان عامة، ودعا الآباء والأمهات إلى رعاية أولادهم وإرشادهم إلى السلوك الحسن وما يحفظ سلامة أجسادهم وصحتهم، وفي هذا الصدد دعا إلى تسليم الأظافر، واستعمال السواك، وغسل اليدين قبل الطعام وبعده، والشرب قاعداً، والامتناع عن التنفس في الإناء، والبعد عن الشراهة والتخمة، وتجنب السهر فهو لا فائدة فيه، كما دعا إلى النوم على الشق الأيمن، والاستيقاظ مبكراً .

(١) أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود .

(٢) رواه الهندي في كنز العمال .

ومما يروى في هذا أنه استرضع لابنه إبراهيم امرأة، لأن أمه مارية كانت قليلة اللبن، ودخل على ابنته فاطمة عليها السلام وهي نائمة فأيقظها وقال: «يَا فَاطِمَةُ قَوْمِي فَأَشْهَدِي أَضْحِيَّتِكَ»^(١).

ولقد كانت "فاطمة الزهراء عليها السلام" أشبه الناس بأبيها عليه السلام في مشيتها وحديثها، وكانت إذا دخلت على رسول الله عليه السلام قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وبلغ من حب النبي عليه السلام لها أن قال: «إِنَّمَا فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِنُنِي مَا آذَاهَا وَيُنْصِبُنِي مَا أَنْصَبَهَا»^(٢).

ووصفها النبي عليه السلام بأنها سيدة نساء العالمين وقال في حديث له:

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ عليه السلام قَالَ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَأَسِيَّةُ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ»^(٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: كُنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عليه السلام عِنْدَهُ، لَمْ يُعَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةَ تَمْثِي، مَا تَخْطِئُ مَشِيَّتَهَا مِنْ مَشِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام شَيْئًا، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَبَ بِهَا، فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي»، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا سَارَهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسَّرَارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ؟ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام، سَأَلَتْهَا مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام؟

قَالَتْ: مَا كُنْتُ أَفْهِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام سِرَّهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوِّفِيَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ، يَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ، لَمَّا حَدَّثْتَنِي مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام، فَقَالَتْ:

أَمَّا الْآنَ، فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدِ افْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَإِنَّهُ نِعَمَ السَّلْفُ أَنَا لَكَ « قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَنِي

(١) رواه الطبراني و صححه الحاكم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه الترمذي وقال حديث صحيح .

الثَّانِيَةَ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ»
قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتُ^(١).

وكان من حبه لها ﷺ أنه لم يكن يخرج من المدينة مسافراً حتى يرى فاطمة عليها السلام، ويكون آخر عهده بالمدينة رؤية وجهها الكريم، وحين يعود إلى المدينة، يكون أول عهده المسجد، فيصلي به ركعتين، ثم يذهب إليها مشوقاً وقلبه مملوء بالاشتياق لها.

الحب بين فاطمة عليها السلام والنبي ﷺ، كان حباً أبويّاً عظيماً.

فها هو النبي ﷺ لم يطق فراق فاطمة عليها السلام حين تقدّم إليها علي بن أبي طالب عليها السلام، طالباً الزواج منها، فبحث عن وسيلة لتكون إلى جواره، وكم كانت فرحة النبي ﷺ حين وفر أحد الصحابة مسكناً لفاطمة قريباً من الرسول ﷺ.

وَعُرِفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعُطْفِهِ عَلَى الْأَطْفَالِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ .

فكان يحملهم ويقبلهم ويداعبهم ويبكي لفراقهم، ويوصي أصحابه بالعطف عليهم واختيار الأسماء الحسنة لهم، وإحسان تربيتهم، كما كان الأطفال يحبون النبي ﷺ.

وقد كان يصلي فإذا سجد؛ وَثَبَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَى ظَهْرِهِ فَإِذَا أَرَادَ النَّاسُ أَنْ يَمْنَعُوهُمَا، أَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ دَعُوهُمَا؛ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا نَصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعِشَاءَ، فَكَانَ يُصَلِّي، فَإِذَا سَجَدَ وَثَبَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ أَخَذَهُمَا فَوَضَعَهُمَا وَضَعًا رَفِيقًا، فَإِذَا عَادَ عَادًا، فَلَمَّا صَلَّى جَعَلَ وَاحِدًا هَا هُنَا وَوَاحِدًا هَا هُنَا، فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَذْهَبُ بِهِمَا إِلَى أُمَّهَاتِهِمَا؟ قَالَ: «لَا» فَبَرَقَتْ بَرَقَةٌ، فَقَالَ: «الْحَقَّ بِأُمَّكُمْ» فَمَا زَالَا يَمْشِيَانِ فِي ضَوْئِهَا حَتَّى دَخَلَا^(٢) (٣).

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه أحمد والحاكم في المستدرک وقال : « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ » .

(٣) من كتاب نبي الرحمة (٢٢٤) .

عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ يُخْطَبُ إِذْ أَقْبَلَ الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ ﷺ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْتُرَانِ، فَنَزَلَ وَحَمَلَهُمَا، فَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْتُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى نَزَلْتُ فَحَمَلْتُهُمَا « (١).

وقد تربي الحسن تحت نظر النبي ﷺ وكان كثيراً ما يحمله ويداعبه ويلاعبه هو وأخاه الحسين. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ حَامِلٌ أَحَدَ ابْنَيْهِ الْحَسَنَ أَوْ الْحُسَيْنَ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ وَضَعَهُ عِنْدَ قَدَمِهِ الْيُمْنَى فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَجْدَةً أَطَالَهَا قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي مِنْ بَيْنِ النَّاسِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ وَإِذَا الْغُلَامُ رَاكِبٌ عَلَى ظَهْرِهِ فَعُدْتُ فَسَجَدْتُ فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ سَجَدْتَ فِي صَلَاتِكَ هَذِهِ سَجْدَةً مَا كُنْتَ تَسْجُدُهَا، أَفَشَيْءٌ أُمِرْتُ بِهِ أَوْ كَانَ يُوحَى إِلَيْكَ؟ قَالَ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، إِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكِرِهْتُ أَنْ أَعْجَلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ» (٢).

فهذا في الصلاة أبطأ رحمة بولده ﷺ ؛ ولقد كان النبي ﷺ مع أبنائه رحيماً، عطوفاً، شفيقاً عليهم ، سواء في صغرهم، أو كبرهم، أو عند وفاتهم .

وإذا رحمت فأنت أمُّ أو أبٌ هذان في الدنيا هما الرُّحَمَاءُ وقد تجلّى تعامله ﷺ مع أولاده بالعديد من المظاهر الإنسانية الكريمة الرحيمة، فكان يعتني بهم منذ ولادتهم، ولمَّا بَشَّرَهُ أَبُو رَافِعٍ، بِابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَهَبَ لَهُ عَبْدًا، مَكَافَأَةً عَلَى بَشَارَتِهِ، وَمِنْ حُبِّهِ ﷺ لِأَوْلَادِهِ، أَنَّهُ كَانَ يَضْمُهُمْ، وَيَقْبَلُهُمْ، وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَهُوَ الرَّحْمَةُ الْمَهْدَاةُ .

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه البيهقي نقلته باختصار من الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية .

ولم يهمل ﷺ جانب اهتمامه بالبنات، علىٰ غرار ما يفعله كثير من الناس اليوم، فيقتصر في رعايته علىٰ الأبناء فقط، بل كان ﷺ يهتم ببناته أشد الاهتمام، فهو القائل: «مَنْ ابْتَلَىٰ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(١).

فكان يجهن ويكرمهن، بل ويثني عليهن ومن شدة حبه ﷺ لهن أنه كان يجير من أجرنه، فقد أجات ابنته زينب زوجها أبا العاص بن الربيع، فأجاره رسول الله ﷺ .

ومن معاملته لأولاده أنه كان يسأل عنهم عند غيبتهم، ويهتم بهم إذا مرضوا، واستمرت رعاية النبي ﷺ لبناته حتىٰ بعد الزواج، فلم يكن يشغله ﷺ عن بناته رضي الله عنهن شاغل، بل كان يفكر فيهن وهو في أصعب الظروف، فعندما أراد النبي ﷺ الخروج لبدرا لملاقاة قريش وصناديدها، كانت رقية عليها السلام مريضة، فأمر النبي ﷺ زوجها عثمان بن عفان ~~بأن يبقئ~~ أن يبقئ في المدينة ليُمرَّضها، وضرب له بسهمه في مغنم بدر، وأجره عند الله يوم القيامة.

فهكذا تعامل النبي ﷺ مع أولاده وبناته وأحفاده: رعاية كاملة واهتمام شديد ومتابعة وعناية بهم إلىٰ أن انتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ.. ليكون لنا قدوة وأسوة ومُعَلِّم لنا من أجل أن نقتدي به ونهتم بأبنائنا وتربيتهم، وعدم تركهم بلا عناية أو تربية أو اهتمام أو تعليم.. فذلك إثمٌ عظيم، كما أخبرنا الله تعالىٰ بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وكما قال ذلك النبي ﷺ: «كَفَىٰ إِيْمًا أَنْ يُضَيِّعَ الرَّجُلُ مَنْ يَقُوْتُ»^(٢).



(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والنسائي وأبو داود .

تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

جاء مع أقاربه

كان النبي ﷺ أرعى الخلق لقريب، وأحناهم على رَحْمٍ، وأكثرهم إحساناً إلى أهلٍ، شهد بذلك المخالطون له ﷺ بذلك، فوصفه واصفهم بأنه ﷺ كان: (أَبْرَ النَّاسِ، وَأَوْصَلَ النَّاسِ) (١).

أعمامه وعماته ﷺ:

أعمامه ﷺ اثنا عشر، وهم: الحارث وهو أكبر أولاد جده عبد المطلب وبه كان يُكنى. وشقيقه قثم وقد هلك صغيراً، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، وهؤلاء الثلاثة أشقاء لعبد الله والد النبي ﷺ، وقيل الحارث لا شقيق له، وحمزة وشقيقاه المقوم بفتح الواو وكسرهما مشددة، وجحل بتقديم الجيم على الحاء، واسمه المغيرة، والجحل السَّقاء الضخم، أي وقيل بتقديم الحاء مفتوحة على الجيم، وهو في الأصل الخلخال. والعباس وشقيقه ضرار، وقد تقدم أن أم العباس عليها السلام أول من كست الكعبة الحرير، وأبو هب واسمه عبد العزى، والغيداق واسمه مصعب، وقيل نوفل، ولُقّب بالغيداق لكثرة جوده، أي لأنه كان أجود قريش وأكثرها طعاماً ومالاً، وذكر بعضهم في أعمامه العوام.

وعماته ﷺ ست وهن: أم حكيم وعاتكة وبرّة وأروى وأميمة، وهؤلاء الخمسة أشقاء لعبد الله والده ﷺ وصفية: أي وهي شقيقة حمزة ولم يسلم من أعمامه ﷺ الذين أدركوا البعثة إلا حمزة والعباس، ولم يسلم من عماته اللاتي أدركن البعثة من غير خلاف إلا صفية أي وهي أم الزبير بن العوام، أسلمت وهاجرت.. وكانت وفاتها في خلافة عمر عليه السلام.

(١) رواه مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة رضي الله عنه.

قيل وأسلمت عاتكة التي هي صاحبة الرؤيا يوم بدر، وقيل وأروى.
قال بعضهم: والمشهور أن عاتكة لم تسلم^(١).

فكان رسول الله ﷺ حريصاً على دعوة أقاربه إلى الإسلام:

فمن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنزِلَ عَلَيْهِ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ، سَلِّبِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(٢).

فقوله: ((اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ)) أَيِ بِاعْتِبَارِ تَخْلِيصِهَا مِنَ النَّارِ كَأَنَّهُ قَالَ أَسْلِمُوا تَسَلَّمُوا مِنَ الْعَذَابِ فَكَانَ ذَلِكَ كَالشِّرَاءِ كَمَا تَهْمُ جَعَلُوا الطَّاعَةَ ثَمَنَ النَّجَا .
وَالسَّرُّ فِي الْأَمْرِ بِإِنذَارِ الْأَقْرَبِينَ أَوْ لَا أَنْ الْحُجَّةَ إِذَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ تَعَدَّتْ إِلَى غَيْرِهِمْ وَإِلَّا فَكَانُوا عِلَّةً لِلْأَبْعَدِينَ فِي الْإِمْتِنَاعِ وَأَنْ لَا يَأْخُذَهُ مَا يَأْخُذُ الْقَرِيبَ لِلْقَرِيبِ مِنَ الْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ فَيُحَابِبُهُمْ فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّخْوِيفِ فَلِذَلِكَ نَصَّ لَهُ عَلَى إِنذَارِهِمْ^(٣).

وكان النبي ﷺ يُشْنِي على قرابته، ويعرف لهم حقهم وقدرهم:

فَعَنْ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ، قَالَ: جَاءَ الْعَبَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَهُ سَمِعَ شَيْئًا فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْكَ السَّلَامُ. قَالَ: «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ

(١) السيرة الخليلية ج ٣ ص ٥٤٦ / ط دار المعرفة.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

(٣) فتح الباري لابن حجر (٨/٥٠٣).

فَرَقَّةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بِيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا وَخَيْرِهِمْ نَفْسًا»^(١). قَوْلُهُ: (جَاءَ الْعَبَّاسُ) أَي غَضِبَانَ (وَكَأَنَّهُ سَمِعَ شَيْئًا) أَي مِنَ الطَّعْنِ فِي نَسَبِهِ أَوْ حَسَبِهِ^(٢).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: « هَذَا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَجْوَدُ قُرَيْشٍ كَفًّا وَأَوْصَلُهَا »^(٣).

وكان ﷺ يأخذ بنصيحة عمه ومشورته :

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ، جَاءَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِأبي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فَأَسْلَمَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ، فَلَوْ جَعَلْتَ لَهُ شَيْئًا، قَالَ: «نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ»^(٤).

وكان ﷺ يُصَحِّحُ لَهُمْ عِبَادَتَهُمْ :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: نِمْتُ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ فَأَتَى الْحَاجَةَ، ثُمَّ جَاءَ فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ نَامَ، ثُمَّ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، فَأَتَى الْقُرْبَةَ فَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا، فَتَوَضَّأَ وَضُوءًا بَيْنَ الْوُضُوءَيْنِ لَمْ يَكْثُرْ، وَقَدْ أَبْلَغَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي .
وَمَطَّيْتُ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَرَانِي كُنْتُ أَبْقِيهِ - يَعْنِي أَرْقُبُهُ - ثُمَّ قُمْتُ فَفَعَلْتُ كَمَا فَعَلْتُ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَخَذَ بِمَا يَلِي أُذُنِي حَتَّى آدَارَنِي، فَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ.. الحديث^(٥).

(١) رواه أحمد والترمذي وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ..

(٢) تحفة الأحمدي (١٠ / ٥٥).

(٣) أخرجه أحمد ..

(٤) رواه أبو داود .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

وكان إذا وقع أحدهم في منكرٍ ؛ أنكر عليه ، وصرفه عنه : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ، أَنَّهُ قَالَ : كَانَ الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَنَعَمَ تَسْتَفْتِيهِ ، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشَّقِّ الْأَخْرِ .
قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ ، أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى الرَّاحِلَةِ ، أَفَأَحْجُ عَنْهُ؟ قَالَ : «نَعَمْ» ، وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ ^(١) .

وكان ﷺ يستعين بهم في المواقف المهمة : ففي قصة بيعة العقبة التي يرويها كعب ابن مالك رضي الله عنه قال : خرجنا إلى الحجِّ ، فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق . فَاجْتَمَعْنَا بِالشَّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَنَا ، وَمَعَهُ يَوْمئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - وَهُوَ يَوْمئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَخْضَرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَقَّئُ لَهُ - فَلَمَّا جَلَسْنَا ، كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْخَزَرَجِ - وَكَانَتْ الْعَرَبُ يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ الْخَزَرَجَ ، أَوْسَهَا وَخَزَرَجَهَا - إِنَّ مُحَمَّدًا مَنَا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَا مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَنْعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، فَقُلْنَا : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَلَا ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ ﷻ وَرَغَبَ فِي الْإِسْلَامِ .. الخ ^(٢) .

وكان ﷺ يُحْسِنُ إِلَى أَقَارِبِهِ :

وقد تعددت وجوه إحسانه ﷺ إليهم وتنوعت ، فكان يهتمُّ بأموالهم ويسعى في تزويج من لم يتزوج منهم ، كما في الحديث عن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ ، قَالَ : اجْتَمَعَ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ [ابن عم الرسول ﷺ] ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَا : وَاللَّهِ ، لَوْ بَعَثْنَا هَذَيْنِ الْعُلَامَيْنِ - قَالَا لِي وَلِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَاهُ ، فَأَمَرَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصَّدَقَاتِ ، فَأَدَيَا مَا يُؤَدِّي النَّاسُ ، وَأَصَابَا بِمَا يُصِيبُ النَّاسَ .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

(٢) رواه أحمد وغيره ..

قَالَ فَبَيِّنَا هُمَا فِي ذَلِكَ جَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا، فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ .

فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: لَا تَفْعَلَا، فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ بِفَاعِلٍ، فَاَنْتَحَاهُ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَالَ:
وَاللَّهِ، مَا تَصْنَعُ هَذَا إِلَّا نَفَاسَةً مِنْكَ عَلَيْنَا، فَوَاللَّهِ، لَقَدْ نَلْتُ صَهْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا نَفْسَنَا عَنْكَ،
قَالَ عَلِيُّ: أَرْسَلُوهُمَا، فَانْطَلَقَا، وَاضْطَجَعَ عَلِيُّ، قَالَ: فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ سَبَقْنَاهُ إِلَى
الْحُجْرَةِ، فَقُمْنَا عِنْدَهَا، حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِأَذَانِنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَخْرِجَا مَا نُصَرَّرَانِ»^(١).

ثُمَّ دَخَلَ وَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ عِنْدَ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ، قَالَ: فَتَوَاكَلْنَا الْكَلَامَ، ثُمَّ تَكَلَّمَ
أَحَدُنَا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ أَبَرُّ النَّاسِ وَأَوْصَلُ النَّاسِ، وَقَدْ بَلَّغْنَا النَّكَاحَ، فَحِجْنَا لِتَوَمُّرْنَا عَلَى
بَعْضِ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ، فَنُؤَدِّي إِلَيْكَ كَمَا يُؤَدِّي النَّاسُ، وَنُصِيبُ كَمَا يُصِيبُونَ، قَالَ: فَسَكَتَ طَوِيلًا
حَتَّى أَرَدْنَا أَنْ نُكَلِّمَهُ، قَالَ: وَجَعَلَتْ زَيْنَبُ تُلْمِعُ عَلَيْنَا مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ أَنْ لَا تُكَلِّمَاهُ، قَالَ: ثُمَّ
قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِأَلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، ادْعُوا لِي مُحَمَّدِيَّةً - وَكَانَ عَلَى الْخُمْسِ
- وَنُوفَلُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ». قَالَ: فَجَاءَاهُ، فَقَالَ لِمُحَمَّدِيَّةَ: «أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ
ابْنَتَكَ» - لِلْفُضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ فَانْكَحَهُ، وَقَالَ لِنُوفَلِ بْنِ الْحَارِثِ: «أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ ابْنَتَكَ» - لِي -
فَأَنْكَحَنِي وَقَالَ لِمُحَمَّدِيَّةَ: «أَصْدِيقُ عَنْهُمَا مِنَ الْخُمْسِ كَذَا، وَكَذَا»^(٢).

وَكَانَ ﷺ يُتَابِعُ أُمُورَ أَقْرَابِهِ، وَيَعْتَنِي بِصِحَّتِهِمْ: فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ:
رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَلِ حَزْمٍ فِي رُقِيَةِ الْحَيَّةِ، وَقَالَ لِأَسْمَاءِ بِنْتِ عُمَيْسٍ: «مَا لِي أَرَى أَجْسَامَ بَنِي أَخِي
ضَارِعَةً^(٣) تُصَيِّهُمُ الْحَاجَةُ» قَالَتْ: لَا، وَلَكِنَّ الْعَيْنَ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: «ارْزُقِيهِمْ» قَالَتْ: فَعَرَضْتُ
عَلَيْهِ، فَقَالَ: «ارْزُقِيهِمْ»^(٤).

(١) معناه: تجمعا في صدوركما من الكلام.

(٢) رواه مسلم ..

(٣) (ضارعة) أي نحيفة والمراد أولاد جعفر ﷺ.

(٤) رواه مسلم ..

وَعَنْ أُمِّ الْمُؤَدِّبِ بْنِ قَيْسِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلِيٌّ نَاقَهُ وَلَنَا دَوَالِي مُعَلَّقَةٌ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَامَ عَلِيٌّ لِيَأْكُلَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِعَلِيٍّ: «مَهْ إِنَّكَ نَاقَةٌ» حَتَّى كَفَّ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَتْ: وَصَنَعْتُ شَعِيرًا وَسَلَقًا، فَحِثُّتُ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَلِيُّ أَصِيبْ مِنْ هَذَا فَهُوَ أَنْفَعُ لَكَ» (١).

ومن ﷺ عنايته بأقاربه وانشغاله بأحوالهم: حزنه إذا أصيب أحدٌ منهم بمكروه، فلما توفي عمه حمزة ومثّل به؛ حزن حزناً شديداً لفراقه، ولما أصابه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى حَمْزَةَ حِينَ اسْتَشْهَدَ وَقَدْ مُثِّلَ بِهِ فَنَظَرَ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يُنْظَرْ إِلَى أَمْرٍ أَوْجَعَ لِقَلْبِهِ مِنْهُ فَقَالَ: «رَحِمَكَ اللَّهُ إِنْ كُنْتُ لَوْ صَوْلًا لِلرَّحِمِ فَعَوْلًا لِلْخَيْرَاتِ، وَلَوْ لَا حُزْنٌ مِنْ بَعْدِكَ عَلَيَّكَ لَسَرَّنِي أَنْ أَدْعَكَ حَتَّى تُحْشَرَ مِنْ أَفْوَاجِ شَتَى وَإِنَّمِ اللَّهُ لِأَمْثَلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ». قَالَ: فَنَزَلَ جَبْرِيلُ وَالنَّبِيُّ ﷺ وَأَقِفْ بَعْدَ بَخَوَاتِيمِ سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَصَبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَفَرَ عَنِ يَمِينِهِ وَأَمْسَكَ عَمَّا أَرَادَ (٢).

فهكذا تعامل الحبيب ﷺ مع أهله وأقاربه بحسن التعامل، والتلطف بهم، على الرغم من أن أكثرهم كانوا مشركين مكذّبين لما جاء به من الحق، وأيضاً يؤذونه ﷺ ويقفون ضده .. ومع ذلك أحسن إليهم ورعى فيهم حق الرحم ليعلمنا كيف نراعي حقوق الأرحام والأقارب ونعفو عنهم ونلتمس لهم العذر ونحسّن إليهم ..



(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه الحاكم والطبراني ..

تَعَامَلُوا صَاحِبِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَالْوَٰلِدِ وَسَلِّمُوا

دَامَ مَعَ خِدْمَتِهِ

إذا ذُكِرَت الجاهلية ، سرعان ما يتبادر إلى الأذهان تلك الصورة السوداء ، والمليئة بمشاهد الاستضعاف للطبقة العاملة والمملوكة ، والهضم المستمر لحقوقها ، والنظرة الدونية التي يُنظر بها إلى أصحابها ، والمواقف التي تنطق بالاحتقار والكرهية ، واعتبار أن هذه الفئة من البشر ليست سوى آلات لم تُخلق إلا لخدمة أسيادها ، حتَّى أصبح الحديث عن حقوقهم مجرد حُلْم يداعب الخيال ويُنسي مرارة الحرمان .

كان ذلك حتَّى أشرق شمس الإسلام بمبعث خير الرسل ﷺ ، والذي جاء برسالة الهدى والحق ، والخير والعدل ، ليعيد الحقوق إلى تلك الفئة المهضومة ، ويعيد لها اعتبارها ، من خلال الآداب والتوجيهات التي تجلب النفع لها ، وتدفع الضرر عنها ، وكم كان الأثر عظيماً في نفوس من تعاملوا مع النبي ﷺ من العبيد .

فقد استطاع أن يأسر قلوبهم ويملك مشاعرهم بسماحة أخلاقه وكريم شمائله .

ولننظر إلى قصّة زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ ، فقد استقر في بيته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، وظلّ هناك يقوم على خدمته ويرعى شؤونه ، حتَّى بلغت الأخبار إلى والده بوجوده عند النبي ﷺ ، فانطلق مسرعاً إليه ، وطلب منه أن يرد ولده ، فنظر النبي ﷺ إلى زيد وقال: «إن شئت فأقم عندي ، وإن شئت فانطلق مع أبيك؟» ، ولم يطل اختيار زيد رضي الله عنه ، فلم يكن ليفضل عليه أحداً ؛ فقال : بل أقيم عندك ، فسّر النبي ﷺ من موقفه فقرّر أن يتبناه وهكذا

عاش زيد رضي الله عنه عيشة هائلة راضية ، ينسبه الناس فيقولون : زيد بن محمد حتى أبطل الله عادة التبنّي ، والقصة المذكورة في معجم الطبراني ^(١) بقوله : قَالَ: ابْنُ هِشَامٍ: وَكَانَ حَكِيمٌ بِنُ حِزَامٍ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ بَزِيدُ بْنُ حَارِثَةَ وَصَيْنًا، فَاسْتَوْهَبْتَهُ مِنْهُ عَمَّتُهُ حَدِيحَةُ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَهَبَهُ لَهَا، فَوَهَبَتْهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْتَقَهُ وَتَبَّأَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ أَبُوهُ وَهُوَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ شِئْتَ فَأَقِمَّ عِنْدِي، وَإِنْ شِئْتَ فَاَنْطَلِقْ مَعِ أَبِيكَ» قَالَ: بَلَّ أَقِيمُ عِنْدَكَ، فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ بَعَثَهُ اللَّهُ، فَصَدَّقَهُ وَأَسْلَمَ وَصَلَّىٰ مَعَهُ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] قَالَ: أَنَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

وأيضاً أنس رضي الله عنه خادم الحبيب المصطفى ﷺ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ بِيَدِي فَاَنْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَنَسًا غُلَامٌ كَيْسٌ فَلْيُخْدَمْكَ، قَالَ: فَخَدَمْتُهُ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ: لَمْ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا؟ ^(٢).

وفي رواية لمسلم قال : « خدمت رسول الله ﷺ تسع سنين ، فما أعلمه قال لي قط : لم فعلت كذا وكذا ؟ ولا عاب علي شيئا قط . »

وفي أخرى له : « قَالَ أَنَسٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَخَرَجْتُ، حَتَّىٰ أَمَرَ عَلِيٌّ صَبِيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَابِضٌ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي فَتَنَظَّرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ أَذْهَبُ حَيْثُ أَمَرْتُكَ» قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

(١) المعجم الكبير للطبراني (٥ / ٨٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم .

قَالَ أَنَسٌ: وَ اللَّهُ لَقَدْ خَدَمْتُهُ سَبْعَ سِنِينَ، أَوْ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُ: لَمْ فَعَلْتُ كَذَا وَ كَذَا، وَ لَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُ: هَلَّا فَعَلْتُ كَذَا وَ كَذَا» (١).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي بَيْتِهَا، فَدَعَا وَصِيفَةً لَهُ - أَوْ لَهَا - فَأَبْطَأَتْ، فَاسْتَبَانَ الْعُضْبُ فِي وَجْهِهِ، فَقَامَتْ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَى الْحِجَابِ، فَوَجَدَتِ الْوَصِيفَةَ تَلْعَبُ، وَمَعَهُ سِوَاكَ، فَقَالَ: «لَوْلَا خَشْيَةُ الْقَوْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَأَوْجَعْتُكَ بِهَذَا السِّوَاكِ».

زَادَ مُحَمَّدُ بْنُ الْهَيْثَمِ: تَلْعَبُ بِبَهْمَةٍ. قَالَ: فَلَمَّا أَتَيْتُ بِهَا النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهَا لِتَحْلِفُ مَا سَمِعْتُكَ، قَالَتْ: وَفِي يَدِهِ سِوَاكَ» (٢).

قَضَى أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الْجَمِيلَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ مِمَّا أَظْهَرَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ حَفَاوَتَهُ وَعِنَايَتَهُ بِخَادِمِهِ أَنَسٍ - الدَّعْوَةُ الصَّالِحَةَ - فَعَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَمَا هُوَ إِلَّا أَنَا، وَأُمِّي، وَأُمُّ حَرَامٍ خَالَتِي، فَقَالَ: «قُومُوا فَلَأُصَلِّيَ بِكُمْ فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ»، فَصَلَّى بِنَا، فَقَالَ رَجُلٌ لِثَابِتٍ: أَيْنَ جَعَلَ أَنَسًا مِنْهُ؟، قَالَ: «جَعَلَهُ عَلَى يَمِينِهِ، ثُمَّ دَعَا لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ بِكُلِّ خَيْرٍ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللَّهِ خُوَيْدِمُكَ ادْعُ اللَّهَ لَهُ، قَالَ: «فَدَعَا لِي بِكُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ فِي آخِرِ مَا دَعَا لِي بِهِ» أَنْ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ» (٣).

فَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ دَفَنْتُ مِنْ صُلْبِي مِائَةً إِلَّا اثْنَيْنِ، وَإِنَّ ثَمَرَتِي لِتَحْمِلُ فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ، وَلَقَدْ بَقِيَتْ حَتَّى سَمِمْتُ الْحَيَاةَ، وَأَنَا أَرْجُو الرَّابِعَةَ، أَيِ الْمَغْفِرَةِ.

قِيلَ: عُمَرُ مِائَةَ سَنَةٍ وَزِيَادَةً، وَهُوَ آخِرُ مَنْ مَاتَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ، انْتَقَلَ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ لِيُفَقِّهَ النَّاسَ (٤).

(١) رواه مسلم وأبو داود ..

(٢) رواه أحمد في الأدب المفرد وغيره ..

(٣) رواه أحمد ومسلم وغيرهما ..

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١ / ٧٢).

توجيه النبي ﷺ في التعامل مع الخدم مثل ذلك في الآتي :-

(١) توبيخه من ضرب الخادم:

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سُؤَيْدٍ، قَالَ: لَطَمْتُ مَوْلَى لَنَا فَهَرَبْتُ، ثُمَّ جِئْتُ قُبَيْلَ الظُّهْرِ، فَصَلَّيْتُ خَلْفَ أَبِي، فَدَعَاهُ وَدَعَانِي، ثُمَّ قَالَ: امْتِثِلْ مِنْهُ، فَعَفَا، ثُمَّ قَالَ: كُنَّا بَنِي مُقَرَّنٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ لَنَا إِلَّا خَادِمٌ وَاحِدَةٌ، فَلَطَمَهَا أَحَدُنَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَعْتَقُوهَا»، قَالُوا: لَيْسَ لَهُمْ خَادِمٌ غَيْرُهَا، قَالَ: «فَلْيَسْتَحْدِمُوهَا، فَإِذَا اسْتَعْنَوْا عَنْهَا، فَلْيُخَلُّوا سَبِيلَهَا»^(١).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً قَطُّ»^(٢).

(٢) ترغيبه في إطعام الخادم :

فعن المقدم بن معدي كرب رضي الله عنه قال ، قال ﷺ : « مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ »^(٣).

(٣) نبيه عن الدعاء على الخادم : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تَوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَاعَةَ نَيْلٍ فِيهَا عَطَاءٌ ، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ »^(٤).

(٤) كان يأمر من عنده خدم أن يطعمهم من الطعام الذي يأكله ويلبسهم مما يلبس :

عن المعروف بن سويد قال رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألناه عن ذلك فقال : إني سابت رجلاً فعيرته بأمه ..

(١) رواه مسلم والترمذي وأبو داود ..

(٢) رواه أبو داود وغيره ..

(٣) رواه أحمد في المسند والطبراني والبيهقي وأبو نعيم في الحلية .

(٤) أخرجه أبو داود .

فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ « أَعَزَّتْهُ بِأَمِّهِ ؟ إِنَّكَ امرؤُ فِيكِ جاهليّة ، ثُمَّ قَالَ لي : إِخْوَانُكُمْ حَوْلَكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعَيْنُوهُمْ » (١) .

٥- ونهى عن تكليفهم من العمل فوق طاقتهم : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ وَلَا يُكَلَّفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ » (٢) .

٦- وكان يتفقد خدمه ويسألهم عن حاجاتهم ويطلب من خدمه أن يطلبوا منه ما يريدون ، فيجيب طلبهم مهما عظم وكثر :

ففي تفقده لهم ورد عن زياد بن أبي زياد مولى بني مخزوم عن خادم للنبي ﷺ رجل أو امرأة قال : كان النبي ﷺ مما يقول للخادم : « أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ » . وفي طلبه لخدمه أن يطلبوا منه ما يشاؤون : عَنْ رَبِيعَةَ بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَقُومُ لَهُ فِي حَوَائِجِهِ نَهَارِي أَجْمَعُ حَتَّى يُصَلِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعِشَاءَ الْأَخِرَةَ فَأَجْلِسُ بِيَابِهِ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ أَقُولُ : لَعَلَّهَا أَنْ تَحْدُثَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَةً فَمَا أَزَالُ أَسْمَعُهُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ..

حَتَّى أَمَلَّ فَأَرْجِعَ أَوْ تَغْلِبَنِي عَيْنِي فَأَرْفُدُ ، قَالَ فَقَالَ لِي يَوْمًا لِمَا بَرَى مِنْ خِفَّتِي لَهُ وَخِدْمَتِي إِيَّاهُ : « سَلْنِي يَا رَبِيعَةُ أُعْطِكَ » قَالَ فَقُلْتُ : أَنْظِرْ فِي أَمْرِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ أَعْلِمْكَ ذَلِكَ ، قَالَ فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي فَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ زَائِلَةٌ وَأَنَّ لِي فِيهَا رِزْقًا سَيَكْفِينِي وَيَأْتِينِي قَالَ فَقُلْتُ : أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِأَخْرَتِي فَإِنَّهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي هُوَ بِهِ قَالَ فَجِئْتُ فَقَالَ : « مَا فَعَلْتَ يَا رَبِيعَةُ ؟ » فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْأَلُكَ أَنْ تَشْفَعَ لِي إِلَى رَبِّكَ فَيُعْتِقَنِي مِنَ النَّارِ قَالَ فَقَالَ : « مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا يَا رَبِيعَةُ ؟ » .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم .

قَالَ فَقُلْتُ : لَا وَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ وَلَكِنَّكَ لَمَّا قُلْتَ سَلْنِي أُعْطِكَ ، وَكُنْتُ مِنَ اللَّهِ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ نَظَرْتُ فِي أَمْرِي وَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ وَزَائِلَةٌ وَأَنَّ لِي فِيهَا رِزْقًا سَيَأْتِينِي فَقُلْتُ أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِأَحْرَقِي ، قَالَ فَصَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ لِي : « إِنِّي فَاعِلٌ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » (١) .

٧ - وكانت آخر وصية أوصى بها النبي ﷺ قبل وفاته : الوصية بالصلاة ، وبالخدم والعبيد ، عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّهُ قَالَ : كَانَ آخِرَ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » (٢) . وَعَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : كَانَ آخِرُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُغْرَغِرُ بِهَا فِي صَدْرِهِ ، وَمَا كَانَ يُفِيضُ بِهَا لِسَانَهُ : « الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » (٣) .

وعندما نُعيد التذكير بهذا التعامل الراقي من الحبيب ﷺ مع خدمه ؛ لنلفت أنظار الجميع ، ونقول لجميع الأمة المحمدية : عليهم أن يتقوا الله وأن يُحسنوا تعاملهم مع عُمَّالهم وموظفيهم .. فهم عُمَّال وليسوا عبيداً ولا أرقاء ، اضطرت بهم الظروف والحاجة إلى أن يُغادروا بلدانهم ويُفارقوا أهاليهم ويتحملون عناء الغربة ، ويصبرون على ألم فراق أوطانهم وأهلهم وأقاربهم لكي يعملون ، ويكسبون القليل من المال ..

فإذا بهم يُفاجئوا بسوء المعاملة والاحتقار والإهانة ، وعدم إعطائهم حقوقهم ، والتضييق عليهم ، وتكليفهم ما لا يستطيعون ، ويأخذون منهم أغلب أموالهم بقوانين وضعية لا تُثبت للشريعة ولا للإنسانية بصلة .. فنقول لهم جميعاً : تعاملوا مع هؤلاء العُمَّال والموظفين مثلما تعامل النبي ﷺ فمن لا يرحم لا يرحم ..



(١) رواه أحمد في المسند .

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

(٣) رواه ابن ماجه ..

تَعَامَلُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
 مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ بِشَكْلِ عَامِرٍ
 وَتَقَرَّبَهُمْ لِلْأُمَّةِ بِمَجْدِهِمْ وَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ

لقد كان صلى الله عليه وآله يتعامل مع أهل بيته كلهم بأحسن وأفضل التعامل السامي كي يعلمنا ،
 ولنقتدي به .

وقد تعددت مظاهر التعبير عن الرحمة من جانب النبي صلى الله عليه وآله تجاه أهل بيته ؛ فتارة نراه في خدمة
 أهل بيته، وتارة نراه يداعبهم ويدخل السرور إلى قلوبهم، وتارة أخرى نراه يتجاوز عن أخطائهم
 برحمة وحنان .. وهكذا كانت إشارات الرحمة تنتشر في بيت النبوة، فتفيض عليهم حناناً ، كما تقدم
 وروي عن السيدة عائشة في أكثر من موضع أن النبي صلى الله عليه وآله كان في خدمة أهل بيته يعاونهم ويخفف
 عنهم ؛ سَأَلْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها : مَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ : كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ . يَعْنِي
 - خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةَ ، حَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ ^(١) .

وقد رَوَى ابن كثير في - البداية والنهاية - عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله
 يصنع في بيته ؟ قالت : كان يرقع الثوب ويخصف النعل ونحو هذا ^(٢) .

(١) رواه البخاري .

(٢) البداية والنهاية (ج ٦ / ص ٤٦) .

وَرَوَى الْعِرَاقِيُّ عَنْهَا كَذَلِكَ فِي تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ، أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَخِيطُ ثُوبَهُ وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ. وَرَوَى ابْنُ حَجْرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي فَتْحِ الْبَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثُوبَهُ.

تُرى يا رسول الله، لِمَ تقوم بكل هذه الأعمال وأنت لديك ما لديك من المهام الجسام؟ كيف تجد الوقت لفعل هذه الأمور رغم هموم الدعوة ونشر الإسلام وتوجيه وإرشاد المسلمين ومواجهة الأعداء؟ حتماً إنها الرحمة بأهل بيتك، ليت الرجال يقرأون سيرتك ويتعطرون بقطرات من عطرها، ولو فعلوا ذلك؛ ما تحولت بيوتهم إلى جحيم لا يطاق.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوجه أهل بيته لإقامة الشرع قبل غيرهم ويرببهم ويعلمهم قبل غيرهم حيث وجهه المولى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله تَعَالَى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يترك أهل بيته في النصيحة والتعليم والتأديب بل يحثهم على مكارم الأخلاق والقرب إلى الله وحسن المراقبة له وحسن التخلق بأخلاقه،

وقد وجه الحبيب المصطفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمته بتعظيم واحترام آل بيته الكرام بعدة أحاديث منها الآتي:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَجَّتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِشْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِيهِمَا»^(١).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، رَبِيبِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَدَعَا النَّبِيُّ

(١) صحيح الجامع: ٢٤٥٧ ورواه الترمذي.

فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَجَلَّلَهُمْ بِكَسَاءٍ وَعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَجَلَّلَهُ بِكَسَاءٍ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: وَأَنَا مَعَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْتِ عَلِيٌّ مَكَانِكَ وَأَنْتِ إِلَيَّ خَيْرٌ»^(١).

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَنَزَلَ عَدِيرَ حُمٍّ أَمَرَ بَدَوْحَاتٍ، فَتَمَمْنَ، ثُمَّ قَالَ: كَأَنِّي قَدْ دُعِيتُ فَأَجَبْتُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي، فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا؟

فَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ مُوَلَايَ، وَأَنَا وَإِيَّ كُلِّ مُؤْمِنٍ» ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ: «مَنْ كُنْتُ وَلِيًّا فَهَذَا وَلِيُّهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ» فَقُلْتُ لِزَيْدٍ: سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا كَانَ فِي الدَّوْحَاتِ رَجُلٌ إِلَّا رَأَاهُ بِعَيْنِهِ وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ»^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ ، قَالَ: دَخَلَ الْعَبَّاسُ عَلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَخْرُجُ فَنَرِي قُرَيْشًا تَحَدُّثُ، فَإِذَا رَأَوْنَا سَكَتُوا فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَرَّ عِرْقٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: « وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ إِيْمَانٌ حَتَّى يُحِبَّكُمْ اللَّهُ وَلِقَرَاتِي »^(٣). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعْمِهِ، وَأَحِبُّوا لِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي »^(٤). وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اخْلُفُونِي فِي أَهْلِ بَيْتِي»^(٥).

عَنْ حَنْسِ الْكِنَانِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ، يَقُولُ: وَهُوَ آخِذٌ بِبَابِ الْكَعْبَةِ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَأَنَا مَنْ عَرَفْتُمْ، وَمَنْ أَنْكَرَنِي فَأَنَا أَبُو ذَرٍّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مِثْلُ أَهْلِ بَيْتِي مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا عَرِقَ»^(١).

(١) رواه أحمد والترمذي والطبراني وغيرهم .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) رواه أحمد والترمذي وغيرهما .

(٤) رواه البيهقي والطبراني ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب . أ ه من الدر الثمين، مختصر الرد المحكم المتين - (ج ١ / ١٩) .

(٥) رواه الطبراني في الأوسط .

وفي الأحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل^(٢) منهم للتمسك به إلى يوم القيامة كما أن الكتاب العزيز كذلك ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض ..

يقول شيخنا الحبيب العلامة المربي أبو بكر العدني ابن علي المشهور رحمه الله تعالى في كتابه : إحياء منهجية النمط الأوسط : إن آل البيت شجرة مباركة بإرادة الله فقط ، وإرادة الله فقط ، ولن تقوم بركتها بإفراط المحيين ، ولا تسقط قيمتها ببغض المبغضين ؛

فهذان الطرفان يختصمان ويتنازعان ويُحشِران كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في معركة الصراع بينهما ، كما يُفسِّران حوادث التاريخ - التي كانا طرفاً فيها - وفق الأمزجة والعواطف والمصالح ، مُستثمِرين (آل البيت) - كاستثمارهما للقرآن والسنة - وقوداً لإنجاح معركة البُغض الطائفي والعِرقي فيما بينهما ، ولو على حساب إخراس آل البيت أنفسهم ، فالتحدي لا يسمح بالتنازل ، كما أن التَّعدِّي يخلط الحابل بالنابل .

ويقول أيضاً في كتابه المهيع الواضح الميمون : إنَّ مزية آل البيت كونهم : (سُفْنُ النَّجَاةِ) كما سمَّاهم النبي ﷺ ، وهذا المسمى لا ينحصر في أوائلهم ، بل يشملهم جميعاً بشروطٍ متفاوتةٍ ، ومنها: تهيئته هذه السُّفْنِ للنجاة بما جاء به ﷺ من عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْأَخْلَاقِ ، وهما الثلاثي الذي أشرنا إليه سلفاً من مدلول الآية : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩] ، حيث إنَّ خصوصية النجاة مرتبطةٌ بالجمع بين شرفِ الذَّوَاتِ وشرفِ الصِّفَاتِ ، والذَّوَاتُ شرفُها موهوب ، والصِّفَاتُ شرفُها مُكْتَسَبٌ ، وبتحقيق الصِّفَتَيْنِ يبرُزُ أثرُ المعنى المراد بالسُّفْنِ والنجاة بها^(٣) .

ويقول أيضاً : إن مصدر التحقيق من مفهوم سُفْنِ النجاة هو النظر في أسلوب التلقي عند آل البيت خصوصاً ، فمتى يكون التلقي قائماً على منهج الأبوة الخاص كإسناد تربوي وتعليمي والتعليم الآخر ثانوياً وإضافياً فالخير والترقي التربوي مأمولٌ في الدرّية المباركة ؛

(١) رواه الطبراني والحاكم في المستدرک وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَمَنْ يُخْرِجَاهُ "

(٢) أي أصبح أهلاً للاهتمام والاعتناء ..

(٣) إه من كتاب : المهيع الواضح الميمون ط ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٤ م ص [٩٠] .

وأما إذا كان التلقّي قائماً منذ البداية على المناهج الخدميّة العامّة والإعلام والثقافة المُسيّسة والتلقّي الخاصّ في الأسرة مُنعداً أو متقطّعاً فالأمر يقف على المشيئة والسوابق ، حيث لا يضمن المرء سلامة آل البيت في توجّهاتهم لمُجرّد الانتساب وحده ؛

وهذا ما تعمل عليه وعلى شموله في الزمان عقولُ المهندسين العالمين وأتباعهم من وكلاء الهندسة المعرفية في الأمة ، وهو إذابة كافّة الخصوصيات الأدبية والتربوية والثقافية الخاصّة ضمن الإطار الرسمي العام ومناهجه الخدميّة ، حتّى يُصبح الجميع على مُخرَج تعليمي وثقافيٍّ موحّد .. (١)

حقوق آل البيت الكرام عليهم السلام : —

كفالتهم بمنحهم الخمس المقرر لهم شرعاً ، وإذا تعذر الخمس لقلّة مالٍ أو ظلم من يتولّى على حقوقهم فيعطون من الصدقة المفروضة ما يكفيهم أهـ . وقال بهذا أبو سعيد الأصبخري قال الرافعي وكان محمد بن يحيى صاحب الغزالي يُفتي بهذا .

◆ تقديمهم بالعلم والفتوى والمكانة والمجلس .

◆ موالاتهم بالمحبة والخدمة وطلب الدعاء منهم والدفاع عن أعراضهم ونشر فضائلهم والغضّ عن معائبهم وبذل النصح لهم .

وهذه الحقوق المطلوبة من الخلق إنما هي تكليف رباني لا اختيار إنساني ، ولهذا فإن من واجب أهل البيت ألا يتكلّفوا المطالبة بالحقوق من الناس إذ إن الناس تبع لحملة القرار والاستقرار ؛ وإن ما يجب على أهل البيت معرفة الأخلاق التي تميّزهم عن سائر الناس وتساعدهم على خدمة المجتمع بكافة شرائحه ومجموعاته ، كما أن عليهم الخروج عن دوائر التكتل وأسباب الصراع المذهبي والسياسي والاجتماعي ليكونوا حقاً سفن النجاة ساعة الطوفان (٢) .

(١) إهـ من كتاب : المبعث الواضح الميمون ط ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٤ م ص [٩١] .

(٢) باختصار من التليد والطارف ص (٤٨١) .

هَكَذَا أَفَلَيْكُمْ نَوَآءُ آلِ الْبَيْتِ ..

لقد أوردنا فيما سبق من هذا البيان عن تعريف آل البيت ، وماذا يجب على الأمة اتجاهاهم من التعظيم والتقدير ومن الحقوق الواجبة على الناس نحوهم .

فلا ننسى في هذا المقام إلى أن نشير زيادةً إلى ما سبق من التوجيهات من باب المحبة و المناصحة لآل البيت الكرام إلى أن عليهم أن يكونوا خير خَلْفٍ لخير سلف ، وأن يكونوا أهل اقتداء واهتداء ، وأن يكونوا سالكين للمنهج النبوي الشريف ، متّصّفين بالصفات الجميلة والخصال الحميدة ، وهذا هو ما وَجَّه به الكثير من الأئمة من آل البيت لجميع من ينتمي إلى آل البيت الكرام ، وقد أُفِرِدَتْ مؤلفات في ذلك ، حرصاً على السادة أن يلتزموا بمنهج السلامة وبمنهج النمط الأوسط والسير الله إلى بصدق وإخلاص ليكونوا خير قدوة وأسوة للجميع .

يقول الإمام العلامة المؤرِّخ المحقِّق الحبيب علوي بن طاهر الحداد في كتابه : [الشامل في تاريخ حضرموت ومخالفاتها] عندما تحدّث عن آل البيت ، وخصوصاً السادة من آل با علوي فقال رحمته : ولقد أردتُ جمع تراجم من وجدتُ له ترجمة من السادة العلويين ، فقارب ما جمعته نحو ٨٠٠ ترجمة مختصرة وخبّنت ما بقي فإذا الجميع يناهز الألف والخمسمائة ترجمة ، هذا مع عدم توفّر المواد ، وتعدّر الاستقصاء ؛

وأن قبيلة أنجبت هذا العدد الجم من الفضلاء ليحق لأبنائها اليوم أن يكونوا أسبق الناس إلى المكارم ، وأسرعهم إلى معالي الأمور ، وأن يمتازوا عن الناس بجدّهم فيما ينفع الأمة والمِلَّة ، كما امتاز آباؤهم من قبل ، وينشد حالهم قول القائل :

إِنَّا وَإِنْ أَحْسَابَنَا كَرَّمْتُ لَسْنَا عَلَى الْآبَاءِ تَتَكِلُّ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلْ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

قال مفتي المدينة المنورة وعالمها الشريف أحمد بن علوي با حسن جمل الليل العلوي : يتحتّم

على كل من انتسب إلى سيد الأوائل والأواخر ، واتصل بذاته الكريمة التي هي معدن المحامد والمفاخر ، أن يحفظ حرمة ، وينهض لاكتساب المعالي همته ، وذلك بأمر - ثم عدّها ﷺ ، وأنا أذكر بعضها مختصراً :

فمنها : الجِد الصادق بالنية الصالحة في تحصيل العلوم الشرعية خصوصاً : الكتاب العزيز والسنة النبوية ، فإنه لم يزل السلف من أهل البيت رضوان الله عليهم على ذلك ، والعلوم الشرعية لا تظهر إلا عن عناصرهم الكريمة ، فكيف يليق بهم عدم الاهتمام بها ، ولذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه : الشريف كل الشريف من شرفه علمه ، والسيد كل السيد من اتقى ربه ، والكريم من أكرم عن ذل النار وجهه .

ومنها : اجتناب كل ما يُستقبح شرعاً ، فإن القبيح من أهل هذا البيت أقبح منه في غيرهم ، ولهذا قال العباس لابنه عبد الله عليه السلام كما في تاريخ دمشق لابن عساكر : يا بُني إن الكذب ليس لأحد من هذه الأمة منه بي وبك وبأهل بيتك ، يا بُني لا يكون شيء مما خلق الله أحب إليك من طاعته ، ولا أكره إليك من معصيته ، فإن الله عز وجل ينفعك بذلك في الدنيا والآخرة ، وقال الحسن المثنى عليه السلام : إني أخاف أن يُضاعف على العاصي من العذاب ضعفين ، والله إني لأرجو أن يؤتى المحسن من أجره مرتين ، وقد أرشد الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وآله وسلم أصناف الخلق إلى التقرب إلى الله تعالى بطاعته ورغبهم في ذلك ، ونهاهم عن ضده ورهبهم بقوارع زجره عنه ، وأولى الخلق بذلك أهل بيت النبوة لمضاهاة ذلك الكرم محتدهم ، وشريف نسبتهم ، ولتكون حشمتهم في النفوس موفورة ، وحرمة الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم محفوظة ، حتى لا ينطق بدمهم لسان - أي عن أمر واقع لا ذم الأعداء والحساد فإنه لا مطمع في ردعهم - ولا يشابههم إنسان ، وأولى الناس بالمرؤة من كانت له بنوة النبوة .

ومنها : ترك الفخر بالآباء وعدم التعويل عليهم من غير اكتساب الفضائل الدينية ، فقد حض عليه الصلاة والسلام أهل بيته بالحث على التقوى ، وحذرهم ألا يكون غيرهم أقرب إليه

بالتقوى، وألا يؤثروا الدنيا على الآخرة اغتراراً بنسبهم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣]. قال السيد السمهودي رحمته الله: وأعظم بها خسارة وإساءة أن يمنح الله العبد قُرب النَّسَب من أفضل خلقه وأشرفهم رحمته الله فيكفر هذه النعمة بتعاطي ما يسوؤه رحمته الله عند عرض عمله عليه، لأن ولي الله ورسوله من توالى منه الطاعات ولم يصِر على ارتكاب المنهيات . ومنها : معاملتهم في أمة سيدنا محمد رحمته الله بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه وإفشاء السلام ومزيد الإكرام وترك التعاضم على أحادهم وإحسان الظن بهم .إهـ.

وعقب الحبيب العلامة علوي بن طاهر الحداد بقوله بعد هذا الكلام : وأزيد عليه فأقول : إن في هذا الزمان تنكّر وتجهّم ، وفي أهله انصراف عن دين الإسلام ، وقد عمل فيهم الملحدون والمارقون عملهم ، ومالأوا عليهم الفضاء ، بألوان الكذب والفراء ، يطعنون في الدين ، وفي كتاب الله المبين ، وفي رسوله الصادق الأمين ، ولا يُعني في ردّ شبهاتهم ، ولا إنقاذ أحد من مهواتهم ، ما نحن مكبّون عليه من حل عُقد بعض عبارات الكتب الفقهية ، بل لا بد من التوسّع في علوم القرآن والعربية ، وعلوم السُنّة النبوية ، فنأخذ حظنا من المدافعة عن ديننا ونبينا ، ولا ندع غيرنا من الناس يتفرد بذلك دوننا ، ونخرج من ذلك صفر الأيدي ، وأن يكون ذلك بدون تخصيص طائفة منا لذلك وتسهيل أبواب التعلم لهم ومعاونتهم على هذا الأمر ، ويجب أن تكون لنا حالة جديدة تؤلّف بيننا ، باتباع شرع الله في المواصلة والمراحة والمعاونة على البرّ والتقوى ، والدفع عن ضعيفنا ، والسعي في كل ما يجمع شملنا ، ويصلح ذات بيننا وأن يكون ذلك بغير إحياء الشعور بالقرابة وحق الرحم ، والغيرة على العرض ، والاحتفال بحق الأخ القريب والبعيد ، والتأزر في الأمر الشديد ، وما ذلك على الله بعزير ، ونسأل الله أن يجمع على الهدى أمرنا ، ويؤلّف على ما يرضيه قلوبنا ويهدينا سُبُل السلام ، ويخرجنا من الظلمات إلى النور ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ^(١).



تَعَامَلُوا صَاحِبِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاللَّهُ وَسَلَّمَ

مَعَ جَيْرَانِهِ

في عصرٍ ساء تعامل الناس فيما بينهم مع جيرانهم وضاعت الحقوق وحسن التعامل فإننا نجد الحبيب ﷺ في أعلى وأسمى التعامل مع جيرانه على اختلاف دياناتهم ومشاربهم واختلاف ذلك وهو يحسن التعامل مع جيرانه ويوصي الأمة بهم والإحسان إليهم فقال ﷺ: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُنِي»^(١).

وقد اهتم التشريع الإسلامي من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بشأن الجار والجوار والجيران اهتماماً كبيراً، ذلك لأنّ تعاون الجيران فيما بينهم مظهر من مظاهر الأخوة الإسلامية، وركن هام وأساس من أركان التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، وللأسف الشديد، لم تعد علاقة الجيران ببعضها كما كانت قديماً، فهذه العلاقة السمحة بدأت تفقد بريقها اليوم حتّى يكاد البعض لا يعرف شيئاً عن جاره ولا يلقي حتّى السلام عليه، فالبعض يصعب عليه أن يحب جاره كما يحب نفسه، والبعض الآخر يغار من نجاح جاره ويحسده.

وهناك أيضاً من ليس لديه استعداد لإسداء أي خدمة لأحد، ولا حتّى جاره الذي يشاركه المبنى نفسه. وشاعت اليوم الفرقة وعدم التآلف بين الجيران، ونسي الكثير حقوق الجار والتوجيهات الإلهية والتوجيهات النبوية في ذلك، وقد ساءت العلاقة بين الكثير من الجيران، وبات الكثير يشتكى من سوء تعامل جاره معه ومع أبنائه ولا يرفع حق الجوار وحرمة.

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

وهذا الواقع المؤلم يحتاج منا وقفة حازمة ، وتغيير في سلوكياتنا مع جيراننا وإزالة ما علق في القلوب من حسد وحقد وغيره، ونبدأ صفحة جديدة معهم مليئة بالمحبة والتعاون والإخاء؛ ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، حيث كان لا يؤدي جيرانه بل يعاملهم معاملة كريمة وكان صحابته رضوان الله عليهم لا يؤذون جيرانهم.

وقد أسلم بعض جيران الرسول من اليهود بسبب تلك المعاملة الراقية، وأهدى بعض الفاسقين وعاد إلى رشده بسبب تعامل جيرانهم معه وسؤالهم عنه. ومن ذلك ما ورد في الآتي : —
كان له ﷺ من الجيران غلام يهودي ؛

فَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: أَطْعِ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

وهكذا نرى أعلى درجات الرحمة في شخصية هذا النبي الكريم ﷺ ، الذي يطلب من غلام يعالج سكرات الموت، أن ينطق بالشهادتين في لحظاته الأخيرة ، لتكون برهاناً لرسول الله يشفع به أمام الله لهذا الغلام يوم القيامة ، وهذا الشعور من رسول الله يبين عمق عاطفة النبي ﷺ الجياشة تجاه سائر البشر على اختلاف عقائدهم ودياناتهم ، إنها الرغبة الشديدة الفياضة في هداية البشر ، رغم جهلهم المطبق برسالة سيدنا محمد ﷺ إلا من رحم الله -، فهو يدعوهم إلى الجنة، وهم يتفльтون منه، كما في حديثه، الذي يمثل فيه رحمته بتصوير رائع بليغ، فيقول: «مَثَلِي وَمَثَلِكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْلَتُونَ مِنِّي»^(٢).

(١) رواه البخاري من كتاب نبي الرحمة ص (٢٢٤) .

(٢) رواه مسلم إه من كتاب : نبي الرحمة (٢٢٥) .

وقد افتخر بنو النجار بهذا الجوار للنبي ﷺ في أشعارهم ، فكانت جوارهم تضربُ بالدُّفِّ ،
وتتغنَّى بذلك ؛ عن أنس بن مالكٍ رضي عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِبَعْضِ الْمَدِينَةِ فَإِذَا هُوَ بِجَوَارٍ يَضْرِبْنَ
بِدُفِّهِنَّ وَيَتَغَنَّيْنَ وَيَقْلَنَ :

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَا حَبَاذًا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَعْلَمُ اللَّهُ إِنِّي لَأَحِبُّكَ » ^(١).

وقد أخبر النبي ﷺ عن عقوبة عدم الاهتمام بالجار فعن نافع عن ابن عمر قال : لقد أتى علينا
زمان ، أو قال : حينٍ وما أحدٌ أحقُّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم ثم الآن الدينار والدرهم أحب
إليَّ أحدنا من أخيه المسلم سمعت النبي ﷺ يقول : (كَمْ مِنْ جَارٍ مُتَعَلِّقٍ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ
يَا رَبِّ هَذَا أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي فَمَنْعَ مَعْرُوفَهُ) ^(٢).

وحذر رضي عنه من عدم الاهتمام بالجار في أحاديث كثيرة: —

منها عن عبد الله بن المساور قال سمعت بن عباس بن مخبر بن الزبير يقول سمعت النبي ﷺ يقول :
(لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ) ^(٣).

وفي رواية عند الطبراني : عن أنس بن مالكٍ رضي عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ
شَبَعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ » . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « وَاللَّهِ لَا
يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ » .. قَالُوا : وَمَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « جَارٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَأْتِقَهُ »
قَالُوا : وَمَا بِوَأْتِقَهُ ؟ قَالَ : « شَرُّهُ » .

وفي رواية عن أبي هريرة رضي عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بِوَأْتِقَهُ »
ومعنى بوأيقه : أي غوائله وشروره ^(٤).

(١) رواه ابن ماجه ..

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک ..

ومنها ما رواه البيهقي عن الزُّهريِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَنَّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ أَوْ تَنَحَّمَ لِيَبْدُرُوا نُحَامَتَهُ يَمْسَحُوا بِهَا وُجُوهُهُمْ وَجُلُودَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِمَ تَفْعَلُونَ هَذَا؟ . قَالُوا: نَلْتَمِسُ بِهِ الْبَرَكَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُحِبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلْيَصِدِّقِ الْحَدِيثَ، وَلْيُؤَدِّ الْأَمَانَةَ، وَلَا يُؤْذِي جَارَهُ» .

ومنها ما روي أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُفَّ عَنْهُ أَدَاكَ وَاصْبِرْ لِأَذَاهُ فَكَفَى بِالْمَوْتِ مُفْرَقًا»^(١).

وقال ﷺ: «استعيذوا بالله من جارٍ السوء الَّذِي إِنْ رَأَى خَيْرًا سَتَرَهُ وَإِنْ رَأَى شَرًّا أَظْهَرَهُ»^(٢).
وعن عبد الله بن عمرو بن العاصٍ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنْ فُلَانَةٌ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَدِّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» ؛
قِيلَ: وَفُلَانَةٌ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ، وَتَصَدِّقُ بِالْأَنْوَارِ وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٤).

وَأَخْبَرْنَا رضي الله عنه بِحَقُوقِ الْجَارِ :-

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ جَارِي عَلَيَّ؟، قَالَ ﷺ: «إِنْ مَرِضَ عُدَّتُهُ، وَإِنْ مَاتَ شَيَّعْتُهُ، وَإِنْ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِنْ أَعْوَزَ سَتَرْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ

(١) رواه ابن النجَّار عن أبي عبدالرحمن الحلبي مُرسلاً، كما في: (كنز العمال).

(٢) عزاه الحافظ العراقي للبخاري في (التاريخ) .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ..

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ورواه البيهقي ، جمع نور وهو القطعة من الأقط. أي الجبن .

هَنَاتُهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَيْتُهُ، وَلَا تَرْفَعُ بِنَاءَكَ فَوْقَ بِنَائِهِ فَتُسَدَّ عَلَيْهِ الرِّيحُ، وَلَا تُؤْذِيهِ بِرِيحِ قَدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَعْرِفَ لَهُ مِنْهَا» (١).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونَ جَارِهِ مَخَافَةً عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُؤْمِنٍ، وَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بِوَأَيْفِهِ، أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ؟ إِنْ اسْتَعَانَكَ أَعْنَتُهُ، وَإِنْ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِنْ افْتَقَرَّ عُدْتَ عَلَيْهِ، وَإِنْ مَرَضَ عُدْتَهُ، وَإِنْ مَاتَ شَهِدْتَ جَنَازَتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَأْتُهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَيْتُهُ، وَلَا تَسْتَطِيلَ عَلَيْهِ بِالْبِنَاءِ، فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَإِذَا شَرَيْتَ فَآكِهَةً فَاهِدْ لَهُ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَادْخِلْهَا سِرًّا، وَلَا يُخْرِجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِیظَ بِهَا وَلَدَهُ، وَلَا تُؤْذِيهِ بِبَيْتَارِ قَدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَعْرِفَ لَهُ مِنْهَا» فَمَا زَالَ يُوصِيهِمُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورِّثُهُ؛

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثُ حُقُوقٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثُ حُقُوقٍ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ الْقَرِيبُ، لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْقَرَابَةِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ، لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالْجَارُ الْكَافِرُ، لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْعِطِيهِمْ مِنْ لُحُومِ النَّسْكِ؟ فَقَالَ: «لَا تُعْطِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ نُسْكِ الْمُسْلِمِينَ» (٢).



(١) أخرجه الطبراني و البيهقي في شعب الإيمان (٧/٨٤، رقم ٩٥٦١).

(٢) رواه البيهقي في الشعب و الهندي في كنز العمال.

تَعَامَلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ الْأَسِيرِ

أما تعامله ﷺ مع الأسير فقد وردت في ذلك الأخبار المتواترة والأحاديث المشهورة التي تخبر عن كيفية التعامل مع الأسير في منهج الحبيب الأعظم ﷺ .
ففي غالب الأحيان ما يُؤَسَّر الكافر إلا ويُسَلِّم ، ليس ذلك لأنه تحت الإهانة والتعذيب ، ولكنه يَرَى من حُسْن الرعاية والعناية والتعامل الحَسَن ، ويشاهد أثر الوصية من الرسول الرحيم إِلَى أصحابه بحُسْن رعاية الأسير والإحسان إليه .

ونحن نرى في الآونة الأخيرة مع كثرة الحروب زيادة عدد أسرى الحرب بين أهل الحرب ، وخاصة من يدعون أنهم يقاتلون في سبيل الله تَعَالَى ، لكن وجدنا معاملتهم للأسرى تصب عَلَى شيء ؛ وهو القتل بأبشع صورة والتمثيل بالجثث ، واللعب برؤوس الناس ، مع الغاية الكبيرة من الحقد والحنق والكراهية ، وهذا كله مخالف لهدي النبي ﷺ ؛ يفعلون ذلك مع إخوانهم المسلمين من أهل لا إله إلا الله في الحروب الدائرة بينهم ، وهم واقعون في الفتنة .. وليس مع الأسرى من أهل الكفر المحاربين ..

والكلام في الأسرى وأحكام الأسرى ومعاملتهم يطول ذكره ، وسوف نختصر القول في هذا المطلب بما يفي بالغرض :

أولاً : معنى الأسير : الأسير هو : الذي وقع في أيدي المسلمين حياً ، أو من ألقى سلاحه مستسلماً .

ثانياً : شرعية الأسر : الحروب لا بد فيها من أسرى من كلا الطرفين ، والإسلام راعى معاملة الأسير معاملة طيبة حتى يحكم الإمام فيه بحكمه الذي يوافق مصلحة المسلمين .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحَمْتَهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّبَلَاؤِكُمْ بَعْضٌ ﴾ [محمد: ٤] .

ثالثاً : هدي النبي ﷺ في معاملة الأسرى :

وقد كان النبي ﷺ من أحسن الناس معاملة للأسرى .

قال ابن القيم رحمه الله : فَصَلِّ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الْأَسَارَى :

كَانَ يَمُنُّ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ وَيَقْتُلُ بَعْضَهُمْ وَيُقَادِي بَعْضَهُمْ بِالْمَالِ وَبَعْضَهُمْ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ فَعَلَ ذَٰلِكَ كُلَّهُ بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ فَفَادَىٰ أَسَارَىٰ بَدْرٍ بِمَالٍ ، وَقَالَ : لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَنِ ، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ ، وَهَبَطَ عَلَيْهِ فِي صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ ثَمَانُونَ مُتَسَلِّحُونَ يَرِيدُونَ غَرَّتَهُ فَأَسْرَهُمْ ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِمْ .

وَأَسَرَ ثَمَامَةَ بْنَ أُثَالٍ سَيِّدَ بَنِي حَنِيفَةَ ، فَرَبَطَهُ بِسَارِيَةِ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَطْلَقَهُ فَأَسْلَمَ .

فقصة ثمامة ابن أثال قد وردت في كتب الحديث والسير وهي كما أوردها الإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهما عن سعيد بن أبي سعيد، أنه سمع أبا هريرة، يقول: بعث رسول الله ﷺ خيلاً فيل نجد، فبجأت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟»^(١).

فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم^(٢)، وإن تُنعم تُنعم على شاكِرٍ، وإن كنت تريد المال فسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا

(١) (ماذا عندك؟ يا ثمامة) أي ما الظن بي أن أفعل بك؟.

(٢) (إن تقتل تقتل ذا دم) اختلفوا في معناه فقال القاضي عياض في المشارق وأشار إليه في شرح مسلم معناه إن تقتل تقتل =

ثُمَّ أَمَةٌ؟» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تَنْعِمَ تَنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ كَانَ مِنَ الْعَدَدِ، فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَّ أَمَةٌ؟». فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تَنْعِمَ تَنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَّ أَمَةً».

فَانْطَلَقَ إِلَىٰ نَحْلِ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاعْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ، مَا كَانَ عَلَيَّ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللَّهِ، مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ، مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنْ خَيْلِكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَىٰ؟

فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ، فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا وَاللَّهِ، لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَوْمِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّىٰ يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. (١)

وَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّحَابَةَ فِي أَسَارِي بَدْرٍ:

وَاسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ فِي أَسَارِي بَدْرٍ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ الصَّدِيقُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً تَكُونُ لَهُمْ قُوَّةً عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ وَيُطْلِقَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَقَالَ عُمَرُ: لَا وَاللَّهِ مَا أَرَىٰ الَّذِي رَأَىٰ أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنْ أَرَىٰ أَنْ تُمَكِّنَنَا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوِ مَا قَالَ عُمَرُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدَدِ أَقْبَلَ عُمَرُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْكِي هُوَ

=صاحب دم لدمه موقع يشتفى بقتله قاتله ويدرك قاتله به ثاره أي لرياسته وفضيلته وحذف لهذا لأنهم يفهمونه في عرفهم وقال آخرون معناه تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه فلا عتب عليك في قتله.

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

وَأَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءَ بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَبَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الْأَنْفَالُ ٦٧] . تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي أَيِّ الرَّأْيَيْنِ كَانَ أَصُوبَ فَرَجَّحَتْ طَائِفَةٌ قَوْلَ عُمَرَ هَذَا الْحَدِيثَ وَرَجَّحَتْ طَائِفَةٌ قَوْلَ أَبِي بَكْرٍ لِاسْتِقْرَارِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ وَمُؤَافَقَتِهِ الْكِتَابَ الَّذِي سَبَقَ مِنَ اللَّهِ بِإِحْلَالِ ذَلِكَ لَهُمْ وَلِمُؤَافَقَتِهِ الرَّحْمَةَ الَّتِي غَلَبَتْ الْعُزْبَ وَلِتَشْبِيهِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ فِي ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى ، وَتَشْبِيهِهِ لِعُمَرَ بَنُوْحٍ وَمُوسَى .

وَلِحُصُولِ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي حَصَلَ بِإِسْلَامِ أَكْثَرِ أَوْلِيكَ الْأُسْرَى ، وَلِخُرُوجِ مَنْ خَرَجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلِحُصُولِ الْقُوَّةِ الَّتِي حَصَلَتْ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْفِدَاءِ وَلِمُؤَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ أَوْ لَا ، وَلِمُؤَافَقَةِ اللَّهِ لَهُ آخِرًا حَيْثُ اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَى رَأْيِهِ وَلِكَمَالِ نَظَرِ الصِّدِّيقِ فَإِنَّهُ رَأَى مَا يَسْتَقَرُّ عَلَيْهِ حُكْمُ اللَّهِ آخِرًا ، وَغَلَبَ جَانِبَ الرَّحْمَةِ عَلَى جَانِبِ الْعُقُوبَةِ .

قَالُوا : وَأَمَّا بُكَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّمَا كَانَ رَحْمَةً لِنُزُولِ الْعَذَابِ لِمَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ عَرَضَ الدُّنْيَا ، وَلَمْ يُرِدْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَإِنْ أَرَادَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ فَالْفِتْنَةُ كَانَتْ تَعْمٌ وَلَا تُصِيبُ مَنْ أَرَادَ ذَلِكَ خَاصَّةً كَمَا هَزِمَ الْعَسْكَرُ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِقَوْلِ أَحَدِهِمْ : لَنْ نُغَلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قَلْبَةٍ وَبِإِعْجَابِ كَثَرَتِهِمْ لِمَنْ أَعْجَبَتْهُ مِنْهُمْ فَهَزِمَ الْجَيْشُ بِذَلِكَ فِتْنَةً وَمِحْنَةً ثُمَّ اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَى النَّصْرِ وَالظَّفْرِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . اسْتَأْذَنَهُ الْأَنْصَارُ أَنْ يَتْرُكُوا لِلْعَبَّاسِ عَمَّهُ فِدَاءَهُ فَقَالَ : لَا تَدْعُوا مِنْهُ دِرْهَمًا .

وَاسْتَوْهَبَ مِنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ جَارِيَةً نَفَلَهُ إِتَاهَا أَبُو بَكْرٍ فِي بَعْضِ فَوْهَبِهَا لَهُ فَبَعَثَ بِهَا إِلَى مَكَّةَ ، فَفَدَى بِهَا نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَفَدَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِرَجُلٍ مِنْ عَقِيلٍ وَرَدَّ سَبِيَّ هَوَازِنَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الْقِسْمَةِ ، وَاسْتَطَابَ قُلُوبَ الْغَانِمِينَ فَطَيَّبُوا لَهُ وَعَوَّضَ مَنْ لَمْ يُطَيَّبْ مِنْ ذَلِكَ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سِتَّ فَرَائِضَ .

وَقَتَلَ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ مِنَ الْأَسْرَى ، وَقَتَلَ النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهَا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ .
وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَالٌ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى جَوَازِ الْفِدَاءِ بِالْعَمَلِ كَمَا يُجُوزُ بِالْمَالِ .

وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد : وَكَانَ ﷺ يَمْنَعُ التَّفْرِيقَ فِي السَّبْيِ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا ، وَيَقُولُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا ، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. وَكَانَ يُؤْتَى بِالسَّبْيِ فَيُعْطَى أَهْلَ الْبَيْتِ جَمِيعًا كَرَاهِيَةً أَنْ يَفْرَقَ بَيْنَهُمْ .

خلاصة معاملة النبي ﷺ للأسرى :

من خلال الأحاديث والتاريخ الموثوق به أن النبي ﷺ سلك مع الأسرى عدة طرق :

- ١ - فمنهم من أمسكه وضرب عليه الرق ، سواء أكانوا من أولاد العرب أم من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ..
- ٢ - ومنهم من أمر بقتله ، - مثل عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث ، وذلك لشدة عداوتها للنبي ﷺ وكان ذلك في رجوعه من غزوه بدر ، وقال : « لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى ^(١) لتركتهم له » . وكيهود بني قريظة .
- ٣ - ومنهم من فداه بالمال ، كعمه العباس في غزوة بدر ، وقد استأذنه الأنصار أن يترك له فداءه ، فقال : « لا تدعوا منه درهماً » . كما رواه البخاري .

(١) النتنى جمع نتن ، كالزمنى جمع زمن . يُقال : أنتن الشيء فهو متننتن وتنن . وإتاما خص المطعم بهذا لأنه لما مات عمه أبو طالب وماتت خديجة خرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة ، فأقام بها شهرا ثم رجع إلى مكة في جوار المطعم بن عدي ، فأحب مكافأته لو أمكن .

٤ - ومنهم من جعل فداءه عملاً يؤديه للمسلمين ، كـبعض أسرى بدر الذين افتدوا أنفسهم بتعليم أولاد الأنصار الكتابة ، وكان منهم زيد ابن ثابت .

٥ - ومنهم من مَنَّ عليه الرسول بغير مقابل ، كأبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب ، وأبي عزة الجمحي الذي تركه بدون مال لما ذكر له كثرة بناته ، وسبى هوازن ردَّهم بعد القسمة للغنائم واستطاب قلوب الغانمين فطيّبوا له - أي وافقوا - ومن لم تطب نفسه بذلك عوّضه بكل إنسان ستاً من الأنعام في الزكاة .

٦ - وثبت أنه ﷺ بادل أسرى المسلمين بأسرى الكفار ، فقد استوهب من سلمة بن الأكوع جارية نفلها إياه أبو بكر في غزوة فزارة كما رواه مسلم - فوهبها له ، فبعث بها إلى مكة ففدى بها ناساً من المسلمين ، وفدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل .
كما هبط عليه في صلح الحديبية سبعون متسلحون يريدون غرته^(١) فأسرهم ثم مَنَّ عليهم .

هَذَا وَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَسْرَى خَيْرًا ؛

فقد ثبت أنه لَمَّا وَزَعَ الْأَسْرَى عَلَى الصَّحَابَةِ قَالَ لَهُمْ «اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا» .
ويقول أحدهم عَنْ أَبِي عَزِيزِ بْنِ عُمَيْرٍ ، أَخِي مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ : كُنْتُ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا وَكُنْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ أَكَلُوا التَّمْرَ وَأَطْعَمُونِي الْخُبْزَ بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهُمْ»^(٢) .

هَذَا هُوَ الْحُكْمُ فِي الْأَسْرَى مِنَ الْكُفَّارِ ، أَمَا أَسْرَى الْحُرُوبِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ كُلُّ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَبِخَاصَّةِ الْقَتْلِ وَالِاسْتِرْقَاقِ ، وَالْوَاجِبُ مَعَامَلَتَهُمْ بِالْحُسْنَى فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ مَضْطَرٌّ إِلَى خَوْضِ الْمَعْرَكَةِ ، لَصِرَامَةِ الْقَوَانِينِ الْعَسْكَرِيَّةِ .

(١) أي يريدون قتله ..

(٢) أخرجه الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنْ ابْنِ عَزِيزٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ الْهَيْثَمِيُّ إِسْنَادَهُ حَسَنٌ .

عتاب رسول الله ﷺ مع بلال بعد خيبر :

وأما قصة سيدنا بلال مع الأسيرات في خيبر فقد أوردتها الجزائري في كتابه : (هَذَا الْحَبِيبُ يَا مُحَمَّدٌ) إِلَى أَنْ قَالَ :- بعد سقوط خيبر في يد المسلمين لم يقتل النبي ﷺ إلا ابني أبي الحقيق لنكثهم وخيانتهم ، وكان أحدهما زوج صفية بنت حييٍّ ، فأمر بلال أن يذهب بصفيةٍ إِلَى رحله مع بعض نساء السبيِّ فَمَرَّ بِهِنَّ عَلَى الْقَتْلِ ، فبكين فعتب رسول الله ﷺ عَلَى بلال وقال : « أَنْزَعْتُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ يَا بِلَالُ ؟ » . الخ (١) . كان هَذَا الخلق الكريم الذي غرسه المعلم الكبير سيدنا محمد ﷺ في أصحابه وجنده وشعبه ، قد أثر في إسراع مجموعة من كبراء الأسرى وأشرافهم إِلَى الإسلام ، فأسلم أبو عزيز عقب معركة بدر ، بعيد وصول الأسرى إِلَى المدينة ، وتنفيذ وصية سيدنا محمد ﷺ ، وأسلم معه السائب بن عبيد ؛

وعاد الأسرى إِلَى بلادهم وأهليهم يتحدثون عن سيدنا محمد ﷺ ومكارم أخلاقه ، وعن محبته وسماحته ، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى والإصلاح والخير .

تبرئ الرسول ﷺ من صنيع خالد مع الأسرى :

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَحْسَبُهُ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا : أَسْلَمْنَا ، فَجَعَلُوا ، يَقُولُونَ : صَبَّأْنَا ، صَبَّأْنَا ، وَجَعَلَ خَالِدٌ بِهِمْ قِتْلًا وَأَسْرًا . قَالَ : ثُمَّ دَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِّنَّا أَسِيرًا حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ يَوْمًا أَمَرْنَا ، فَقَالَ : لِيَقْتُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِّنْكُمْ أَسِيرَهُ . قَالَ ابْنُ عُمَرَ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِّنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ . قَالَ : فَقَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَذَكَرَ لَهُ مَا صَنَعَ خَالِدٌ . قَالَ : فَرَفَعَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : « إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ » مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا (٢) .

(١) من كتاب هَذَا الْحَبِيبُ يَا مُحَمَّدٌ للجزائري ص (٢٣٩) ط المكتبة العصرية ..

(٢) رواه النسائي والبخاري وغيرهما ..

قصة سفانة بنت حاتم الطائي:

أرسل النبي ﷺ الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام، إلى اليمن، فرجع بأسرى ومغانم، ومن ضمن الأسرى سفانة بنت حاتم الطائي، وقد أعدت للأسرى حضيرة بجانب المسجد، حتى يكونوا أمام أعين الناس. فوقفت سفانة أمام النبي قائلةً: يا رسول الله: هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ من الله عليك، فقال لها: «ومن وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم، قال: «الفار من الله ورسوله»؟! ثم مضى وتركها، فكررت هَذَا من الغد، وبعد الغد، فمنّ عليها وقال: «لا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذني».

فلما أعلمته بأنها وجدت رفقة ثقة؛ كساها وحملها وأعطها نفقة، فشكرت النبي ﷺ على هَذَا الجميل، وكان مما قالت: «شكرتك يد افتقرت بعد غنى؛ ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردّها عليه»^(١).

وقد سئل الإمام مالك رحمه الله: أيعذب الأسير إن رجي أن يدل على عورة العدو؟ فأجاب قائلاً: ما سمعت بذلك، وبذلك يحرم الإسلام تعذيب الأسرى، ويرفض إهانتهم، ويقرّر عدم إهمالهم كما لا يجوز تعذيب الأسير، ولا إهانتة للحصول على معلومات عسكرية منه. فأين منظمات حقوق الإنسان التي تدّعي أنها تحافظ على حقوق الإنسان؟ أين هم؟ ما الذي يحصل في المعتقلات مثل جوانتناموا والسجون العربية والعالمية؟ ألا ينظرون إلى ما يحصل للمساجين؟ كيف يدعون أنهم يحافظون على حقوق الإنسان؟!، بل عليهم جميعاً أن ينظروا إلى تعامل حبيب رب العالمين سيدنا محمد ﷺ مع الأسرى.



تَعَامَلُوا صَاحِبِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَالْوَاسِعَاتُ مَعَ الْعَصَاةِ وَالْمُخْطِئِينَ وَبَيَانَ أَهْمِيَّةِ التَّخَافِ

لقد كان أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ من أعظم الناس تعظيماً لحرمانات الله وأكثرهم خشيةً له ، وأعظمهم خوفاً منه .

لقد كانوا يُعَظِّمُونَ خطورة المعاصي فيجتنبونها ، ومع ذلك لم يخلُ مجتمعهم ممن استزله الشيطان وهوى النفس ، فوقع في بعض الذنوب والمعاصي خصوصاً أنهم كانوا حديثي عهدٍ بجاهلية ولكنهم سرعان ما يتوبون ويرجعون وينيبون ، حتّى ولو أدى الأمر إلى إزهاق الأرواح وبذل المهج في سبيل التخلص من عقاب الله يوم الدين ..

أما تعامل الحبيب ﷺ مع العاصي والمذنب والذي يقع في المعصية فقد تعامل معهم بالأسلوب الذي يأخذ بالعقول والألباب من حُسن التعامل معهم.

لا كما يفعل الخوارج وغيرهم من دعاة الجهل والتكفير والتبديع والتشريك الذين ينفرون ولا يُبشرون ، وهذا كله مخالف لما جاء به الحبيب الأكرم ﷺ حيث أمرنا ووجهنا إلى أن ندعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة وهذا التوجيه من عند الله تبارك وتعالى حيث قال :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقول عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»^(١).

ويقول كما في حديث عائشة رضي الله عنها الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام: «يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَمْ يُنْزَعْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^(٢).

وقد وردت نماذج ، و قصص كثيرة في تعامله عليه السلام مع العصاة ، والمذنبين فيها الأسلوب الذي اتخذهم معهم فإليك الآتي :-

(١) قصة شارب الخمر :

وأما قصة الذي كان يشرب الخمر ويقام عليه الحد، و ثم يعود : فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رجلاً كان يُلقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يَهْدِي لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم الْعُكَّةَ مِنَ السَّمْنِ وَالْعُكَّةَ مِنَ الْعَسَلِ، فَإِذَا جَاءَ صَاحِبُهُ يَتَقَاضَاهُ جَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ: أَعْطِ هَذَا ثَمَنَ مَتَاعِهِ فَمَا يَزِيدُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يَتَسَمَّ وَيَأْمُرَ بِهِ فَيُعْطَى، فَجِيءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ، فَقَالَ رَجُلٌ: اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «دَعُوهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٣).

وفي رواية في البخاري أيضاً : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « أن رجلاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اسمه عبد الله ، وكان يُلقَّبُ حِمَار ، وكان يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أحياناً ، وكان نبيُّ الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جَلَدَهُ فِي الشُّرْبِ ، فَأَتَى بِهِ يَوْمًا ، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ ، فقال رجل من القوم : اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ ، ما أكثر ما يُؤْتَى به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لا تلعنوه ، فوالله ما علمتُ إنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ».

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخاري والبيهقي وأبو يعلى ..

٢) قصة الشاب الذي طلب من النبي ﷺ أن يسمح له في الزنا:

كان ﷺ رقيقاً رحيماً بهم ، ويعاملهم بمبدأ الشفقة والرأفة ، وبيّن لهم شناعة المعصية ويستعمل معهم الخطاب العقلي أحياناً كما جاء في هذه القصة التي أخرجها الإمام أحمد عن أبي أمّامة قال: **إِنَّ فَتَى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ائْذَنْ لِي بِالزَّانَا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: «اذْنُهُ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا» . قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمَّكَ؟» قَالَ: لَا. وَ اللَّهُ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ» .**

قَالَ: «أَفْتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ» . قَالَ: «أَفْتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَ اللَّهُ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخْوَاتِهِمْ» . قَالَ: «أَفْتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَ اللَّهُ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ» . قَالَ: «أَفْتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَ اللَّهُ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ» . قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ. (١)

فكما أن لك محارم فللناس محارم ، والمزني بها هي - ولا بد - أخت إنسان أو أمه أو عمته .. إلخ

فإن كنت ترضاه لنفسك فهذه نقيصة ، وإن كنت لا ترضاه لنفسك فكيف ترضاه للناس ؟

قصة بليغة تضمنت دروساً متعددة في التعامل مع المخطئ ، ليس أولها الدعاء له والحنو عليه ، والسماح له بالتعبير عن كوامنه ، واستجاشة الخير الذي لا يخلو منه قلب خاطئ أبداً ، وفيها دعوة لنا لنراجع أنفسنا ، ونغيّر من طريقتنا في التعبير عن ضجرنا من أخطاء أبنائنا وأصدقائنا والآخرين ، فالسب والشتم الذي نكيله للمخطئ لن يكون سبباً في إصلاحهم وتهذيب سلوكهم وتعريفهم بأخطائهم .

ففي هَذَا الحديث نلمس عظمة الرسول ﷺ ، وحسن تعليمه وتعامله في هَذَا الموقف ، ف هَذَا شاب يعلم ماذا يعني (الزنا) ولذلك قال يا رسول الله ائذن لي بالزنا! ولا يخفى موقف الصحابة وغيرهم الشديدة عَلَى دين الله ﷻ ، وأرضاهم ، ولكن الرسول ﷺ لم يعامل ذلك الشاب بالزجر كما فعل الصحابة ﷻ ، ولا قال له إن الله حَرَّمَ الزنا ورتَّب عَلَى ذلك وعيداً شديداً ، كل ذلك لم يفعله ﷺ لأن هذه الأمور مستقرة لدى الشاب ومعلومة لديه .

إذاً ، كان العلاج النبوي بالمحاورة والإقناع العقلي هو أنجح وسيلة لمثل هذه الحالة ، فتأمل هذه الوسيلة في التعليم يتبين لك عظمة المعلم الأول ﷺ^(١) .

أما خطابه مع من يخطئ فقد كان ﷺ يتعامل مع من يخطئ بعد تأكده من خطائه يُكَنِّي ولا يُصَرِّح باسم أحد ؛

وهناك أكثر من حديث وقصة تثبت ذلك . فغالباً ما يكون التوبيخ له أثر في نفس الموبِّخ ، ويعظم هَذَا الأثر إن كان التوبيخ بحضور جماعة من الناس ، فإنه حينئذ يتضاعف ، والنبى ﷺ كانت له طريقة فريدة من نوعها في معالجة الأخطاء الظاهرة التي تحدث من صحابته ، إذ أن الغاية من تشهيره عليه الصلاة والسلام بالخطأ ليس التشفي من المخطئ ، بل هو تحذير من الوقوع في الخطأ ، وذم للخطأ نفسه .

إِنَّ خُلُقَ التَّغَافُلِ مَنَسِيٌّ بَيْنَنَا رَغْمَ أَنَّهُ خُلُقٌ مُرِيحٌ مُسْعِدٌ ، وَرَغْمَ أَنَّ رَبَّنَا قَدْ أَوْصَانَا بِهِ كَثِيرًا لِفَوَائِدِهِ الْمُسْعِدَةِ ، فيقول تَعَالَى عَلَى سبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَصْرَ مَمْتَدِحًا إِيَّاهُ: ﴿ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

ولقد فعله الرسول ﷺ في مواقف كثيرة قد يصعب حصرها ، أو حتَّى تصوورها لأنه من أسباب السعادة ؛

(١) المعلم الأول ﷺ - (ج ١ / ص ١١٧-١١٨) .

فمثلاً عن أبي هريرة، أنه قال: أتى رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فناداه، فقال: يا رسول الله، إني زنت، فأعرض عنه، فتنحى تلقاء وجهه، فقال له: يا رسول الله، إني زنت، فأعرض عنه، حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ، فقال: «أبك جنون؟» قال: لا، قال: «فهل أحصنت؟» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «أذهبوا به فارجموه» .

قال ابن شهاب: فأخبرني من سمع جابر بن عبد الله ﷺ، يقول: فكننت فيمن رجمه، فرجمناه بالمصلى، فلما أذلقته الحجارة هرب، فأدركناه بالحرّة، فرجمناه^(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أتى ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ قال له: «لعلك قبلت أو غمرت أو نظرت؟» قال: لا يا رسول الله^(٢). وفي رواية: ... فذكروا الرسول الله ﷺ أنه فرح حين وجد مسّ الحجارة ومسّ الموت، فقال رسول الله ﷺ: «هلا تركتموه»^(٣)، وفي رواية عن يزيد بن نعيم يعني ابن هزال الأسلمي، عن أبيه، قال: جاء ماعز إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني زنت فأقم في كتاب الله، فأعرض عنه، حتى ذكر أربع مرات، فقال: «أذهبوا به فارجموه» فلما مسّته الحجارة جزع فاشتد، فخرج عبد الله بن أنيس من باديته فرماه بوظيف حمار فصرعه، ورماه الناس حتى قتلوه، فذكر للنبي ﷺ فراره فقال: «هلا تركتموه، فلعله يتوب فيتوب الله عليه، يا هزال لو سترته بثوبك كان خيراً لك مما صنعت»^(٤). قال الإمام ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري): ... قال عياض: فائدة سؤاله «أبك جنون؟» ستراً لحاله ..

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ..

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) رواه البيهقي وغيره .

وقال الإمام ابن عبد البر في الاستذكار شارحاً حديث هزال : ... في هَذَا الحديث من الفقه
 أَنَّ إعراض الرسول ﷺ عنه حين أقرَّ عَلَى نفسه بالزنا ، حَتَّى أَكثَرَ عليه ، كان - والله أعلم -
 رجاءً أَلَّا يَتِمَّادَى في الإقرار وأن ينتبه ويرعوي ثم ينصرف ويعقد التوبة مَمَّا وقع فيه ..
 فالرسول ﷺ يتغافل حَتَّى عن الزاني !! ليستر نفسه ويُصلحها هو بذاته ، فإنَّ ذلك أَقْوَى
 العلاج وأضمنه وأعظمه نتيجة وأكثره استمرارية ، من داخله ، وباختياره بعد اقتناعه ، لا
 بالضغط عليه من خارجه ، حَتَّى إذا زال هَذَا الضغط عادَ لفساده !

بل الرسول ﷺ من شدة حَبِّه للسَّتر وللتغاضي وللتغافل ، لفوائده المُسَعِّدَة ، بعد إعراضه
 عن المسيء الذي أقرَّ هو بإساءته الكبيرة ، لم يَلْمُه أو يعاتبه ! بل خففَّ عنه وهَوَّنَ عليه ! ليس دعوة
 بكل تأكيدٍ للاسترسال في إساءاته ! وإنما لكي يُعيِّنه بالطبع عَلَى أن يجد مخرجاً للإصلاح ووسيلة
 للعلاج ؛ لأنَّ العقوبة في الإسلام إذا تمَّ تنفيذها مع مَنْ يستحقها دون عفو عنه هي من أجل
 التطهير والتصويب والاعتبار ، لا الانتقام ! فيقول له مثلاً : « أبك جنون ؟ » حَتَّى نعالجه ولا
 تُعاقَب أو يقول : « لعلك قبَلت أو غمزت أو نظرت ؟ » ..

فالأمر إذن هَيِّنٌ يمكنك علاجه وتجاوزه بإرادتك وبعون الله لك ، حينما تريد وتبدأ في اتخاذ
 أسباب الشفاء ، كل ذلك حَتَّى يتخلص الذي أساء سريعاً من مرارات إساءاته ويعود للصواب
 فتكتمل سعادته هو ومن حوله ، والمجتمع كله لو فعل مثله .

فإذا كان ﷺ يتغافل حَتَّى عن مرتكب الكبيرة ! أفلا نفعل فعله؟! أو حَتَّى نتغافل عن
 مرتكب الصغيرة ! ليكون ذلك عوناً لهما ليعودا للصواب ! فما بالناس إذا لم يكن الأمر إثمًا أصلاً!!
 وإنما كان رأياً آخر أو وجهة نظرٍ أخرى ! أفلا نقبلها؟! ليسعد الجميع ، ولا يتشاحنون ولا
 يتشاجرون ولا يتناحرون ويتعسون!!

إِنَّ خُلُقَ التَّغَاوُلِ يَعْنِي غَضَّ النَّظَرِ وَالتَّجَاوُزَ وَالتَّسَامُحَ عَنْ بَعْضِ الْأَخْطَاءِ وَالسَّلْبِيَّاتِ ، فَلَا تَدْقِيقَ وَتَحْلِيلَ وَتَرَصُّدَ لِلسُّوءِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ وَأَيَّ تَصَرَّفٍ ، كَمَا يَقُولُ تَعَالَى مُوصِيًا وَمَنْبَهَا خُلُقِ كَرِيمٍ مِنْ أَخْلَاقِ الرَّسُولِ ﷺ لِنَقْتَدِي بِهِ وَنَفْعَلُ مِثْلَهُ : ﴿ عَرَفَ بَعْضَهُ ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ [التَّحْرِيمُ : ٣] .

وَالَّذِي قَالَ فِيهِ الْإِمَامُ الْأَلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ يَحْسُنُ التَّلَطُّفَ فِي الْعَتَبِ وَالْإِعْرَاضَ عَنِ اسْتِقْصَاءِ الذَّنْبِ ، وَلَيْسَ هَذَا بِالتَّأَكِيدِ تَسْطِيحًا لِلْأُمُورِ وَتَبْسِيطًا ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي عُمُقِهَا وَصَمِيمِهَا ، لِأَنَّهُ يُعْطِي فُرْصَةً لِلْمَخْطِئِ لِكَيْ يُصَوِّبَ هُوَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، بِعَقْلِهِ وَإِرَادَتِهِ ، فَيَكُونُ هَذَا أَسْتِرَ لَهُ بِعَدَمِ فَضْحِهِ أَوْ تَغْيِيرِ صُورَتِهِ الْجَيِّدَةِ لَدَى الْآخَرِينَ وَأَكْثَرَ تَشْجِيعًا لِلتَّقْوِيمِ ، فَيَسْعَدُ الْجَمِيعَ ، الْمَخْطِئَ بِالتَّصْحِيحِ ، وَمَنْ حَوْلَهُ بِإِحْسَانِهِ ، وَبِأَلَّا يَفْعَلُوا خَطَأَهُ ، كَمَا يُفْهَمُ ضَمْنًا مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : «مَنْ سَتَرَ مَسْلَمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ..» (١) ، وَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يَحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى سِوَاهِ» (٢) بَيْنَمَا الْوَقُوفُ عِنْدَ كُلِّ خَطَا ، وَالتَّدْقِيقُ فِي تَفَاصِيلِهِ ، بَلْ وَالبَحْثُ أَحْيَانًا عَنِ سُوءِ ظَنِّ بِهِ أَوْ حَتَّى تَرْجَمْتَهُ لِتَجَسَّسٍ لَهُ ، يُوْتَرُّ الْأُمُورَ وَيُتَعَسَّهَا ، وَيَشْغَلُ الْعُقُولَ وَالْأَفْكَارَ وَالْمَشَاعِرَ بِدَاخِلِهَا عَمَّا هُوَ أَجُودُ وَأَنْفَعُ ، وَيَمْنَعُ الْإِبْتِكَارَ وَالْإِبْدَاعَ وَالتَّطَوُّرَ ، لِأَنَّ الْكُلَّ يَخْشَى الْإِقْدَامَ لِكَيْلَا يَخْطِئَ فَيَكُونُ مَصِيرُهُ الْمَسَاءَلَةَ وَالتَّحْقِيقَ وَالكَشْفَ وَالتَّعْرِيبَةَ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ صَغِيرًا أَوْ تَافِهًا ! ..

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ مُوجِّهًا : «إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كَدَتِ أَنْ تَفْسُدَهُمْ» (٣) . وَيَقُولُ مُحَدَّرًا وَنَاهِيًا وَمُحَرِّمًا : «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَنَافَسُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ

(١) (جزء من حديث رواه البخاري) .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه ابو داود .

إخوانا ..»^(١). قال الإمام النووي في شرح مسلم : التحسّس بالحاء الاستماع لحديث القوم ، وقيل بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور ، وقيل هما بمعنى (واحد) وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال .

إنَّ التغافل لا يكون مع الجميع إنَّه مع المنضبطين الفاعلين كما فعل الرسول ﷺ في شأن الصحابي الجليل حاطب ابن أبي بلتعة والذي شهد موقعة بدر الكبرى والذي أبلغ قريشاً بعزم الرسول ﷺ فتح مكة مُتأوِّلاً من ذلك حيث هم يتوقعون هذا .. وستأتي قصته بالتفصيل لاحقاً. فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يضرب عنقه بتهمة الخيانة العظمى ، قال ﷺ : « إنَّ الله أطلعَ عليَّ أهل بدرٍ فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »^(٢) .

قال الإمام المباركفوري في تحفة الأحمدي شارحاً قال القرطبي : وهذا الخطاب قد تضمَّن أنَّ هؤلاء قد حصلت لهم حالة غُفِرَتْ بها ذنوبهم السابقة وتأهلوا أن تُغْفَرَ لهم ذنوبهم اللاحقة إن وقعت منهم ، وما أحسن قول بعضهم :

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيع
فالصحابة الكرام من أهل بدر ، والذين هم أول من استقبل الإسلام وطبَّقه ونشره ، هم قيمٌ وقُدوات الانضباط ، فلمَّا يخطئ أحدهم ، حتَّى ولو كان خطأً كبيراً ، وهو ما قد يحدث عليَّ سبيل الندرة والاستثناء ، يُنظَرُ إليَّ جملة أعماله الفاضلة السابقة الكثيرة ، فيصغر حيثُذ هذا الخطأ ويتهاوى ويتلاشى ، ويعود المخطئ للصواب وللخير سريعاً حينما يُشجِّعه من حوله عليَّ نسيان الأمر وبدء صفحة جديدة سعيدة . وهذا هو ما يفهم أيضاً من قوله ﷺ مؤكداً هذا :

«أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثْرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ»^(٣) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد والترمذي وغيرهما .

(٣) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما .

لكن ، ورغم ذلك ، إذا كان الخطأ فادحاً ومؤثراً ، حتّى ولو كان من مُنضبطٍ فعّال ، فإنه يحتاج إلى تقييم للموقف ، فقد يُتغافل ويُعفى عنه أيضاً لعظيم فضله السابق والذي لا يكاد يظهر معه أيّ خطأ حتّى ولو كان هائلاً ، أو قد يُلامّ لوماً خفيفاً ، أو حتّى قد يُعاقب إذا وصل الأمر مثلاً لمرحلة الحدود وردّ الحقوق ، على حسب تقدير مَنْ ينظر في الأمر ، كما قال الرسول ﷺ مثلاً لأبي ذرّ الغفاريّ حينما خالف خُلُقاً إسلامياً أصيلاً لمّا عيّر بلالاً رضي الله عنه بأنه ابن السوداء : « يا أبا ذرّ : أعيرته بأمه ؟ ! إنك امرؤ فيك جاهلية »^(١) .

قال الإمام ابن حجر في فتح الباري : .. أي خصلة جاهلية ، مع أنّ منزلة أبي ذرّ من الإيمان في الذروة العالية ، وإنما وبّخه بذلك - علىّ عظيم منزلته عنده - تحذيراً له عن مُعاوَدَة مثل ذلك ، لأنه وإن كان معذوراً بوجه من وجوه العذر ، لكنّ وقوع ذلك من مثله يُستعظم أكثر ممّن هو دونه (فعاد رضي الله عنه مُسرّعاً وأتاب وطلب صفح من أساء إليه وعوّضه واستمرّ بعدها متمسكاً بخلق التواضع .

كذلك يكون التغافل مع الضعفاء المُبتدئين قليلي العمل والإنتاج من أجل تقويتهم وتفعيلهم وتنشيطهم وتشجيعهم لمزيد من الأعمال ، كما يُفهم من قوله رضي الله عنه «...إنما أعطي أقواماً لِمَا أرى في قلوبهم من الجزع والهلوع .. »^(٢) . والذي قال في شرحه الإمام الشوكاني في - نيل الأوطار - :
الظاهر جواز التأليف عند الحاجة إليه .

وقال فيه الإمام المناوي في - فيض القدير - إن البشر جُبلوا علىّ حب العطاء وبُغض المنع واستتلاف ((أي طلب الألفة)) من يُخشى جزعه أو يُرّجى بسبب إعطائه طاعة ؛
لكنّ التغافل لا يكون أبداً مع المُنفلتين المُلتوين المُفسدين المُصرّين المُستمرّين علي ذلك ! وإلا زادهم بكل تأكيد انفلاتاً والتواءً وفساداً ! بل وشجّع غيرهم مؤكداً علىّ الانفلات والالتواء

(١) جزء من حديث رواه البخاري .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري .

والفساد أيضاً حينما يروونه ثقافة مُنتشرة ، ظانين أنها مصدر راحة وسعادة ، رغم أنَّ التسيب والتراخي هما أصل كل تراجعٍ وتخلفٍ ، وبالتالي سيكون سببا كل قلقٍ وتعاسة .

يقول الإمام القاري موضحاً هذا في - مرقاة المفاتيح - عند شرحه لحديث هزال السابق ذكره :
وهذا يجب أن يكون بالنسبة إلى مَنْ لم يعتد الزنا ولم يتهتك به ، أمّا إذا وصل الحال إلى إشاعته والتهتك به بل بعضهم ربما افتخر به ، فيجب كون الشهادة به أولى من تركها ، لأنَّ مطلوب الشارع إخلاء الأرض من المعاصي والفواحش ، بالخطابات المفيدة لذلك ، وذلك يتحقق بالتوبة ، فإذا ظهر الشره ، وعدم المبالاة ، فيجب تحقق السبب الآخر للإخلاء وهو الحدود ، بخلاف مَنْ زلَّ مرة أو مرارا مُستترا متخوفاً مُتندماً عليه فإنه محلّ استحباب ستر الشاهد ..

إنَّ المنضبط الفعّال هو كثير العمل كثير الإنجاز كثير السعادة بهذا وبالربح العائد عليه منه منصباً ومكانةً ومالاً وإرضاءً لذاته ولربه واستبشاراً بانتظار مزيدٍ من توفيقه الديني وثوابه الأخروي وازدياداً في علاقاته الودية المربحة مع الآخرين ..

مثل هذا إن أخطأ ، حتّى ولو كان الخطأ بسيطاً هيّنا نادراً ، يُحاسب نفسه أولاً بأوّل ، لأنه افتقد ولو جزءاً يسيراً من سعادته وراحة باله وأجره في الدارين ، ولذا فهو يناسبه التعامل معه بخلق التغافل ، لأنه يكفيه القليل جداً من التلميح دون مواجهة صريحة حتّى يتذكر ويعود للصواب ، كما كان يفعل الرسول ﷺ مع كل مُنضبط فعّال .

فعن عائشة قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ الشَّيْءَ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ، وَلَكِنْ يَقُولُ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا»^(١).

قال الإمام الطحاوي في - بيان مشكل الآثار - شارحا هَذَا : وكان أدبه ﷺ أحسن الآداب ، وكان لا يواجه أحداً بشيء يكرهه ، إنما يقول ما يقول من هَذَا المعنى خطاباً للجماعة حتَّى يقفَ مَنْ كان منه ذلك الأمر على ما كان من رسول الله ﷺ فيه فيكون ذلك زجراً له عنه .

إنَّ المنضبط الفعَّال حينما يُخطئ أو يُقصر - وكذلك الضعيف المُبتدئ قليل الخبرات - يحتاج إلى تشجيع لا توبيخ ، مع النصح أو قبله أو بعده ، لأنَّ التشجيع أصل إسلامي قرآني رباني نبوي ، لأنَّ العقل بفطرته يندفع به لاستكمال النقائص لتكتمل صفات الإنسان وبالتالي سعادته بهذه الصفات الحسنة المكمِّلة للمجتمع ، وقد فعله الرسول ﷺ كثيراً ، بل كان كل فعله وأصله تقريباً كذلك ، لأنه هو روح القرآن ، فمثلاً يقول لعبد الله ابن عمر رضي الله عنهما مُشجِّعاً قبل النصيحة : «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ»^(١) .

ويقول مثلاً لمن كَبَّرَ للصلاة من أوَّل المسجد ورُكِعَ وظل يمشي حتَّى وصل للصف حرصاً على إدراك صلاة الجماعة من أولها ما أمكن : «زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا ، وَلَا تُعِدُّ»^(٢) .
وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة .

وقصة الثلاثة الذين تقالوا عبادة الرسول ﷺ مشهورة :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَرْوَاحَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنْزَوْجُ النِّسَاءِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْزَوْجُ النِّسَاءِ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣) .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه البخاري ومسلم واللفظ له وأحمد والنسائي .

تأمل قوله ﷺ: « ما بال أقوام » ، فهو لم يصرِّح بأسمائهم وإن كان بعض الصحابة يعرفونهم ومع ذلك فالنبي ﷺ لم يصرِّح بأسمائهم لأن الغرض - كما قلنا سابقاً - ليس هو التشهير بالمخطئ أو بصاحب الفعل المذموم ، وإنما هو بيان ذلك الفعل المذموم أو القول المذموم والتحذير منه .

قال الإمام النووي عند قوله : أن النبي ﷺ حمد الله تعالى وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا » هو موافق للمعروف من خطبه ﷺ في مثل هذا أنه إذا كره شيئاً فخطب له ، ذكر كراهيته ولا يعين فاعله ، وهذا من عظيم خلقه ﷺ فإن المقصود من ذلك : الشخص وجميع الحاضرين وغيرهم ممن يبلغه ذلك ولا يحصل توبيخ صاحبه على الملأ ^(١) .

ولمَّا بلغه أن بعضاً من أصحابه يرفعون أبصارهم إلى السماء قال النبي ﷺ: « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ » ، وَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ: « لَيْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ لَتُخَطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ » ^(٢) .

ولمَّا أرادت عائشة رضي الله عنها شراء جارية اسمها بربيرة رفض أهلها بيعها إلا بشرط أن يكون ولاؤها بعد العتق لهم، فصعد رسول الله ﷺ على المنبر فقال: « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟ مَنْ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ ، وَإِنْ اشْتَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ » ^(٣) .

وفي كل ذلك ما يحفظ للمخطئ كرامته ؛ مع الحفاظ على حقه الآخر بالتوجيه والإرشاد . وأحياناً كان ﷺ يخاطب بنصيحته غير المخطئ، وهو يقصد أن يُسمعه النصيحة والتوجيه ، فعن سليمان بن صُرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ، ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مُغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ للصحابة:

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي / كتاب النكاح .

(٢) رواه أحمد والبخاري والنسائي وابن أبي شيبه وغيرهم .

(٣) رواه البخاري وابن حبان والترمذي ..

«إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(١).

ولما كان الغضبُ مستبداً بالرجل كان خطابُه بهذه الطريقة أولى من خطابه بالنصيحة مباشرة،

لذا لَمَّا واجهه الصحابة بقول النبي فقالوا: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟

أعماه الغضب فقال: إني لست بمجنون فمثل هذه الحالة لا يفيد فيها النصيح المباشر.

وأحياناً كان ﷺ يوجه المخطئ عن طريق الإشارة، أو بتوجيه النصيحة إلی غيره لئلا يسمعها

المخطئ فيتنبه لخطئه، ومن أمثلته أن النبي ﷺ رأى رجلاً جالساً وسط المسجد مشبكاً بين أصابعه

يحدث نفسه، فأوماً إليه النبي ﷺ، فلم يفتن الرجل، ولم ينتبه لإشارة النبي ﷺ، فالتفت عليه

الصلاة والسلام إلی أبي سعيد فقال: « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلَا يُشَبِّكَنَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَإِنَّ التَّشْبِيكَ مِنَ

الشَّيْطَانِ، وَإِنْ أَحَدُكُمْ لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ »^(٢).

يعلمنا ﷺ طريقين من طرق تنبيه المخطئ من غير أن نسيء إليه أو نخرجه أمام الآخرين:

أولهما: تنبيهه بالإشارة . والثاني: توجيه الكلام والنصح إلی غيره . وفي كل ذلك ما يحفظ للمخطئ

منزله، ويراعي حاله، ويؤدي في نفس الوقت إلی نصحه وتقويمه، وإرشاد غيره، وفي بعض الأحيان

يلزم المريء أو الأب أن يعاقب المخطئ على خطئه، لكن ذلك لا يعني سباباً وخصاماً وصياحاً كما يصنع

الكثيرون، فما هكذا يقوّم المخطئ، وما هكذا كان يصنع القدوة ﷺ.

وإليك قصة أخرى يرويها أبو حميد الساعدي :

وعن أبي حميد الساعدي، قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللَّتْبِيَّةِ عَلَى

صَدَقَةٍ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدِي لِي، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمُنْبَرِ - قَالَ سُفْيَانُ أَيْضًا

فَصَعِدَ الْمُنْبَرِ - فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَتَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: « مَا بَالُ الْعَامِلِ تَبَعْتُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي،

فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيْهَدِي لَهُ أَمْ لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم .

(٢) رواه أحمد في المسند وابن شيبه في المصنف وابن سعد في الطبقات .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقْرَةً لَهَا حُورًا، أَوْ شَاةً تَيَعَّرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتِي إِبْطِيهِ « أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ » ثَلَاثًا، ^(١).

وفي هذه الواقعة، قوله ﷺ: « ما بال العامل نبعثه »، حيث لم يفصح الرسول ﷺ عن اسمه مع أن كثيراً من الصحابة يعلمون هذا الذي عناه الرسول ﷺ بقوله: « ما بال العامل نبعثه .. »، ولكن لما كان القصد هو التحذير من الفعل المذموم وبيان ضرره وسوء عاقبته حتى لا يقع فيه الآخرون، شهّر بالفعل دون الفاعل، إذ ليس هناك مصلحة ترجى من ذكر اسم الفاعل. وهذا المعنى حول هذا الحديث؛ يشير ابن حجر بقوله: وفيه أن من رأى متأولاً أخطأ في تأويل يضر من أخذه به: أن يشهر القول للناس ويبين خطأه ليحذر من الاغترار به ^(٢).

وهذا تعامل النبي ﷺ مع نموذج آخر وهو المخطئ أمامه، وكيف هو أسلوبه مع المخطئ، وكيفية معالجته للخطأ، وقد ورد ذلك في قصص كثيرة منها الآتي:—

(١) قصة الفضل بن العباس: وهي عن عبد الله بن عباس، أنه قال: كَانَ الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَتَمِ تَسْتَفِيهِ، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشَّقِّ الْأَخْرِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ، أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحْجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ^(٣).

ووردت أيضاً في رواية أخرى في حديث عن حج النبي ﷺ إلى أن قال: ... ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى حَتَّى أُمِّي الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ فَرَقِي عَلَيْهِ فَحَمِدَ اللَّهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا ثُمَّ دَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَأَرْدَفَ الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ وَكَانَ رَجُلًا حَسَنَ الشَّعْرِ أَبْيَضَ وَسِيمًا فَلَمَّا

(١) رواه أحمد والبخاري وابن خزيمة وغيرهم .

(٢) المعلم الأول ﷺ - (ج ١ / ص ٧٢) .

(٣) رواه مسلم وغيره ..

دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّ الطُّعْنُ يَجْرِينِ فَطَفِقَ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِنَ الشَّقِّ الْأَخْرِ فَصَرَفَ الْفُضْلُ وَجْهَهُ مِنَ الشَّقِّ الْأَخْرِ يَنْظُرُ حَتَّى آتَى مُحْسِرًا حَرَكَ قَلِيلًا ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوُسْطَى... الخ (١) .

(٢) قصة حاطب ابن أبي بلتعة :

أما قصة حاطب بن أبي بلتعة فقد ذكرت في جميع كتب الأحاديث والسير عن عبيد الله بن أبي رافع، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمُقَدَّادُ فَقَالَ: « انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ حَاخٍ فَإِنَّ بِهَا طَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ ». فَحَرَجْنَا تَعَادَى بِنَا حَيْلُنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِطَعِينَةٍ فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ، فَقُلْنَا لَهَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلقِينَ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ:

مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُأَشْرِكِينَ مِمَّنْ بِمَكَّةَ، يُحِبُّ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: « مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟ » قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَاتِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِمَكَّةَ قَرَابَةٌ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا، وَاللَّهِ مَا فَعَلْتُهُ شَكًّا فِي دِينِي وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّهُ قَدْ صَدَقَ ». فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ ». وَنَزَلَتْ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ

أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ ﴾ [المتحنة: ١] (٢) .

(١) جزء من حديث رواه ابن ماجه في باب حج النبي ﷺ .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ جَمَاعَةٍ عَنْ سُفْيَانَ .

لقد كان من خلق الرسول ﷺ دائماً البحث عن الخيرات وإعلانها وستر السوءات وإخفائها ، حتى تظهر وتنتشر الأولى ، وتندثر وتختفي الثانية .. فمثلاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنْكُمْ صَائِحًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «مَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «مَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «مَنْ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ مَرْوَانُ: بَلَّغْنِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا اجْتَمَعَ هَذِهِ الْخِصَالُ فِي رَجُلٍ فِي يَوْمٍ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

بينما من جاءه زانياً معترفاً ، كما تقدم في حديث معاذ الذي سبق ذكره وشرحه ، يقول له : « لعلك قبّلت » ، ويقول لمن لم يستره : « لو سترته بثوبك لكان خيراً » ..

بينما المنفعل المتلوي المفسد الذي يتفنن في الانفلات والالتواء والإفساد ويشغل كل فكره وذكائه في كيفية تطويره ونشره ويصبح خبيراً معلماً يفيد غيره بخبراته وعلمه فيه وهو يظن أنه يزداد علماً وخبرة رغم أنه يزداد تخلفاً وتعاسة هو ومن حوله ...

مثل هذا لا يحتاج طبعاً لخلق التغافل ، وإلا ساد الخلل وعمّ الانحدار والانهيار والشقاء ، كما يفهم ضمناً من قوله ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»^(٢) . ومن قوله محذراً: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ، وَلَا خَبٌّ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّئُ الْمَلَكَةِ ...»^(٣)؛ والخبّ هو المخادع ، كما قيل نقلاً عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «لست بالخبّ ولا يخدعني الخبّ»، أي لست مخادعاً لكن في ذات الوقت لا يستغفني أحد ! فهذا من أخلاق الإسلام وسعاداته ؛

إنّ هذه النوعية تحتاج إلى العكس ، إلى مزيد من الانضباط ، كما يفهم من كلام الإمام القاري : إنّ لو انتشر بين الناس عامة وبين المسلمين خاصة التعامل بخلق التغافل ، مع من هو أهله ،

(١) رواه البخاري في الادب المفرد .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه .

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي .

إضافة إلى حُسن الظن به حيث لا أحد يجب الخطأ ويريد تحمّل أعبائه ومراراته بفطرته وبرحمة عقله، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات ١٢]. مع التماس العذر له وقبول عذره حتّى لو تعمّد إذ قد تكون له ظروف نفسية أو عائلية أو مالية أو مهنية أو غيرها دفعته لخطئه، وعونه ما أمكن على تجاوزها وعلاجها، واستصحاب خلق التغافل والذي هو مُتمّم لخلق التغافل والذي يعني أنه لو ظهر سوء ما بعد التغاضي فلتغافل ولتسامح ولتصافي لتسعد ولا نتعس يقول تعالى منبهاً لذلك ومتمدحه: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران ١٣٤]. ويقول تعالى: ﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور ٢٢]. والذي قال في تفسيره الإمام الماوردي في النكت والعيون: العفو ستر الذنب من غير مؤاخذة والصفح الإغفاء عن المكروه، وقال فيه الإمام ابن كثير في تفسيره: فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك وكما تصفح نصفح عنك، خاصة وأنّ البشر ليسوا ملائكة، بل لكلّ عيوبه من البيئة التي نشأ فيها والتي عليه أن يجتهد في علاجها تدريجياً حتّى يكتمل فيسعد، كما يفهم ضمناً من حديث أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله: ((يُبْصِرُ أَحَدَكُمْ الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِدْلَ، أَوِ الْجُدْعَ فِي عَيْنِهِ))^(١).

(والقداة هي الوسخ، والمراد العيب، والجذع هو ساق النخلة والمراد الشيء الكبير).
بمعنى أن علينا أن ننشغل أولاً بإصلاح عيوبنا قبل أن ننشغل بعيوب الآخرين، وأن نتغافل عنها ما داموا يجتهدون في إصلاحها، فهذه هي البداية الصحيحة، فإذا ما صلحنا تدريجياً، أضفينا على الغير إصلاحاً تلقائياً بمعايشته، فيصلح الجميع ويكتملون ويسعدون.



تَعَامَلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ الْأَعْرَابِ

لقد كان من كمال خُلُقِهِ ﷺ حُسن تعامله مع من اتصف بالغلظة والشدة من الناس ، فقد كانت له مواقف عظيمةً وجيليةً مع الأعراب الذين عُرفوا بالشدة والغلظة في القول والفعل ، كما قال تَعَالَى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٧].

فكان يقابل غلظتهم وشدتهم بالرحمة والحلم كما قال تَعَالَى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فمن المواقف العجيبة التي تدل على سعة صدره ورحمته للمتعلمين تعامله مع الأعراب الغلاظ الجلاف وهم الذين لا يعرفون قوانين ومدنية ولا اسلوب حضاري ، بحكم بيئتهم ، بل حياتهم كلها مع الأنعام وفي الصحاري والجبال..

ولذلك كان من سيدنا الحبيب محمد ﷺ أحسن تعامل مع هؤلاء الأعراب والبدو ، ووسعهم حلمه وكرمه وابتسامته وصبره على جفوتهم فكان خير قدوة وخير أسوة ؛

وقد وردت في كتب السير والمغازي نماذج عديدة تبين كيف تعامل معهم النبي ﷺ ،

فمن ذلك الآتي : — قصة الأعرابي الذي بال في المسجد :

فعن أنس رضي الله عنه قال : بَيَّتْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يُبُولُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مَهْ مَهْ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُزْرِمُوهُ دَعْوَهُ » . فَتَرَكَوهُ حَتَّى بَالَ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ ، وَلَا الْقَدَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ » أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فَأَمَرَ رَجُلًا مِنْ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَسَنَّهُ عَلَيْهِ ^(١) .

وفي روايةٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ الْمَسْجِدَ وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ ، فَصَلَّى ، فَلَمَّا فَرَغَ ، قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ : لَقَدْ تَحَجَّرَتْ وَاسِعًا ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَهْرِيْقُوا عَلَيْهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ ، أَوْ دَلْوًا مِنْ مَاءٍ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُسَيَّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ ^(٢) .

وفي روايةٍ أُخْرَى أَبَا هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَلَاةٍ وَقَمْنَا مَعَهُ ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا . فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ : « لَقَدْ حَجَّرَتْ وَاسِعًا » يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ ^(٣) .

وهكذا نرى نبي الرحمة ﷺ في مثل هذه المواقف ، التي يغلب عليها الجانب التربوي السامح ،

لا الجو العسكري الصارم ، وإن كان رسول الله ﷺ هو الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد في آن واحد ^(٤) .

(١) رواه مسلم في صحيحه والترمذي وابن حبان وغيرهم ..

(٢) رواه أحمد والترمذي والبيهقي ..

(٣) أخرجه البخاري ..

(٤) باختصار من كتاب: نبي الرحمة - ص ٩٨ .

قصة أعرابي آخر :

وهذا رجل أعرابي كان يعبد الأصنام إسمه حُصَيْن والد الصحابي عمران ابن حصين جاء إلى رسول الله ﷺ يريد أن يعرف الإسلام ؛ فعن عمران بن حُصَيْن، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي: يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟ قَالَ أَبِي: سَبْعَةٌ سِتَّةً فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قَالَ: فَأَيُّهُمْ تَعْبُدُ لِرَغَبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ: يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسَلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ).

قَالَ: فَلَمَّا أَسَلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ أَهْمِنِي رُشْدِي، وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي «الحديث (١).

قصة أعرابي آخر :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَدَهُ جَبْدَةً، حَتَّى رَأَيْتُ صَفْحًا - أَوْ صَفْحَةً - عُنِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَمَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ (٢).

قصة أعرابي آخر :

وَرُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَهُ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا فَأَعْطَاهُ ثُمَّ قَالَ ﷺ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ لَا وَلَا أَجْمَلْتُ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ وَقَامُوا إِلَيْهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ كُفُّوا ثُمَّ قَامَ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ﷺ وَزَادَهُ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ قَالَ: نَعَمْ فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعَشِيرَةٍ خَيْرًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ

(١) أخرجه الترمذي نقلاً من كتاب آمنت بالله للشيخ محمد علي الصابوني ص [٣٢٨ - ٣٢٩] .

(٢) أخرجه أحمد والبخاري .

ﷺ: إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ وَفِي نَفْسٍ أَصْحَابِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى يَذْهَبَ مَا فِي صُدُورِهِمْ عَلَيْكَ، قَالَ: نَعَمْ.

فَلَمَّا كَانَ الْغَدَاؤُ أَوْ الْعَشِيُّ جَاءَ فَقَالَ ﷺ: إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَرِذْنَاهُ فَرَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ أَكْذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعِشِيرَةِ خَيْرًا.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا مَثَلُ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُورًا فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا خَلُوهَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي فَإِنِّي أَرْفُقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ فِتْوَجَهُ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُفَامِ الْأَرْضِ فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاحَتْ وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا وَاسْتَوَى عَلَيْهَا وَإِنِّي لَو تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَتَمَلَّطْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ) (١).

ومن حلمه ﷺ مع الأعراب :

ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ نَازِلٌ بِالْحِجْرَانَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ بِلَالٌ، فَاتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، رَجُلٌ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: أَلَا تُنْحِزُنِي، يَا مُحَمَّدُ مَا وَعَدْتَنِي؟

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَبَشِّرْ» فَقَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ: أَكْثَرْتَ عَلَيَّ مِنْ «أَبَشِّرْ» فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي مُوسَى وَبِلَالٍ، كَهَيْئَةِ الْغَضْبَانِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا قَدْ رَدَّ الْبُشْرَى، فَأَقْبَلَا أَنْتُمَا» فَقَالَا: قَبِلْنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ فِيهِ، وَمَجَّ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «اشْرَبَا مِنْهُ، وَأَفْرِغَا عَلَيَّ وَجُوهِكُمَا وَنُحُورِكُمَا، وَأَبَشِّرَا» فَأَخَذَا الْقَدَحَ، فَفَعَلَا مَا أَمَرَهُمَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَنَادَيْتَهُمَا أُمَّ سَلَمَةَ مِنْ وَرَاءِ السُّرِّ: أَفْضَلَا لِأُمَّكُمَا مِمَّا فِي إِنْائِكُمَا فَأَفْضَلَا لَهَا مِنْهُ طَائِفَةً» (٢).

(١) من الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص (٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم.

وكان رسول الله ﷺ يصبر على كثرة أسئلتهم ويحبهم عليها:

فقد كانوا كثيراً ما يسألون النبي ﷺ ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يهابون النبي ﷺ ويوقرونها ، ولم يكونوا يسألونه عن أشياء مسكوت عنها خشية أن ينزل تحريم هذه الأشياء ، فيكون السائل قد تسبب في ذلك فيأثم .. وكانوا يفرحون بالأعراب إذا قدموا المدينة ؛ ليسألوا النبي ﷺ فيحبهم على ذلك، فينتفع الصحابة .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: مُهِينًا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ، فَيَسْأَلُهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ .

قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللَّهُ»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللَّهُ»، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، أَلَلَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» .

قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا، وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، أَلَلَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا، قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، أَلَلَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا، قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، أَلَلَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مِنَ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: ثُمَّ وُلِّيَ، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهِنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ» (١) .

وكان رسول الله ﷺ يَحْتَمِلُ مَقَاتِعَهُمْ لِحَدِيثِهِ ، وَرَبَّمَا آخِرَ إِجَابَتِهِمْ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ حَدِيثِهِ :

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ؟

فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ : « أَيْنَ أَرَاهُ السَّاعَةَ ؟ » ؛
قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » ، قَالَ كَيْفَ إِصَاعَتُهَا ؟
قَالَ : « إِذَا وَسَدَّ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » ^(١) .

يقول الحبيب العلامة أبو بكر ابن علي المشهور رحمه الله تعالى في كتابه : الإحاطة والاحتياط :
فالتوسيد هو دعم المخالف ووضعه في مكان القرار بديلاً عن صاحب الحق ؛
وضياع الأمانة في كافة الأحوال سببه نقض العرى ، ونقض العرى يبدأ بنقض الحكم
وصورة النقص في هذه الحالة أن يوسد الأمر إلى غير أهله ، والإسناد إضافة الشيء إلى الغير فإن
كان الإسناد صحيحاً استقامت العرى وتماسك المجتمع ، وإن كان الإسناد خطأ انفرطت العرى
وتشتت المجتمع وزاد الفساد أهـ ^(٢) .



(١) رواه البخاري في صحيحه .

(٢) باختصار وتصرف من كتاب الإحاطة والاحتياط ص (١٢ - ١٣) .

تَعَامُلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

فِي الْحَرْبِ وَمَعَ مَنْ يَغْزُو وَهُمْ وَوَصِيَّتُهُ لِجَيْشِهِ

وَتَعَامُلُهُ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

شرح الحبيب المصطفى ﷺ لأئمة آداباً ساميةً وضوابطاً حاکمة على سلوك المقاتل المسلم، توجب على من خالفها عقوبات زاجرة في الدنيا والآخرة، فلا يستخدم في الجهاد في سبيل الله إلا الوسائل المشروعة والأساليب النزيهة، فعن صفوان بن عسال قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فقال: «سِيرُوا بِاسْمِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَلَا تَمَثَّلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»^(١).

لم يكن النبي ﷺ يفرق بين طفل مسلم وغير مسلم في رحمته، بل رفض أن يُقتل الأطفال تحت أي مسمى، وهو بذلك يرسي قواعد الرحمة مع الأعداء، وفي الحرب.

عَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَرْنَا بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ، وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ، قَالَ فَأَفْرَجُوا لَهُ فَقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ فِيمَنْ يُقَاتِلُ، ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ: انْطَلِقْ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ يَقُولُ: «لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيْفًا»^(٢).

(١) رواه ابن ماجة في السنن .

(٢) رواه ابن ماجة وابن أبي شيبة ..

وقال ﷺ ذات يوم في معركة مستنكراً على بعض أصحابه - : كما ورد عن الأسود بن سريع رضي عنه قال: (بعث رسول الله ﷺ سرية يوم حنين، فقاتلوا المشركين، فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاؤوا قال رسول الله ﷺ: ما حملكم على قتل الذرية؟ .
 قالوا: يا رسول الله إنما كنا أولاد المشركين) (فقال رسول الله ﷺ: إن خياركم أبناء المشركين، ثم قال: ألا لا تقتلوا ذرية، ألا لا تقتلوا ذرية، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها) (١).

وفي حديث مالك، عن يحيى بن سعيد: أن أبا بكر الصديق، بعث جيوشاً إلى الشام، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان، فذكر الحديث، ثم قال: إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله عز وجل، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر، فأضرب ما فحصوا عنه بالسيف، وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبياً، ولا كبيراً هريماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تحربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تغرقنه، ولا تغلن، ولا تحجن (٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي عنه، أنه قال: اتقوا الله في الفلاحين فلا تقتلوهم إلا أن ينصبوا لكم الحرب (٣). وهذه النصوص وغيرها من دستور العسكرية الإسلامية التي وضعها رسول الله ﷺ: تشتمل على الأصول الأخلاقية للحرب، وهذه جملتها:

- ١ - الإخلاص والتجرد للأهداف الحقيقية للحرب وترك ما يخالف ذلك من غلول وغدر وثأر وانتقام.
- ٢ - المحافظة على البيئة واجتناب الفساد في الأرض بتحريق الأشجار وقتل الحيوانات لغير ضرورة.
- ٣ - عدم التعرض لغير المقاتلين من النساء والصبيان والشيوخ.

(١) أحمد، والنسائي، والدارمي، وابن جرير، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وغيرهم .

(٢) رواه مالك في الموطأ ورواه البيهقي في السنن ..

(٣) رواه البيهقي ..

٤ - السهاحة الدينية واحترام مقدسات الآخرين، بعدم قتل الرهبان والقسيسين ما لم يقاتلوا أو يعينوا على القتال، وعدم التعرض كذلك لبيعتهم وكنائسهم بسوء .

وهذه بعض صور تعامل الرسول ﷺ مع غير المسلمين في الحروب وغيرها :

❖ الصورة الأولى : عن ابن شهاب، قال: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَّا مَا أَرَدْتُ فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي فَانْظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرَيْلُ فَتَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، « فَتَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ لِتَأْمُرَنِي بِمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» .

❖ الصورة الثانية :

عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن امرأة وُجِدَتْ في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة ، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان .

وفي رواية عن حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَمَرَرْنَا بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ، وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ، قَالَ فَأَفْرَجُوا لَهُ فَقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ فِيمَنْ يُقَاتِلُ، ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ: أَنْطَلِقْ إِلَىٰ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ يَقُولُ: «لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِيَّةً وَلَا عَسِيفًا» .

❖ الصورة الثالثة : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١).

❖ الصورة الرابعة : عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْ صَاهٍ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ؛ ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدُرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْعَنِيمَةِ وَالْفِيءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهُمُ الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفَرُوا ذِمَّتْكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ؛

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتَصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»^(٢).

❖ الصورة الخامسة :

(١) رواه ابن ماجة والنسائي ..

(٢) رواه مسلم ..

عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ، فَأَتَتِ الْيَهُودُ فَشَكَّوْا أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْرَعُوا إِلَيَّ حِطَّائِرِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهِدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَرَامٌ عَلَيْكُمْ مُحَرَّمُ الْأَهْلِيَّةِ، وَخَيْلُهَا، وَبِعَالِهَا، وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ، وَكُلُّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ»^(١).

الصورة السادسة :

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَأَعْطِيَنَّ الرَّايَةَ عَدَا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» قَالُوا: تَشْتَكِي عَيْنَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ»، فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَانَتْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ قَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مُحَرَّمُ النَّعْمِ»^(٢).

الصورة السابعة : عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قيل : يا رسول الله ادعُ عليَّ المُشْرِكِينَ

قال رضي الله عنه : «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بَعِثْتُ رَحْمَةً»^(٣).

الصورة الثامنة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كُنْتُ أَدْعُو أُمَّيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَاسْمَعْتَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمَّيَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْتِي عَلِيًّا، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَاسْمَعْتَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ»

(١) رواه أبو داود ..

(٢) رواه أحمد وابن حبان وغيرهما ..

(٣) رواه مسلم .

فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ ، فَسَمِعْتُ أُمَّي خَشَفَ قَدَمِيَّ ، فَقَالَتْ : مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْحَضَةَ الْمَاءِ ، قَالَ : فَاعْتَسَلْتُ وَلِيسَتْ دِرْعَهَا وَعَجَلْتُ عَنْ حِمَارِهَا ، فَفَتَحَتِ الْبَابَ ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبَشِّرُ قَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا ، قَالَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجِيبَنِي أَنَا وَأُمَّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُجِيبَهُمْ إِلَيْنَا ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَيْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» ، فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي .

◆ الصورة التاسعة : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه ، على النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا فَاقِيلَ هَلَكْتَ دَوْسٌ قَالَ : «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ» .

◆ الصورة العاشرة : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنهم قالوا : يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف ، فادع الله عليهم . فقال ﷺ : «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا» ^(١) .
وهذا يعني أن الجهاد ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنما هي مسؤولية الناس جميعاً بعضهم تجاه بعض ، لمحاولة إعتاق أنفسهم من العذاب الأبدي يوم القيامة .
ومن ثم فإن الدعاء من المسلمين لا ينبغي أن يتجه إلى غيرهم إلا بالهداية والصلاح ، لأن هذه الغاية هي الحكمة من مشروعية الجهاد ^(٢) .



(١) رواه أحمد والترمذي ..

(٢) انظر فقه السيرة للبوطي ص : [٢٩٣] .

تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ الْمُحَارِبِينَ لَهُ

وَالرَّدُّ عَلَى الْمَقُولَةِ الْكَاذِبَةِ:

الإسلام.. إنما انتشر بسطان القهر والسيف

ومن عظيم الأخلاق التي تتجلى في سيدي الحبيب محمد ﷺ ومعاملته مع من يجارونه في كل الغزوات والمعارك فقد كان شقيقاً ورحيماً، يقاتلهم من أجل الهداية لهم لعلمهم يؤمنوا بالله ، فمقصوده الأكبر من القتال هو أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً ، ونشر الأمن والسلام ، ولم يكن كما يصوره المستشرقون من أنه رَجُلٌ حروب ونَشْرَ الإسلام بالسيف ، ولم يكن كذلك لأنك عندما تقرأ السيرة النبوية سيتجلى لك بوضوح كيف تعامل الحبيب محمد ﷺ مع من يجارونه في أكثر من موقف بعدة نماذج ومواقف في المعارك والغزوات ؛ مثل ما كان معه من أهل الطائف قبل الهجرة ، وبعدها في بدر، وأحد، والخندق ، والحديبية ، وخيبر ، والفتح ، وثقيف ، وغيرها من المعارك والغزوات ؛

فأما ما حصل له في الطائف فكما تقدم من الروايات الأولى وأعيدها للفائدة :

فمن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومٍ أُحُدٍ؟ قال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يومَ العُقبةِ، إذ عرَضتُ نفسي على ابنِ عبدِ يالِيلِ ابنِ عبدِ كُلالِ، فلم يُجِبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرنِ الثعالبِ، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ عليه السلام، فناداني فقال: إنَّ اللهَ تعالى قد سمعَ قولَ قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك ملكَ الجبالِ لتأمرهُ بما شئتَ فيهم. فناداني ملكُ الجبالِ، فسلمَ عليَّ ثمَّ قال: يا مُحَمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سمعَ قولَ قومك لك، وأنا ملكُ الجبالِ، وقد بعثني ربِّي إليك لتأمرني بأمرِك، فما شئتَ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبينَ. فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أَصْلابِهِم من يعبدُ اللهُ وحده لا يُشركُ به شيئاً» ^(١).

فيا لها من عظمة ويا لها من رحمة، تقف أمامها العقول المفكرة حائرة متعجبة، كان من رحمته كذلك بأعدائه أنه كان حريصاً على إدخالهم الجنة وإنقاذهم من النار؛ وهذا ما يدعو إلى التوقف أمامه، وتأمل هذا النوع الرائع والعجيب من الرحمة، أن تحرص على إدخال من حولك الجنة وإنقاذهم من النار، حتى ولو كانوا أعدائك.

وأما في أُحُدٍ:

فقد روي أن النبي ﷺ لما كُسرَتْ ربايعيته وشجَّ وجهه يوم أُحُدٍ شق ذلك على أصحابه شقاً شديداً وقالوا لو دعوت عليهم فقال:

«إنَّ اللهَ تعالى لم يبعثني طعاناً ولا لعاناً، ولكن بعثني داعيةً ورحمةً، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون» ^(٢).

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني والبيهقي .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعا نوح عليّ قومه فقال: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]. ولو دعوت علينا مثلها هلكننا من عند آخرنا فلقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فتأبى أن تقول إلا خيراً فقلت: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

قال القاضي أبو الفضل رحمته: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر عليه على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال اغفر أو اهد، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله لقومي، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال فإنهم لا يعلمون ^(١).

إن تاريخ العالم ليعجز عن تزويدنا بنظير لهذا الصفح الكريم الذي أغدقه الرسول عليه.
عليّ أمثال أولئك المجرمين الكبار .

إن الضرب عليّ وتر المواعظ الداعية إلى الصفح والغفران لا يكلف المرء شيئاً كثيراً، ولكن عفو المرء عن معذبيه يحتاج إلى قدر من الشهامة عظيم، وبخاصة حين يكون أولئك المعذبون تحت رحمته .

ولا غرو أن وجدناه عليه أكمل الناس عفواً، وأطفهم عشرة، يعفو عن المسيء، ويصفح عن المخطئ حتى وصفه الخالق عليه بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الرد على المقولة الكاذبة:

الإسلام.. إنما انتشر بسطان القهر والسيف

وهذه أطروحةٌ جديدة^(١).. هي قول أحدهم: (الإسلام إنما انتشر بسطان القهر والسيف)!.. وهي ليست أطروحة جديدة، وليست غريبة.. فكثيرون هم الذين قالوها ولا يزالون يرددونها..

ومصدرها؛ كأكثر المقولات التي تشبهها هو الغرب، ولعلنا جميعاً نعلم ذلك، ثم إن أصداءها تنتشر ألياً على ألسنة الأجراء والتابعين لهم، بشكلٍ آلي، ودون أي تأمل أو تمحيص. فهل صحيح أن الإسلام انتشر في الأصقاع التي وصل إليها عن طريق القهر والسيف، أي عن طريق القتال والتهديد بالقتل؟

والجواب عن هَذَا السؤال يقتضينا أن نعود فتساءل عن معنى الإسلام، أهو شارة تلصق طوعاً أو كرهاً بالمظهر واللسان أم هو عقيدة تغرس بمحض الاختيار في باطن العقل والفؤاد. الإسلام كما تعلمون: عقيدة، والعقيدة لا تُسمى عقيدة إلا إن احتواها العقل، وعانقها الفؤاد، ولا يتم هَذَا ولا ذاك بالقسر أو الاضطرار، وإنما يتم بمحض الاختيار الذاتي الذي لا دخل للإجبار فيه، بشكل من الأشكال.

فأنا لكي أَعُدُّ مسلماً مؤمناً، ينبغي أن أفكر ثم اقتنع بمقومات دين الله ﷻ ومبادئه، فيمتص عقلي هذه الحقائق، ويوقن بها، وعندئذ أَعُدُّ في ميزان الله ﷻ مؤمناً مسلماً، فلو أن إنساناً شَهَرَ

(١) نقلاً كاملاً من كتاب: (يغالطونك إذ يقولون):

للشيخ العلامة محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ص: [٢٤٩-٢٦٦] ط: الصديق للعلوم.

عليّ سلاحاً وأرغمني إرغاماً تحت التهديد بالقتل ، أن أستسلم ل هذا الإسلام ، وأن أوّمن به ، ما الذي يملكه هذا الإنسان مني؟ وإنما يملك مني هذا اللسان وهذه الجوارح ، تحت وطأة التهديد . شيء طبيعي أن أقول له خوفاً من القتل : لقد أسلمت ، ولك مني ما تشاء .

فهل هذا الكلام يقربني إلى الله ويجعلني في ميزانه مسلماً؟ هل هذه هي الهداية التي أمر الله بها الرسل والأنبياء؟! هل هذه الهداية التي قال عنها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح :

« لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ »^(١) .

وفي رواية أخرى صحيحة أيضاً : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت » . هل الهداية أن يجبر الإنسان صاحبه قسراً على أن يرضيه بقول : لا إله إلا الله؟ من المعلوم أن هذه ليست هي الهداية ، وليست هي الإسلام ، ولا يتقرب بها صاحب هذا الإسلام إلى الله بذلك شروى نقير .

وهذه الحقيقة مقررة بوضوح في كتاب الله ﷻ ، انظر إلى قول الله ﷻ لرسول الله ﷺ - وقد كان يتألم من أنه يحاور المشركين ويبرهن لهم على سوء معتقدهم وعلى أن الإسلام حق ، فيمعنون في الإعراض ولا يلتفتون إليه بأي استجابة ، فيحزن ويأسى لحالمهم - انظر إلى قول الله له : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ [الغاشية: ٢٢] . وقوله تعالى : ﴿ فَالْعَلَّكَ بَنِعَجٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ [الكهف: ٦] . وانظروا إلى قوله ﷻ وما فيه من العتب : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ [يونس: ٩٩] .

كأنه ﷻ يقول لرسوله : إذا كنت - وأنا قادرٌ على إكراه الناس ، وجعل الهداية لهم - لم أشأ أن

أكرههم ، أفأنت تريد من دوني أن تكرههم عَلَى ما لم أكرههم عليه ؟!

وانظروا في هَذَا إِلَى الآيَةِ الأخرى المعروفة المشهورة والتي ما منا إلا من قد سمعها ، وهي

قول الله ﷻ فِيهَا : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. في الناس من

يظنون أن (لا) هذه ناهية ، أي : لا تُكرهوا أحداً عَلَى الإسلام .. ، والواقع أنها ليست ناهية ،

وإنما هي : نافية والجملة إخبار ، وليست إنشاء ، ومعنى الجملة : لا يتأتى الإيمان بالإكراه ، إذ

الإيمان عقيدة ، والعقائد لا تلتصق بالعقول بالجبر والإكراه ، وإنما تدخلها بالقناعة الذاتية .

ولو أنك حاولت أن تُكرهه .. فلن يقوى إكراهك إلا عَلَى لسان تجبره عَلَى النطق ، أو عَلَى

أعضاء تجبرها عَلَى الحركة والعمل ، والدين في جوهره ليس هَذَا ، وإنما هو اليقين الذي يستقر في

العقل ، وإنما يكون هَذَا بقرار اختياري ، يتخذه الإنسان بينه وبين نفسه .

ومن هنا كانت (لا) في الآية نافية ، لا ناهية ، ولو أنك صرفتها إِلَى معنى النهي ، لا ستلزم

ذلك إمكان الإكراه عَلَى المعتقد الديني ، إذ النهي عن الشيء فرع عن إمكان فعله ، ومن ثم فإن

النهي عما لا سبيل للإنسان إليه لغوٌ من الكلام الباطل ، كما قلت : لا تنقل هَذَا الجبل من مكانه .

إذاً فالجملة خبرية ، و(لا) نافية ، كما قال جل المفسرين ، ويؤكد ذلك قول الله تَعَالَى : ﴿قَدْ

تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي : من أراد أن يُعمل عقله وفكره ، وأن يُمزق حجب الكبرياء

والعصبية والأناية من نفسه سيرى الحق وسيصل إليه ، وستستأنس نفسه به وتركن إليه .

ومن أصرَّ عَلَى أن يسدل حجاب الكبر أو العصبية أو نحو ذلك ، بينه وبين الخالق ، فلا عليه

أن يفعل ذلك ولا تكرهه ، ولا تسر وراء هَذَا الإنسان الذي اتخذ قراره هَذَا بينه وبين نفسه ، فلن

تملك إِلَى ذاته وعقله سبيلاً .

ثم تعالوا فانظروا إِلَى آيات أخرى تزدكم تبصراً بهذه الحقيقة ، تأملوا في قول الله ﷻ :

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾

وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ﴿٢٩﴾ [الكهف: ٢٩].
 ودونكم فانظروا إِلَى قول الله ﷻ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾]
 الغاشية: ٢٢.]

لو كان الإسلام نظاماً كالأنظمة الوضعية ، مذهباً ماركسياً ، أو مذهباً إمبريالياً ، أو أيّاً من هذه المذاهب التي يتبناها بعض الناس ، لكان إرغام الناس عليه وإصاقهم به أمراً ممكناً ويسيراً ، لأن أصحاب هذه المذاهب لا يهتمون بإدخالها قناعةً في العقول ، وإنما همهم أن يخضعوا واقع المجتمعات لأحكامها .

فكان صاحب هذا المذهب والمروّج له يقول للناس : سواء عليكم أمتم بهذا الذي أدعوكم إليه أو لم تؤمنوا ، فالأمر سواء عندي ، إذ ليست لي علاقة بعقولكم ولا بقلوبكم ، إنما المهم أن أصل إلى الحكم ، ثم أُطبّق هذا المذهب عنوةً على المجتمع آمن الأفراد به أم لم يؤمنوا .
 أجل فلو كان الإسلام مذهباً ، لا جذور اعتقادية له لصحّ أن يُفرض على الناس عن طريق القسر والإرهاب كسائر المذاهب الأخرى .

لكن الإسلام في أعلاه أغصانٌ من الأحكام التشريعية ، وفي جذوره قاعدة كبرى من الاعتقادات الدينية ، وهو قبل كل شيء دينونة الله ﷻ تصبغ المشاعر بصبغة العبودية الراضية له ، ثم أن هذه العبودية تُثمر بدورها الالتزام بالشرائع والأحكام .

تعالوا بعد هذا إلى دلائل التطبيق ، هل رأيتم في تطبيقات الدعوة الإسلامية في عصر رسول الله ﷺ ، إن في مكة أو في المدينة أو في أنحاء الجزيرة العربية ، أو في انطلاقة المسلمين إلى آفاق العالم ، إلى الحضارة الساسانية ، إلى العراق ، إلى بلاد الشام ، حيث الحضارة الرومانية .. هل رأيتم المسلمين قادوا الناس قسراً ، وأجبروهم إجباراً على أن يخلعوا ربقة دين ، وأن يُعانقوا ديناً آخر ؟ .. متى حصل هذا ؟

وفي أي مشهد من المشاهد عشرتم على هذا الموقف ؟!

أما أنا فلم أعثر إلى الآن ، على الرُّغم من بحثي ، وعلى الرغم من تباعي ؛ لم أعثر على شيء من هَذَا ، قط ..

في مكة كان المصطفى ﷺ يدعو بالنصح والحوار .. يؤذيه المشركون فيتلقى الإيذاء صابراً راضياً ، ثم يمضي ويستمر في الدعوة .. يتلقى أنواعاً من الصد والرد والسخرية والهزاء ، هو وأصحابه القلة ، فيتطامنون ويخضعون للأذى ، دون أن يقعدوا عن الدعوة إلى الله ﷻ .

وكان المصطفى ﷺ يقول لهم إذا ضيق المشركون عليه الأمر ، وحاولوا أن يقنعوه بالبديل ؛ كالمملك ، الزعامة ، المال :

((ما جئتكم بما جئتكم به أبغي مالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا السؤدد عليكم ، ولكن الله جعلني رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً فبلغتكموه ، فإن تؤمنوا فذلك حظكم مني ، وذلك حظي منكم ، وإن ترفضوا أصبر لحكم الله ، حتى يقضي الله بيني وبينكم)) .

فأين هو الإرغام؟ وأين الإجبار؟ ولقد لازم ﷺ هذا الأسلوب في الدعوة إلى وفاته ﷺ ، وكان رائده ودستوره دائماً : ﴿ أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] . ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، كان موقفه الموقف ذاته ، لكنه أخذ يُدافع عن نفسه وعن الممتلكات التي أدخلها الله في حوزات المسلمين ، امتلك لأول مرة أول دار الإسلام ، وهي المدينة المنورة ، أوجد نظاماً سلطوياً تمثل في الوثيقة ، أي : الدستور المكوّن من قرابة خمسين بنداً ، ووجدت الكتلة البشرية المسلمة التي فاضت بها أرض المدينة المنورة ، إذاً فقد ولدت الدولة الإسلامية التي تتألف من هذه العناصر الثلاثة ، لا بد إذاً من الدفاع عنها والوقوف في وجه من يتربّص بها شراً ، ومن أجل ذلك بدأ القتال بعد أن لم يكن له وجود في مكة .

وتلاحقت سلسلة الغزوات التي واجهها رسول الله ﷺ فقد كانت كلها حماية للدولة الإسلامية ، وحماية للدعوة إلى الله ﷻ إلى أن بلغ مداها من الأذان والعقول ، وللناس بعد ذلك أن

يستجيبوا إن شاءوا ، أو أن يركبوا رؤوسهم إِلَى النهج الذي يشاؤون .

ودونكم فتأملوا في العوامل التي أدت إِلَى كل غزوة من غزوات رسول الله ﷺ ، فإنكم لن تجدوا بينها أياً من عوامل القهر والإرغام عَلَى الإسلام ، وإنما كانت ردّاً لعدوان واقع ، أو درءاً لعدوان كان يخطط له .

سمعت من يقول : أخرج الرسول اليهود من المدينة : يهود بني قينقاع ويهود بني النضير وثم يهود بني قريظة ، فتجمعوا لآمنين في دورهم ، في أرض خيبر ، وإذا برسول الله ﷺ يلاحقهم إِلَى مآمنهم هَذَا وَيُفاجئهم بالغزو دون سابق عدوان منهم ، أليس هَذَا إجباراً ؟!

راجعوا السيرة ، وتبينوا بعمقِ السبب الذي جعل رسول الله يتجه إِلَى خيبر ، ستجدون أن يهود خيبر ، خَطَطُوا مع قبيلة غطفان لقتال رسول الله ﷺ ، ووضعوا معاً خطة كالتي رسموها في غزوة الأحزاب ، وعلم المصطفى ﷺ ذلك بواسطة استخباراته التي كان يبثها ، فقطع الطريق بين غطفان وبين خيبر ، ثم اتجه بعد ذلك إِلَى خيبر ليقطع دابر العدوان الذي كان يهود خيبر يعدّون له بالتعاون مع قبيلة غطفان .. فهذا هو سبب توجه رسول الله ﷺ بالغزو إِلَى خيبر .

أرني أي غزوة غيرها ، قَصِد من خلالها رسول الله ﷺ أن يجبر الناس عَلَى الدخول في الإسلام !!! ولو كان من شأنه أن يجبر الناس عَلَى الإسلام ، إذن لقاتل القبائل المشركة التي كانت بجوار المدينة وما حولها ، ولما عقد رسول الله بين المسلمين وبينها عقود حلفٍ وأمان ، عَلَى غرار ما فعل مع قبيلة خزاعة ، ولكن كان يُنفذ في سياسته معها قول الله ﷻ : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَقَسَّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة : ٨].

أجل ؛ لم يكن النبي يألو جهداً في إرسال السرايا من أصحابه ليعرفوا الناس بالإسلام ، وَيُبَلِّغوا رسالة الله لعباده عن طريق الحوار والنقاش ، مع الصبر عَلَى ما قد ينالهم عَلَى ذلك من الشدائد والأذى ..

أرسل رسول الله ﷺ يوم الرجيع سبعة من عيون أصحابه ، ليلبغوا الناس ما بُعثَ به النبي

فقتلوا جميعاً .

ثم أرسل في العام ذاته سبعين آخرين من أصحابه إلى قبائل من نجد للمهمة ذاتها ، فأُحيط بهم وقتلوا عن بكرة أبيهم ، إلا واحداً منهم هو (عمرو بن أمية الضمري) وكان الله استبقاه ليعود فيقص خبر إخوانه على رسول الله ﷺ ! ..

ولقد صادف أن رأى عمرو بن أمية هُذًا في طريق عودته إلى المدينة رجلين ظنهما من القبيلة التي اعتدت على أصحابه ، فلقي منهما غرة وقتلها .

ولما عاد إلى رسول الله ﷺ أخبره بالأمر ، وبقتله هذين الرجلين ، فسأل رسول الله عنها وبحث عن أصلها ، فعلم أنها شخصان من قبيلة بني كلاب ، وأن لا علاقة لهما بالقبائل التي اعتدت على أصحابه ظلماً فقال له : ((لقد قتلت اثنين من مشركي بني كلاب ، لأدينهما)) ، أي : لا بد أن أدفع ديتهما لأهليهما .

فلو أن الله ﷻ أمر رسوله بأن يلاحق الشرك والمشركين أينما كانوا ، فيقضي عليهم ويقتلهم ، ليجبرهم على الإيمان ، إذاً لرحب بهُذًا الذي فعله عمرو .. ولما وجد ما يكلفه بأن يقدم الدية كاملة لأهل كل من هذين القتيلين .

هَذَا ما كان عليه الأمر في عهد رسول الله .. كل الغزوات التي جهّز رسول الله ﷺ أصحابه للقيام بها إنما كانت حماية الدعوة ، ودفاعاً عن الدولة الإسلامية ، ورداً لغائلة العدوان .

تعالوا بنا ننظر إلى ما آل إليه هَذَا الأمر بعد رسول الله ﷺ حيث انتشرت الفتوحات ، وامتد شعاع الحضارة الإسلامية فوصل إلى أعماق بلاد الشام وبلاد فارس ، وغيرها .. هل أجبر المسلمون الناس خلال كل ذلك على الإسلام ؟

لعلكم تقولون : إذاً فيم كانت تلك الغزوات ؟ وما هي أهدافها ؟

كانت تلك الغزوات لأمرٍ بدهي معلوم ، أزيده بياناً بما يلي : الحضارة أو الدولة الفارسية رأت خطر الإسلام ، وعلمت أنه يزداد قوةً وانتشاراً ، وأحسّت أن وجود الدولة الإسلامية التي

كانت مفقودة بالأمس ، وأصبحت ذات أهمية وإشعاع حضاري اليوم يُشكّل خطراً عليها ، فكان لابد للإمبراطورية الساسانية أن تخطط للوقوف في وجه هذا الخطر ، وذلك بأن تسابق المسلمين وتبادئهم بالعدوان .. وهذا ما ساور الإمبراطورية الرومانية أيضاً ، ومن ثم فقد اتخذت السبيل ذاته .

ويرحم الله حجة الإسلام الغزالي إذ يقول في كتابه [المنحول] : (الروم إن لم تُغزَ غَزَت) أي : إن لم تشاغلها بالغزو فلسوف تسبقك إليه .

وانظر ، كم تبدو هذه الحقيقة واضحة في هذه المحاورة التي قامت قبيل غزوة القادسية بين المسلمين يُمثّلهم ربعي بن عامر ، وبين الإمبراطورية الفارسية ممثلة في رستم ، الذي كان قائد الحملة في غزوة القادسية .

قال رستم : ما الذي دعاكم إلى الولوج ببلادنا ، والخروج لقتالنا ؟

أجابه ربعي بن عامر : جئنا لنخرج من شاء منكم من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الديان ، ولم يقل : جئنا لنحملكم على الدخول في الإسلام ، ولو أن الفُرس فتحوا السبيل أمام المسلمين لحرية الدعوة وإبلاغ رسالة الله إلى الناس ، لما وجد المسلمون ما يحوجهم إلى أي قتال . على أن المسلمين لو قبعوا في ديارهم ولم يلتفتوا إلى الأخطار المحيطة بهم ، لاجتاحتهم الغزوات من هنا وهناك ، ولقضي عليهم وعلى الإسلام الذي أئتمنهم عليه رسول الله ﷺ .

ولقد انتشر الإسلام واستقر في مناطق جنوب شرق آسيا ، دون أن يلتمع فيها بارقة سيف أو أن يقع في جهة منها أي حرب مع المسلمين ، ودون أن يمارس المسلمون أي ضغط على أهل تلك المناطق لإجبارهم على الإسلام .

ذلك لأن الشأن في شعاع الإسلام أن يدخل بشكل ذاتي إلى الفطرة ، ومن شأنه أن يتفق مع

موازين العقول ، تلك هي طبيعة الإسلام ! ..

والدليل على هذا ، الواقع المرئي اليوم .

إننا لنرى كيف أن الإسلام ينتشر في أوروبا وفي أمريكا انتشاراً سريعاً كبيراً ، ولا يستطيع الوصف أن يُعبّر عن الواقع .

ولربما جاء الغد القريب ، فرأيت جُل تلك البلاد قد اعتنقت الإسلام ، وإذن فلا يبعد أن يأتي من يُكرر القول : إنما الإسلام انتشر في تلك البقاع أيضاً بالقهر والسيف .

إن قصة انتشار الإسلام اليوم في الغرب كقصة انتشار الإسلام بالأمس القريب ، أو الأمس البعيد في تلك المناطق المختلفة النائية كلها .

لقد انتشر الإسلام في الأندلس عن طريق عبدالرحمن الداخل ، فماذا صنع عبدالرحمن الداخل ؟ هل حمل أسلحة ، وهل أشهر الحرب في وجوه الناس يجبرهم على اعتناق الإسلام ؟ وهل كان بوسعه (ولم يكن معه إلا القلة من الرجال المجردين عن العتاد والسلاح) أن يفعل ذلك ، وأن يعلنها حرباً على الأسباب ابتغاء إجبارهم على الإسلام .

لو فعل ذلك ، لما وجد سبيلاً إلى البقاء في تلك البقاع .

إن السلاح الذي استعمله عبدالرحمن الداخل إنما هو سلوكه الإسلامي .. خُلِّقه .. صدق التزامه .. ثم دعوته الحوارية المحببة .. وشأن انتشار الإسلام في الأندلس ، هو شأن انتشاره في سائر البقاع الأخرى التي استقر فيها الإسلام .

إذاً ليس لهذه المقولة أصل من الصحة .. وبوسعي أن أحدثكم عن مصدرها :

مصدر هذه الأكذوبة ما دونه كثير من الكُتّاب الأجانب ؛ من مستشرقين وغيرهم من القول بأن محمداً ﷺ كان يضمراً قادراً كبيراً من الحقد على الأعاجم ، وأن دعوته كانت تهدف إلى نقل الزعامة الأعجمية التي كان يتمتع بها الفرس والروم ، إلى أيدي العرب وأنه كان ينام ويستيقظ على هذا الحلم الذهبي الذي كان يراوده ، وأن غزواته إنما كانت حروباً توسعية تهدف إلى هذا الغرض .

ومن قرأ كتاب ((السيادة العربية)) لفنان فلتن رأى فيه غرائب الأكاذيب التي يستهين كاتبها

بألف باء التاريخ العربي ، ويستخف فيها بعقولهم وثقافتهم .

والحاقد الأجنبي معذور بحقده ، ولكن ما هو عذر المسلم الذي يمارس عمالة دنيئة لأحقاد أولئك المنحرفين ؟ ..

الآن وقد تبين لنا بطلان هذه المقولة التي يروجها محترفو الغزو الفكري ، ويتلقفها عملاؤهم وسامسرتهم في العالم العربي والإسلامي ، بقي أن نصغي السمع إلى شبهات الذين يُصرون على الأخذ بها والوقوف عندها ، ماهي شبهاتهم التي يستندون إليها ويستدلون بها ؟ .. لا بد من عرضها ومناقشتها ، وبيان وجه بطلانها .

يقول بعضهم : إن الأسباب التي أدت إلى غزوة بدر تنطق بنقيض ما تقولون ! .
ويقولون : إن السبب الأول فيها هو أن محمداً ﷺ سمع أن قافلة تجارية ، توشك أن تعود إلى مكة آتية من بلاد الشام ، فأهاب ﷺ بأصحابه أن يتصدوا لهذه القافلة ، وقال لهم : لعل الله أن ينفلكموها ، فخرجوا للملاقاة ..

وهكذا فقد مارس المسلمون بأمر من رسول الله ﷺ ما يفعله قطاع الطرق ..
ولو أن قضاء الله ﷻ اقتضى أن تفلت هذه القافلة من أيديهم ، وأن تصل آمنة مطمئنة إلى مكة ، لكانت غنيمة المسلمين ، دون أن يصدر من رجالها أي عدوان عليهم .

والجواب : أن المهاجرين الذين هاجروا إلى المدينة تاركين وطنهم بأمر من رسول الله ﷺ ، بل بأمر من الله ﷻ ، قد تجردوا من كل ما يملكون .. ، جردوا من أوطانهم وعقاراتهم وبيوتهم ، تحول ذلك كله إلى المشركين ، وحتّى أموالهم المنقولة التي كان بوسعهم أن ينقلوها ويحملوها معهم ، مما خف ثقله ، جردوا منها جميعاً ، ولم يُمْكّن واحد منهم تحت أبصار المشركين أن يصطحب معه بُلغة طعام ولا شراب ، ولعلكم تعلمون أن في الصحابة من خرجوا مهاجرين سراً متسللين ، ولكن سرعان ما خرجت عليهم فلول المشركين الذين كانوا يتبعونهم في الطرقات ، فجردوهم من كل ما معهم من أمتعة ونقود وبلغة طعام .

صهيب الرومي عَلَى سبيل المثال كان قد خرج هو وزوجته سرّاً ، متجهاً إِلَى المدينة المنورة ، وفي الطريق خرجت عليه ثلة من المشركين فأغلقوا عليه السبيل ، وأمسكوا بزمام دابته قائلين : تذهب إِلَى محمد ، وتمضي بصاحبتنا معك (وكانت زوجته عربية من أهل مكة) ، ولم يتركوه حَتَّى جَرّده من زوجته ومن ضروريات ما كان بحوزته من طعام و متاع ، فواصل رحلته إِلَى الله مفارقاً أهله ، مُجَرِّداً من بلغة طعامه الذي لا بد منه في الطريق ، وما حاق بصهيب حاق بأكثر الذين هاجروا إِلَى المدينة من الصحابة رضوان الله عليهم ..

إذاً فقد تحولت أموال المسلمين الذين هاجروا إِلَى المدينة المنورة ، إِلَى المشركين ، ولم تسلم لهم حَتَّى أمتعتهم الضرورية والدراهم والأطعمة البسيطة التي كانت بحوزتهم .
ولقد كان رسول الله كثير الشفقة عليهم إذ يراهم وقد حُرّموا من سائر أموالهم وممتلكاتهم ، ليلحقوا برسول الله ويكسبوا شرف الهجرة معه ، فكان يدعو الله لهم قائلاً : ((اللهم إنهم عرأة فاكسهم ، وإنهم حفاة فاحملهم ، وإنهم جياعاً فأشبعهم ^(١) .

فماهي المشكلة في أن يُهيب رسول الله ﷺ بثلة من أصحابه ، (وقد سمع بأن قافلة تجارية تعود من الشام إِلَى مكة هؤلاء المشركين ، الذين استلّوا من المهاجرين كل ما وقعت عليه أيديهم من ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة) . بأن يخرجوا إليها فيستردوا ما استلبوا منهم !؟؟ .!

حريون يُناصبون المسلمين حرباً ظالمة قاسية خلال ثلاث عشر عاماً ، الأمر الذي اضطرهم إِلَى أن ينجوا بدينهم وأرواحهم مهاجرين إِلَى حيث يجدون السّلم والأمان ، أيّ شرعة في الدنيا تمنعهم من أن يُعاملوا بالمِثل ، فضلاً عن أن يعملوا فقط عَلَى استرداد بعض ما قد سُلِبَ منهم ؟!
..وَمَنْ مِنْ هؤلاء المنتقدين يتردد في استعادة كل أو بعض ما استلب منه ظلماً بدون حق إذا تمكّن من ذلك ؟

(١) رواه أبو داود في سننه ..

إذاً ، فقد كان هَذَا الذي ندب إليه رسول الله ﷺ أصحابه أمراً مشروعاً ، وهي معاملة مبررة في سائر القوانين الدولية ، ومتفقة مع سار القيم والأعراف والأخلاق الإنسانية .

ومع ذلك ، فإن الله ﷻ سماهم عن اللحاق بما هو حقهم المشروع ، ورغّبهم فيما هو أبقى لهم ، وأوسع فائدة ، وأبعد مدى ، ففضي بأن يفتل من بين أيديهم العير ، وأن يواجهوا بدلاً منه بالنفير ، فما ضاق المسلمون بذلك ذرعاً ، ولم يأسفوا للدنيا التي فاتتهم إذ فاتهم البعير ، بل واجهوا النفير المقاتلين الذين توجهوا إليهم من مكة بمنتهى الطمأنينة والحماس .

وقالوا لرسول الله ، وقد استشارهم ولم يجبرهم ((لقد صدقناك وعلمنا أن ما جئت به هو الحق ، فامض بنا ، فوالله لو خضت غمار هَذَا البحر لخضناه معك)) .

فكان أن أكرمهم الله بما هو أغلى وأثمن من العير بمئات الأضعاف ، ألا وهو النصر الذي جعله الله فاتحة الفتوح والانتصارات للمسلمين من بعد .

ثمة شبهة أخرى يُردها كثير ممن يتوهمون أن الإسلام إنما انتشر بالقهر والإلزام ، هي قول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري ومسلم : «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا» .

يقولون : ف هَذَا نص واضح على أن رسول الله ﷺ جاء يلاحق الناس ، ويجبرهم على أن يستسلموا ويُسَلِّموا ، وإلا تعرّضوا للقتل والإهلاك .

ولابد أن أبدأ أولاً فأسأل أصحاب هذه الشبهة : أفقال رسول الله : أمرت أن أقتل الناس ، أم قال : أمرت أن أقاتل ..؟ ومعلوم أن نص الحديث في كل الروايات هو ((أمرت أن أقاتل)) .

وعندئذ نتساءل : أبين كلمتي أقتل وأقاتل فرق في المعنى أم لا ؟

والجواب الذي يعلمه من له أذني بصيرة باللغة العربية هو : أن بين الصيغتين فرقاً لغوياً كبيراً ، ((فالقتل)) يتضمن معنى ابتداء القتل دون مشاركة من الآخر ، و((القتال)) تحمل الدلالة على المشاركة .

وَعَلَىٰ هَذَا ، فلو أن رسول الله قال : ((أمرت أن أقتل الناس ..)) لكان المستشكلون محقين ، ولما كان سبيل منطقي سليم للجواب عن إشكالهم ، بل لما وسعنا إلا الانضمام إلى رأيهم .

ولكنه عليه السلام إنما قال : ((أقاتل)) ، وهذا الوزن مبني للدلالة على المشاركة ، أي : يدل على مقاومة المتوجه بالعدوان أو بقصدته ، أي يدل على ما تفهمه من قول الرجل : قاتلت اللص .. والمعنى أن اللص داهمه بالعدوان ، فقابله بما يردُّ به عدوانه .

ومعنى الحديث : إن أقبل الناس إليّ مسالمين يصغون إليّ دعوتي تركتهم ، آمنوا أو لم يؤمنوا ، وإن صدوني عن ذلك ومنعوني إبلاغ رسالة ربي ، إذن فأحاول جاهداً أن أقابل صدّهم بمثله ، وإن اقتضى الأمر قتالاً قاتلتهم على ذلك .

وانظر كيف يتجلى هذا المعنى بأعلى درجات الوضوح في قول رسول الله عليه السلام لبديل بن ورقاء يوم صلح الحديبية : « إِنَّا لَمْ نَحْيِ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ وَأَصْرَتْ بِهِمْ ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُحِلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، .. وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَىٰ أَمْرِي هَذَا حَتَّىٰ تَنْفِرَ سَالِفَتِي أَوْ لِيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ »^(١) .

لاحظوا كلمة ((لأقاتلهم)) من أين جاءت ، وما المعنى التي تحملها ؟

رسول الله عليه السلام يدعوهم إلى المسالمة ، وإلى أن يُعْمِدَ كُلُّ طرف سيفه ، ويقول : أن الحرب قد نهكت قريشاً ، ونهكت الآخرين أيضاً ، فلنسترح جميعاً ولنلجأ إلى السلم والحوار ، ثم يقول : ولكن لو أصرت قريش على الحرب فسأقاتلهم ، أي : فسيكون موقفني مجابهة العدوان بقتال . ولو قال : لأقاتلهم لتناقض كلامه مع دعوته لهم إلى السلم .

إذاً فقول رسول الله عليه السلام في الحديث الذي نحن بصدده : أمرت أن أقاتل الناس ، معناه :

(١) من حديث طويل رواه البخاري في (صحيحه).

أمرت أن أجاهه صدّهم لي ، ومقاتلتهم لي بمثل ذلك ، لأن هَذَا واجبي ، أما إذا فسحوا أمامي المجال ، وتركوني أبلّغ رسالات ربي ﷺ ، فلا شأن لي بقتال أحد منهم ، إنني أطلب منهم شيئاً واحداً ، أن لا يمنعني أحد من أن أبلّغ رسالات الله ﷻ .

ولو أراد أن يقول : أنا لا بد أن أجبر الناس كلهم على الدخول في الإسلام ؛ لاقتضى التعبير العربي أن يقول : أمرت أن أقتل الناس حتّى يشهدوا أن لا إله إلا الله .

نعم قد يخرج وزن (فاعل) عن معنى المشاركة إلى معان مجازية أخرى ، كقولهم : (طابقت النعل) ، ولكن لا يجوز إخراج الكلام عن معناه الحقيقي إلا عند وجود قرينة تضطر إلى ذلك .

أعتقد أن في أصحاب هذه المقولة من يعود إلى كتاب الله ﷻ ، وينبش فيه عن آيات ربما تشير شبهة في هذا الصدد ، ويخيّل إليهم أن يقفون من كتاب الله ﷻ ، لدعم تصورهم هَذَا ، أمام آية واحدة ، هي قول الله ﷻ : ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥] .

رُبَّ قائل يقول : ها هو ذا القرآن يأمر رسول الله ﷺ بمقاتلة المشركين ، إذا انتهت الأشهر الحُرْم ، ويجعل غاية القتال شيئاً واحداً هو : أن يتوبوا ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وهذا دليل على ما نقول .

وأقول لإزالة الشبهة عن هذه الآية : إذا كانت الغاية التي ترسمها هذه الآية للقتال هي التوبة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فهذا لا يعني أن القتال من أجل الكفر ، بل تظل الدلالة قائمة على أن سبب قتال المسلمين لهم هو الحرابة .

ولا شك أن المحاربين ، إذا تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلن يعودوا محاربين ، بل سيصبحون مسلمين . أما مفهوم المخالفة فساقط عن الاعتبار ، أي فلا يجوز أن تحمل الآية معنى

سلبياً أيضاً ، وهو : فإذا لم يتوبوا ، ولم يقيموا الصلاة ، ولم يؤتوا الزكاة ، وسالموك ، فينبغي أن تستمر في مقاتلتهم ولا تبالي بسلمهم .

قد يقول المستشكلون : إن المفهوم من الدلالات المعمول بها ، والقواعد العربية والأصولية تنصُّ على ذلك .

ونقول في الجواب : مفهوم المخالفة يشترط العمل به أن لا تعارضه دلالة المنطوق ، فإن عارضته هذه الدلالة فالأولية لدلالة المنطوق ، لأنها أقوى من المفهوم المخالف .

وقد جاءت من وراء هذه الآية مباشرة آية تحمل بمنطوقها ما يناقض هذا المفهوم ، وهي قول

الله ﷻ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦]. تقول هذه الآية بمنطوقها : إذا أراد واحد من المشركين أن

يدخل بلدك مستجيراً ، يجب أن تفسح له المجال ليدخل ، واتركه يسمع كلام الله ويتبين واقع

المجتمع الإسلامي وحال المسلمين ، فإن أسلم فذاك ، وإن أبى أن يُسلم ، فلا تكرهه على ما لا

يريد ، بل عليك أن ترعى سلامة حياته ، وأن تتحمل مسؤولية إعادته إلى مأمنه آمناً مطمئناً .

فكيف ينسجم مضمون هذه الآية مع دعوى أن الجهاد القتالي إنما شرع لحمل الناس على

الإسلام ، وأن الإسلام إنما انتشر بالسيف ؟ أي : كيف ينسجم منطوق هذه الآية مع المفهوم

المخالف الذي تريد أن تحمله للآية التي قبلها ، وبينهما من التناقض الصارخ ما لا يغيب عن ذهن

أي عربي عاقل !؟

ولننظر بعد إلى الآيات الأخرى التي تتحدث عن سبب مشروعية القتال الجهادي ، أول

الجهاد القتالي ، فسنجد أنها جميعاً تبرز هذه العلة بشكل بيّن لا يقبل اللبس ، من ذلك قول الله

تعالى : ﴿ لَا يَنْهَى كُفْرَ اللَّهِ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة: ٨].

ومن ذلك قول الله تَعَالَى في سورة البقرة ، وهي من أواخر ما نزل من القرآن : ﴿ وَقَتَلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ومن ذلك قول الله تَعَالَى في سورة براءة ، وقد نزلت بعد سورة البقرة : ﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ

قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

أَتَخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

أما الآيتان اللتان جاءتتا مطلقتين في الأمر بمقاتلة المشركين ، في أوائل سورة التوبة وهما

الآيتان ٥ و ٢٩^(١) ، فمن المعلوم أن النصوص المطلقة تفسر على ضوء المقيدة لا العكس ، وهذه

القواعد الأصولية المتفق عليها ، والتي لا أعلم خلافاً عليها ، والتي لا أعلم أي خلافاً فيها .. هذا

بالإضافة إلى الآيات الكثيرة التي تحيّر الناس بين الانقياد لأمر الله ، والوعد الذي قطعه لهم

بالسعادة الأبدية الخالدة ، والشروء عن تعليماته وأوامره مع الوعيد الذي قطع لهم به من الشقاء

الأبدي الذي لا مفرّ لهم منه ، والآيات التي تكرر على سمع رسول الله ﷺ أن مسؤوليته تقف

عند حدود التبليغ والتذكير ، وأن عليه أن لا يُذْهب نفسه على المستكبرين والمعاندين حسرات

تضاف إلى ذلك كله الأحاديث الثابتة والآثار التاريخية التي تبرز وتجسّد علة الحراية في مشروعية

الجهاد القتالي :

جاءت أم أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها إلى المدينة ، وهي مشرقة لتزور ابنتها ، حاملةً

إليها معها طُرفاً وهدايا ، فأبت أسماء أن تستقبلها حتى تستشير في ذلك رسول الله ﷺ ، فأمرها

عليه الصلاة والسلام أن تبرّأ منها وتُحسن استقبالها وتقبل هداياها .. ولا شك أن هذا يناقض القول

(١) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {٥} .. التوبة .

والآية رقم ٢٩ : قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ {٢٩} .. التوبة .

بوجوب ملاحقة الكافرين بالقتل لمجرّد كونهم كافرين ..

كانت قبيلة خزاعة ، وهي مشركة ، دخلت في عقد المسلمين وعهدهم يوم صلح الحديبية ، ولقد لفيت هذه القبيلة الأمن والطمأنينة في ظل هذه الحماية والعهد ، إلى أن غدر بهم رجال من قبيلة بني بكر مع ثلة من مشركي قريش ناكثين بذلك وثيقة صلح الحديبية ، فقام رسول الله ينتصر لهم قال : ((لا نُصِرْتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي ..))^(١) ، وكان ذلك هو السبب المباشر لفتح مكة . فأين هَذَا الحلف بين مشركي خزاعة ورسول الله ﷺ ، من القول بأن الجهاد القتالي شرع لمقاتلة الكافرين بسبب كفرهم ؟

كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه غلام نصراني يخدمه ، وكان يحاوره دائماً ويهيب به أن يُسلم ويقول له : لو أسلمت لاستعنا بك في بعض الأمور والمصالح ، فيعتذر الغلام ويرفض الإسلام ، فيقول له عمر : لك شأنك ، لا إكراه في الدين .

و هَذَا دليل بيّن من سيدنا عمر على أن آية : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] . لم تكن منسوخة بآية السيف كما قال البعض ، إذ لو كانت منسوخة لما استشهد عمر بها أيام خلافته .
إذن فالقرآن والسنة ووقائع التاريخ ، كل ذلك ملئٌ بالدلائل الناطقة بأن الجهاد القتالي إنسا شرعٌ درءاً للحرابة والعدوان الواقع أو المتوقع ، و هَذَا هو مذهب جمهور الفقهاء .
على أن الإسلام لا يكون إسلاماً إلا إن غرس اختياراً في حنايا الفؤاد ، وهيئات أن يكون القسر والإجبار سبيلاً إلى الوصول^(٢) .



(١) والوارد ب هَذَا اللفظ : « لا نصرتني الله إن لم أنصر بني كعب » .

(٢) إه: (يغالطونك إذ يقولون) للشيخ العلامة محمد سعيد رمضان البوطي ص: [٢٤٩-٢٦٦] ط : الصديق للعلوم.

تَعَامَلُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْمُنَافِقِينَ

كان ﷺ رحمةً للمنافقين أيضاً، فسبب هذه الرحمة الواسعة لم ير المنافقون العذاب في الحياة الدنيا، فقد حضروا إلى المسجد واختلطوا بالمسلمين واستفادوا من كل الحقوق التي تمتع بها المسلمون ، ولم يُقَمِّ رسول الله ﷺ بفضحهم وإفشاء أسرار نفاقهم أبداً مع أنه كان يعرف دخائل نفوسهم ونفاقهم ، حتَّى إنه أخبر حذيفة رضي الله عنه بذلك ، لذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يراقب حذيفة ، فإن رآه لا يصلي على جنازة لم يصلها هو كذلك ، دون إحداث ضجة أو تشهير بالمنافق الميت ؛

ومع ذلك فلم يهتك الإسلام سرهم، فبقوا بين المؤمنين، وانقلب كفرهم المطلق إلى ريبة وشك على الأقل، فلم يجرموا من لذائد الدنيا ؛ لأن الإنسان الذي يعتقد أنه سيفنى ويذهب إلى العدم لا يمكن أن يهناً في عيشه، ولكن إن انقلب كفره إلى شك وشبهة فإنه لا يهناً بالعيش ولا بالسعادة الأبدية ، وبصاف بالضنك لأنه أعرض عن ذكر الله والإيمان به ، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [طه ١٢٤] (١) .

ورغم علم النبي ﷺ بالمنافقين وأسمائهم، ورغم علمه بخطورة المنافقين الذين يحاولون بث روح الهزيمة في صفوف المسلمين، كان ﷺ يسمح لهم بالحضور في المسجد، ويسمع منهم ، ولم

(١) بتصرف من كتاب نبي الرحمة ص (٦٤) .

يلجأ النبي ﷺ رغم قدرته إلى استخدام القوة ضد هذا التيار ، كما لم يحرمهم النبي ﷺ من أي من حقوقهم المدنية، فكانوا يتمتعون بحقوقهم كاملة مثل المسلمين، وكان النبي ﷺ يسمح لهم بأن يدلوا بأرائهم في قضايا المجتمع، وأخذ نصيبهم من عطاء بيت المال .

المدارس النفاقية^(١)

إن مدارس النفاق برزت منذ استقرار النبي ﷺ بالمدينة المنورة كظاهرة من ظواهر المنافسة والمعارضة مع إعلانهم شأن الإسلام بألسنتهم والعمل على عكس ذلك في بواطنهم ، وهم نماذج متعددة ، قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا يَتْلَمَهُمْ بَلْ نَعْلَمُهُمْ سِنَعَدْبِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة ١٠١] .

وكان الدور المتميز الذي يقوم به المنافقون في المدينة هو الاختراق للواقع النبوي ، والتعرف على دقائق سلوكه ومواقفه ، مما يؤكد حقدهم الطبيعي وحردهم النفعي وسعيهم الدؤوب في : ((إجهاض نور الإسلام)) بالإرجاف والدعايات والأكاذيب وهم نماذج وأنواع ومنهم :

(١) المدرسة السلولية :

المدرسة السلولية نسبة إلى رأس النفاق ومصدره ومحرك أتباعه : ((عبد الله بن أبي بن سلول) وقد أسلم عبد الله بن أبي مع دخول النبي ﷺ المدينة ، وكان أهل المدينة قد اتفقوا على تنويجه ملكاً عليهم ومرجعاً قبل هجرة النبي ﷺ ، فلما قدم النبي ﷺ انقطع أمله وظهر رسول الله

(١) المدارس جمع مدرسة .. والمقصود بها (الرؤية) أو (الفكرة) التي تجمع أكثر من عنصر وذات ، تتفق آراؤهم ووجهات نظرهم ، ويكون لها أتباع يتحالفون على أمرٍ ما ومصالح مشتركة سلباً أو إيجاباً ، وتكون لهم مواقف من المرحلة وظواهرها .. وقد لمَّح النبي ﷺ في أحاديثه إلى مفهوم الكتلة التي تعنيها مدارس الجنوح ، واجتتاب النبي ﷺ التصادم مع مجموعتهم في قوله : ((إن من ورائه أصحاباً)) ، وفي العبارة دلالة على أن ولائهم مخالف للولاء الذي عليه أصحاب رسول الله ﷺ . إه من التلبد والطارف ص (٦٩) ط ٣ .

بالإسلام ظهوراً بيناً ، فحقد ابن أبي عليّ رسول الله ﷺ وأخذ يعمل على الإرجاف والأذى في مواقف عديدة استفاض ذكرها في القرآن والسنة ويبدو أن إسلامه كان لتأمين نفسه وماله ، ول هذا رصد المسلمون كثيراً من ملاسبات سلوكه النفاقية .

منها أنه إذا رأى النبي ﷺ قادماً خرج يستقبله بالبشاشة والفرح المصطنع : أهلاً برسول الله أهلاً بكذا وكذا ، ثم إذا وليّ رسول الله ﷺ ضحك مع أصحابه واستهزأ .

ومنها أنه كان يرسخ مبدأ ((المواطنة)) وهو من مبادئ النفاق و إلى هذا المبدأ أشار القرآن في سورة المنافقين : ﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨].

ومن مبادئه النفاقية أيضاً فرض الحصار الاقتصادي على المسلمين المهاجرين ، ومنع التغذية عنهم ظناً منه بأن هذا سيساعد على انفكاكهم عن رسول الله ﷺ وقد وصف الله هذا المبدأ في

سورة المنافقون في قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

ومن مبادئهم الإرجاف والإشاعة والسخرية ، وقد أشارت كتب السير والتفسير عند قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنْفِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ

أَسْتَهْزِئُ وَإِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ نَعِدْ بَطَائِفَةٍ بِأَنَّهُمْ كَانُوا جُرْمِينَ ﴾ ..

بأن المنافقين خرجوا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، وكانوا يسرون خلف جيش رسول الله ويضحكون ويستهزئون ، ويقول قائلهم : إن محمداً سيهزم وسيكبله بنوا الأصفر بالحبال هو وأصحابه ، فنزل جبريل على رسول الله وأخبره بشأن سخريتهم فطوقهم رسول الله بالجيش وقال

لكل منهم : « أنت قلت كذا وكذا وأنت قلت كذا وكذا » فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله الآيات على نبيه مقررًا حال كفرهم ومروقهم .

ومنها ((الإفك)) إشارة إلى ما في صدورهم من الغيظ والتشفي ، ومحاولتهم استغلال حادثة الإفك الشهيرة والإرجاف بها والكذب فيها ، وترويحهم لما تصورته نفوسهم المريضة في شأن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وكيف صار هذا الإفك مدرسةً متسلسلة يروجها البعض إلى اليوم لو لا أن القرآن نزل ببراءتها من فوق سبع سموات . وقد تعددت آي القرآن في تناول مكرهم وخداعهم وخزيم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه طبع يتوارث ويتقل منهم إلى أشباههم وأمثالهم ممن يحلوا لهم الولوغ في المقام النبوي وآل بيته .

إن حقيقة النفاق قد لا تُعرف ، ولكن مظاهر السلوك وثمرات الأعمال والمواقف تظل مؤشراً خطيراً لمفهوم العلاقة بين أسس مدرسة النفاق الأولى وبين آثارها في الحياة ^(١) .

(٢) مدرسة الضرار لأبي عامر الفاسق :

وهي مدرسة أبي عامر الخزرجي المشتهر بالفاسق ، وكان مهيباً في قومه وتنصر في الجاهلية وأظهر الورع ، وزعم أنه ينتظر النبي المبعوث ، وصار يذكر الناس بكثير من صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي عرفها من التوراة والإنجيل ، ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وصار فيها للإسلام كلمة عالمية انتكس أبو عامر وانسلخ من آيات الله وأظهر الحقد على النبي صلى الله عليه وسلم وبارزه بالعداوة والبغضاء واتخذ سبيله إلى المشركين بمكة لاستشارتهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وظل معهم حتى تم له ما أراد بغزوة أحد التي أصاب المسلمون فيها ما أصابهم ، ثم انقلب على وجهه هائماً في قبائل العرب يغريهم بقتال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأقسم أن لا يساكن النبي في المدينة ولا في

(١) باختصار من التليد والطارف ص . (٨٣ - ٨٧) .

غيرها ، فلما فتح النبي ﷺ مكة خرج إلى الطائف ، ولما أسلم أهلها قر إلى الشام يستنصر ملك الروم على النبي ﷺ .

فوعده ومناه ، ومن الشام كتب إلى المنافقين أن يستعدوا ويبنوا له مسجداً ، لأنه سيأتيهم بجنود قيصر لحرب رسول الله وأصحابه ونفذ المنافقون مخطط أبي عامر وبنو المسجد تحت شعار التجمع لعبادة الله وليلة المطيرة ولابن السبيل والمنقطع .

وبالفعل بنو هذا المسجد وأحكموا بناءه وأنفقوا عليه المبالغ وبعد إتمامه ذهبوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا إن بيوتنا قاصية عن مسجدك ويصعب علينا الحضور فيه ونكره الصلاة من غير جماعة وقد بنينا مسجداً لهذه الغاية وللضعفاء وأهل الحاجة فإن رأيت أن تصلي فيه لتتيمن وتبرك بالصلاة في موضع صلاتك .

فلما قفل عليه الصلاة والسلام راجعاً على المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل جبريل يخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من يهدمه قبل مقدمه إلى المدينة ، ونزل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ مَسْجِدًا طَاهِرًا وَاللَّهُ يَتَّخِذُ لِمَنْ يَشَاءُ صِغَةً مُبَرَّحَةً ﴾ [التوبة: ١٠٦-١٠٨] .

تعتبر قصة هذا المسجد، قمة الكيد الذي وصل إليه المنافقون بالنسبة لرسول الله ﷺ وأصحابه المسلمين وليس هو هذه المرة نفاقاً فحسب ، بل هو مؤامرة وكيد يدبر ضد المسلمين .

هَذَا وَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ فِي خَطَوَاتِ هَذَا الْكَيْدِ الْمَتَلَصِّصِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَكَيْفِيَّتِهِ وَوَسَائِلِهِ عَلِمْتَ أَنَّ طَبِيعَةَ النِّفَاقِ وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ عَصْرِ وَزَمَانٍ ، وَأَنَّ وَسِيلَةَ الْمُنَافِقِينَ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَخْتَلِفُ وَأَنَّهُمْ دَائِمًا فِي جَنْبِهِمُ الذَّلِيلَ وَكَيْدَهُمُ الْحَقِيرَ وَفِي ابْتِعَادِهِمْ عَنِ النُّورِ وَتَعَلُّقِهِمْ بِالظَّلَامِ .

فَهُمُ الَّذِينَ دَائِمًا يَسْجُدُونَ بِجَبَاهِهِمْ عَلَى أَقْدَامِ الْمُسْتَعْمِرِ الْأَجْنَبِيِّ لِيَعِينَهُمْ فِي وَسِيلَةِ حَرْبِ ضِدِّ إِسْلَامِ الْمُسْلِمِينَ فِي بِلَدِهِمْ حَتَّى إِذَا افْتَلَوْا إِلَى بَنِي قَوْمِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ تَظَاهَرُوا بِالْإِسْلَامِ وَاصْطَنَعُوا مَظْهَرَ الْإِعْجَابِ بِهِ وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَمَكَّنْتَهُمُ الْفُرْصَةَ مِنْ خَنْقِ حَقِيقَةِ مَنْ حَقَائِقُ هَذَا الدِّينِ وَالْقَضَاءِ عَلَى بَعْضِ دَعَائِمِهِ أَعْلَنُوا أَنَّهُمْ يَقُومُونَ بِرِسَالَةِ تَطْوِيرِهِ وَأَنَّهِمْ إِنَّمَا يَقْضُونَ عَلَى مُسْتَغْلِيهِ مِنْ أَعْدَاءِ الْأُمَّةِ (١) .

وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ سِيَاسَةَ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ الْقَائِمَةَ عَلَى الْغِشِّ وَالْخِدَاعِ وَالتَّرْبُصِّ وَالفِتْنَةِ وَالْإِرْجَافِ .. الخ مُسْتَمِرَّةٌ فِي الْحَرَكَةِ دَاخِلِ الْخِيْمَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، مِنْذُ عَهْدِ الرِّسَالَةِ وَمَا بَعْدَهَا ، تَعْمَلُ عَلَى ضَرْبِ الدِّينِ وَالدِّيَانَةِ بِأَسَالِبِ شَتَّى وَتُحَالِفُ مَقِيَّتَ مَعَ الْكُفَّارِ وَالْمُسْتَعْمِرِينَ تَمْهِيدًا لِفِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدِّجَالِ (٢) .

(٣) الْمَدْرَسَةُ النَّبْتَلِيَّةُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَبْتَلٍ :

قَالَ السَّرِيُّ : كَانَ (عَبْدُ اللَّهِ بْنِ نَبْتَلٍ) الْمُنَافِقُ يُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَرْفَعُ حَدِيثَهُ إِلَى الْيَهُودِ فَيُبَيِّنُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حَجْرَةٍ مِنْ حَجَرَاتِهِ ، إِذْ قَالَ : « يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جِبَارٍ وَيَنْظُرُ بَعَيْنِي شَيْطَانٌ » فَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَبْتَلٍ ، وَكَانَ أَزْرَقَ الْعَيْنَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تَشْتَمُنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ؟ » فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « بَلْ فَعَلْتَ » فَجَاءَ بِأَصْحَابِهِ

(١) أ هـ باختصار من فقه السيرة للبوطي ص - (٣١١ - ٣١٢) .

(٢) التلبيد والطارف ص (٩٠) .

فحلفوا بالله ما سبوه فأنزل الله تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] (١).

(٤) مدرسة الإرجاف ومرضى القلوب :

مدرسة الإرجاف هم العناصر المشككة داخل الجسد الإسلامي والموصوفون في سورة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنْهَ الْأُمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

ومنها أيضاً مدرسة مرضى القلوب: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

وهذه المدرسة لها ذكر في مواقع كثيرة من القرآن، فقد جاء ذكرها في أول سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١) في قلوبهم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٩ - ١٠].

وورد ذكر هذه المدرسة في سورة الأحزاب عند قوله تعالى: ﴿يَلِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتَنَّا كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].
وقد ظلت آثار هذه المدرسة في الأمة وسارت سيراً مطرداً في سلوك الكثير ممن لا يعتني بالأخلاق وحقائق الاستقامة في عموم المسلمين ممن تضعف قلوبهم وقابلهم عن الالتزام بالآداب

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ظِلِّ حَجْرَةٍ وَقَدْ كَادَ الظُّلُّ أَنْ يَتَقَلَّصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَاتِيكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بَعَيْنِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا جَاءَكُمْ لَا تُكَلِّمُوهُ» فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ أَزْرَقُ أَعْوُرٌ فَقَالَ: حِينَ رَأَاهُ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «عَلَىٰ مَا تَشْتُمِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ» فَقَالَ: ذُرْنِي آتِكَ بِهِنَّ فَاَنْطَلَقَ فَدَعَاهُمْ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا وَمَا فَعَلُوا حَتَّىٰ يَخُونَ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة: ١٨] المستدرک علی الصحیحین للحاکم (٢/ ٥٢٤) وقال « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجَاهُ ».

الشرعية لسبب أو لآخر ، وفي ذلك يلمح النبي ﷺ لمثل هذه الظواهر تحذيراً فيقول : « آية المنافق ثلاثٌ : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » ، وفي روايةٍ « وإذا خاصم فجر »^(١) .

(٥) المدرسة الحرقوصية :

المدرسة الحرقوصية المنسوبة لحرقوص بن زهير الذي أعترض النبي في هوازن .

وهو أصل مدارس الخوارج وقد ورد ذلك في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسَمًا ، أَنَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اعْدِلْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَيَلْكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ ؟ قَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ » فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَتَذُنُّ لِي فِيهِ أَضْرِبُ عُنُقَهُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « دَعُهُ ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » .

وفي روايةٍ « إِنْ مِنْ ضِئْضِيِّ هَذَا قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقْتُلُونَ ، أَهْلَ الْإِسْلَامِ ، وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، لَئِنْ أَدْرَكْتَهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ »^(٢) .

والقراءة المستقبلية لدى صاحب الرسالة ﷺ من واقع عصره ، وكشف سر تطور الفتنة من مصدرها الأول مقرنةً لبروز الشريعة من مصدرها الأول ، وأن الحق ﷻ جعل للخير أصولاً وثوابت وللشر مثل ذلك .

(١) متفقٌ عليه أه التلبد والطارف ، ص (٩٢ - ٩٣) .

(٢) صحيح مسلم - (ج ٥ / ص ٢٩٩) .

والحديث الشريف يبرز ملحظ الجرأة لدى أهل الفتنة وما تزينه لهم عقولهم في شأن نصرة الحق من منظور النفس والهوى والدنيا و وساوس الشيطان فيفهمون الأثر القائل: ((قل الحق ولو كان مرأاً)) ((ولا تأخذك في الله لومة لائم)) عَلَى غير معناه ولا مبناه .

فهذا حرقوص بن زهير أو ذو الخويصرة فردٌ يحمل منهج مراحل وأسلوب جحافل ، ظل ينسج حول نفسه مفاهيم الشرع بصورة الأنانية حَتَّى برزت حقيقته في غزوة هوازن متجرئاً عَلَى رسول الله بما قال عَلَى مختلف الروايات ، فقد قال (أعدل) وفي رواية قال (هذه قسمة ما أريد بها وجه الله) ، وكل تلك المقولات دلالة عَلَى تحول في الذات وطرح خطير في أفضل المجتمعات ، فلا بد أن يظهر مقابل هذا التحول موقف .

وبرز هذا الموقف في قراءة رسول الله ﷺ لذات الرجل وما يخرج من أمثاله في مدرسة الإسلام من أقوام - وليس أفراد - ميزتهم الاعتناء التام بالقرآن - وفي بعض الروايات - بصحيح السنة ، ولكنهم مع هذا الاعتناء بالنصوص يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لتشابه عنصر الجرأة منهم عَلَى الذوات المؤمنة ، كما تجرأ ذو الخويصرة عَلَى ذات رسول الله يقول : اعدل ، مع أنه يعتقد في نفسه معرفة حق الله والإسلام لما ورد فيه الرواية الأخرى ((إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله)) .

فالمنطوق المطروح إنما هو غيرَ عَلَى مراد الله ، والحقيقة المنشودة في صدر الرجل هو نقد موقف رسول الله ﷺ ، وكانت إرادة الله متجلية خلف هذا الحدث الخطير لتبرز أحكام المستقبل ممن لا ينطق عن الهوى ﷺ ؛

والمشاهد في عالمنا المعاصر اهتمام الجيل الأوسع من المسلمين بالقرآن طباعةً وتجويداً وتلاوةً وتحسيناً للأصوات وتنافساً عليه مع واقع إسلامي محطم وضعيف ومنهوك ، تكتنفه الأمراض

والأغراض والوهن والغزو الفكري الكافر والبرامج التعليمية والتربوية الماجنة بكل صورتها ونماذجها^(١).

هكذا و من خلال تلك الومضات السريعة واستعراض مدارس النفاق لرفع مستوانا العلمي في معرفة النفاق ومدارسه التي برزت في الإسلام ، ويقتدي بهذه الأفكار والرؤى العديدة من الناس ويتمون إلى مدارس النفاق بالقيام نفس المبادئ ..

فينبغي لنا الحذر من جهة ، ومن جهة أخرى ينبغي لنا أن نعلم كيف كان سيدنا ونبينا محمد ﷺ يتعايش مع من حوله بكل حُب وسلامة صدر ، ودون حمل ضغائن أو كراهية ، وكيف كان يحث أتباعه من خلال سلوكه العملي وسنته الواقعية على التعايش والعيش بمنهجية الحوار الإيجابي البناء .

وهؤلاء كان -عليه الصلاة والسلام- يعاملهم بما يشبه معاملة المهتمين من الرحمة، والرفق، والإحسان، ومقابلة الإساءة بالعفو أو الإحسان؛ فكان يعاملهم على ظواهرهم دونما بحث عما تُكِنُّه سرائرهم، وتنطوي عليه دخائل نفوسهم عسى أنهم يعودون إلى الدين ويصلحوا بواطنهم من النفاق .

ويشهد لذلك حوادث كثيرة، ومن أجلها مواقف العظيمة مع رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي آذى النبي ﷺ أيا أذية ، حيث آذاه في بيته كما في قصة الإفك - فهو الذي تولى كبره، وأشاع قول السوء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وهو الذي رجع بمن تبعه من الطريق يوم أحد، فخذل النبي ﷺ في أوقات، وهو الذي قال - كما أخبر الله ﷻ عنه - :

﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨].

وهو صاحب المواقف المشهورة بالخزي والعار كما تقدم ، هَذَا الرجل الذي كان من شأنه ما كان ، لما مات طلب ابنه من النبي ﷺ قميصه ليكفنه فيه تطهيراً له ، فأعطاه قميصه كفنًا لزعيم المنافقين! أرايتم أكرم من هَذَا الصنيع؟ وهل وقف الأمر عند هَذَا الحد؟

لا، بل مشى - عليه الصلاة والسلام - إِلَى قبره ، فوقف يريد الصلاة عليه، فوثب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: أتصلي عَلَى ابنِ أَبِي وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ يعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أخْر عني يا عمرُ» فلما أكثر عليه قال: «إني خيّرْت فاخترت؛ لو أعلم أني إن زدت عَلَى السبعين يغفر له لزدت عليها».

وذلك إشارة إِلَى قوله تَعَالَى في المنافقين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

ففي الخيار بين أن يستغفر ، أو لا يستغفر ، نزعَتْ به طبيعته الرحيمة إِلَى الاستغفار لأعدائه ، قال عمر بن الخطاب في نهاية الحديث: فصلى عليه رسول الله ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حَتَّى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ [التوبة: ٨٤]. قال: فعجبت بَعْدُ من جرأتي عَلَى رسول الله ﷺ يومئذٍ والله ورسوله أعلم^(١). فهذه مواقفه مع زعيم المنافقين ، فما ظنك بمن دونه؟

موقف النبي ﷺ من المنافقين :

للنبي ﷺ مواقف عديدة مع المنافقين ؛ أولاً : سلك النبي ﷺ مع الذين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء ، يقبل منهم أعدارهم - وهي مختلفة - ويتكرم عن فضحهم وهم يفلتون من قيود السمع والطاعة ، حَتَّى لا يقال : إن محمداً يقتل أصحابه ، وما هم في صحبته من شيء ، ولكن هكذا سيقول الناس ؛

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير ، لأسرهم هذا الحلم وانخلعوا من خداعهم الصغير وأقبلوا على الإسلام طيين خالصين ، بيد أن هذا الأسلوب العالي في معاملتهم لم يزدهم على الله ورسوله إلا جرأة فزاد افتياتهم وربت شرورهم ، ولم يبق بد من كشف خبثهم ، وإشعار جمهور الأمة بما تنطوي عليه نفوسهم وأعمالهم^(١) .

ثانياً : موقف النبي ﷺ من المنافقين بعد أن نزل القرآن بفضحهم وتبيين صفاتهم :
كما أن النبي ﷺ تعامل معهم في اللين والرحمة لعلهم يدركون عظمة هذا الدين ، وسمو هذه الأخلاق العالية ، ولعلمهم يتوبون إلى الله من النفاق ، ويعودون إلى حظيرة الإسلام والإيمان ، ويتصفون بصفات المؤمنين في الظاهر والباطن ، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك ، وتمادوا في غيهم واستمروا على نفاقهم ؛ فأنزل الله ﷻ الآيات التي بينت صفاتهم وعلاماتهم ، فمن تلك الصفات والعلامات ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم :

في قلوبهم مرضٌ : قال الله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة (١٠)] .

وقال الله تعالى في تحذير النبي ﷺ منهم : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ فَنَلَّهِمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤] . قال ابن القيم : كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم ، لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور .

مفسدون يزعمون الإصلاح : قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة ١١] . لكن الله ﷻ فضح حقيقتهم بقول قاطع واضح فهم في حقيقة

الأمر المفسدون الذين يحاربون الإصلاح والصلاح والمصلحين ، فقال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢].

سفهاء زائفون : قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣].

مخادعون متآمرون : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

غادرون لا عهد لهم : قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنِ ءَاتٰنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتٰهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ اِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا اَخْلَقُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴾ [التوبة: ٧٧].

يتولون الكافرين ويتنكرون للمؤمنين : قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ اَيْبِنُغُوْنَ عَلَيْهِمُ الْعِزَّةُ فَاِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيْعًا ﴾ [النساء: ١٣٩].

يرتبصون بالمؤمنين : قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَرْتَبِصُونَ بِكُمْ فَاِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللّٰهِ قَالُوْا اَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَاِنْ كَانَ لِلْكَافِرِيْنَ نَصِيْبٌ قَالُوْا اَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ۗ فَاَللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لِلْكَافِرِيْنَ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ سَبِيْلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

يفرحون لما يصيب المؤمن من سوء ومحنة :

وكذلك يجزون لكل خير أو فرح يمكن أن يحصل لأهل الإيمان والمجاهدين في سبيل الله عز وجل ؛ قال الله تعالى : ﴿ اِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَاِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوْا بِهَا وَاِنْ تَصِرُوْا وَتَقْتُلُوْا لَّا يُضْرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا اِنَّ اللّٰهَ بِمَا يَعْمَلُوْنَ مُحِيْطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

مرجفون : قال الله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

يتولون يوم الزحف : فعند وقوع المحنة والبلاء، وحين تحين ساعة الاستحقاق تراهم أول الفارّين ، وفي طليعة الخائرين الخائفين ، يُؤلّون الأدبار ، ويتوارون عن ساحات النزال الحقيقية ، بكل أصنافها وأشكالها وألوانها ؛ قال الله تَعَالَى : ﴿ لَئِن أَخْرَجُوا لَّا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَّا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ ﴾ [الحشر: ١٢].

يرفضون الحكم بما أنزل الله ويتحاكمون إلى الطاغوت :

لأن الحكم بما أنزل الله لا يُوافق أهواءهم ، ولا يُحقق مآربهم ، ولا يستجيب لنزواتهم .. فهم يؤمنون بما أنزل الله ﷻ باللسان والمظهر فحسب، لكنهم لا ينصاعون لحكم الله، بل يصدّون عنه ويُحاربونه، ويتخذون من قوانين البشر الوضعية ديناً لهم، يأتمرون بأمرها، ويلتزمون بها؛ لأنها وحدها تتوافق مع شرورهم ومصالحهم: قال الله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].

الأمر بالنكر والنهي عن المعروف : قال الله تَعَالَى : ﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

التكاسل عن أداء العبادة ومراعاة الناس :-

ومن صفاتهم أنهم يتكاسلون عن أداء العبادة والتخاذل عنها والإتيان إليها بالملل ، وكذلك مراعاة الناس والعمل من أجل الناس وقلة ذكرهم لله تَعَالَى ، قال الله عنهم : ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ

يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ [النساء: ١٤٢].

الاستخفاء من الناس: قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

قال ابن كثير: هَذَا إنكار عَلَىٰ المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس؛ لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها؛ لأنه مطلع عَلَىٰ سرائرهم، وعالم بما في ضمائرهم، ول هذا قال: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

يجب أن تشيع الفاحشة في الدين آمنوا:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

ثالثاً: موقفه ﷺ تجاه مخططاتهم:

وكذلك موقفه ﷺ من المنافقين تجاه مخططاتهم ضد الإسلام، فإنه لا يخاف في الله لومة لائم، ووقف ضدهم، من أجل حماية الإسلام من مكائدهم، ومثال ذلك قد تقدم في هذا المبحث، عند ذكر نماذج مدارس النفاق ..



تَعَامُلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى

لما وصل النبي الكريم سيدنا محمد ﷺ مهاجراً من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وضع القوانين والاتفاقيات الخالدة ليعيش أهل المدينة في سلام ؛

وكان من ضمن هذه الاتفاقيات أنه ضمن لليهود حقهم في حياتهم الخاصة وحرية العبادة وحماية ممتلكاتهم ، واتفق معهم على مشاركتهم في حماية المدينة والدفاع عنها كما أن المسلمين سيدافعون عنهم إذا أحد اعتدى على اليهود ، فانظر إلى عدل الإسلام وتسامحه ..

فلم تُحَدِّثْ المسلمون أنفسهم بنقض عهود اليهود ولا فكروا في طردهم من أرض الجزيرة بل على العكس توقع المسلمون منهم أن يكونوا عوناً لهم في حرب الوثنية المحرّفة وتدعيم عقيدة التوحيد ورجا اليهود أن يصدقوا محمداً ﷺ فيما يشبهه الله من تنزيه ومجد ، وان تكون صلّتهم بالكتب القديمة وألفتهم لأحاديث المرسلين سبباً في إقناع العرب الأميين بأن الرسائل السماوية حق والإيمان بها واجب^(١) .

ولكن اليهود كانوا عند أسوأ الظن ، فلم تمضي أيام على اختلاطهم بالمسلمين حتى شرعوا يجرّجون صدورهم ويعينون عليهم ويضمرون للنبي ﷺ الحقد والكرهية ، ويحاولون إشعال الفتنة بين أصحابه ويرمونهم بكلامهم وهو ﷺ لا يزيد عليهم إلا حلاً وسماحة^(٢) .

(١) فقه السيرة للغزالي ص (٢١٢) .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص (١٦٨) .

والنبي ﷺ تعايش مع ثقافات مختلفة ومع نوعيات وعقائد مختلفة بصدور رحب ودون أي محاولة منه للمسّ بهذه الثقافات .

ومن أمثلة ذلك : يروي الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ مرت عليه جنازة يهودي، فقام النبي ﷺ لها، فقبل له: إنها جنازة يهودي فقال: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟»^(١).

ومنذ بداية وجود النبي ﷺ في المدينة، ظهر حرصه على عدم عداوة اليهود، بل وقّع معهم عهداً جميلاً يدل على الرغبة في العيش بسلام مع الطرف الآخر.

ولما توسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد النبي ﷺ، كانت هناك مجموعة كبيرة من القبائل المسيحية العربية، وبخاصة في نجران، فتعامل معهم النبي ﷺ بقبول لوجودهم في ظلال الدولة الإسلامية، وعقد معهم معاهدات من شأنها أن تؤمّن لهم حرية ممارسة شعائرهم، والاعتقاد بما يعتقدون من ديانة.

فلقد جاء في معاهدة النبي ﷺ لأهل نجران: «... وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَّتِهَا جِوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَعَائِيهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَبَيْعِهِمْ وَأَنْ لَا يُغَيَّرُوا بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ وَلَا يُغَيَّرُوا حَقًّا مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ، وَلَا يُغَيَّرُوا أُسْقَفًا عَنْ أُسْقَفِيَّتِهِ وَلَا رَاهِبًا مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلَا وَاقَهَا مِنْ وَقِيهَا، وَكُلَّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ دِينُهُ وَلَا دَمٌ جَاهِلِيَّةٍ وَلَا يُحْشَرُونَ وَلَا يُعْشَرُونَ وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ، وَمَنْ سَأَلَ فِيهِمْ حَقًّا فَبَيْنَهُمُ التَّصَفُّ غَيْرَ ظَالِمِينَ وَلَا مَظْلُومِينَ .. الخ»^(٢).

وكان أول لقاء بين الإسلام - الدولة - وبين غير المسلمين المواطنين في دولة إسلامية هو الذي حدث في المدينة المنورة غداة الهجرة النبوية إليها .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) ذكر ذلك في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحى المتوفى سنة ٩٤٢ هـ ..

وكان لا بد للدولة من نظام - كما نسميه في عصرنا بالدستور - يرجع أهلها إليه ؛ عندئذ كتبت بأمر الرسول ﷺ والغالب أنها كتبت بإملائه شخصياً - الوثيقة السياسية الإسلامية الأولى المعروفة تاريخياً باسم: [وثيقة المدينة ، أو صحيفة المدينة، أو كتاب النبي ﷺ إلى أهل المدينة] .
ومن الأهمية بمكان أن ندرس ظروف هذه المعاهدة ؛ لكي نستطيع أن نقارن بين واقعنا الذي نعيشه الآن وبين ما فعله رسول الله ، فالرسول ﷺ الذي عقد هذه المعاهدة، وحافظ عليها قدر استطاعته هو نفسه الذي أُجلى بعد ذلك بني قينقاع ثم بني النضير، وهو نفسه الذي قاتل رجال بني قريظة ، فالرسول هو الرسول ، ولكن الحال اختلفت ، ولنا فيه أسوة حسنة في كل مواقفه وخطوات حياته.

لا بد أن نعرف مَتَى عاهد؟ ومَتَى حارب؟ مَتَى قَبِلَ من اليهود بعض البنود في المعاهدة؟ ومَتَى لم يقبل منهم أن يجلسوا في المدينة المنورة يوماً واحداً بعد أن أجلاهم؟ هذه أمور تحتاج منا بحثاً دقيقاً. لماذا قرار المعاهدة؟ من الممكن أن يكون لدى الإنسان غيظٌ شديد من اليهود؛ لأنهم سمعوا هذه الكلمات التي أدركوا جميعاً أنها الحق، وبعد ذلك لم يتبعوه، ومع ذلك فإن الدين الإسلامي والشرع الإسلامي لا يظلم الناس شيئاً.
ليس معنى قيام دولة إسلامية أن تُهضم حقوق أهل الكتاب.

إن العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب واضحة جداً في كتاب ربنا ، لخصها قول الله في سورة (المتحنة)، فقال ﷻ: ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَلَهُوا عَلَىٰ إِحْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ [المتحنة: ٨-٩].

ولقد صنع الإسلام قفزة حضارية هائلة ؛ إن العالم اليوم يتحدث بالكاد عن قبول الآخر، وعن الاعتراف بالآخر، وعن سماع الآخر، هَذَا يعني أن العالم الآن في طفولة حضارية ؛

أما الإسلام فإنه تجاوز هذه المطالب إلى ما هو أعظم منها بكثير، فقد نزل الإسلام منذ ١٤٠٠ سنة بما هو أعظم وأسمى من ذلك، نزل بالإحسان إلى الآخر، وبالبر بالآخر، وبالعدل مع الآخر، وبرحمة الآخر، فليس معنى أن الرسول معه الحق الذي لا ريب فيه، أن يُكره أهل الكتاب على الدخول في الإسلام، فرغم أنه كان يتفطر حزناً على يهوديٍّ أو نصراني مات على غير الإسلام، فإنه لا يستطيع أن يكرهه ؛

لأن الإكراه ليس من شرعنا ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥]. قرّر رسول الله ﷺ: أن يعقد معاهدة مع اليهود ؛ لأنه يرى أن فرصة الدعوة ما زالت موجودة ؛ فلم يكن هناك تاريخ عدائي يُذكر بين المسلمين واليهود قبل ذلك ، نعم هم كذبوا الآن ، لكن ربما يفتح الله قلوبهم في المستقبل ؛ فلم يكن الرسول يئس مطلقاً من دعوة إنسان، فقرر أن يعقد معهم معاهدة.

وسأنقلها كاملةً مع التحليل لهذه الوثيقة من كتاب فقه السيرة للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله لأهمية ما كتبه وسطّره عن هذه الوثيقة فقال رحمه الله :

(كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم)

وهذا الأساس هو أهم ما قام به النبي عليه الصلاة والسلام مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة. روى ابن هشام أن النبي عليه الصلاة والسلام لم تمض له سوى مدة قليلة في المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب ، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، عدا أفراداً من قبيلة الأوس، فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدتهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

وقد ذكر ابن إسحاق هذا الكتاب بدون إسناد، وذكره ابن خيثمة فأسنده: حدثنا أحمد بن جناب أبو الوليد، ثنا عيسى بن يونس، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، فذكر نحو ما ذكره ابن إسحاق ، وذكره

الإمام أحمد في مسنده فرواه عن سريح قال: حدثنا عباد عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار.. إلخ .

ونحن لن نأتي بنص الكتاب كله، فهو طويل، ولكننا نجتزئ منه البنود الهامة بنصوصها الواردة في كتابه عليه الصلاة والسلام، كي نقف من ورائها على مدى القيمة الدستورية للمجتمع الإسلامي ودولته الناشئة في المدينة.

وهذه هي البنود مرتبة حسب ترتيبها في نص الكتاب نفسه:

- ١- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس.
- ٢- هؤلاء المسلمون جميعا على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم^(١) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٣- إن المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(٢) بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل.
- ٤- إن المؤمنين المتقين، على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة^(٣) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.
- ٥- لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.
- ٦- إن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
- ٧- ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس .
- ٨- لا يحل لمؤمن أقرّ بها في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو أن يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(١) العاني: الأسير.

(٢) المفرح: المثلث بالديون الكثير العيال.

(٣) الدسيعة: العظيمة، وهي في الأصل ما يخرج من حلق البعير إذا رغا.

٩- اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين.

١٠- يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ^(١) إلا نفسه وأهل بيته.

١١- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

١٢- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله.

١٣- من خرج من المدينة آمن ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.

١٤- إن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن برّ واتقى.

العبر والدلائل:

لهذه الوثيقة دلالات هامة تتعلق بمختلف الأحكام التنظيمية للمجتمع الإسلامي.

ونلخصها فيما يلي:

١- إن كلمة (الدستور) هي أقرب إطلاق مناسب في اصطلاح العصر الحديث على هذه الوثيقة. وهي إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أي دستور حديث يعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة في الداخل والخارج؛ أي فيما يتعلق بعلاقة أفراد الدولة بعضهم مع بعض، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين.

وحسبنا هذا الدستور الذي وضعه رسول الله ﷺ بوحي من ربه واستكتبه أصحابه، ثم

جعل له الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود.

(١) يوتغ: يهلك.

حسبنا ذلك دليلاً عَلَى أن المجتمع الإسلامي قام منذ أول نشأته عَلَى أسس دستورية تامة، وأن الدولة الإسلامية قامت - منذ أول بزوغ فجرها - عَلَى أتم ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية.

وظاهر أن هذه المقومات، أساس لا بد منه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في المجتمع. إذ هي في مجموعها إنما تقوم عَلَى فكرة وحدة الأمة الإسلامية وما يتعلق بها من البنود التنظيمية الأخرى، ولا يمكن أن نجد أرضية يستقر عليها حكم الإسلام وتشريعه ما لم يقم هَذَا التنظيم الدستوري الذي أوجده رسول الله ﷺ، عَلَى إنه في الوقت نفسه جزء من الأحكام الشرعية نفسها.

ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه، وليس له من مقومات الدولة والتنظيم الدستوري شيء. وهي أحبولة عتيقة، كان يقصد منها محترفو الغزو الفكري وأرقاء الاستعمار، أن يقيدوا بها الإسلام كي لا ينطلق فيعمل عمله في المجتمعات الإسلامية ولا يصبح له شأن قد يتغلب به عَلَى المجتمعات المنحرفة الأخرى.

إذ الوسيلة إِلَى ذلك محصورة في أن يكون الإسلام ديناً لا دولة، وعبادات مجردة، لا تشريعاً وقوانين. وَحَتَّى لو كان الإسلام ديناً ودولة في الواقع، فينبغي أن ينقلب فيصبح غير صالح لذلك ولو بأكاذيب القول.

غير أن هذه الأحبولة تقطعت سريعاً، لسوء حظ أولئك المحترفين، وأصبح الحديث عنها من لغو القول ومكشوف الحقد والضغائن.

ولكن مهما يكن، فينبغي أن نقول، ونحن بصدد تحليل هذه البنود العظيمة: «إن مولد المجتمع الإسلامي نفسه إنما كان ضمن هيكل متكامل للدولة، وما تنزلت تشريعاته إلا ضمن قوالب من التنظيم الاجتماعي المتناسق من جميع جهاته وأطرافه، وهذه الوثيقة أكبر شاهد عَلَى ذلك». وَهَذَا

مع غض النظر عن قيمة الأحكام التشريعية نفسها من حيث إنها قطع وأجزاء إذا ضُمَّتِ إِلَى بعضها تكوّن منها تنظيم متكامل لبناء دستوري وإداري عظيم.

٢- إن هذه الوثيقة تدلّ عَلَى مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود، ولقد كان بالإمكان أن تؤتي هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين واليهود، لو لم تغلب عَلَى اليهود طبيعتهم من حب للمكر والغدر والخديعة، فما هي إلا فترة وجيزة حَتَّى ضاقوا ذرعاً بما تضمنته بنود هذه الوثيقة التي التزموا بها، فخرجوا عَلَى الرسول والمسلمين بألوان من الغدر والخيانة سنفصل الحديث عنها في مكانها المناسب إن شاء الله، فكان المسلمون بذلك في حل مما التزموا به تجاههم.

٣- دلت هذه الوثيقة عَلَى أحكام هامة في الشريعة الإسلامية نذكر منها ما يلي:
أولاً: يدلنا البند الأول منها عَلَى أن الإسلام هو وحده الذي يؤلف وحدة المسلمين وهو وحده الذي يجعل منهم أمة واحدة، وَعَلَى أن جميع الفوارق والمميزات فيما بينهم تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة، تفهم هَذَا جلياً واضحاً من قوله عليه الصلاة والسلام:

«المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس»
وهو أول أساس لا بد منه لإقامة مجتمع إسلامي متماسك سليم.

ثانياً: يدلنا البند الثاني والثالث عَلَى أن من أهم سمات المجتمع الإسلامي ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين بأجلى صورته وأشكاله، فهم جميعاً مسؤولون عن بعضهم في شؤون دنياهم وآخرتهم. وإن عامة أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم عَلَى أساس هذه المسؤولية، وتحدد الطرائق التنفيذية لمبدأ التكافل والتضامن فيما بين المسلمين.

ثالثاً: يدل البند السابع عَلَى مدى الدقة في المساواة بين المسلمين لا من حيث أنها شعار براق للزينة والعرض، بل من حيث أنها ركن من الأركان الشرعية الهامة للمجتمع الإسلامي، يجب

تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة، وحسبك مظهر التطبيق هذه المساواة بين المسلمين ما قرره النبي ﷺ في هَذَا البند بقوله: «ذمة الله واحدة، يجير عليهم أذناهم».

ومعنى ذلك أن ذمة المسلم أيًا كان محترمة، وجواره محفوظ لا ينبغي أن يجار عليه فيه، فمن أدخل من المسلمين أحداً في جواره، فليس لغيره حاكماً أو محكوماً أن ينتهك حرمة جواره هذا، والمرأة المسلمة لا تختلف في هَذَا عن الرجل إطلاقاً، فلجوارها - أيًا كانت - من الحرمة ما لا يستطيع أن ينتهكه أي إنسان مهما علت رتبته وبلغت منزلته، وذلك بإجماع عامة العلماء، وأئمة المذاهب، غير أنه يشترط لذلك شروط معينة ذكرها الفقهاء كأن لا تكون إجارة تضر بالمسلمين كإجارة جاسوس، وأن تكون لعدد محصور، وأن تكون لمدة محدودة بحيث لا تزيد على أربعة أشهر. رَوَى الشيخان وغيرهما أن أم هانئ بنت أبي طالب ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فقالت: «يا رسول الله زعم ابن أُمِّي عليّ أنه قاتل رجلاً أجرته: فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ».

وتستطيع أن تتأمل هَذَا فتعلم مدى الرفعة التي نالتها المرأة في حمى الإسلام وظله، وكيف أنها نالت كل حقوقها الإنسانية والاجتماعية كما نالها الرجل سواء بسواء، مما لم يحدث نظيره في أمة من الأمم.

غير أن المهم أن تعلم الفرق بين هذه المساواة الإنسانية الرائعة التي أرسنها شريعة الإسلام، والمظاهر التقليدية لها مما ينادي به عشاق المدنية الحديثة اليوم. تلك شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة، يتوخى منها سعادة الناس كلهم نساءً ورجالاً، أفراداً وجماعات. وهذه نزوات حيوانية أصيلة يتوخى من ورائها اتخاذ المرأة مادة تسلية ورفاهية للرجل على أوسع نطاق ممكن، دون أي نظر إلى شيء آخر.

رابعاً: يدلنا البند الثاني عشر على أن الحكم العدل الذي لا يجوز للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره، في سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشؤونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه، وهو ما تضمنه كتاب

الله تَعَالَى وسنة رسوله. ومهما بحثوا عن الحلول لمشكلاتهم في غير هَذَا المصدر فهم آثمون، معرضون أنفسهم للشقاء في الدنيا وعذاب الله تَعَالَى في الآخرة.

تلك هي أربعة أحكام انطوت عليها هذه الوثيقة التي أقام عليها رسول الله ﷺ الدولة الإسلامية في المدينة، وجعلها منهاجاً لسلوك المسلمين في مجتمعهم الجديد، وإن فيها لأحكاماً هامة أخرى لا تخفى لدى التأمل والنظر فيها.

ومن تطبيق هذه الوثيقة، والاهتداء بما فيها، والتمسك بأحكامها، قامت تلك الدولة على أمتن ركن وأقوى أساس، ثم انتشرت قوية راسخة في شرق العالم وغربه تقدم للناس أروع ما عرفته الإنسانية من مظاهر الحضارة والمدنية الصحيحة^(١).

وأيضاً من الدروس التي نتعلمها من هذه المعاهدة :

أولاً: نتعلم أن الإسلام دين يُنظّم كلّ أمور الحياة؛ فهذا هو رسول الله الذي علّم المسلمين الصلاة والصيام والقيام والقرآن وبناء المساجد؛ يقف الآن بصلابة وبقوة وبحكمة سياسية بارعة يعاهد اليهود معاهدة كانت يد الله فيها هي العليا.

ثانياً: ماذا حصّل المسلمون من هذه المعاهدة؟

حصلوا على اتقاء شر اليهود، والتعاهد على البر وليس على الإثم، والاعتراف - وهذه كلمة في غاية الأهمية - الاعتراف من اليهود بدولة المسلمين الناشئة؛ فهذه دولة قوية لها احترام ولها عزة، ولها رأي تجلس مع اليهود لتعقد معاهدةً للمسلمين فيها اليد العليا.

كذلك إبعاد قوة اليهود عن معاونة قريش، وكان هَذَا نجاحاً كبيراً؛

فرسول الله فصل بين الحزبين: حزب قريش وحزب اليهود، وأي مخالفة سيدفع اليهود بعد ذلك ثمنها، ثم الحكم والمرّد للرسول، كما قبل اليهود - ولهم من العمر مئات السنين في داخل

(١) إه من كتاب فقه السيرة للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي ص [١٥٠. ١٥٤]. ط دار الفكر لعام ١٩٩٦ م.

يشرب - بقيادة الرسول ﷺ: عَلَى المدينة المنورة. أَيُّ فَضْلٍ، وَأَيُّ خَيْرٍ، وَأَيُّ عِظْمَةٍ، وَأَيُّ تَمَكِينٍ فِي هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالْيَهُودِ.

ثالثاً: أن شرط المعاهدات مع غير المسلمين ألا يخالف شرع الله. إن البون شاسع بين هذه المعاهدة وبين المعاهدات الحديثة، فكيف يشبهونها بمعاهدة الرسول مع اليهود؟! في معاهدة رسول الله ﷺ: مع اليهود لم يخالف شرع الله، ولم يقدم تنازلاً واحداً مُخْلِلاً بالدين، وقد بينا أن أهم شرط في العهود مع أهل الكتاب ألا يُنْقِضَ أمر من أمور الدين^(١).

نماذج وقصص من مواقف النبي ﷺ في تعامله مع اليهود والنصارى:

ولقد كان الحبيب ﷺ حليماً مع اليهود والنصارى وبقية الطوائف وحسن المعاملة معهم وقد وردت نماذج عدة في تعامله ﷺ معهم فمن تلك النماذج الآتي :-

(١) قصة زيد بن سعنة :

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ سَعْنَةَ، كَانَ مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ، فَجَبَدَ ثَوْبَهُ عَنْ مَنْكِبِهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكُمْ يَا نَبِيَّ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ أَصْحَابُ مَطْلٍ، وَإِنِّي بِكُمْ لَعَارِفٌ، قَالَ: فَانْتَهَرَهُ عُمَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عُمَرُ أَنَا وَهُوَ كُنَّا إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ أَحْوَجَ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْقَضَاءِ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التَّقَاضِي، انْطَلِقْ يَا عُمَرُ أَوْ فِيهِ حَقُّهُ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثٌ فَرْدَةٌ ثَلَاثِينَ صَاعًا لِتَزْوِيرِكَ عَلَيْهِ»^(٢).

فكان ذلك سبب إسلامه ، وذلك أنه كان يقول ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل إلا حليماً، فأخبرته بهذا فوجدته كما وصف^(٣).

(١) باختصار من مقال مع النبي في سيرته ونهجه للدكتور / راغب السرجاني .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَمَنْ يَخْرُجَاهُ .

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص (٧٩) .

(٢) ومن ذلك دخول الرهط على النبي ﷺ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «عَلَيْكُمْ» ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهَّمْتُهَا ، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمْ تَسْمَعُ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «قَدْ قُلْتُ: عَلَيْكُمْ» (١).

فهل نستطيع أن نصنع مثل هذا الصنيع ، فنقابل السباب بالإعراض، وهل يقدر الواحد منا أن يدافع عن غريمه وسابه ؛ كما صنع النبي ﷺ حين منع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من مقابلة خطتهم بمثله، إنا نستطيع ذلك بقدر ما نحب نبينا وحبينا ﷺ ، فالتأسي هو علامة المحبة وبرهانها ، وهذا هو خلق رسول الله ﷺ دوما إذا سابه أحد أو شاتمته (٢).

(٣) درع النبي ﷺ مرهونة عند يهودي :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَرَى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا إِلَى أَجَلٍ وَرَهْنَهُ دِرْعَهُ (٣).

يقول الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري في كتاب الرهن المجلد الخامس ، ص: [١٨٣] ، بعد إيراده لحديث رهن النبي ﷺ درعه لليهودي الذي رواه أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ مُعَامَلَةِ الْكُفَّارِ فِيمَا لَمْ يَتَحَقَّقْ تَحْرِيمُ عَيْنِ الْمُتَعَامَلِ فِيهِ وَعَدَمُ الْإِعْتِبَارِ بِفَسَادِ مُعْتَقَدِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَاسْتِنْبَاطُ مِنْهُ جَوَازُ مُعَامَلَةٍ مِنْ أَكْثَرِ مَالِهِ حَرَامٌ ، وَفِيهِ جَوَازُ بَيْعِ السَّلَاحِ وَرَهْنِهِ وَإِجَارَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكَافِرِ مَا لَمْ يَكُنْ حَرَبِيًّا ، وَفِيهِ ثُبُوتُ أَمْلاكِ أَهْلِ الدِّمَّةِ فِي أَيْدِيهِمْ وَجَوَازُ الشَّرَاءِ بِالثَّمَنِ الْمُؤَجَّلِ وَاتِّخَاذِ الدَّرُوعِ وَالْعُدَدِ وَغَيْرِهَا مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ ، وَأَنَّهُ غَيْرُ قَادِحٍ فِي التَّوَكُّلِ وَأَنَّ قُنْيَةَ آلَةِ الْحَرْبِ لَا تَدُلُّ عَلَى تَحْبِيسِهَا ، قَالَه بَنُ الْمُنِيرِ ، وَأَنَّ أَكْثَرَ قُوتِ ذَلِكَ الْعَصْرِ الشَّعِيرُ قَالَه الدَّوْدِيُّ ، وَأَنَّ الْقَوْلَ قَوْلُ الْمُؤْتَمَرِينَ فِي قِيَمَةِ الْمَرْهُونِ مَعَ يَمِينِهِ

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد وابن حبان في صحيحه والنسائي في السنن ..

(٢) كتاب نبي الرحمة - (ص ١٠٧).

(٣) رواه البخاري ومسلم .

حَكَاهُ بن التَّيْنِ ..

وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ التَّوَاضُّعِ وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّقَلُّبِ مِنْهَا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا وَالكَرَمِ الَّذِي أَفْضَى بِهِ إِلَى عَدَمِ الإِدِّخَارِ حَتَّى احتَاجَ إِلَى رَهْنِ دِرْعِهِ وَالصَّبْرِ عَلَى ضَيْقِ العَيْشِ وَالقَنَاعَةِ بِالبَيْسِرِ ، وَفَضِيلَةَ لِأَزْوَاجِهِ لِصَبْرِهِنَّ مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ وَفِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ بِمَا مَضَى وَيَأْتِي .

قَالَ العُلَمَاءُ الحِكْمَةَ فِي عُدُولِهِ ﷺ عَنْ مُعَامَلَةِ مِيَا سِيرِ الصَّحَابَةِ إِلَى مُعَامَلَةِ اليَهُودِ إِذَا لَبَّيْنَا الجَوَازِ ، أَوْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ إِذْ ذَاكَ طَعَامٌ فَاضِلٌ عَنْ حَاجَةِ غَيْرِهِمْ ، أَوْ حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ ثَمَنًا أَوْ عِوَضًا فَلَمْ يُرِدِ التَّضَيِّقَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ إِذْ ذَاكَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْهُ فَلَعَلَّهُ لَمْ يُطْعِمُهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُوسِرًا بِهِ مِّنْ نَّقَلَ ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وقال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم : وفيه أن حديث : «نفس المؤمن معلقةً بدينه حتى يُقضى عنه» محله نفس غير الأنبياء، فإنها لا تكون معلقة بدين، فهي خصوصية، وقد ذكر بعض العلماء أن أبا بكر أفتك الدرع، بعد النبي ﷺ ، وسلمها لعلي بن أبي طالب.

٤) يجيب ﷺ دعوتهم : عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ يَهُودِيًّا دَعَا النَّبِيَّ ﷺ إِلَى حُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةِ سِنِحَةٍ ، فَأَجَابَهُ^(١) . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ امْرَأَةً ، مِنَ اليَهُودِ أَهْدَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ : شَاةً مَسْمُومَةً ، قَالَ : فَمَا عَرَضَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ . قَالَ أَبُو دَاوُدَ : هَذِهِ أُخْتُ مَرْحَبِ اليَهُودِيَّةِ الَّتِي سَمَّتِ النَّبِيَّ ﷺ ،^(٢) وَبَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَتْ لِأَنَّ أَحَدَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ قَدْ أَكَلَ فَمَاتَ ، فَقُتِلَتْ اليَهُودِيَّةُ قِصَاصًا ..

(٥) بين المسلم واليهودي :

عَنْ ابْنِ أَبِي حَدَرَةَ الأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ كَانَ لِيَهُودِيٍّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ دَرَاهِمَ فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ لِي عَلَى هَذَا أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ وَقَدْ غَلَبَنِي عَلَيْهَا ، فَقَالَ : أَعْطِهِ حَقَّهُ ، قَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا

(١) أخرجه أحمد وابن حبان وغيرهما ..

(٢) والقصة معروفة في الصحيح وفي مسند أحمد وصحيح ابن حبان .

أَقْدِرُ عَلَيْهَا ، قَالَ : أَعْطِهِ حَقَّهُ ، قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا قَدْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ تَبْعْتُنَا إِلَى خَيْبَرَ فَأَرْجُو أَنْ تُغْنِمَنَا شَيْئًا فَأَرْجِعْ فَأَفْضِيهِ ، قَالَ : أَعْطِهِ حَقَّهُ ، قَالَ : وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَالَ ثَلَاثًا لَمْ يُرْاجِعْ ، فَخَرَجَ بِهِ ابْنُ أَبِي حَدَرْدٍ إِلَى السُّوقِ وَعَلَى رَأْسِهِ عِصَابَةٌ وَهُوَ مُنْزَرٌّ بِبُرْدٍ فَنَزَعَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ فَاتَّرَزَرَ بِهَا وَنَزَعَ الْبُرْدَةَ فَقَالَ : اشْتَرِ مِنِّي هَذِهِ الْبُرْدَةَ ، فَبَاعَهَا مِنْهُ بِأَرْبَعَةِ الدَّرَاهِمِ ، فَمَرَّتْ عَجُوزٌ فَقَالَتْ : مَا لَكَ يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْبَرَهَا فَقَالَتْ : هَا دُونَكَ هَذَا بِبُرْدٍ عَلَيْهَا طَرَحْتَهُ عَلَيْهِ ^(١) .

(٦) استقباله ﷺ الوفود النصرانية :

وتجلت مظاهر التسامح الديني في عهد النبي ﷺ عام الوفود حين استقبل وفوداً نصرانية وبعث برسالة إلى أسقف نجران . .

وقد جاء في رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى أبي الحارث أسقف نجران أن وضع المسيحيين في الجزيرة بعد الإسلام تحسن كثيراً ، يقول في الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي ﷺ ، إلى الأسقف أبي الحارث ، وأساقفة نجران ، وكهنتهم ، ومن تبعهم ، ورهبانهم : إن لهم ما تحت أيديهم ، من قليل أو كثير من بيعهم وصلواتهم ، ورهبانيتهم ، وجوار الله ورسوله ، لا يُغَيَّرُ أُسْقَفُ مِنْ أُسْقَفِيَّتِهِ ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهنته . ولا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حَقُوقِهِمْ وَلَا سُلْطَانِهِمْ ، ولا شيء مما كانوا عليه . [عَلَى ذَلِكَ جِوَارِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَبَدًا] ، ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم ، غير مثقلين بظلم ولا ظالمين ^(٢) .

فتشير هذه الرسالة إلى أن المسيحيين (وكذلك اليهود) في الجزيرة أحرار في أداء شعائرتهم ، ولن يزاخمهم من المسلمين مزاحم ، وقد قَدِمَ في السنة التاسعة وفد من مسيحي نجران يرأسهم أبو الحارث الأسقف الأكبر ، وعبد المسيح الأسقف ، والأهم رئيس القافلة ، وحين أرادوا الدخول

(١) رواه أحمد في المسند .

(٢) كتاب نبي الرحمة ص (٨٤) .

عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ارتادوا ألبستهم الدينية الرسمية الكاملة ، وبعد أن زاروا النبي ﷺ سألوه أن يسمح لهم بأداء شعائرهم فطلب منهم أن يؤديوا صلواتهم في مسجد المدينة، فدخلوا واتجهوا نحو بيت المقدس، و تعبدوا هناك . .

ولا شك أن النبي ﷺ كان يحترم النَّصَارَى احتراماً خاصاً ، لأن القرآن ذكرهم وأكرمهم . وقد أشار الله تَعَالَى إِلَى هذه النقطة في محكم كتابه في سورة المائدة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢]. ويقول في الآية التي بعدها : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣] ^(١).

يقول الكاتب الهندي "مولانا محمد علي" : (ولقد أسبغ عفوهُ عَلَى أتباع الأديان جميعاً - يهود ، ونصارى ، ووثنيين، وغيرهم - إنه لم يقصر إحسانه عَلَى أتباع دينه فحسب) .

ومثال ذلك عفوهُ عن قبيلة بني قينقاع اليهودية الذين ناصبوه العداوة ، وقد كان في استطاعته أن يفنيهم عن بكرة أبيهم في معركته معهم ، رغم ما صدر منهم من جريمة نكراء، قد تواطؤوا فيها عَلَى كشف عورة سيدة مسلمة في مكان عام ، وتواطؤهم في قتل رجل مسلم، دافع عن عرض السيدة المسلمة وحاول رد العدوان ..

ومثال آخر ، عفوهُ ﷺ عن قبيلة بني النضير اليهودية :

بعد أن خططوا لعملية اغتيال فاشلة للنبي ﷺ ، وقد كان باستطاعته أن ينفذ فيهم حكم الإعدام في من شرعوا في محاولة اغتياله ، كما هو الحال في الأعراف والأديبات الدولية، وقد كانوا

(١) نبي الرحمة ص (٨٥) .

جميعاً تحت رحمته ﷺ بعد هزيمتهم في معركتهم ضد المسلمين ، ولكنه - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله - أصدر عفواً عاماً لهم، مقابل أن يرحلوا خارج حدود الدولة^(١).

هكذا كان تعامل الحبيب المصطفى ﷺ مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى كان يعاملهم بلطف وبأخلاق عالية ما دام كل واحدٍ مسالم ومحترم للقيم والمبادئ .

وأما إذا انتهكت الأعراض ونقضت العهود فإن رسول الله ﷺ يقوم لذلك الأمر ولا يردده شيء كما قال أحد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين عن الرسول ﷺ :
(وإذا أضيع حق الله لم يقم أحدٌ لغضبه) ..

وأعظم دليل على ذلك ما حصل للمرأة المسلمة التي أنتهك عرضها في سوق اليهود ؛ وقصة ذلك :- كان فيما بين ما ذكر من غزو رسول الله ﷺ أمر بني قينقاع وكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد ؛

وكان رسول الله ﷺ جمعهم في سوقهم ثم قال : ((يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ، أَحَدَرُوا مِنْ اللَّهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنَ النَّقْمَةِ ، وَأَسْلِمُوا ، فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، مَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ وَعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ تَرَى أَنَا قَوْمُكَ ! لَا يَغُرُّنَا أَنَّكَ لَقِيتُ قَوْمًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ ، فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً ، إِنَّا وَ اللَّهِ لِنُحِبُّ حَارِبَنَا كَلْتَعْلَمَنَّ أَنَا نَحْنُ النَّاسُ)) .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما ما أنزل هؤلاء الآيات إلا فيهم : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَكِنْ كَفَرُوا اسْتَغْلَبُوا وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ السَّيْهُادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٢- ١٣] .

وكان منشأ أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق قينقاع وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يراودونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى

(١) نبي الرحمة ص (١١٥) .

ظهرها فلما قامت انكشفت سوءها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا فشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع^(١).

فهذا الذي أغضب الحبيب ﷺ وهو عندما تجرأ اليهود وكشفوا عورة المسلمة ونقضوا العهد والمواثيق التي كانت بينهم وبين المسلمين فلذلك حاصرهم وحصل ما حصل .

وأختم بموقف عظيم من مواقف ﷺ في تعامله مع بعض اليهود حين كانوا في المدينة قبل إجلاءهم بسبب مكرهم وخيانتهم ، فقد ذكر الإمام النووي في كتابه الأذكار ص : [٥١١] ، ط لدار المنهاج في باب : (ما يقوله المسلم للذمي إذا فعل به مَعْرُوفاً) ، فقال : اعلم أنه لا يجوز أن يُدعى له بالمغفرة وما أشبهها مما لا يكون للكفار ، لكن يجوز أن يُدعى له بالهداية وصحة البدن والعافية وشبه ذلك ؛ روي في كتاب ابن السني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : استسقى النبي ﷺ فسقاه يهودي ، فقال النبي ﷺ : «جَمَلَكَ اللهُ» . فَمَا رَأَى الشَّيْبَ حَتَّى مَاتَ ..



(١) باختصار من الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء - (ج ٢ / ص ٥٠).

تَعَامُلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ الْمُشْرِكِينَ

وأما تعامله ﷺ مع المشركين و حلمه و صبره و عفوّه عند المقدرة أكثر من أن نحصره أو يُحصَر .. ، و حسبك ما ذكرناه من قبل وما نذكره ؛ مما في الصحيح و المصنفات الثابتة إلى ما بلغ متواتراً مبلغ اليقين من صبره على مقاساة قريش و أذى الجاهلية و مصابرة الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله عليهم ، و حكمه فيهم ، و هم لا يشكون في استئصال شأفتهم و إبادة خضرائهم ، فما زاد على أن عفا و صفح ، و قال : (مَا تَقُولُونَ إِنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟) .

قَالُوا خَيْرًا ، أَخْ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، فَقَالَ أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفَ : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ ^(١) .

عفا بلا قيد و لا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه و عذّبوه ! آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة و أغنى فقراءهم ، و عفا عن ألد أعدائه ؛ عندما كانت حياتهم في قبضة يده و تحت رحمته .

و كان العفو جوهره أخرى بالغة الإشعاع في شخصية الرسول ﷺ ، لقد وجدت فيه تجسدها الكامل ، و لقد أوصاه القرآن الكريم بأن يأخذ بالعفو و يأمر بالمعروف و يعرض عن الجاهلين فقال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

(١) أورده أهل السير منهم أبو اسحاق و ابن هشام و في الشفاء للقاضي عياض .

تأملوا معي كيف أنهم أخرجوه هو ومن يقف معه من بيوتهم إلى منطقة صحراوية ، معلنين عليهم المقاطعة، ومعلقين بنود هذه المقاطعة الشريرة على جدار الكعبة، وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعاً وشراءً، وعدم التزوّج من بناتهم أو تزويج بناتهم لهم ؛ وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات بحيث اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتّى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع دون أن تهتز منهم شعرة ، أو تتحرك عندهم عاطفة رحمة ، ولم يكتفوا بهذا، بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أماكن أخرى بعيدة ؛

ولم يدعوهم في راحة هناك فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم طعم الراحة والاطمئنان ؛ وفي غزوات بدر وأحد والخندق اشتبكوا معهم في معارك ضارية، وحرموهم حتّى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة، وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهدة ذات شروط قاسية ، ولكن الله تعالى أنعم عليهم ففتحوا مكة ودخلها رسول الله ﷺ على رأس جيش عظيم .

فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عداوة وبغضا؟
لقد قال لهم: (اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ).

ولو كان محمد ﷺ من ملوك الدنيا : لسالت دماء أهل مكة ولكنه قابل صنيعهم بالعفو فما كان منهم إلا أن دخلوا في دين الله أفواجا (١).

وَقَالَ أَنَسُ هَبَطَ تَمَانُونَ رَجُلًا مِنَ التَّنْعِيمِ صَلَاةَ الصُّبْحِ لِيَقْتُلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذُوا فَأَعْتَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ) الْآيَةَ .

وَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ وَقَدْ سِيقَ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ جَلَبَ إِلَيْهِ الْأَحْزَابَ وَقَتَلَ عَمَّهُ وَأَصْحَابَهُ وَمَثَلَ بِهِمْ فَعَفَا عَنْهُ وَلَا طَفَهَ فِي الْقَوْلِ: (وَيُحِبُّكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَبْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَقَالَ بِأَبِي أَنْتَ

وَأُمِّي مَا أَحْلَمَكَ وَأَوْصَلَكَ وَأَكْرَمَكَ) ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبْعَدَ النَّاسِ غَضَبًا وَأَسْرَعَهُمْ رَضِي،
 ﷺ (١).

لقد كانت سيرته ﷺ مثلاً حياً في التواضع وخفض الجناح ولين الجانب وساحة النفس ؛
 ومن تواضعه حين أَنَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ أَبِي قحافة ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ: «هَلَّا تَرَكَتَ
 الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ فِيهِ» .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ إِلَيْهِ ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ
 يَدَيْهِ ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ» . فَأَسْلَمَ ، وَدَخَلَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَأَسُهُ
 كَأَنَّهُ نَعَامَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «غَيْرُوا هَذَا مِنْ شَعْرِهِ» (٢) .

فهذا موقفه مع أبي قحافة – والد أبي بكر الصديق – دليلاً على تواضعه وتقديره لمن هو أكبر منه
 مع أن أبا قحافة لم يكن مسلماً . لقد بلغ الرسول ﷺ في هذا الخلق ما لم يبلغه غيره من البشر ،
 فقد استطاع أن يكسب قلوب المحيطين به وثقتهم فيه وشعورهم بأنه واحد منهم .

وموقف آخر : في أم أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها : نقول أسماء رضي الله عنها : ، قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي ،
 وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، ، قُلْتُ: إِنْ أُمِّي أَتَنِي وَهِيَ رَاغِبَةٌ ،
 أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قَالَ ﷺ : « صِلِي أُمَّكَ » .

وَرَوَى الطبري ، عن ابن الزبير ، أن قول الله تَعَالَى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُوا كُفْرَهُمْ فِي
 الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة: ٨] ، نزلت
 في أم أسماء بنت أبي بكر ، وكان اسمها قتيبة بنت عبد العزيز ؛

وقالت طائفة: نزلت في مشركي مكة من لم يقاتل المؤمنين ولم يخرجهم من ديارهم .

(١) من الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص (٧٩ - ٨٠) .

(٢) رواه أحمد وابن حبان وغيرهما ..

وأيضاً استدان النبي ﷺ من صفوان بن أمية من السلاح بعد فتح مكة لغزوة حنين :
 فعَنْ إِيَّاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ، أَنَّ صَفْوَانَ هَرَبَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ حُنَيْنًا فَقَالَ: «يَا صَفْوَانُ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ سِلَاحٍ؟» .
 قَالَ: عَارِيَّةٌ، أَمْ غَضَبًا؟ قَالَ: «لَا، بَلْ عَارِيَّةٌ» ، فَأَعَارَهُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِينَ إِلَى الْأَرْبَعِينَ دِرْعًا، وَغَزَا
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَلَمَّا هَزَمَ الْمُشْرِكُونَ جُمِعَتْ دُرُوعُ صَفْوَانَ، فَفَقَدَ مِنْهَا أَدْرَاعًا، فَقَالَ لَهُ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا صَفْوَانُ، إِنَّا قَدْ فَقَدْنَا مِنْ أَدْرَاعِكَ أَدْرَاعًا فَهَلْ نَغْرَمُ لَكَ؟» فَقَالَ: لَا يَا رَسُولَ
 اللَّهِ إِنَّ فِي قَلْبِي الْيَوْمَ مَا لَمْ يَكُنْ ^(١) .

ولقد كان النبي ﷺ لا ينتقض العهد ولا يعُدُّ أبداً ولو كان ذلك مع المشركين ..

ذكر الإمام ابن حبان في صحيحه (ج ١١ / ص ٢٣٤) في باب ذِكْرِ الْإِخْبَارِ عَنْ نَفْسِي جَوَازِ حَبْسِ
 الْإِمَامِ أَهْلِ الْعَهْدِ وَأَصْحَابِ بُرْدِهِمْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ :
 عَنْ بُكَيْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَشَجِّ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ بْنَ أَبِي رَافِعٍ، حَدَّثَهُ، أَنَّ أَبَا رَافِعٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ
 أَقْبَلَ بَكْتَابٍ مِنْ قُرَيْشٍ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَلْقَيْتُ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ،
 فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي وَ اللَّهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَا أَحْبِسُ بِالْعَهْدِ،
 وَلَا أَحْبِسُ الْبُرْدَ وَلَكِنْ أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِي قَلْبِكَ الْآنَ، فَارْجِعْ» ، قَالَ:
 فَارْجَعْتُ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ إِنِّي أَقْبَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَسْلَمْتُ قَالَ بُكَيْرٌ: وَأَخْبَرَنِي أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كَانَ
 قَبْطِيًّا .

وهذا الموقف من رسول الله ﷺ قد زاد أبا رافع إكباراً وإجلالاً لرسول الله ﷺ وزاده ثقةً
 بصدق نبوته ، وحرصاً على أتباعه ، فبذلك عاد أبا رافع إلى مكة فبلغ قريشاً جواب ما أرسلته به ،
 ثم رجع من فوره إلى المدينة يجدوه الشوق إلى النور والطهر ، والجمال والخير ، والفرار من ظلمات

(١) رواه ابن أبي شيبة وغيره .

الشرك والفساد في الأرض حتى وصلها ، فباع النبي ﷺ على الإسلام والهجرة والجهاد ، وانضم إلى صفوف المسلمين العاملين في خير أمة أخرجت للناس .. (١).

وَرَوَى الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره بسنده ، إلى أن قال : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَتَتْ قُرَيْشٌ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَدْعُو رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا ، فَنَشْتَرِي بِهِ الْخَيْلَ وَالسَّلَاحَ ، فَتُؤْمِنُ بِكَ وَنُقَاتِلَ مَعَكَ. قَالَ: « أَوْثِقُوا لِي لِئِنْ دَعَوْتُ رَبِّي فَجَعَلَ لَكُمْ الصِّفَا ذَهَبًا لَتُؤْمِنَنَّ بِي » فَأَوْثَقُوا لَهُ ، فَدَعَا رَبَّهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ قَدْ أَعْطَاهُمْ الصِّفَا ذَهَبًا عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِكَ عَذَّبَهُمْ عَذَابًا لَمْ يُعَذِّبْهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: « رَبِّ لَا بَلَّ دَعْنِي وَقَوْمِي فَلَادَعُهُمْ يَوْمًا يَوْمٌ ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ [الآية [البقرة: ١٦٤] (٢).



(١) إسناده صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود والطبراني وأخرجه النسائي في السير كما في " التحفة " ١٩٩/٩ عن الحارث بن مسكين وأبي الربيع سليمان بن داود المهري، كلاهما عن ابن وهب، بهذا الإسناد.
وقوله: " لا أخيس العهد "، قال الخطابي في " معالم السنن " ٣١٧/٢: معناه: لا أنقض العهد ولا أفسده من قولك: خاس الشيء في الوعاء: إذا فسد. وفيه من الفقه أن العقد يرعى مع الكافر كما يرعى مع المسلم، وأن الكافر إذا عقد لك عقد أمان، فقد وجب عليك أن تؤمنه، وأن لا تغتاله في دم ولا مال ولا متفعة.
وقوله: " لا أحبس البرد " فقد يشبه أن يكون المعنى في ذلك: أن الرسالة تقتضي جواباً، والجواب لا يصل إلى المرسل إلا على لسان الرسول بعد انصرافه، فصار كأنه عقد له العهد مدة مجيئه ورجوعه، والله أعلم.
قَالَ فِي زَادَ الْمُعَاد: وَكَانَ هَدْيُهُ أَيْضًا ﷺ أَنْ لَا يُحْبَسَ الرَّسُولَ عِنْدَهُ إِذَا اخْتَارَ دِينَهُ وَيَمْتَنِعُهُ اللَّحَاقُ بِقَوْمِهِ ، بَلْ يَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ أَبُو رَافِعٍ.

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ص : [١٨٩] ط دار الفكر ، بيروت .

تَعَامَلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ

وأما تعامله ﷺ مع المسلمين عامة من أهل لا إله إلا الله فقد كان رؤوفاً رحياً بهم محافظاً على كرامتهم وعزّتهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وبعثه الله بذلك .
وكان لهم الأكبر للمصطفى ﷺ هو الحفاظ على دماء الناس عامة وعلى دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم خاصة ، وأوصى الأمة بذلك ، وكانت آخر خطبة له في عرفات في حجة الوداع وكثير من توجيهاته خير شاهد على ذلك .
والنبي ﷺ رحمة للعالمين ، وحريص على أمته ، ويحب أمته ، وحذر من الاعتداء على أهل لا إله إلا الله ؛ سواء الاعتداء على المال أو على العرض أو على النفس ، وحذر من التكفير ، وحصّن أمته من الشرك الأكبر ..

وقبل أن أتحدث وأذكر نماذج وقصص من مواقف النبي ﷺ مع المسلمين لابد أن أُبيّن خطر التشريك والتبديع والتكفير لأهل لا إله إلا الله ونورد ذلك على الأمة المحمدية.

خَطَرُ التَّشْرِيكِ وَالتَّبْدِيعِ وَبَيَانُ ذَلِكَ

تُعاني أمة محمد ﷺ من ظاهرة التشريك والتبديع ، وانتشارها بين أمة محمد ﷺ الذي جاء بالتوحيد الحقيقي ، وبيّن في الآيات التي أنزلت عليه ، وحصّن أمته من الشرك ، فقد وردت عدة أحاديث تُحذّر وتبيّن خطورة التشريك والتبديع ورمي الناس جُزأفاً بالتهم الزائفة .. ومع

ذلك كله نرى كثير من دعاة الجهل والضلال يُشركون ويبدعون أهل لا إله إلا الله بدعوى المحافظة على التوحيد ولم يفقهوا حقيقة ما جاء به نبي التوحيد ﷺ وهو الذي حصن أمته ؛ ولذلك قد وردت آيات وأحاديث وأقوال لأهل العلم الحكماء الناصحين للأمة في انتفاء الشرك عن أمة الحبيب محمد ﷺ ؛

وإنما الموجود بين المسلمين من المظاهر الخاطئة إنما هو إفراط أو تفريط بسبب الجهل الذي خيم عليهم ، والمعالجة لهؤلاء تكون بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وحسن الأخلاق مع الجميع قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ففي قضية التشريك ، والتهمة الباطلة لأهل لا إله إلا الله قد وردت أحاديث تردّتهم الباطلة منها :

(١) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي، وَاللَّهِ مَا أَحَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَحَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا» .

وفي رواية قال : « صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ كَالْمُودِعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ، إِنِّي لَسْتُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَحْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا، وَتَقْتُلُوا، فَتَهْلِكُوا، كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» قَالَ عُقْبَةُ: «فَكَانَتْ آخِرَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ»^(١).

(١) أخرجه أحمد و البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم .

٢) وأعظم دليل لمن وعى انتفاء الشرك من هذه الأمة ما رواه البخاري عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَخْبَرَهُمَا أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟

قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: «فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: « فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُحْشِرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبَقِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، الخ » (١). فالأمة لا يُلصق بها شرك أكبر مُخرج عن الملة والعياذ بالله (٢).

٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيَسَّ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ» (٣).
وفي رواية أخرى « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَّ أَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ، بِالْمَحَقَّرَاتِ وَهِيَ الْمُوبِقَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، » (٤).

٥) عن سعيد بن المسيب عن علي وبن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى ثَلَاثَةٍ: أَهْلٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا تُكْفَرُ وَهُمْ بِذَنْبٍ، وَلَا تُشْهَدُوا عَلَيْهِمْ بِشْرِكٍ، وَمَعْرِفَةُ الْمَقَادِيرِ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا مِنْ اللَّهِ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مُذْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى آخِرِ عَصَابَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَا يَنْقُضُ ذَلِكَ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ» (٥).

(١) رواه البخاري .

(٢) الزويدة العاصفة ص (٥٠) .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه، والذي في الحلية (٨٦/٧) عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد الخدري بمعناه . ثم رواه بإسناده إلى أبي هريرة من غير شك ولم يذكر لفظه وأحال على ما قبله . وأخرجه أيضا : أحمد (٣٦٨/٢) ، رقم

٨٧٩٦ ، والبخاري كما في كشف الأستار (٣/٣٢٢) ، رقم (٢٨٥٠) . قال الهيثمي (٥٤/١٠) : رجاله رجال الصحيح .

(٥) المعجم الأوسط - (ج ٥ / ص ٩٥) .

وفي رواية الطبراني في المعجم الكبير : عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُفُّوا عَنِ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا تُكْفَرُوا بِهِمْ بِذَنْبٍ، فَمَنْ أَكْفَرَ أَهْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ إِلَى الْكُفْرِ أَقْرَبُ».

٥) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ لِلنَّاسِ: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قَالُوا: يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا لَا يَجْنِي جَانٍ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، أَلَا لَا يَجْنِي جَانٍ عَلَى وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيَسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلَادِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَسَيَرْضَى بِهِ»^(١).

ومع ذلك فبين الفينة والأخرى يخرج علينا خارج يدعي الغيرة على دين الله والخوف على بلاد المسلمين من عودة الشرك إليها!!! ولعل أمثال هؤلاء قد غفلوا عن حديث رسول الله ﷺ الذي أوضح لنا مصدر الخوف الذي كان يخاف على أمته :

٦) فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسَيْبٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه فِي مُصَلَّاهُ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا الَّذِي أَبْكَاك؟ قَالَ: حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ رَأَيْتُ بَوَاجِهَهُ أَمْرًا سَاعِنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الَّذِي أَرَى بَوَاجِهَكَ؟

قَالَ: «أَمْرٌ أَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي» قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «الشَّرْكُ وَشَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَشْرِكُ أُمَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: «يَا شَدَّادُ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا وَثَنًا وَلَا حَجْرًا وَلَكِنْ يُرْأَوْنَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّيَاءُ شِرْكٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: فَمَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ؟ قَالَ: «يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَيَنْفِطِرُ»^(٢).

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وصححه .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین وقال لهذا حدیث صحیح الإسناد ولم یخرجه .

أما ما يدندن عليه عساكر النقض والقبض ، وينفعلون من أجله فهو على أحد أمرين :

◆ غير على التوحيد يجب الاستفادة منها بالنظر في تصحيح كافة الإفراطات اللفظية والعملية ، وتوجيه عامة المسلمين إلى السلامة في العقائد بالحكمة والموعظة الحسنة دون لجأ أو إحراج.

◆ استتباع لسياسة الخوارج في حمل الشبه على المصلين ، وتكفيرهم بها واستتار هذا الصراع لإقصاء آل البيت والصوفية والمذهبية عن موقع التأثير الروحي والاجتماعي ليصفوا الجو والزمان لمروّجي التكفير والتبديع وأكل المال الحرام والمعاملات البنكية الربوية وشبه الربوية وغمط حقوق الشعوب من العمال والمصلين والسخرية بهم مقابل خدمة التوحيد السياسي المندرج ضمن علامات الساعة^(١).

فهل هناك أوضح من هذا البيان ؟ فقد نفى رسول الله ﷺ وقوع الشرك وعبادة الأوثان والأحجار من بعده ، وكل ما خاف منه هو الرياء .

فهل نصدق رسول الله ﷺ أم نركن إلى إرجاف المرجفين وأوهام المنتنعين؟!^(٢)

(٧) وَرَوَى الْحَافِظُ ابْنُ حَبَانَ وَالْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ فِي مَسْنَدِهِ حَيْثُ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْزُوقٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ عَنِ الصَّلْتِ بْنِ بَهْرَامَ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ، حَدَّثَنَا جُنْدُبُ الْبَجَلِيُّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، أَنَّ حُدَيْفَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مَا أَخَوَفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَ بِهِ جَبْتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْنًا لِلْإِسْلَامِ؛ غَيْرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشَّرْكِ، الْمَرْمِيُّ أَمْ الرَّامِيُّ؟ قَالَ: «بَلِ الرَّامِيُّ»^(٣).

(١) أه الأسس والمنطلقات ص (٢٨٦) .

(٢) إه من (لا ذرائع لهدم آثار النبوة) ص (٢٦ - ٢٧) .

(٣) إسناده جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يرم بشيء سوى الإرجاء وقد وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين =

إذاً فظاهرة التشريك والتبديع قد برزت جليةً في عصر الغنائية بحيث صارت علاقة الدنيا وقطيعة التشريك والتبديع صفتان متلازمتان . فالرسول ﷺ أشار إلى اطمئنانه حول الخوف على الأمة من الشرك ، إنها يبعث برسالة إلى مستقبل الزمان لمن يمتطي الشبهة والحرام ، ويملك أسباب الدنيا وهي : أن الوسيلة المتخذة في هذه المرحلة من الخوف أو القلق الصوري على الأمة من الوقوع في الشرك باطلة من أساسه ، وإنما حقيقة الأمر عند التمحص لا يتعدى المنافسة على الحكم والمظهر والجاه والتملك وقد كشف الله لنبيه ما سيصل إليه حال الأمة في هذه المرحلة الخطيرة ولبي رسول ﷺ نداء الأمة المتهممة عند بعض الفئات وإبراز الحقيقة الناصعة ، ولكن مع هذا البيان النبوي فهناك من يستغرب نفي الرسول مادة الشرك عن الأمة مع وجود بعض الظواهر المشيرة إليه لدى بعض المسلمين .

والجواب الحاسم : -

أن الظواهر القائمة لدى بعض المسلمين ليست شركاً ، وإنما هي حالة من حالتين : إما إفراط أو تفريط ، وكلا النقيضين علة في وجه الأمة المحمدية ؛ وللإفراط والتفريط معالجات شرعية ، وأهمها: نشر الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وفي مدرسة الإسلام ما يغني الصادق عن تكفير الأمة .
إلا أننا نعتقد أن كلا النقيضين إذا برزا في شرائح المجتمع وصار لهما من يُغذّيها فهناك علة أخرى أكبر من الإفراط والتفريط وهي : السياسة^(١) .

إذاً عرفنا مما سبق أن كافة الأقاويل والتّهم الناطقة بالتشريك في الأمة لا أصل لها من أساسها .. وما بُني على باطل يكون تناميهِ ومرومات أصحابه جزء من الباطل ، حيث لا شرك موجب

= وغيرهما وحسنه أيضاً الهيثمي في (الجمع) كتاب العلم باب فيما يُخاف على الأمة (٨٩٠) إه من تفسير ابن كثير ج ٢ ص (٣١٣ - ٣١٤) ط المكتبة التوفيقية .

(١) إه باختصار من التليد والطراف ص (٢٩٩ - ٣٠٠) .

للكفر أو الخروج عن الملة حيث أن المقررين تهمة الشرك الأكبر عَلَى المسلمين أنما برروا وضع سيوفهم في أعناق المصلين كي يسيطروا عَلَى مواطن القرار والحكم عندما اجتاحوا أطراف الجزيرة بالسلاح^(١). فالذي حصل بالأمة إنما هو إفراطٌ وتفريطٌ عند الجماعات والطوائف والفرق والمذاهب؛ فالإفراط: - هو الغلوا ومنه ((ما نهجته مدرسة التبديع والتشريك)) عندما أفرطت في إصدار الأحكام.. ونماذج الاتهام.

والتفريط: - هو الإسقاط والتخلي عن الثوابت ومنه أيضاً ((ما نهجته مدرسة التفريط باحتضان الربا والإتباع لليهود والنصارى في شؤون الاقتصاد والتربية والتعليم والإعلام ، وهَذَا النظر ما سُمي : بطرفي الإفراط والتفريط مخرج سليم للأمة ، كي تعالج من خلاله طرفي النقيضين وتعود إلى سلامة الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي بدلاً عن هذه الهجمات والتهجمات وتسخير الأموال والطاقات وتجنيد المدارس والجامعات والدعاة والداعيات لحربٍ لا منتصر فيها غير الشيطان والكفر والدجال ، وهم الثلاثة الحُلفاء^(٢).

فعرفنا مما سبق أن التشريك تُهمةٌ مُصنَّعة لا دليل عليها ولا أساس لوجودها في أمة سيدنا محمد ﷺ ، وإنما هي مؤامرة الحُلفاء ، وخذمني الدليل الحق إن كنت من أهله : فقد رَوَى ابن أبي شيبه في (المصنف) برقم (٣٨٩٠٣) حديثاً عن عبد الملك بن أبي سليمان قال سئلت أبا جعفر هل في هذه الأمة كفر؟ قال (لا أعلمه ولا شرك) قلت فلماذا؟ قال : (بغي) .

ويؤيد ذلك ما روي أن علياً عليه السلام و عليه السلام سئِلَ عن أهل الجمل قال قيل أمشركون هم؟ قال : « من الشرك فرُّوا » قيل منافقون هم؟ قال : « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً » قيل فهاهم؟ قال « إخواننا بغوا علينا »^(٣).

(١) إه الزوبعة العاصفة (٤٩ - ٥٠) .

(٢) إه بتصرف من الزوبعة العاصفة بشرح المنظومة الكاشفة ص (٥١) .

(٣) المصنف رقم (٣٨٩١٨) .

ويؤيد هذا المعنى حديث رباح بن الحارث قال : كنت إلى جانب عمار بن ياسر في صفين وركبتي تمس ركبته ، فقال رجل : كَفَر أهل الشام ، فقال عمار : لا تقولوا ذلك ، نبينا ونبههم واحد وقبلتنا وقبلتهم واحدة ، ولكنهم قومٌ مفتونون جاروا عن الحق فَحَقَّ علينا أن نقاتلهم حتَّى يرجعوا إليه .
وفي رواية : لا تقولوا كفر أهل الشام ولكن قولوا فسقوا ظلموا .. »^(١) .

والحل لهذه المشكلة أن نأخذ الطريق الأصوب للجميع :

المطلب الأول : - أن المسلمين أولاً هم بحاجة إلى معرفة الحق وإلى فهم فقه التحولات ، حيث يخرج المرء بعد قراءة هذا العلم على صفة الاعتدال الواعي بخريطة الطريق ويترجح لديه مفهوم الرسالة في وصف (آخر الزمان) وموقف المسلم العاقل من دوران الزجاجاة بعد معرفته عوامل دورانها ..

المطلب الثاني : - تحتاج الأمة لدعوة الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي في كافة الشؤون .

المطلب الثالث : - أن يبرز مبدأ القواسم المشتركة بعد أن نخرها الاختلاف والصراع بكل نماذجه وصوره ، والقواسم المشتركة في الشريعة أكثر وجوداً من مسائل الاختلاف .

ومن نماذج الأخذ بالقواسم المشتركة الارتقاء إلى القاسم المشترك بين الأمة وهو رسول الله ﷺ .

المطلب الرابع - بذل النصح من أجل الله ، ومن غير تعصّب ولا غضب ولا انفعال ، فإن في

النصح دوام العافية بين الأمة بشرط : التجرد عن المصالح الذاتية والسياسية .

المطلب الخامس : - الدعوة الصحيحة من العلماء والدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة

إلى كافة الشرائح الاجتماعية في هذه الأمة للعود الصادق إلى دين النبي محمد ﷺ ، وهو الدين

الخالص الذي لا يفرّق بين الشعوب ، ولا يُسيّس القضايا ولا يفعلّ الصراع ؛ ..

(١) المصنف (٣٨٩٩٦) اه من كتاب : النمط الأوسط ط ٢ ، ص : (١٨٤ - ١٨٥) .

وإنما يحفظ لذي النسب نسبه ولذي الشرف شرفه ولذي القدر قدره والكل يعمل في محيط حياته بالتقوى والأمانة ليرز للمتقي والأمين القدر المرفوع عن رب العالمين: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ﴾ [الحجرات ١٣] (١).

وأخيراً : تصحيح فتنة التشريك للمسلمين :-

يقول شيخنا العلامة المربي / أبو بكر العدني بن علي المشهور في كتابه: الأسس والمنطلقات :

لا شك أن التصحيح والإعادة يتمُّ بأمور :

أولها : - رد شبهة الشرك الأكبر عن أمة محمد ﷺ ، وخاصةً شبهة الشرك المؤدية إلى استحلال الدماء والأعراض وإلصاق تهمة الشرك الأكبر وإثارة الفوضى بها في عموم بلاد المسلمين كما قد حصل .

ثانيها : - أن كافة الآيات والنصوص التي استدلت بها هذه المدرسة (أي مدرسة التبديع والتشريك) لا تنطبق على المسلمين المصلين وإنما موقعها الصحيح مرحلتين :

الأولى : - مرحلة الشرك الجاهلي التي حاربها رسول الله ﷺ وانتهت بفتح مكة وإخراج الأصنام من الكعبة ومن كافة المواقع الأخرى في جزيرة العرب فيما بعد ذلك وانحصرت بعد ذلك في من بقي من مشركي العرب ومن يرفض الإسلام من اليهود والنصارى والأمم الكافرة .
الثانية : - مرحلة العودة إلى الجاهلية الصريحة فيما بعد موت عيسى عليه السلام (٢) .

(١) أه باختصار وتصرف من كتاب الزوبعة العاصفة ص (١٧٩ - ١٨٠) .

(٢) من الأسس والمنطلقات .

خطورة التكفير لأمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وأيضاً: مما ابتلي به العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة ظهور جماعات من الناس يكفرون كل من خالفهم في الرأي من الأمور الدينية دون أن يعلموا الأسباب التي تُخرج صاحبها عن دائرة الإسلام وتوجب الحكم عليه بالكفر. فترى الواحد منهم وهو الذي لم يقرأ ولم يطلع في علوم الدين يسارع إلى الحكم على المسلم بالكفر بمجرد مخالفته في أمرٍ من الأمور الفرعية وبنظرته الضيقة يرى أنه لم يبق من المسلمين على هذه البسيطة مسلم إلا القليل .

وأدهى من ذلك وأمر أنه يعتقد ذلك في السلف الصالح من هذه الأمة ممن لا يجاريهم على أهوائهم ، وهم الذين حملوا لنا الدين وبدلاً من الترحم والترضي عليهم امتثالاً لقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: 10].

فبدلاً من ذلك نرى تلك الجماعات يرمونهم بالشرك والكفر والظلال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛

إن التكفير هو المدى الأعلى والغاية العظمى والمنتهى في شأن الغلو ، فدونه مراتب قد تكون أخف ضرراً وأهون شراً .

وأما التكفير فهو : الحكم بكفر المسلم ، وسلب اسم الإيمان والإسلام عنه ، فيترتب عليه استحلال دمه وعرضه وماله وتنزيله منزلة الكافرين ، بل ما هو أشد لأنه ينزل منزلة المرتدين الذين كفروا بعد إسلامهم والعياذ بالله ، فاستمع لنداء الإيمان في الحال التي يتصور أنها حال القتل

والقتال التي قد يظن أنها أبعد ما تكون عن البحث والتثبت ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ

مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن

قَبْلُ فَمَنْ أَتَىٰ عَلَىٰكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿ [النساء: ٩٤] ؛

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، إذا خرجتم في الجهاد والقتال في سبيل الله

والأصل أن خروجكم لهذا لغرض مواجهة الكفر وأهله ؛

فإن أعرضوا عن الإسلام وأبوا الخضوع له قاتلوهم ، ومع ذلك فتبينوا وثبتوا واحرصوا على

ألا توقعوا القتل على من لا يستحقه وصفاً وعملاً ، ويقول الحق ﷻ في هذا المعنى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا

لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤] .

قال المفسرون: السلام يعني الإسلام بدليل قوله : لست مؤمناً ، لا تقولوا لمن أظهر الإسلام

لست مؤمناً تسلبون عنه صفة إسلامه وإيمانه ، وقيل السلام تحية الإسلام وهي السلام فمن ألقى

عليكم السلام وأظهر بذلك شعار المسلمين فلا تقولوا لست مؤمناً ، أو الاستسلام أن يكون

السلام بمعنى الاستسلام ؟ أي : الخضوع لسلطان الإسلام وإن لم يدخل فيه ؛

فإن الإسلام يحقن دمه ويحفظ عرضه وماله ويعظم له حقه بل ويحافظ عليه وهذا أمر مهم ،

وقد قال أهل التفسير في ذلك: اطلبوا بيان الأمر وثباته ووضوحه في حال قتلكم وقاتلكم وإذا

قاتلتم فتبينوا حال من تقتلون..وقد رَوَى أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة

كلها يدور على أنه قد وقع من بعض الصحابة اجتهاد بسلب اسم الإسلام ممن أظهر مشاعره أو

شعائره أو أقواله ومظاهره فنزلت الآية في هذا .

ووردت نماذج من مواقف النبي ﷺ مع من قال : لا إله إلا الله .

منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه بسند حسن قال: مرَّ رجلٌ من بني سليم بنصر من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ يرعى غنماً له، فسلم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النَّبِيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية.

وعن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقاتِ من جهينة، فصبَحناهم وقد نذروا بنا فخرَجنا في آثارهم فأدرَكْتُ منهم رجلاً فجعل إذا لحقته قال: «لا إله إلا الله فظننتُ أنه يقولها فرقا من السلاح فحملت عليه فقتلته فعرض في نفسي من قتله شيء، فأتيت النَّبِيَّ ﷺ قال لي: أقال: «لا إله إلا الله ثم قتلته؟» قلت: إنه لم يقلها من قبل نفسه، إنما قالها فرقا من السلاح قال لي: أقال: «لا إله إلا الله ثم قتلته فهلا شققت عن قلبه حتى تعلم أنه إنما قالها فرقا من السلاح؟» قال أسامة: فما زال يكررها عليَّ أقال: «لا إله إلا الله ثم قتلته، حتى وددتُ أني لم أكن أسلمتُ إلا يومئذٍ»^(١) .

ورود أن مقداد بن عمرو الكندي، وكان حليفاً لبني زهرة وكان ممن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، أخبره أنه قال: يا رسول الله أرايت إن لقيت رجلاً من الكفار فافتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمتُ لله، أقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله» قال: يا رسول الله فإنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها أفاقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلة قبل أن تقتله، وأنت بمنزلة قبل أن يقول كلمته التي قال»^(٢) .

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى ..

(٢) رواه البخاري في الصحيح عن عبدان، وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يونس .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قُتِلَ قَتِيلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يُعْلَمُ قَاتِلُهُ، فَصَعِدَ مِنْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيَقْتُلُ قَتِيلًا، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَا يُعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اجْتَمَعُوا عَلَى قَتْلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَعَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِلَا عَدَدٍ، وَلَا حِسَابٍ» ^(١).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ سَرِيَّةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشُوا أَهْلَ مَاءٍ صُبْحًا، فَبَرَزَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ فَقَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمُوا أَخْبَرُوا النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِبًا، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا بَعْدُ، فَمَا بَالُ الْمُسْلِمِ يَقْتُلُ الرَّجُلَ وَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي مُسْلِمٌ»، فَقَالَ الرَّجُلُ: «إِنَّمَا قَاتَلْتُهُ مَتَعَوِّذًا، فَصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجْهَهُ، وَمَدَّ يَدَهُ الْيُمْنَى، فَقَالَ: «أَبَى اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ قَتَلَ مُسْلِمًا» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(٢).

ومثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في سيدنا محمد ﷺ محب الإنسانية الرحيم، الرؤوف الشفيق على أمته .

وَعَنْ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدُبُ بْنُ سُفْيَانَ، رَجُلٌ مِنْ بَحِيلَةَ قَالَ: إِنِّي لَعِنَدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَاءَهُ بِشِيرٌ مِنْ سَرِيَّتِهِ فَأَخْبَرَهُ بِالنَّصْرِ الَّذِي نَصَرَ اللَّهُ سَرِيَّتَهُ وَبَفَتْحِ اللَّهِ الَّذِي فَتَحَ لَهُمْ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْتًا نَحْنُ نَطْلُبُ الْقَوْمَ وَقَدْ هَرَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ لَحِقْتُ رَجُلًا بِالسَّيْفِ فَلَمَّا حَسَّ أَنَّ السَّيْفَ مُوَاقِعُهُ وَهُوَ يَسْعَى وَيَقُولُ: إِنِّي مُسْلِمٌ إِنِّي مُسْلِمٌ. قَالَ: «فَقَتَلْتَهُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا تَعَوَّذَ قَالَ: «فَهَلَّا شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ فَنَظَرْتُ أَصَادِقُ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟»
قَالَ: لَوْ شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ مَا كَانَ عَلَمِي هَلْ قَلْبُهُ إِلَّا بَضْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ؟
قَالَ: «لَا مَا فِي قَلْبِهِ تَعَلَّمَ وَلَا لِسَانِهِ صَدَّقَتْ».

(١) رواه الطبراني ..

(٢) رواه أحمد في المسند ..

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي قَالَ: «لَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ» قَالَ: فَهَاتِ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ثُمَّ دَفَنُوهُ فَأَصْبَحَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ اسْتَحْيَوْا وَخَزَوْا مِمَّا لَقِيَ فَاحْتَمَلُوهُ فَأَلْقَوْهُ فِي شِعْبٍ مِنْ تِلْكَ الشُّعَابِ^(١).

وفي التحذير عن تكفير المسلم وردت نصوص كثيرة لعل بعضها يغني عن سرد كثير منها
ومن ذلك :

(١) حديث أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في الصحيحين واللفظ لمسلم عنه عليه الصلاة والسلام: يَقُولُ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِعَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، وَلَيْتَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكَفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ .. أَي: إِلَّا رَجَعَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْوَصْفُ .

(٢) وحديث أنس رضي الله عنه أشمل وأوضح يقرر القواعد الأصيلة والوقاية ، والحماية المبنية على أصل العصمة بالإسلام والإيمان فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ: الْكُفُّ عَمَّنْ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نُكْفِّرُهُ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَا ضُ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَيَّ أَنْ يُقَاتَلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَالَ لَا يُبْطَلُهُ جَوْرٌ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلٌ عَادِلٍ، وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ»^(٢).

(٣) وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «لَيْسَ عَلَى الْعَبْدِ نَذْرٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُ، وَلَا عِنُ الْمُؤْمِنِ كَفَاتِلِهِ، وَمَنْ قَدَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَفَاتِلِهِ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذَبَهُ اللَّهُ بِمَا قَتَلَ بِهِ نَفْسَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

(٢) وعن سعيد بن المسيب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: «كُفُّوا عَنِ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا تُكْفِّرُوهُمْ بِذَنْبٍ، فَمَنْ أَكْفَرَ أَهْلًا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ إِلَى الْكُفْرِ أَقْرَبُ»^(٤).

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ..

(٢) رواه الترمذي في سننه وأبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وصححه.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

(٤) المعجم الكبير - (ج ١٢ / ص ٢٧٢) .

الجدور التاريخية لظاهرة التكفير :

ظهرت بدعة التكفير في القرن الأول من العصور الإسلامية وقد أخبر النبي ﷺ عن نشر هذه البدعة وحدّر من الأخذ بها وطالب بالقضاء عليها ومحاربتها .

وقد ظهرت بظهور الخوارج ، حيث كانت أول بدعة حقيقية واجهها الإسلام ، وكادت تقضي على وجوده وتسوّد تلك الصفات الناصعة من تأريخه المجيد .

ولكن الخلفاء وجمهور المسلمين واجهوا هذه البدعة بما تستحق ، واستطاعوا القضاء عليها رغم ضراوتها وما نتج عنها من شرور .

وتتلخص عقيدة الخوارج فيما يلي : -

(١) الخروج على ولي الأمر مهما كان صلاحه وعدله إذا فعل ما يروونه مخالفاً لهم .

كما حدث من اعتراض على رسول الله ﷺ وأيضاً ما حدث من اعتراض على أمير المؤمنين علي عليه السلام وكرم الله وجهه .

(٢) الحكم على من خالفهم بالكفر واستباحة دمه وماله وعرضه .

(٣) إنكارهم تحكيم الرجال وإن ذلك كفر .

(٤) تكفيرهم لكل مرتكب معصية كبيرة كالزنا والربا وشرب الخمر .. (١) .

موقف السلف الصالح من التكفير :

قال العلماء في ذلك: مقالات كثيرة ملئت بها كتبهم ، وهم أهل العلم والبصيرة والفقهاء في دين الله ، فقد روى أبو يعلى والطبراني في الكبير أن رجلاً سأل جابراً رضي الله عنه هل كنتم تدعون أحداً من أهل القبلة مشركاً؟ قال معاذ الله . فزرع لذلك قال هل كنتم تدعون أحداً منهم كافراً؟ قال لا .

(١) اه باختصار من كتاب : الدواء الشافي ص (٧٤ و ٨٣) .

وَرَوَى أَبُو يَعْلَى عَنْ يَزِيدِ الرَّقَاشِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ رحمته يَا أَبَا حَمْزَةَ إِنَّ نَاسًا يَشْهَدُونَ عَلَيْنَا بِالْكَفْرِ وَالشِّرْكِ : - قَالَ أَوْلَيْتُكَ شَرَّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ ^(١) .

ويقول حبر الأمة عبد الله بن عباس رحمته : لا تكونوا كالخوارج تأولوا آيات القرآن في أهل القبلة ، وإنما نزلت في أهل الكتاب والمشرّكين فجهلوا علمها وسفكوا بها الدماء وانتهكوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالظلال ^(٢) .

ويقول الإمام الغزالي رحمته : والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً ، فإن استباحة الأموال والدماء من المصلين إلى القبلة المصّرّحين بقول لا إله إلا الله خطأ ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون في من أخطأ في سفك محجمة من دم مسلم ^(٣) .

وقال أيضاً رحمته في بداية الهداية : (ولا تقطع على أحد بشرِكٍ أو كفرٍ أو نفاق) اهـ .

ويقول الإمام ابن قدامة المقدسي في كتابه الاعتقاد : (ولا تجزم لأحد من أهل القبلة بجنةٍ أو نارٍ إلا من جزم له الرسول صلوات الله وسلامه عليه لكننا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء . ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنبٍ ولا نخرجه من الإسلام بعمل اهـ .

وأما أبو الحسن الأشعري فكان الإمام أحمد بن زاهر السرخسي من أصحاب الأشعري يقول لما حضرته الوفاة بداري ببغداد أمر بجميع أصحابه ثم قال : اشهدوا عليّ إنني لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنبٍ لأنني رأيتهم جميعاً يُشرون إلى معبودٍ واحدٍ والإسلام يشملهم ويعمهم ^(٤) .

وقال ابن أبي العز رحمته : واعلم رحمك الله وإيانا أن باب التكفير عظمت الفتنة والمحنة فيه وكثر فيه الافتراء وتشتت فيه الأهواء والآراء .

(١) من كتاب : التحذير من المجازفة بالتكفير ص : [٣٨] .

(٢) من كتاب الدواء الشافي : ص : (٥٦) .

(٣) اهـ من كتاب : الاقتصاد في الاعتقاد .

(٤) باختصار من كتاب : الدواء الشافي ص : (٥٦ - ٦٠) .

وقال ابن تيمية رحمته: أما من في قلبه الإيمان بالله الإيمان بالرسول وما جاء به وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع فهذا ليس بكافر أصلاً ، والخوارج من أظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيراً لها ، ولم يكن في الصحابة من كفرهم لا علي بن أبي طالب ولا غيره بل حكموا فيهم بحكمهم للمسلمين الظالمين المعتدين وهذا أمره بيّن ظاهر .

والمخاطر كثيرة ولكننا في مقام الإشارة الجامعة الموجزة ، فأقف وقفتين موجزتين اذكرهما : أولهما: ما يؤدي إليه التكفير من استحلال الدماء والأعراض والأموال ، وهو الخطر العظيم الجسيم الذي إذا ابتدأ أمره ، وترخص الناس فيه ، وفتحوا له أبواب التأويل واعتسفوا في فهم النصوص : فإنه لا تبقى عصمة لنفس مؤمنة ، ولا دم حرام ، وينفرد عقد ذلك ، ويحصل به من الفساد ما الله عز وجل به عليم .

وينبغي ألا ننسى أن أعظم المنن التي من الله بها على العباد في سياق آياته وعلى البلد الحرام على وجه الخصوص نعمة الأمن والرزق وبنزاعها وبيطلها ويفسدها ويذهبها أن يصل الحد إلى التكفير الذي لا يابئ لذلك كله ، ولا يقيم له حرمة ولا يرعوي من هول وعيد الآيات العظيمة : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاءُؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] . وعيدٌ يكاد ألا يكون له مثل في شدته وقوته ، حتى قال بعض أهل العلم وينسب ذلك كذلك إلى ابن عباس : أنه لا توبة لقاتل .

وإن كان الصحيح أنه له توبة لكن القول الذي قيل بعدم توبته يدل على عظمة الجرم الذي قضى من بعض أهل العلم أن يقولوا بمثل هذا القول ..

وفي حديث بريدة رضي الله عنه كان الرسول ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال في شأن القتل والجهاد والقتال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً

((^(١)). إن كان هَذَا في شأن القتال وفي ميادينه مع أهله المستحقين له فكيف يكون غدر؟ وكيف يكون غير ذلك في أهل الإسلام؟.

والخلاصة :

أن الأنظمة السياسية في واقعنا المعاصر لا يزعجها من ذلك التناقض إلا أن يبلغ الخلاف والتنازل والتحاوُر إلى مسألة الحكم والقيادة .. أما دون ذلك .. فمَشروع ومهياً ولو كان الخلاف يؤدي إلى رمي البعض للبعض بالكفر والمروق عن الإسلام .

ولذلك يجد القارئ المسلم الباحث عن الحقيقة بين فوضى التحريف وتعدد وجهات نظر التصنيف والتأليف صعوبة بالغة في معرفة الحقيقة ضمن مجتمع بنى نفسه على سياسة التناقض ورعاية الأسباب المؤثرة فيه .

والمخرج من كل ذلك . أن يقف الراغب في معرفة الحق وأهله موقفاً حذراً كل الحذر .. ويميز بين الغث والسمين والحق والبطل من خلال صدق توجهه إلى مولاه ..

لا من خلال تأثيره بزید أو عمرو .. فإن التوجه الصادق نوراً يبرز من بين حنايا الذات :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] ^(٢).

وقد أورد الشيخ العلامة محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله في كتابه [هكذا فلندع إلى الإسلام] أن من مشكلات الدعوة إلى الله : مسألة تكفير الناس وذكر تفصيل جميل ، وهام جداً ، أحببت إضافته ونقله لأهميته وفائدته ، فقال رحمه الله تعالى :

(١) رواه مسلم في صحيحه .

(٢) اهـ من كتاب : كشف الأفتنة ص : (٥٨).

المشكلة الأولى : مسألة تكفير الناس :

وهذه من أهم المشكلات التي تنبثق عن الغيظ النفسي لدى من لم يضبط نفسه بقواعد العلم وأحكام الكتاب والسنة.

فلنبدأ قبل كل شيء ببيان القاعدة التي التقى عليها سلف هذه الأمة وأئمة المسلمين جميعاً، ما عدا الخوارج الذين تم الإجماع على تلبسهم بالشذوذ والخروج على ما تقتضيه نصوص الكتاب والسنة ، وهي القاعدة التي يمكن تصنيف الناس على أساسها بين الإسلام والكفر. إن التصرفات المكفرة، على تنوعها وكثرتها، لا تخرج عن الأنواع الثلاثة التالية:

النوع الأول: الاعتقادات، وتتمثل في أن ينكر الإنسان شيئاً من أركان الإيمان أو الإسلام، أو يحلل حراماً أو يحرم حلالاً مما هو معروف من الدين بالبداهة والضرورة.

كالذي ينكر وحدانية الله، أو البعث والنشور، أو الجنة والنار، أو وجوب الصلاة مثلاً، أو الصيام أو الزكاة أو الحج.. أو ينكر حرمة الزنى أو الربا بصورة مطلقة عامة.. الخ.

النوع الثاني: الأفعال. وضابط الأفعال المكفرة أن تكون ذات دلالة على شيء يتناقض مع ركن ما من أركان الإيمان. كالسجود لصنم، وكوضع الصليب في العنق، أو تقبيله، وكالتزيي بالأزياء التي تخص رجال الأديان الأخرى، أي التي لها دلالة دينية.. فإن هذه الأفعال لها دلالة واضحة، لا تقل عن دلالة النطق. ومدلولها في المثال الأول الاعتقاد بألوهية الصنم الذي سجد له، والاعتقاد بصلب سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في المثال الثاني. وهكذا..

ثم إن هذه الأفعال مكلفة بمجرد فعل الإنسان لها بمحض إرادته واختياره، سواء أكانت مدلولاتها قائمة في ذهنه أم لا.

النوع الثالث: ما يدخل في نطاق السخرية أو التحقير ، وضابط ذلك أن يسخر من تلك المبادئ أو الأحكام التي يكفر الإنسان بإنكارها. كأن يسخر من الصلاة أو الحج أو الجنة أو النار،

أو كأن يسخر أو يزدري بالقرآن أو بأحد من الرسل أو الانبياء، أو الفقه الإسلامي عموماً، أو يمتهن شيئاً من الشعائر البارزة للإسلام، كالأذان والمساجد، والأذكار.. الخ..

هذه القاعدة الكلية تغنيك عن تتبع الجزئيات. ولكن إذا اردت الوقوف على الجزئيات والتفاصيل الكثيرة فارجع إلى كتاب الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر الهيتمي رحمته. فإذا لم يتلبس الإنسان بشيء من هذه الأنواع الثلاثة من التصرفات فهو مسلم لا يجوز تكفيره. وكذلك إذا كنا في شك من وقوعه في واحد من هذه الأشياء، فإن الأصل براءته منه، ولا يجوز الحكم بردته وخروجه عن الإسلام إلا استناداً إلى دليل يقيني في ذلك.

فلنأخذ هذه القاعدة ولنطبقها على المشكلة القائمة اليوم والتي يدور حولها حديث كثير من الناس الذين يهتمهم أمر الدعوة الإسلامية، الا وهي مشكلة من لم يحكم بما أنزل الله، هل يعد كافراً بموجب هذه القاعدة التي أوضحناها أم لا؟ ولكي تكون اجابتنا واضحة مفيدة، لا بد أن نتساءل عن معنى الحكم بغير ما أنزل الله، فما هو معناه؟

معناه: إبرام الأمر وتقريره على خلاف ما شرع الله ﷻ. سواء تم هذا الإبرام من الإنسان في حق نفسه أو في حق اهله وأولاده أو في حق اصدقائه واصحابه، أو في حق أمته ومجتمعه.

فالذي يقضي بخروج زوجته أو ابنته البالغة سافرة غير محتشمة بستر الإسلام. يحكم بغير ما أنزل الله، والذي يقضي بإقامة منكر من المنكرات في داره يحكم بغير ما أنزل الله، وأعضاء الجمعية السكنية الذين يقررون التعامل بالربا لمشروعهم السكني يحكمون بغير ما أنزل الله، والقاضي الذي يقضي في مسألة بغير ما أمر الله به يحكم بغير ما أنزل الله. والحاكم الذي يصدق ما أبرمه هذا القاضي، يحكم بغير ما أنزل الله.

كل هؤلاء الناس، وأمثالهم ممن لم نطل في ذكر أمثلتهم، يحكمون بغير ما أنزل الله، ولن تجد أي موجب للتفريق بين بعض وآخر.

فلنعد الآن إلى سؤالنا: هل يدخل هؤلاء الناس بموجب تصرفاتهم هذه في دائرة الردة والكفر، ويخرجون عن رتبة الإسلام؟

الجواب: أن هذه التصرفات بحد ذاتها ليست داخلية في النوع الأول من المكفرات وهو الاعتقادات، بل هو لا يُعَدُّ أن يكون أقوالاً وأفعالاً.

وهي لا تدخل أيضاً في النوع الثاني، ولا في النوع الثالث من المكفرات. كما هو واضح لدى المقارنة.

إذن، فإننا ننظر: فإن اقترن بحكم هؤلاء الناس بغير ما أنزل الله، برهان قطعي على الإنكار والجحود الاعتقادي، أو على السخرية والازدراء، وكان الحكم متعلقاً بشيء من أركان الإسلام الخمسة أو بما هو مجمع عليه ومعروف من الدين بالبدهة والضرورة فإن ذلك يكون مكفراً، ويكفر صاحب هذا الفعل أو التصرف، أياً كان.

أما إن لم تقترن بتصرفاتهم براهين قاطعة على شيء مما ذكرنا، فإن الأمر يحتمل عندئذ أن يكون مدفوعاً إليه بدافع التهاون، أو الانسياق وراء الأهواء والأمانى النفسية، لا بدافع الجحود والإنكار. وإذا قام الاحتمال سقط الاستدلال، ولم يجز الحكم بالتكفير. هذه خلاصة الجواب.

وعلى هذا، يتبين لنا أنه لا يجوز تكفير أحد من المسلمين الذي نراه يرمون أمورهم أو أمور الناس على غير ما تقضي به شريعة الله، لمجرد تلبسهم بذلك، سواء أكانوا يفعلون ذلك تحت قوس القضاء أو في بيوتهم وبين أهليهم، أو في أنظمتهم وأحوالهم الاجتماعية الضيقة.

ويتمسك أولئك الذين يستمرئون الحكم بتكفير الناس، بقوله ﷺ في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ

اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ [المائدة: ٤٥] . وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿ [المائدة: ٤٧] .

فاعلم أن هذه الآيات الثلاث نزلت باتفاق المفسرين وأئمة الحديث في حق يهود تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في شأن إقامة حد الزنى على امرأة زنت، أو في حق يهود جلدوا.. حيث كان يجب الرجم، فاستحلف أحدهم أهذا هو حكم الله فيما تعلمون؟ فأقر بأن اليهود غيروا وبدلوا.. روى ذلك على النحو الثاني مسلم في صحيحه، وأحمد، وأبو داود، وابن جرير، كلهم عن البراء بن عازب. ورواه على النحو الأول مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وأبو داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، والزهري مرسلًا، وغيرهم.

ثم إن العلماء اختلفوا في قوله تعالى في آخر الآيات الثلاث: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون.. الفاسقون.. هل المقصود به اليهود الذين أنزلت الآيات في حقهم، أم المقصود بها الناس جميعاً ممن يدخلون في عموم الوصف والمناط؟
ردد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الاحتمالين:

أن يكون المقصود به عموم الناس لا خصوص اليهود، وصرف عندئذ وصف الكفر إلى من لم يحكم بما أنزل الله جحدًا، ووصف الظلم والفسق إلى من أقر به ولكنه تركه تهاوناً أو لهوى في النفس.

وأن يكون المقصود به اليهود دون غيرهم، وعندئذ يكون كل من وصف الكفر والظلم والفسق خاصاً بمن نزلت الآية في حقهم ومتضمناً للقاسم المشترك الذي هو معنى الكفر. ثم اختار، بعد هذا الترديد أن المراد بهذه الأوصاف الثلاثة أهل الكتاب الذين نزلت الآيات في حقهم، أو من لم يحكم بما أنزل الله جحدًا به وإنكاراً له من سائر الكافرين.

رَوَى ذلك ابن جرير وغيره عن علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وَرَوَى عن ابن عباس أيضاً، وجابر بن زيد وابن شبرمة والشعبي، أن الوصف بالكافرين في الآية الأولى ينصرف إلى المسلمين، والوصف بالظالمين في الثانية ينصرف إلى اليهود، والوصف بالفاسقين في الثالثة ينصرف إلى النَّصَارَى. قالوا ووصف المسلمين هنا بالكفر ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكنه كفر دون كفر، أي هو الكفر بمعنى جحود النعمة.

إلا ان يحكم بغير ما أنزل الله جحوداً به، فهو عندئذ الكفر الحقيقي الذي هو الردة.

فإذا تأملت فيما نقلناه، من أقوال الأئمة في المقصود بهذه الجمل الثلاث المتكررة، وهو خلاصة كل ما قد قاله العلماء في ذلك علمت أنهم جميعاً متفقون على أن المسلم لا يجوز أن يحكم بكفره بمجرد حكمه بغير ما أنزل الله. سواء ذهبنا إلى أن هذه الجمل الثلاث خاصة بمن نزلت الآيات في حقهم، أو عامة لسائر الناس. وإنما مناط الكفر هنا على كل حال الجحود والإنكار، كما قد رأيت. لم يخالف في هذا القدر المتفق عليه إلا فئة واحدة، هي فئة الخوارج الذين انفردوا وشذوا عن الإجماع بتكفير المسلمين بارتكاب كبائر الذنوب.

وعلى هذا، فإن الإعراض عما أجمع عليه السلف من أئمة المسلمين بدءاً بعصر الصحابة، فمن دونهم، ثم من دونهم، في تفسير هذه الآيات الثلاث، واختلاق تفسير جديد لها، يقضي بأن كل من لم يحكم بما أنزل الله، فهو كافر مطلقاً، جنوح عن واجب الالتزام بالقواعد المعروفة والمتفق عليها في تفسير القرآن، ولن تجد له من مسوغ إلا تحكيم الأهواء في كتاب الله ﷻ.

إذا تبين هذا، فإننا ننظر في حال من قضى في أمر بغير شرع الله ﷻ، فإن ظهرت لنا من قوله أو حاله دلائل قاطعة على جحوده بشرع الله ﷻ، أو على احتقاره له، وكان الحكم متعلقاً بواحد من أركان الإسلام أو مما عرف من الدين بالضرورة. فإن ذلك يعد مكفراً، ويكفر المتلبس بذلك الفعل، سواء كان والدًا في أهله، أو عضواً في جمعيته، أو عاصياً في حق نفسه، أو قاضياً في محكمته، أو حاكماً في دولته. دون أي تفریق.

أما إن لم تظهر لنا دلائل قاطعة على جحوده أو تحقيره، أو كان الأمر متعلقاً بحكم غير معروف من الدين بالضرورة، بأن كان قابلاً للاجتهاد أو خفياً لا يعلمه إلا أصحاب الدراية والاختصاص. فإن مجرد تصرفه هُذا لا يخولنا أن نحكم بأكثر من عصيانه وفسقه.

فليتق الله أولئك الذي يجازفون في إقامتهم أنفسهم مقام الله ﷻ بتكفير كل من لم يحكم بما أنزل الله، دون رجوع إلى ضوابط ذلك من أدلة العلم وقواعده، وليتهموا أنفسهم بالانسياق وراء غيظ لا يحكمه منهج الإسلام وضوابطه، ولا يقصد به وجه الله وحده.

ومن أوضح ادلة هُذا الاتهام، أنهم لا يتصورون للحكم بغير ما أنزل الله إلا مدلولاً واحداً، هو دون غيره محط تكفيرهم، ألا وهو أن يقضي الحاكم الأعلى في قومه أو شعبه، فيتكذب في حكمه عن شرع الله ﷻ.

أما ما ينجرف فيه عامة الناس في بيوتهم ومع أهلهم أو اصداقائهم أو في مجتمعاتهم، من المعصية ذاتها، إذ يرمون أمورهم أو أمور من يهيمنون عليهم على خلاف شرع الله ﷻ فهؤلاء كلهم مبرؤون عن جريمة الكفر والارتداد ولا يدخلون تحت طائلة الحكم بغير ما أنزل الله!.. لماذا؟.. وكيف انبثق هُذا الفرق؟.. لا ندرى.

وإني لأذكر عهداً مرت على هذه البلدة، تربع فيها على كرسي الحكم، ووزارة العدل، رجال لا نزال نشهد لهم بالدين والإسلام، ويشهد لهم قبلنا، هؤلاء المكفرون أنفسهم، وكانت أفضيتهم وأحكامهم هي هي، كالتي كانت من قبل، والتي استمرت فيما بعد، أحكاماً بغير ما أنزل الله، في أكثر المسائل والأمور، فهلاً حكموا بكفرهم وارتدادهم كحكمهم في حق الذين كانوا قبلهم أو الذين جاؤوا من بعدهم؟ وأي فرق من النقص هنا والفضل هناك، حتى يتهم بالكفر هُذا دون ذاك؟

إن كان المحكم في الأمر هو شريعة الإسلام، وكان رسول الله ﷺ هو الأسوة والقُدوة لنا في الأمر، فإليك خلاصة هديه ﷺ في هذه المسألة: رَوَى الشيخان عن عبادة بن الصامت أنه قال: دعانا النبي ﷺ ، فبايعنا، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومطرنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان.

وَرَوَى مسلم وأحمد وابن ماجه وأبو داود عن أسامة بن زيد، قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك. فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قال قلت يا رسول الله: إنها قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت على قلبه حتى تعلم اقالها أم لا؟ فما زال يكررها، حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.

صح عنه ﷺ أن الله كان قد أعلمه بنفاق المنافقين المتظاهرين بالإسلام بين أصحابه، ومع ذلك فقد كان يأبى إلا أن يعاملهم معاملة المسلمين، ويأخذهم بظاهر أحوالهم.

وقد طلب منه عمر بن الخطاب أن يأذن له بقتل عبد الله بن أبي بن سلول فلم يأذن له. وجاء عبد الله بن أبي بن سلول يستأذن رسول الله ﷺ في قبل أبيه، لما بدّر منه من مظاهر النفاق في غزوة المريسيع، فأبى ﷺ وقال له: بل نترقب به ونحسن صحبته، لهذا كله في حق من أعلمه الله بطوياتهم ودخائل نفوسهم، فكيف بمن لا سبيل لنا إلى اختراق قلوبهم ومعرفة ما استكن فيها مما قد يخالف ظاهرهم؟.

وكان ﷺ يلزم أصحابه إذا حكموا أن يحكموا بما ظهر لهم وأن يكلوا بواطن الأمور إلى الله ﷻ. لهذا كله إلى جانب ما رواه مسلم وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه رضي الله عنهما قال: إذا كفر الرجل أخاه، فقد باء بها أحدهما.

وقد أطل الإمام الشافعي رحمته الله تعالى في كتابه الأم، في بيان هذا الواجب الذي الزم الله به عباده أن يتعاملوا فيما بينهم على أساسه في الحياة الدنيا. وإليك خلاصة ما قاله في ذلك:

(.. إن الله فرض على خلقه طاعة نبيه، ولم يجعل لهم بعد من الأمر شيئاً. وأولى أن لا يتعاطوا حكماً على غيب أحد، لا بدلالة ولا ظن، لتقصير علمهم عن علم أنبيائهم الذين فرض الله تعالى عليهم الوقف عما ورد عليهم، حتى يأتيهم أمره. فإنه جلّ وعزّ، ظاهر عليهم الحجج فيما جعل إليهم من الحكم في الدنيا، بأن لا يحكموا إلا بما ظهر من المحكوم عليه، وأن لا يجاوزوا أحسن ظاهره، ففرض الله على نبيه أن يقاتل أهل الأوثان، حتى يسلموا، وأن يحقن دماءهم إذا أظهروا الإسلام، ثم بين الله ثم رسوله أنه لا يعلم سرائرهم في صدقهم بالإسلام إلا الله ...

أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي عن عبيد الله بن عدي بن الخيار، أن رجلاً سار النبي ﷺ، فلم ندر ما ساره حتى جهر رسول الله ﷺ، فإذا هو يشاوره في قتل رجل من المنافقين. فقال رسول الله ﷺ: أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال بلى، ولا شهادة له. فقال أليس يصلي؟ قال بلى ولا صلاة له. فقال رسول الله ﷺ: أولئك الذين نهاني الله تعالى عنهم.. ثم قال: (وبذلك مَضَّتْ أحكام رسول الله ﷺ فيما بين العباد من الحدود وجميع الحقوق، وأعلمهم أن جميع أحكامه على ما يظهرون، وأن الله يدين بالسرائر.. فمن حكم على الناس بخلاف ما ظهر عليهم، استدلالاً على أن ما أظهروا، يحتمل غير ما أظهروا، بدلالة منهم أو غير دلالة، لم يسلم عندي من مخالفة التنزيل والسنة) [الأم: ١٦٨١٧ و ١٦٩].

وهذا الذي أطال الشافعي رحمه الله بيانه، هو الذي تلاقى عليه إجماع جميع الأئمة وأهل الملة فيما نعلم، لم يشذ عنهم إلا الخوارج.

فليتق الله من يخالف اليوم بيان الله وسنة رسوله وإجماع أئمة المسلمين، لينساق وراء هواه في تكفير من يحلوه تكفيره ممن ظاهرهم الإسلام والانقياد لدين الله ﷻ^(١).



(١) إه من كتاب : هكذا فلندع إلى الإسلام ص: (٧٦ - ٨٩) .

تَعَامَلُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ الْجُدُدِ

كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الناس أشد ما يكون الحرص ؛ حتى خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَدِخٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ٣].

ويقول ﷺ : ﴿ فَلَئِكَ بَدِخٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف ٦]. وقد وصفه الله ﷻ بالحرص على هداية الناس ، فقال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة ١٢٨]. ويمثل لنا رسول الله ﷺ حرصه على نجاة الناس من عذاب الله فيقول : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ ، فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا » (١).

قال ابن بطال في شرح البخاري : هذه أمثال ضربها النبي ﷺ لأمته لينبههم بها على استشعار الحذر ، خوف التورط في محارم الله والوقوع في معاصيه ، ومثل لهم ذلك بما عاينوه وشاهدوه من أمور الدنيا ؛ ليقرب ذلك من أفهامهم ، ويكون أبلغ في موعظتهم ، فمثل ﷺ اتباع الشهوات المؤدية إلى النار بوقوع الفراش في النار ؛ لأن الفراش من شأنه اتباع ضوء النار حتى يقع فيها ،

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ؓ .

فكذلك متبع شهوته يؤول به ذلك إلى العذاب، وشبه جهل راكب الشهوات بجهل الفراش؛ لأنها لا تظن أن النار تحرقها حتى تقتحم فيها.

وكم برقت أسارير وجهه ﷺ؛ فرحاً وسروراً بإشهار رجل إسلامه :

ففي قصة إسلام عدي بن حاتم: فلما رآه رسول الله ﷺ وثب إليه فرحاً، وما عليه رداء حتى بايعه. وكان ﷺ دائماً يدعو ويتوجه إلى الله بالدعاء هداية من يتوسم فيه الخير من الناس؛ ليدخل في الإسلام: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَدَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ يَا جَهْلٍ أَوْ بَعْمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ» (١).

وكان هذا في أول الأمر، ثم خصَّ عمر بالدعاء: فَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَاصَّةً» (٢).

وقد أسلم عمر ابن الخطاب عقب دعوة النبي ﷺ.

وكذلك دعا ﷺ لأم أبي هريرة بالإسلام:

قال أبو هريرة رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمَّيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعْتَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمَّيَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْتِي عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعْتَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ». فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصَرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعْتُ أُمَّيَ خَشْفَ قَدَمِي (٣)، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ (٤)، قَالَ: فَاعْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ دِرْعَهَا وَعَجَلْتُ عَنْ

(١) رواه أحمد والترمذي وابن حبان ..

(٢) رواه ابن حبان ..

(٣) (خشف) أي صوَّقهما في الأرض .

(٤) (خضخضة) خضخضة الماء صوت تحريكه .

خَمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛

قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجِيبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُجِيبَهُمَ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَبْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي^(١).

وكذلك دعا لقبيلة دوس بالهداية للإسلام :

كما رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَدِمَ الطَّمِيلُ وَأَصْحَابُهُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا. فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَنْتَ بِهِمْ»^(٢).
وقد بَوَّبَ عليه البخاري في صحيحه : بابُ الدُّعَاءِ لِلْمَشْرِكِينَ بِالْهُدَى لِيَتَأَلَّفَهُمْ .

وكان رضي الله عنه يحمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى إِسْلَامِهِمْ وَيُفْرِحُ بِذَلِكَ :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه ، أَنَّ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ»^(٣).
ومما يُسْتَأْنَسُ بِهِ فِي ذَلِكَ :

فَعَنْ حُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى قَالَ: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ خَفْتُ خَوْفًا شَدِيدًا فَخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي، وَفَرَّقْتُ عِيَالِي فِي مَوَاضِعَ بِأَمْنُونَ فِيهَا، فَانْتَهَيْتُ إِلَى حَائِطِ عَوْفٍ، فَكُنْتُ

(١) رواه مسلم وغيره ..

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

(٣) رواه أحمد والبخاري وأبو داود ..

فِيهِ فَإِذَا أَنَا بِأَبِي ذَرِّ الْغِفَارِيِّ، وَكَانَتْ بَنِي وَبَيْتُهُ خُلَّةً، وَالْحُلَّةُ أَبَدًا مَانِعَةً، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ هَرَبْتُ مِنْهُ، فَقَالَ: أَبَا مُحَمَّدٍ فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ. قَالَ: مَا لَكَ؟ قُلْتُ: الْخَوْفُ. قَالَ: لَا خَوْفَ عَلَيْكَ أَنْتَ آمِنٌ بِأَمَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَى مَنْزِلِكَ قُلْتُ: هَلْ لِي سَبِيلٌ إِلَى مَنْزِلِي، وَ اللَّهُ مَا أُرَانِي أَصِلُ إِلَى بَيْتِي حَيًّا حَتَّى أُلْفَى فَأُقْتَلَ أَوْ يَدْخُلَ عَلَيَّ مَنْزِلِي فَأُقْتَلَ، وَإِنَّ عِيَالِي لَفِي مَوَاضِعَ شَتَّى.

قَالَ: فَاجْمَعْ عِيَالَكَ فِي مَوْضِعٍ، وَأَنَا أَبْلُغُ مَعَكَ إِلَى مَنْزِلِكَ، فَبَلَغَ مَعِي، وَجَعَلَ يُنَادِي عَلَيَّ أَنْ حَوَيْطِبًا آمِنٌ فَلَا يُجْحُ، ثُمَّ انْصَرَفَ أَبُو ذَرِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «أَوْلَيْسَ قَدْ آمِنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرْتَ بِقَتْلِهِمْ؟» .

قَالَ: فَاطْمَأْنَنْتُ وَرَدَدْتُ عِيَالِي إِلَى مَنَازِلِهِمْ، وَعَادَ إِلَيَّ أَبُو ذَرِّ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ حَتَّى مَتَى؟ وَإِلَى مَتَى؟ قَدْ سَبَقَتْ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا، وَفَاتَكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَبَقِيَ خَيْرٌ كَثِيرٌ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَاسْلِمَ تَسْلَمًا، وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبْرُ النَّاسِ، وَأَوْصَلَ النَّاسِ، وَأَحْلَمَ النَّاسِ شَرْفُهُ شَرْفُكَ، وَعِزُّهُ عِزُّكَ؛

قَالَ: قُلْتُ: فَأَنَا أَخْرَجُ مَعَكَ، فَاتِيهِ فَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْبَطْحَاءِ وَعِنْدَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ ^{رضي الله عنه} فَوَقَفْتُ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَأَلْتُ أَبَا ذَرِّ كَيْفَ يُقَالُ إِذَا سُلِمَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: قُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَقُلْتُهَا، فَقَالَ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ حَوَيْطِبُ» . فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ» ، قَالَ: وَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِسْلَامِي، «وَشَهِدْتُ مَعَهُ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ، وَأَعْطَانِي مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ مِائَةً بَعِيرٍ»^(١) .

وكان عليه السلام يعلمهم الأحكام الشرعية ، ويأمرهم بالتخلص من أدران الجاهلية :
 عن مالك الأشجعي ، عن أبيه ، قال : كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ ، عَلَّمَهُ النَّبِيُّ عليه السلام الصَّلَاةَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ
 يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ، وَارْحَمْنِي ، وَاهْدِنِي ، وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي» ^(١) .
 وَعَنْ عَثِيمِ بْنِ كُلَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، أَنَّهُ جَاءَ النَّبِيَّ عليه السلام فَقَالَ : قَدْ أَسْلَمْتُ ، فَقَالَ : «أَلْقِ
 عَنْكَ شَعَرَ الْكُفْرِ» يَقُولُ : اخْلُقْ ، قَالَ : وَأَخْبَرَنِي آخَرَ مَعَهُ : أَنَّ النَّبِيَّ عليه السلام قَالَ لِآخَرَ : «أَلْقِ عَنْكَ شَعَرَ
 الْكُفْرِ ، وَاخْتِنِ» ^(٢) .

وكان عليه السلام يُقدِّم الدخول في الإسلام على أي أمرٍ آخر :

عن البراء رضي الله عنه يقول : أتى النبي عليه السلام رجل مقنع بالحديد؛ فقال : يا رسول الله ! اقاتل
 واسلم . قَالَ : « أَسْلِمَ ثُمَّ قَاتِلْ » ، فَاسْلَمْ ، ثُمَّ قَاتَلَ ، فَقُتِلَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام : « عَمِلَ قَلِيلًا ،
 وَأَجَرَ كَثِيرًا » ^(٣) . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : كَانَ يَقُولُ : حَدَّثُونِي عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ
 فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ سَأَلُوهُ : مَنْ هُوَ ؟ فَيَقُولُ : أَصِيرٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ .
 قَالَ الْحَصِينُ : فَقُلْتُ لِمَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ : كَيْفَ كَانَ شَأْنُ الْأَصِيرِ ؟

قَالَ : كَانَ يَأْتِي الْإِسْلَامَ عَلَى قَوْمِهِ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام إِلَى أُحُدٍ بَدَأَ لَهُ
 الْإِسْلَامُ فَاسْلَمْ ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ فَعَدَا حَتَّى أَتَى الْقَوْمَ فَدَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ ، فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ
 الْجِرَاحَةُ ، قَالَ : فَبَيْنَمَا رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَهُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ إِذَا هُمْ بِهِ ، فَقَالُوا : وَاللَّهِ
 إِنَّ هَذَا لِلْأَصِيرِ ، وَمَا جَاءَ ؟ لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لَمُنْكَرٌ لِهَذَا الْحَدِيثِ ، فَسَأَلُوهُ مَا جَاءَ بِهِ ؟ قَالُوا : مَا
 جَاءَ بِكَ يَا عَمْرُو ، أَحَدَبًا ^(٤) عَلَى قَوْمِكَ ، أَوْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ ؟

(١) رواه مسلم وأبو داود .

(٢) رواه أحمد وأبو داود ..

(٣) رواه البخاري ..

(٤) والحدب : العطف والحنؤ .

قَالَ: بَلْ رَغْبَةٌ فِي الْإِسْلَامِ، آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ سَيْفِي فَعَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، قَالَ: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهُ لِمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

وكان ﷺ حريصاً على ثباتهم على الإسلام، وبعيداً عن كل ما يُنفرهم عنه :
عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْجَدْرِ أَمِنْ الْبَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَلِمَ لَمْ يَدْخُلُوهُ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَ: «إِنَّ قَوْمَكَ قَصَّرَتْ بِهِمِ النَّفَقَةُ». قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قَالَ: «فَعَلَّ ذَلِكَ قَوْمُكَ لِيَدْخُلُوا مِنْ شَاءُوا، وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْ أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثٌ عَاهَدُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكَرَ قُلُوبُهُمْ، لَنَظَرْتُ أَنْ أُدْخَلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أَلْزِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ»^(٢).
وفي رواية لأحمد في المسند: «.. وَلَوْ أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثٌ عَاهَدَ بِجَاهِلِيَّةٍ فَأَخَافُ أَنْ تُنْكَرَ قُلُوبُهُمْ لَنَظَرْتُ أَنْ أُدْخَلَ الْحِجْرَ فِي الْبَيْتِ وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ» .

وكان ﷺ يتألف من أسلم منهم بالمال والمعاملة الحسنة، ليكون ذلك سبباً لثباتهم على الإسلام :
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ عَتَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ^(٣).

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، قَالَ: «لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَإِنَّهُ لِمَنْ أَبْغَضِ النَّاسِ إِلَيَّ فَمَا زَارَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ»^(٤).

وَعَنْ أَنَسِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي أُعْطِي قُرَيْشًا أَتَأَلَّفُهُمْ لِأَنَّهُمْ حَدِيثٌ عَاهَدَ بِجَاهِلِيَّةٍ»^(١).

(١) رواه أحمد، وهو في "السيرة النبوية" لابن هشام ٩٠/٢ عن ابن إسحاق، ب هذا الإسناد.

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم وغيره ..

(٤) رواه ابن حبان ..

وكان يُبشِّرهم على أعمال الخير التي كانوا يعملونها في الجاهلية بالمشوبة والأجر :

فمن عروة ابن الزبير أن حكيم بن حزام رضي الله عنه أعتق في الجاهلية مائة رَقَبَةٍ، وحمل على مائة بَعِيرٍ، فلَمَّا أسْلَمَ حمل على مائة بَعِيرٍ، وأعتق مائة رَقَبَةٍ ؛

قَالَ: فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ كُنْتُ أَتَحْتُّ بِهَا - يَعْنِي أَتَبَرَّرُ بِهَا - ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَسَلِمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ لَكَ مِنْ خَيْرٍ »^(٢).

وكان ﷺ يأمرهم بتبليغ ما تعلموه إلى من وراءهم من قومهم :

عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ اللَّيْثِيِّ قَالَ: أَتَيْتَا النَّبِيَّ ﷺ وَنَحْنُ شَبِيهَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ نَحْوًا مِنْ عَشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أَوْ قَدْ اشْتَقْنَا، سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا؟ فَأَخْبَرْنَاهُ، قَالَ: « ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ [فَلْيُصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدَكُمْ، وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ] »^(٣).



(١) رواه البخاري ومسلم ..

(٢) رواه البخاري ومسلم ..

(٣) رواه البخاري ومسلم ..

تَعَامَلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ مَنْ مِنْ يَدِ قَتْلِهِ

وصلت الرحمة والأخلاق بالحبیب المصطفى ﷺ إِلَى درجات عظيمة وهي : عفوهُ عن من يريد قتله ومسامحته إياه وذلك في غاية الأخلاق والكرم ، وقد وردت في ذلك نِزَاجٌ عديدة تبين لنا كيفية تعامله ﷺ مع من يريد قتله فمن ذلك : -

لَمَّا تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ورسول الله ﷺ متبذ تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون - في غداة فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف صلتاً في يده فقال : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « الله » .

فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « مَنْ يَمْنَعُكَ عَنِّي ؟ » قَالَ : كُنْ خَيْرَ آخِذٍ ، قَالَ : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ » قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي أَعَاهِدُكَ أَنْ لَا أَقَاتِلَكَ ، وَلَا أَكُونُ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ ، فَرَجَعَ ، فَقَالَ : جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ (١) .

وفي روايةٍ أخرى - خرج رسول الله ﷺ في غزوة ناحية بلاد "نجد" من أرض الحجاز، وفي طريق عودته ﷺ من تلك الغزوة مرَّ بوادٍ به شجر كثير الشوك، في وقت الظهيرة، فأمر رسول الله ﷺ الجيش بالتوقف في هذا المكان لينالوا قسطاً من الراحة، فنام الجيش، ونام رسول الله ﷺ تحت ظل شجرة كثيرة الأوراق وقد علق بها سيفه، وبعد فترة نادى رسول الله ﷺ عَلَى المسلمين فاجتمعوا حوله ﷺ ، فإذا برجل أعرابي يجلس أمامه فقال رسول الله ﷺ إن هذا الرجل أخذ

(١) رواه أحمد و الحاكم في المستدرک وقال لهذا حديث صحيح عَلَى شرط الشيخين و لم يخرجاه .

سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وسيفي في يده، فقال لي : من يمنعك مني؟! (أي من يمنعني من قتلك الآن) ، فقال رسول الله ﷺ (في ثبات عظيم وثقة وإيمان بالله) : الله، فارتعد الأعرابي بشدة، ووقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، وقال له : من يمنعك مني ؟ فقال الرجل لا أحد، ولم يقابل النبي الكريم ﷺ إساءة هَذَا الأعرابي له بمثلها، بل عفا عنه فأسلم الرجل، وعاد إِلَى قومه، وأخبرهم بخلق النبي ﷺ ، وجميل عفوه وصفحه فأسلم معه خلق كثير .

موقفه ﷺ من عُميرِ بنِ وَهَبٍ ، لَمَّا أَرَادَ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ :

عن عروة بن الزبير رضي عنه قال : وَلَمَّا رَجَعَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَّةَ مِنْ بَدْرٍ ، وَقَدْ قَتَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَتْلِهِمْ مِنْهُمْ ، أَقْبَلَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ حَتَّى جَاءَ إِلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ فِي الْحِجْرِ ، فَقَالَ صَفْوَانُ : قَبِّحَ اللَّهُ الْعَيْشَ بَعْدَ قَتْلِ بَدْرٍ ، فَقَالَ عُمَيْرُ : أَجَلٌ ، وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ بَعْدُ ، وَلَوْلَا دَيْنٌ عَلَيَّ لَا أَجِدُ لَهُ قِضَاءً وَعِيَالِي وَرَائِي لَا أَجِدُ لَهُمْ شَيْئًا ، لَدَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَلَقَيْتُهُ ، أَنْ مَلَأْتُ عَيْنِي مِنْهُ ، فَإِنَّ لِي عِنْدَهُمْ عِلَّةٌ أَقُولُ : قَدِمْتُ عَلَى ابْنِي هَذَا الْأَسِيرِ .

ففرح صفوان بقوله ، فقال : عَلَيَّ دَيْنُكَ ، وَعِيَالُكَ أَسْوَأُ عِيَالِي فِي النِّفْقَةِ ، إِنْ يَسْعُنِي شَيْءٌ وَنَعَجَزُ عَنْهُمْ ، فَحَمَلَهُ صَفْوَانٌ وَجَهَّزَهُ بِسَيْفِ صَفْوَانَ ، فَصُقِلَ ، وَسُمِّ ، وَقَالَ عُمَيْرٌ لَصَفْوَانَ : أَكْتُمْنِي لِيَالِي .

فأقبل عميرٌ حتى قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، فَزَلَّ بِابِ الْمَسْجِدِ ، وَعَقَلَ رَاحِلَتَهُ ، وَأَخَذَ السَّيْفَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي عنه وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، يَتَحَدَّثُونَ عَنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، وَيَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ، فَلَمَّا رَأَى عُمَيْرُ عَمِيرَ بْنَ وَهَبٍ ، مَعَهُ السَّيْفُ ، فَزَعَّ مِنْهُ ، فَقَالَ : عِنْدَكُمْ الْكَلْبُ ، هَذَا عَدُوُّ اللَّهِ الَّذِي حَرَّشَ بَيْنَنَا ، وَحَزَرَنَا لِلْقَوْمِ ، فَقَامَ عَمْرٌ فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : هَذَا عَمِيرُ بْنُ وَهَبٍ ، قَدْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ مَعَهُ السَّلَاحُ ، وَهُوَ الْفَاجِرُ الْغَادِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا تَأْمَنَّهُ ، قَالَ : (أَدْخَلُهُ عَلَيَّ) ، فَدَخَلَ عَمْرٌ وَعُمَيْرٌ ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ يَحْتَرِسُوا مِنْ عَمِيرٍ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ ، فَأَقْبَلَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي عنه وَعَمِيرُ بْنُ وَهَبٍ ، فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَمَعَ

عَمَرَ سَيْفَهُ ، فقال رسول الله ﷺ لِعُمَرَ : (تَأَخَّرَ عَنْهُ) فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ حَيَّاهُ عُمَيْرٌ : أَنْعَمَ صَبَاحاً . وَهِيَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ . فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله عز وجل عن تحيتك وجعل تحيتنا السَّلَامَ ، وهي تحية أهل الجنة ، فقال عمير : إِنَّ عَهْدَكَ بِهَا لِحَدِيثٌ ، قال رسول الله ﷺ : (قد بدلنا لله خيراً منها ، فَمَا أَقْدَمَكَ يَا عُمَيْرُ ؟ قال : قَدِمْتُ فِي أُسِيرِي عِنْدَكُمْ ، فَقَارِبُونِي فِي أُسِيرِي فَإِنَّكُمْ الْعَشِيرَةَ وَالْأَهْلَ ، فقال رسول الله ﷺ : فَمَا بِالِالسَّيْفِ فِي رَقَبَتِكَ ؟ فقال عمير : قَبَّحَهَا اللَّهُ مِنْ سِوْفٍ ، فَهَلْ أَغْنَتْ عَنَا مِنْ شَيْءٍ ؟ أَنَا نَسِيئُهُ ، وَهُوَ فِي رَقَبَتِي حِينَ نَزَلْتُ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ لِي غَيْرَةً ، فقال رسول الله ﷺ : اصْدُقْنِي مَا أَقْدَمَكَ ؟ قال : مَا قَدِمْتُ إِلَّا فِي أُسِيرِي ، فقال رسول الله ﷺ : فَمَا شَرَطْتَ لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ الْجُمَحِيِّ فِي الْحَجْرِ ؟ فَفَزَعَ عُمَيْرٌ ، وَقَالَ : مَاذَا اشْتَرَطْتَ لَهُ ؟ قال : تَحَمَّلْتَ لَهُ بِقَتْلِي عَلَى أَنْ يَعُولَ بَنِيكَ ، وَيَقْضِي دَيْنَكَ ، وَاللَّهِ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فقال عميرٌ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُكَذِّبُكَ بِالْوَحْيِ ، وَبِمَا يَأْتِيكَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الَّذِي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَفْوَانَ فِي الْحَجْرِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهِ ، فَأَمَنْتَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَاقَنِي هَذَا الْمَقَامَ ، فَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ هَدَاهُ اللَّهُ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه : لَخَسَنَ زَيْرٌ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ حِينَ اطَّلَعَ ، وَلَهُوَ الْيَوْمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَعْضِ بَنِييَ ، فقال رسول الله ﷺ : اجلس نُوَاسِكَ ، وَقَالَ : عَلِّمُوا أَخَاكُمْ الْقُرْآنَ ، وَأَطْلِقْ لَهُ أُسِيرَهُ ، وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَدْ كُنْتُ جَاهِداً مَا اسْتَطَعْتُ عَلَى إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَاقَنِي هَذَا الْمَسَاقَ ، فَلْتَأَذَنْ لِي فَالْحَقُّ بِقُرَيْشٍ ، فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، لَعَلَّ اللَّهُ يَهْدِيهِمْ ، وَيَسْتَنْقِذُهُمْ مِنَ الْهَلَكَةِ ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَحِقَ بِمَكَّةَ .

وَجَعَلَ صَفْوَانُ يَقُولُ لِقُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ : أَبْشُرُوا بِفَتْحِ يُنْسِيَكُمْ وَقَعَةَ بَدْرٍ ، وَجَعَلَ يَسْأَلُ كُلَّ رَاكِبٍ قَدِمَ مِنَ الْمَدِينَةِ ، هَلْ كَانَ بِهَا مِنْ حَدَثٍ ؟ وَكَانَ يَرْجُو مَا قَالَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، فَسَأَلَ صَفْوَانَ عَنْهُ ، فَقَالَ : قَدْ أَسْلَمَ ، فَلَقِيَهُ الْمُشْرِكُونَ فَقَالُوا : قَدْ صَبَأَ ، وَقَالَ صَفْوَانُ : إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ لَا أَنْفَعَهُ بِنَفْقَةٍ أَبَداً ، وَلَا أَكَلَمَهُ مِنْ رَأْسِ كَلِمَةٍ أَبَداً ، وَقَدِمَ عَلَيْهِمْ عُمَيْرٌ ،

وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَنَصَحَ لَهُمْ ، فَأَسْلَمَ بَشَرٌ كَثِيرٌ ^(١) .

في فتح مكة :

وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ أَرَدْتُ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ هُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ قَالَ: أَفْضَالُهُ؟ قُلْتُ نَعَمْ، قَالَ (مَا كُنْتُ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟) قلت: لا شيء، فَضَحِكَ وَاسْتَغْفَرَ لِي وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي فَسَكَنَ قَلْبِي، فَوَاللَّهِ مَا رَفَعَهَا حَتَّى مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ، ^(٢) .

وَيُرَوَى أَنَّ شَيْبَةَ بْنَ عَثْمَانَ الْحَجَبِيَّ أَدْرَكَهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَكَانَ حِمْرَةً قَدْ قَتَلَ أَبَاهُ وَعَمَّهُ فَقَالَ الْيَوْمَ أَدْرِكُ نَارِي مِنْ مُحَمَّدٍ فَلَمَّا اخْتَلَطَ النَّاسُ أَتَاهُ مِنْ خَلْفِهِ وَرَفَعَ سَيْفَهُ لِيَضِبَهُ عَلَيْهِ قَالَ فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ ارْتَفَعَ إِلَيَّ سُوَاطِظٌ مِنْ نَارٍ أَسْرَعُ مِنَ الْبَرْقِ فَوَلَّيْتُ هَارِبًا وَأَحْسَسَ بِي النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَانِي فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي وَهُوَ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ فَمَا رَفَعَهَا إِلَّا وَهُوَ أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ وَقَالَ لِي اذْنُ فَقَاتِلْ فَتَقَدَّمْتُ أَمَامَهُ أَضْرِبُ بِسَيْفِي وَأَقْبِهِ بِنَفْسِي وَلَوْ لَقَيْتَهُ أَبِي تِلْكَ السَّاعَةَ لَأَوْقَعْتُ بِهِ دُونَهُ ^(٣) .

وفي رواية أيضاً ذكرها ابن سعد في طبقاته بسنده إلى أن قال : كان شيبه بن عثمان رجلاً صالحاً له فضلٌ ، وكان يُحَدِّثُ عن إسلامِهِ وما أراد الله بِهِ مِنَ الْخَيْرِ ، ويقولُ : ما رأيتُ أَعْجَبَ مِمَّا كُنَّا فِيهِ مِنْ لُزُومِ مَا مَضَى عَلَيْهِ آبَاءُنَا مِنَ الضَّلَالَاتِ .

ثم يقول : لما كان عام الفتح ودخل رسول الله ﷺ مكة عنوةً ، قُلْتُ : أَسِيرٌ مَعَ قَرِيشٍ إِلَى هَوَازِنَ بِحُنَيْنٍ ، فَعَسَى إِنْ اخْتَلَطُوا أَنْ أُصِيبَ مِنْ مُحَمَّدٍ غُرَّةً فَأَتَارَ مِنْهُ ، فَأَكُونُ أَنَا الَّذِي قُمْتُ بِشَارِ قَرِيشٍ كُلِّهَا ، وَأَقُولُ : لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ أَحَدٌ إِلَّا اتَّبَعَ مُحَمَّدًا مَا تَبِعْتُهُ أَبَدًا ، وَكُنْتُ مُرْصِدًا لِمَا خَرَجْتُ لَهُ ، لَا يَزِدَادُ الْأَمْرُ فِي نَفْسِي إِلَّا قُوَّةً ، فَلَمَّا اخْتَلَطَ النَّاسُ ، اقْتَحَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ بَغْلَتِهِ وَأَصْلَتِ السَّيْفَ ، فَدَنَوْتُ أُرِيدُ مَا أُرِيدُ مِنْهُ ، وَرَفَعْتُ سَيْفِي حَتَّى كِدْتُ أُسَوِّرُهُ ،

(١) رواه الطبراني بالمعجم الكبير . رقم ١١٧ .

(٢) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٨/٤) ، والسيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي (٥٦/٣) .

(٣) من كتاب : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص : (٢٢٣) .

فَرَفَعَ لِي سُوَاطُ مِنْ نَارٍ كَالْبَرْقِ كَادَ يَمْحَشُنِي ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى بَصْرِي خَوْفًا عَلَيْهِ ، وَالتَفْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَادَانِي : يَا شَيْبُ اذْنُ ، فَذَنُوتُ ، فَمَسَحَ صَدْرِي ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ أَعِذْهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ لَهُوَ كَانَ سَاعَتَيْدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ سَمْعِي وَبَصْرِي وَنَفْسِي ، وَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا كَانَ فِيَّ ، ثُمَّ قَالَ : اذْنُ فَقاتِلْ ، فَتَقَدَّمْتُ أَمَامَهُ أَضْرِبُ بِسَيْفِي ، اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَحَبُّ أَنْ أَقِيَهُ بِنَفْسِي وَكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَوْ لَقِيتُ تِلْكَ السَّاعَةَ أَبِي لَوْ كَانَ حَيًّا لَأَوْقَعْتُ بِهِ السَّيْفَ ، فَجَعَلْتُ الزَّمَةَ فِيمَنْ لَزِمَهُ ، حَتَّى تَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ ، وَكُرُّوا كَرَّةً رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَقَرَّبْتُ بَغْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَوَى عَلَيْهَا ، فَخَرَجَ فِي أَثَرِهِمْ حَتَّى تَفَرَّقُوا فِي كُلِّ وَجْهِ ، وَرَجَعَ إِلَى مُعَسْكَرِهِ ، فَدَخَلَ خَبَاءَهُ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، مَا دَخَلَ عَلَيْهِ غَيْرِي حُبًّا لِرُؤْيَاةِ وَجْهِهِ وَسُرُورًا بِهِ ، فَقَالَ : يَا شَيْبُ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ بِكَ خَيْرًا مِمَّا أَرَدْتَ بِنَفْسِكَ ، ثُمَّ حَدَّثَنِي بِكُلِّ مَا اضْمَرْتُ فِي نَفْسِي مِمَّا لَمْ أَكُنْ أَذْكَرُهُ لِأَحَدٍ قَطْ ، قَالَ : فَقُلْتُ فَأَنِي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، ثُمَّ قُلْتُ : اسْتَغْفِرْ لِي ، فَقَالَ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ^(١) .



تَعَامَلُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ الْحَيَوَانَاتِ وَالطَّيُورِ وَالْجَمَادَاتِ

لم تقف رحمة النبي ﷺ عند حدود البشر، بل امتدَّت رحمته لتشمل الحيوانات والجمادات وغيرها، وكانت رحمته وصلت حتَّى للحيوان الذي لا يملك لنفسه في الغالب شيئاً أمام قسوة الإنسان عليه، فقد كان نبينا الرحيم شديد الحرص على ألا تنتهك حقوق الحيوان، رحمة ورفقاً بهذا المخلوق الذي لا حول له ولا قوة أمام قدرة البشر؛

فقد أوصى رسول الله ﷺ بالرفق في ذبح الحيوان والإحسان إليه في ذلك، وقال لمن أضجع شاة وهو يجد شفرته: «أَتُرِيدُ أَنْ تُمَيِّتَهَا مَوْتَاتٍ؟ هَلْ حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضَجِّعَهَا»^(١).

وعن أبي يعلى شَدَّاد بن أوس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ وَلْيُجِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ»^(٢).

رحيم حتَّى في توجيهه لطريقة ذبح الأنعام، لا يريد لها لحظة عذاب واحدة حين تتأمل السكين وهي تسن، بل يريد أن يتم الذبح بلا أدنى تعذيب لهذه الأنعام.

ومن خلال أحاديث النبي ﷺ، يمكن لأي عاقل أن يلمح هذه الدعوة الصريحة للرفق والرحمة بالحيوان؛ فقد رَوَى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «عُدَّتْ أَمْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتَهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتَهَا وَسَقَتَهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتَهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ».

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والحاكم واللفظ له.

(٢) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «بَيْتًا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِنَاءً فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لِأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(١).

يا لِعَظْمَةِ خُلُقِ هَذَا النَّبِيِّ الَّذِي يَعْلَمُنَا كَيْفَ أَنْ امْرَأَةً تُعَذِّبُ بِسَبَبِ عَدَمِ رَحْمَتِهَا، بَيْنَمَا يُغْفَرُ لِرَجُلٍ بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ بِكَلْبٍ.

ويروي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ إِلَى مَكَّةَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ إِلَى الْغَائِطِ أَبْعَدَ حَتَّى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، قَالَ: فَبَصُرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَجَرَتَيْنِ مُتَبَاعِدَتَيْنِ، فَقَالَ: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، اذْهَبْ إِلَى هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ فَقُلْ لَهُمَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَجْتَمِعَا لَهُ لِتَتَوَارَى بِكُمْ».

فَمَشَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاجَتَهُ، ثُمَّ رَجَعَتَا إِلَى مَكَانِهِمَا، فَمَضَى حَتَّى آتَيْنَا أَرْقَةَ الْمَدِينَةِ، فَجَاءَ بَعِيرٌ يَشْتَدُّ حَتَّى سَجَدَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَذْرِفُ عَيْنَاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَاحِبُ هَذَا الْبَعِيرِ؟».

قَالُوا: فَلَانٌ، فَقَالَ: «ادْعُوهُ لِي»، فَأَتَوْا بِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا شَأْنُكَ وَهَذَا الْبَعِيرُ يَشْكُوكَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْبَعِيرُ كُنَّا نَسْنُوهُ عَلَيْهِ مُنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً، ثُمَّ أَرَدْنَا نَحْرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَكَا ذَلِكَ، بِسَمَاءِ جَارِيَتِي مَوْهُ، اسْتَعْمَلْتُمُوهُ عَشْرِينَ سَنَةً حَتَّى إِذَا رَقَّ عَظْمُهُ وَرَقَّ جِلْدُهُ أَرَدْتُمْ نَحْرَهُ، بَعْنِيهِ». قَالُوا: بَلْ هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَّهَ بِهِ مَعَ الظَّهْرِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَجَدَ لَكَ هَذَا الْبَعِيرُ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّجُودِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَسْجُدَ أَحَدٌ لِأَحَدٍ، لَوْ سَجَدَ أَحَدٌ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»^(٢).

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط ..

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه رضي عنه، قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمْرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ، فَجَعَلَتْ تُعْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدِهَا؟ رُدُّوْا وَلَدَهَا إِلَيْهَا».

ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟» قلنا: نحن، قال: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا الرَّبُّ النَّارِ»^(١).

نهادج أيضاً من تعامل النبي ﷺ نسردها في الآتي :

كان ﷺ يرفق بالهرة ، فيطعمها ويسقيها :

عن عائشة رضي عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لها الإناء فتشرب - يعني الهرة - ثم يتوضأ بفضلها^(٢) . وفي رواية سنن أبي داود عن داود بن صالح بن دينار التمار عن أمه : أَنَّ مَوْلَاتَهَا أَرْسَلَتْهَا بِهَرِيَسَةِ إِلَى عَائِشَةَ رضي عنها فَوَجَدَتْهَا تُصَلِّي فَأَشَارَتْ إِلَيْهَا أَنْ ضَعِبِهَا فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَأَكَلَتْ مِنْهَا فَلَمَّا انْصَرَفَتْ أَكَلَتْ مِنْ حَيْثُ أَكَلَتْ الْهِرَّةُ فَقَالَتْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا .

وفي سنن ابن ماجه عن كبشة بنت كعب وكانت تحت بعض ولد أبي قتادة أنها صبت لأبي قتادة ماءً يتوضأ به فجاءت هرة تشرب فأصغى لها الإناء فجعلت أنظر إليه فقال يا ابنة أخي أتعجبين ؟ قال رسول الله ﷺ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ هِيَ مِنَ الطَّوَّافِينَ أَوْ الطَّوَّافَاتِ .

وكان ﷺ ينهى عن تحميل الحيوان فوق طاقته وإجاعته وإيذائه :

فعن ثعلبة ابن مالك وجابر بن عبد الله ويعلى بن مرة وعبد الله بن جعفر قال في قصة الجمل الشارد أو الهائج : وَكَانَ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْحَائِطَ إِلَّا شَدَّ عَلَيْهِ الْجَمْلُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ

(١) باختصار من كتاب نبي الرحمة ص (١١١ - ١١٢) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط .

دَعَاهُ فَوَضَعَ مِشْفَرَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَتَرَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَحَطَمَهُ وَقَالَ: «مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ إِلَّا يَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا عَاصِيِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ» .

ومثله عن عبد الله بن أبي أوفى وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النبي ﷺ سَأَلَهُمْ عَنْ شَأْنِهِ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَبْحَهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُمْ إِنَّهُ شَكِيَ كَثْرَةَ الْعَمَلِ وَقِلَّةَ الْعَلْفِ ، وَفِي رِوَايَةٍ «إِنَّهُ شَكِيَ إِلَى أَنْكُمْ أَرَدْتُمْ ذَبْحَهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَعْمَلْتُمُوهُ فِي شَأْقِ الْعَمَلِ مِنْ صِغَرِهِ» ، فَقَالُوا نَعَمْ (١) .

وَعَنْ يَعْلَى بْنِ مِرَّةٍ الثَّقَفِيِّ ، قَالَ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ رَأَيْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ مِنْهَا: بَيْنَا نَحْنُ نَسِيرٌ مَعَهُ إِذْ مَرَرْنَا بِبَعِيرٍ يُسْنَى عَلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ الْبَعِيرُ جَرَّ جَرًّا وَوَضَعَ جِرَانَهُ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ: «أَيْنَ صَاحِبُ هَذَا الْبَعِيرِ؟» فَجَاءَ ، فَقَالَ: «بِعْنِيهِ» فَقَالَ: لَا ، بَلْ أَهْبُهُ لَكَ .

فَقَالَ: «لَا ، بِعْنِيهِ» قَالَ: لَا ، بَلْ مَهْبُهُ لَكَ ، وَإِنَّهُ لِأَهْلٍ بَيْتٍ مَا لَهُمْ مَعِيشَةٌ غَيْرُهُ .

قَالَ: «أَمَّا إِذْ ذَكَرْتَ هَذَا مِنْ أَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ شَكَا كَثْرَةَ الْعَمَلِ ، وَقِلَّةَ الْعَلْفِ ، فَأَحْسِنُوا إِلَيْهِ» (٢) .

وذكر نحوه الحاكم، في المستدرک، من طريق يعلى. وقال: صحيح ولم يخرجاه. وفي رواية: "إنه جاء وعيناه تذر فان وفي رواية: أنه سجد للنبي ﷺ ، وفي رواية أنه جاء وعيناه تذر فان قال: أتدرون ما يقول؟ زعم أنه خدم موالیه أربعين سنة .

وفي رواية: عشرين سنة حتى كبر فنقصوا من علفه وزادوا في عمله حتى إذا كان لهم غرض أرادوا أن ينحروه غداً .

وفي رواية يعلى: في طريق مكة ، وفي رواية أنه جاء وعيناه تذر فان ، فقال ﷺ لأصحابه: « لا تنحروه وأحسنوا إليه حتى يأتي أجله » (٣) .

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ص: (١٩٨) .

(٢) رواه أحمد والبيهقي وغيرهما ..

(٣) إه من كتاب حياة الحيوان الكبرى للإمام الدميري - (ج ٢ / ص ٥٥٨) .

وكان عليه السلام ينهى عن الوقوف على الدواب وجعلها كراسي :

ففي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن سهل بن معاذ عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : ((اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرُق والأسواق ، فربَّ مركوبة خير من راعيها وأكثر ذكراً لله تبارك وتعالى منه)) .

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي عنه عن النبي ﷺ قال : « إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخَّرها لكم لتبلغنكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم » .

ونهى النبي ﷺ عن تعذيب الحيوانات والطيور وكل شيء فيه روح :

فقد مرَّ أنس بن مالك رضي عنه فرأى غلماناً أو فتياناً نصبوا أمامهم دجاجة ، وجعلوها هدفاً لهم ، وأخذوا يرمونها بالحجارة فقال أنس : نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم . أي تحبس أو تعذب أو تقيّد أو ترمى حتى الموت ^(١) . وعن سعيد بن جبيرة ، قال : مرَّ ابنُ عمر رضي عنهما بفتيانٍ من قريشٍ وقد نصبوا طيراً وهم يرمونه ، وقد جعلوا لصاحب الطير كلَّ خاطئةٍ من نبلهم ، فلما رأوا ابنَ عمر تفرَّقوا ، فقال ابنُ عمر : « من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح عَرَضاً » أي : هدفاً يتدرب عليه ونحو ذلك ^(٢) .

وعن ابن عمر رضي عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لعن الله من مثل بالحيوان » ^(٣) .

قصة حنين الجذع : ويعضد هذه الأخبار حديث أنين الجذع وهو في نفسه مشهور منتشر

والخبر به متواتر قد خرج أهله الصحيح ورواه من الصحابة بضعة عشر ، منهم جابر بن عبد

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم .

(٢) رواه أحمد في المسند ومسلم في صحيحه .

(٣) رواه أحمد والبخاري والنسائي .

الله وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وسهل بن سعد وأبو سعيد الخدري وبريدة وأم سلمة والمطلب بن أبي وداعة كلهم يحدث بمعنى 'هَذَا الْحَدِيثُ قَالَ التِّرْمِذِيُّ :
وَحَدِيثُ أَنَسٍ صَحِيحٌ قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جَذْوَعِ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جَذْعٍ مِنْهَا فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمَنْبَرُ سَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجَذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ .
وَفِي رِوَايَةٍ أَنَسٍ حَتَّى ارْتَجَّ الْمَسْجِدَ بِخَوَارِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ ((سَهْلٌ وَكَثُرَ بَكَاءُ النَّاسِ لَمَّا رَأَوْا بِهِ)) وَفِي رِوَايَةِ الْمَطْلَبِ وَأَبِي ((حَتَّى تَصْدَعُ وَتَنْشِقَ حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَسَكَتَ)) ، زَادَ غَيْرُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنْ هَذَا بَكَى لَمَّا فَتَدَّ مِنَ الذِّكْرِ ، وَزَادَ غَيْرُهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ التَّزِمَهُ لَمْ يَزَلْ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » تَحْزُنًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدُفِنَ تَحْتَ الْمَنْبَرِ ، كَذَا فِي حَدِيثِ الْمَطْلَبِ وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَإِسْحَاقَ عَنْ أَنَسٍ وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عَنْ سَهْلٍ ((فَدَفَنْتُ تَحْتَ مَنْبَرِهِ أَوْ جَعَلْتُ فِي السَّقْفِ)) .

وَذَكَرَ الْإِسْفَرَايِنِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَاهُ إِلَى نَفْسِهِ فَبَجَاءَ يَحْرِقُ الْأَرْضَ فَالْتَزِمَهُ ثُمَّ أَمَرَهُ فَعَادَ إِلَى مَكَانِهِ . وَفِي حَدِيثِ بَرِيدَةَ فَقَالَ يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ « إِنْ شِئْتَ أَرَدَكَ إِلَى الْحَائِطِ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ تَنْبَتَ لَكَ عُرُوقُكَ وَيَكْمَلُ خَلْقُكَ وَيَجِدُّ لَكَ خَوْصٌ وَثَمَرَةٌ وَإِنْ شِئْتَ أَغْرَسَكَ فِي الْجَنَّةِ فَيَأْكُلُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ ثَمَرِكَ » ، ثُمَّ اصْغَى لَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَمِعُ مَا يَقُولُ فَقَالَ : بَلْ تَغْرَسُنِي فِي الْجَنَّةِ فَيَأْكُلُ مِنِّي أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَكُونُ فِي مَكَانٍ لَا أُبْلَى فِيهِ ، فَسَمِعَهُ مِنْ يَلِيهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ فَعَلْتَ ثُمَّ قَالَ : ((اخْتَارَ دَارَ الْبَقَاءِ عَلَى دَارِ الْفَنَاءِ)) .

فَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا بَكَى وَقَالَ يَا عِبَادَ اللَّهِ : الْخَشْبَةُ تَحْنُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَوْقًا إِلَيْهِ لِمَكَانِهِ فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَاقُوا إِلَى لِقَائِهِ ^(١) .

(١) من كتاب: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ص: (١٩٣ - ١٩٤) .

وكما تقدم تعامله مع الحيوانات :

إذا كان الأوربيون يتباهون بالرفق بالحيوان، ويرعون القلط والكلاب، ليس عن رحمة، ولكن من أجل اللعب والتسلية، وإلا فَيَم تفسّر مثلاً مصارعة الثيران التي تسفك فيها دماء ذلك الحيوان المسكين ؛ لاستجلاب المتعة إلى تلك القلوب الخاوية القاسية التي أفسدت الحضارة الحديثة ! أنا لا أدعي أن الرحمة نزعت من قلوب الأوربيين، ولكن ألا يدعو إلى التهمة وسوء الظن رفقهم المزعوم بالحيوان، وظلمهم ووحشيتهم مع بني الإنسان، وأقصد الإنسان في فلسطين والبوسنة والعراق وغوانتنامو وأخواتها! ألا يدعو ذلك إلى سوء الظن بالرفق المزعوم ؟

فقد نهى ﷺ عن تعذيب الحيوان كما تقدم، وأخبر أصحابه عن امرأة دخلت النار بسبب تعذيبها هرة! ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

« دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلَمْ تُطْعِمَهَا ، وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ » (١).

وهذه رحمته ﷺ بجمل :

فعند أحمد وأبي داود بسند صحيح عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : أَرَدَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسْرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أَحَدًا بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَحْلِ ، قَالَ : فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَدَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ :

« مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ » ، فَبَجَاءَ فَنِي مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ :

« أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكِيَ إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِيهِ » ؛

وعند أبي داود وابن خزيمة بسند صحيح عن سهل بن الحنظلية قال : مرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ

لَحِقَ ظَهْرُهُ بِطَنْهِ فَقَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكُبُوهَا وَكُلُّوهَا صَالِحَةً » .

وكان يحذر ﷺ من اتخاذ الدواب والحيوانات لغير الغرض الذي خُلقت من أجله :

فكان ينهى عن إرهاب الحيوان بإيقافه وإطالة الجلوس عليه من غير ضرورة إلى ذلك.

فعند أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ على قوم وهم وقوفٌ على دوابٍ لهم ورواحلٍ فقال لهم « اركبوها سالمةً ودعوها سالمةً ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطُّرق والأسواقِ فربَّ مَرَكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ ». وعند أبي داود والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَبْلُغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ وَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَتَكُمْ ».

وإليك رحمته ﷺ بالحمار ، نعم بالحمار :

هَذَا الحيوان المسكين الذي يُسب ويشتم ويضرب ويجلد دون أن تأخذهم به شفقة، يدافع عنه نبي الرحمة ﷺ ، وليسمع الظلمة الذين شمل جورهم وظلمهم الإنسان والحيوان والطيور وسائر الدواب والهوام، وليتوبوا إلى الله توبة نصوحاً ؛

فعند مسلم وأبي داود واللفظ له عن جابرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ « أَمَا بَلَّغْتُكُمْ أَنِّي قَدْ لَعَنْتُ مَنْ وُسِمَ الْبُهَيْمَةَ فِي وَجْهِهَا أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا ». فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ.

فالرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية ، وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخيمة في هجير الأرض المحرق وبخاصة هذه الأيام والتي البشرية فيها لفي أشد الحاجة إلى هذه الرحمة ونداها وهي حائرة شاردة في متاهات المادية وجحيم الحروب وجفاف الأرواح والقلوب .



تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ ذَوِي الْهَيْئَاتِ وَكِبَارِ الْقَوْمِ

لقد تمثل سمو أخلاق النبي ﷺ في صورٍ عديدةٍ، ومع فئات المجتمع قاطبةً: مسلمهم وكافرهم، غنيهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤوسهم.

ولقد كان لذوي الهيئات والمكانة وكبار القوم والجاه شأنٌ خاص من المعاملة والإكرام والاحترام عند النبي ﷺ.. فهو يُعطي كل ذي حقَّ حَقَّهُ، فلا ينزل كبراء الناس من منازلهم، بل يحفظ لهم مكانتهم الخاصة في أقوامهم، ويأمر بذلك أصحابه كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: (أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم)..

ومن ذلك نماذج في تعامله ﷺ مع ذوي الهيئات وكبار الناس ووجهائهم في الآتي:
لما قدم سعد ابن معاذ سيّد الخزرج رضي الله عنه؛ ليحكم في بني قريظة أمرهم رضي الله عنه أن يقوموا إليه إكراماً له.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد - وقال مسلم: قريباً من المسجد - قال للأَنْصار: قوموا إلى سيّدكم - أو قال: خيركم - فقال: هؤلاء نزلوا على حُكْمِك، فقال: تُقتل مُقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، فقال رسول الله ﷺ: قضيت بحكم الله، وربما قال: بحكم المَلِكِ». ولمسلم: «لقد حكمت فيهم بحكم الله».

وقال مرة: « بحكم الملك »^(١).

وكان النبي ﷺ يحفظ لهم مكانتهم ووجاهتهم في قومهم :

ومثال ذلك في أبو سفيان فقد كان من كبراء قريش ، ثم صار سيدها بعد ذهاب رؤوسها .. فلما أسلم جعل له النبي ﷺ ذكراً عند فتح مكة .

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه : قال : « لما نزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ ، قال العباسُ : قلتُ : والله ، لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنَوَةَ قبل أن يأتوه فيستأمنوه ، إنه لهلاك قريش ، فجلستُ على بغلة رسول الله ﷺ ، فقلتُ : لعلِّي أجدُ ذا حاجة يأتي أهل مكة ، فيُخبرُهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه ، فيستأمنوه ، فإني لأسيرُ [إذ] سمعتُ كلام أبي سفيان ، وبديل بن ورقاء ، فقلتُ : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتي ، فقال : أبو الفضل ؟ قلتُ : نعم ، قال : ما لك فِدَاكَ أبي وأمي ؟ قلتُ : هذا رسول الله ﷺ والناس ، قال : فما الحيلة ؟ قال : فركب خلفي ، ورجع صاحبه ، فلما أصبح غَدوتُ به على رسول الله ﷺ ، فأسلم ، قلتُ : يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيان رجل يحبُّ هذا الفخر ، فاجعلْ له شيئاً ، قال : نعم ، مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلقَ بابَه عليه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، قال : فتفرَّقَ الناسُ إلى دورهم وإلى المسجد ».

وفي رواية مختصراً : « أن رسول الله ﷺ جاءه العباسُ بن عبد المطلب بأبي سفيان بن حرب ، فأسلم بمر الظهران ، فقال له العباسُ : يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيان رجل يحبُّ هذا الفخر ، فلو جعلتَ له شيئاً ؟ قال : نعم ، مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلقَ بابَه فهو آمن »^(٢).

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه أبو داود.

وكان عليه السلام يحرص على دعوتهم إلى الله ، ويطمع في إسلام كبراء القوم ووجهائهم رغبةً في إسلام من وراءهم ، ولذلك كان يوليهم عنايةً خاصةً في الدعوة .

ومن ذلك : انشغاله بدعوة الوليد ابن المغيرة ، وهو من عظماء قريش وكبرائهم ؛ طمعاً في إسلامه .. ومما يدل على حرصه على هداية الناس ، وخاصة الزعماء منهم :

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبي جهل ، أو بعمر بن الخطاب ، قال : وكان أحبهما إليه عمر »^(١) .

ولما اشتد البلاء من قريش على رسول الله ﷺ بعد موت عمه أبي طالب خرج إلى الطائف ، رجاء أن يؤووه ، وينصروه على قومه ويمنعوه منهم حتى يبلغ رسالة ربه .

ودعاهم إلى الله ﻻ ﻳﺮﻯ ﻣﻦ ﻳﺆﻭﻳﻪ ﻭﻻ ﻣﻦ ﻳﻨﺼﺮﻩ ، ﻭﺁﺫﻭﻩ ﺃﺷﺪّ ﺍﻻﺫﻯ ، ﻭﻧﺎﻟﻮﺍ ﻣﻨﻪ ﻣﺎ ﻟﻢ ﻳﻨﻞ ﻣﻦ ﻗﻮﻣﻪ ، ﻓﺄﻗﺎﻡ ﺑﻴﻨﻬﻢ ﻋﺸﺮﺓ ﺁﻳﺎﻡ ، ﻻ ﻳﺪﻋُ ﺍﺣﺪﺍً ﻣﻦ ﺁﺷﺮﺍﻓﻬﻢ ﺇﻻ ﻛﻠﻤﻪ^(٢) .

وذلك : لأن استجابة الأشراف والكبراء لدعوته يتبعها استجابة من وراءهم من الناس والأتباع ..

ومن ذلك أيضاً : دعوته للطفيّل بن عمرو الدوسي ، وهو من سادة قومه .

فعن محمد بن إسحاق بن يسار ، قال : كان الطفيّل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها ، فمشى إليه رجال قريش ، - وكان الطفيّل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً - فقالوا له : إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإننا قوله كالسحر يفرق بين المرء وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإننا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً .

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) زاد المعاد [٣ - ص ٢٣] .

قال : فوالله ما زالوا بي حَتَّى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ، ولا أكلمه حَتَّى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً^(١) ، فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله .

قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة ، فقامت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله .

فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني لرجلٌ لبيبٌ شاعرٌ ، ما يخفى عليّ الحسنُ من القبيحِ ، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته ، قال :

فمكثت حَتَّى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته ، فتبعته حَتَّى إذا دخل بيته دخلتُ عليه فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حَتَّى سددت أذني بكرسف ؛ لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعت قولاً حسناً ، فاعرض عليّ أمرك . فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه . فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي الله إني امرؤ مطاعٌ في قومي ، وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آيةً تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه ، فقال : « اللهم اجعل له آية » .

فخرجت إلى قومي حَتَّى إذا كنت بشيئة تطلعي على الحاضر ، وقع نورٌ بين عيني مثل المصباح فقلت : اللهم في غير وجهي إني أخشى أن يظنوا أنها مثلةٌ وقعت في وجهي ؛ لفراق دينهم ، فتحول فوقع في رأس سوطي كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الشيئة حَتَّى جئتهم فأصبحت فيهم .

فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً ، فقلت : إليك عني يا أبت ، فلست منك ولست مني ،

قال : لم يا بني ؟

(١) وهو القطن .

قلت : أسلمتُ وتابعتُ دين محمد ﷺ ، قال : يا بني ، فديني دينك ، فقلت : فاذهب يا أبتِ فاغتسل وطهر ثيابك ، ثم تعال حتّى أعلمك ما علّمتُ ، قال : فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم .

ثم أتتني صاحبتني فقلت لها : إليك عني فلستُ منك ولست منّي ، قالت : لم ؟ بأبي أنت وأمي ؟ قلتُ : فرّق الإسلام بيني وبينك ، وتابعت دين محمد ﷺ ، قالت : فديني دينك قلتُ : فاذهبي فتطهري ، فاغتسلت ، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فأبطنوا عليّ ثم جئتُ رسول الله ﷺ ، فقلت : يا نبي الله ، إنه قد غلبني علىّ دوس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : « اللهم اهد دوساً ، ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله وارفق بهم » .

قال : فلم أزل بأرض دوسٍ أدعوهم إلى الإسلام حتّى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدرٌ وأحدٌ والخذقُ .

ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ، ورسول الله ﷺ بخير ، فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخير فأسهم لنا مع المسلمين^(١) . وكان ﷺ يفرح بإسلام من أسلم منهم :

فعن ابن شهاب : أن أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، كانت تحت عكرمة بن أبي جهل فأسلمت يوم الفتح بمكة ، وهرب زوجها عكرمة بن أبي جهل من الإسلام حتّى قدم اليمن ، فارتحلت أم حكيم حتّى قدمت عليه باليمن ، فدعته إلى الإسلام ، فأسلم وقدم على رسول الله ﷺ عام الفتح ، فلما رآه رسول الله ﷺ وثب إليه فرحاً ، وما عليه رداءٌ ، حتّى بايعه^(٢) .

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة [٥٠٠ ص ٤٦٠] .

(٢) رواه مالك في الموطأ [١١٥٦] وعبدالرزاق في المصنف ..

قال الباجي : وقوله : ((فلما رآه رسول الله ﷺ وثب إليه فرحاً وما عليه رداءً)) وذلك من حرص النبي ﷺ على دخول الناس في الإسلام وأن هداهم الله تعالى به إلى الإسلام لا سيما من كان من عظماء الناس وأعيانهم ، كعكرمة في قومه ، فإنه كان من سادات بني مخزوم وعظماؤهم ^(١) . وكان ﷺ يظهر لهم الاحترام ، والتقدير ، والاهتمام ، والحفاوة ..

فعن المسور بن مخرمة رضي عنه قال : قَسَمَ رسولُ الله ﷺ ، فلم يُعْطِ مَحْرَمَةً منها شيئاً ، فقال مخرمةُ : يا بُنَيَّ انطلق بنا إلى رسولِ الله ﷺ ، فانطلقتُ معه ، فقال : ادخل ، فادعُهُ لي ، قال : فدعوتُه له ، فخرج وعليه قباء منها ، فقال : خباناً هَذَا لك ، قال : فنظر إليه ، فقال : رَضِيَ مَحْرَمَةٌ . وفي رواية : قال : « قَدِمْتُ عَلَى النبيِّ ﷺ ، فقال أبي مخرمةُ : انطلق بنا إليه ، عَسَى أَنْ يعطينا منها شيئاً ، فقام أبي على الباب ، فتلكم فَعَرَفَ النبيُّ ﷺ صوته ، فخرج النبي ﷺ ومعه قباء ، وهو يريه محاسنةً ، ويقول : خبأتُ هَذَا لك ، خبأتُ هَذَا لك » .

وفي رواية قال : « يا بُنَيَّ ، ادعُ لي النبيَّ ﷺ ، فأعظمت ذلك ، وقلت : أدعوك رسولُ الله ﷺ ؟ فقال : يا بُنَيَّ ، إنه ليس بجبَّار ، فدعوتُه ، فخرج وعليه قباء من ديباج مزرر بالذهب ، فقال : يا مَحْرَمَةٌ ، هَذَا خباناه لك » ^(٢) .

ومن ذلك حُسن إنصاته ﷺ واستماعه لحديثهم :

عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيِّداً حليماً ، قال ذات يوم : وهو جالس في نادي قريشٍ ورسولُ الله ﷺ جالسٌ وحده في المسجد : يا معشر قريشٍ ألا أقومُ إلى هَذَا فاكلّمه فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفُّ عنا؟

وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرُونَ ، فقالوا : بلى ، قم يا أبا الوليد فكلّمه ، فقام عتبة حتّى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي ، إنك متّا حيث قد

(١) المنتقى - شرح الموطأ - (ج ٣ / ص ٣٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، وأخرج الترمذي وأبو داود والنسائي الرواية الأولى ، والثالثة ذكرها رزين .

علمت من السّطّة في العشيرة ، والمكان في النّسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّتهم به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله ﷺ : ((قل يا أبا الوليد أسمع)) .

فقال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا الامر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتّى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطّبّ وبدلنا فيه أموالنا حتّى نبرئك منه ، فإنّه ربما غلب التابع على الرجل حتّى يداوى منه ..

حتّى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال رسول الله ﷺ : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال

: نعم ، قال : فاسمع مني ، قال : افعل ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَم ١ ﴾

تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كُنْتُ فُصِّلْتُ عَائِنْتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ

أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ [فصلت: ١- ٤] . ثم مضى رسول الله ﷺ فقرأها عليه ؛

فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه ثم انتهى رسول

الله ﷺ للسجدة فسجد منها ..

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : ورائي أي والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط ! والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوا ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأً عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم

، وعزّه عزّكم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! فقال : هَذَا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم^(١) .

وكان ﷺ يعتذر لهم ، ويتحمّل منهم ما يصدر عنهم ، بل دعا إلى التجاوز عن أخطائهم : فحثّ النبي ﷺ على التجاوز عمن وقع في هفوة من ذوي الهيئات من المسلمين ؛ لأنه كما قيل : لكل جوادٍ كبوّةٌ ، ولكل عالمٍ هفوةٌ ، وكما قال الشاعر :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه

فالتجاوز عن ذوي الهيئات منهجٌ نبويٌّ ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أقيّلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود »^(٢) .. ((أقيّلوا)) أمر من الإقالة أي : اعفوا . ((ذوي الهيئات)) ، أي : أصحاب المروءات ، والخصال الحميدة ..

وكان ﷺ يكرمهم ويأمر أصحابه بذلك ، ولا يردّهم عن لقاءه :

فمن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : دخل جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه (وكان سيّداً في قومه) على رسول الله ﷺ وعنده أصحابه ، فلم يوسّع له أحد ، فأخذ رسول الله ﷺ رداءه فألقاه إليه ، وقال ((اجلس عليها)) فتلقاه جريرٌ بنحره ووجهه فقبّله ووضع بين عينيه وقال : أكرمك الله كما أكرمتني ثم وضعه على ظهر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : ((من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر ، فإذا أتاه كريم قوم ؛ فليكرمه))^(٣) .

(١) رواه البيهقي في الدلائل (٢ / ٢٠٤) .

(٢) أخرجه أبو داود .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک .

وأيضاً كان ﷺ لا يردهم عن لقائه : فعن جرير ابن عبدالله رضي عنه قال: مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي ، وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ أَنِّي لَا أَتُبْتُ عَلَى الْخَيْلِ ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ : ((اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًا)) (١).

وكان ﷺ يشي على صفات الخير التي فيهم :

وَقَالَ جَرِيرٌ: لَمَّا دَنَوْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ أَنْخَتُ رَاحِلَتِي، ثُمَّ حَلَلْتُ عَيْتِي (٢)، ثُمَّ لَبِسْتُ حُلَّتِي، ثُمَّ دَخَلْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخْطَبُ، فَرَمَانِي النَّاسُ بِالْحَدَقِ (٣)، فَقُلْتُ لَجَلِيسِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ ، ذَكَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ: نَعَمْ ذَكَرَكَ [أَيْنَا] بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُخْطَبُ إِذْ عَرَضَ لَهُ فِي خُطْبَتِهِ، وَقَالَ: ((يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَابِ ، أَوْ مِنْ هَذَا الْفَجِّ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنِ ، إِلَّا أَنْ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةٌ مَلَكَ (٤). قَالَ جَرِيرٌ: فَحَمَدْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا أَبْلَانِي (٥).

فخلاصة تعامله ﷺ مع ذوي الهيئات وكبار القوم هو تعامل راقى وربما دخل النبي ﷺ في جوار بعضهم كما فعل ذلك عندما رجع من الطائف فدخل بجوار المطعم بن عدي .. وكان إذا دعاه بعضهم إلى طعام أجاب دعوته .. وكان يزورهم ويبازحهم ويأكل عندهم ، ويهتم بمرضاهم ويكثر زيارتهم ، ويشاروهم دائماً ، وكان يحفظ لذوي الهيئات جميلهم ويكافئهم عليه ، فعن جبير بن مطعم رضي عنه : قال :

« لَمَّا أَسَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَسَرَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالَ : لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بِنُ عَدِي حَيًّا ، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنِي (٦) ، لَتَرَكْتَهُمْ لَهُ (١) .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

(٢) مستودع الثياب والصندوق الذي يحفظ فيه كل شيء نفيس .

(٣) التحديق : شدة النظر ..

(٤) أثر الجمال ؛ لأنهم يصفون الملائكة بالجمال ، وكان جريراً سيداً مُطَاعاً مليحاً طوالاً بديع الجمال .

(٥) رواه أحمد .

(٦) النتني جمع نتن ، كالزمنى جمع زمن . يُقَالُ: أَتَنَ الشَّيْءُ فَهُوَ مَنْتَنٌ وَمَنْتَنٌ . وَإِنَّمَا خَصَّ الْمُطْعِمَ بِ هَذَا لِأَنَّهُ لَمَّا مَاتَ عَمَهُ أَبُو =

تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْمُلُوكِ وَمَخَاطَبَتْهُمْ

اتجه سيدنا محمد ﷺ إِلَى مخاطبة الملوك لتبليغ الرسالة الإسلامية ، عقب صلح الحديبية ؛ وذلك لأن رسالة رسول الله ﷺ تختلف عن جميع الرسائل السابقة ، بأنها عامة لكل الأمم والشعوب في العالم بأجمعه ، بينما جميع الرسائل السابقة يختص فيها الرسل إِلَى أمتهم فقط ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] . وكانت الإمبراطوريات والدول العظمى في حينه ، المجاورة للجزيرة العربية هي التالية: الإمبراطورية الرومانية، الإمبراطورية الفارسية، الحبشة ، مصر .

اتجه الرسول الكريم ﷺ إِلَى أسلوب التبليغ لقادة الإمبراطوريات العالمية الأربع من خلال رسائل بعث بها إِلَى قادة تلك الإمبراطوريات .

وفي تلك الرسائل ، أشار عليه الصلاة والسلام ، إِلَى أولئك القادة ، بتعريفهم بانبشاق فجر الدعوة الإسلامية ، كما دعاهم إِلَى الإيمان بوحداية الله ، وبأنه رسول الله إليهم وَإِلَى كل العالم وصحح لهم حقيقة رسالة المسيح عيسى عليه السلام ؛ ومن يتمعن كلمات تلك الرسائل يلمس أسلوباً للإنسانية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً ، حَتَّى يومنا هذا ، فلم يهدد الرسول بالويل والثبور وعظائم

=طالِب وَمَاتَتْ خَدِيجَةُ خَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ وَمَعَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، فَأَقَامَ بِهَا شَهْرًا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي جَوَارِ الْمَطْعَمِ بْنِ عَدِي ، فَأَحَبَّ مَكَافَاتِهِ لَوْ أُمِكن .

(١) أخرجه البخاري، وأبو داود.

الأمر، إن رفض أولئك القادة مضمون رسالته ، بل اختار عليه الصلاة والسلام، إِيَّيْ تَرْدِيدَ عِبَارَةِ (نصيحة) في رسالته إِيَّيْ النجاشي ، كما سيأتي ..

أما في رسائله الثلاث الأخرى إِيَّيْ هِرَقْلَ والمقوقس وكسرى، فقد أوضح عليه الصلاة والسلام، بأن عليهم إثم قومهم، إن هم رفضوا دعوته ، معنى ذلك: أن حسابهم عند ربهم وليس عند قوات المسلمين، ولا في معارك عسكرية عَلَى الأرض .

لقد استطاع الرسول ﷺ أن يبلغ دعوة التوحيد إِيَّيْ مملكة فارس، من خلال الرسالة التي بعث بها إِيَّيْ كِسْرَى ، أي أن تبليغ رسالة الإسلام إِيَّيْ غير المسلمين، تبدأ وتنتهي، بالدعوة السلمية والحوار ، لا بالعنف ولا بالسيف ، معنى ذلك : أن هَذَا الأسلوب في نشر الدعوة ، وأن لم يترتب عليه إعلان هِرَقْلَ قبوله بها، فإنه أسهم و إِيَّيْ حِدٍ بعيد، في إحداث هزة عقلية، وعقائدية لدى هِرَقْلَ ، كما أحدثت جدلاً في أوساط حاشية هِرَقْلَ ، والمعجزة بأن هذه الأمبراطوريات قد أراد الله لها أن تكون دول إسلامية بدعوتهما من الرسول وبأن تفتح بعد موت الرسول لمنع هيمنة الروم الغزاة عَلَى بلاد الشام وَعَلَى مصر فيما بعد ؛

والمعجزة هي : إبلاغ الرسائل للبلاد التي ستدخل الإسلام ومعرفة الرسول بذلك فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّكُمْ سَتَنْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَيْرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» أَوْ قَالَ «ذِمَّةً وَصِهْرًا» .

وفي رواية لأبي ذرٍ أيضاً يقول : قال النبي ﷺ : «إِنَّكُمْ سَتَنْتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقَيْرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا حَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» ، قال حرملة : ((يعني بالقيراط : أن قبض مصر يسمون أعيادهم ، وكل مجمع لهم القيراط ، يقولون : نشهد القيراط))^(١).

قال العلماء: الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل منهم ، و (الصهر) : كون مارية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ منهم .

بداية الرسائل :

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمته في كتابه : [خاتم النبيين] اتفق علماء السيرة والصحاح على أن الإرسال إلى الملوك والأمراء كان بعد الحديبية وقبل فتح مكة ، ثم يقول : ((والذي نختاره أيضاً أن بعض الرسائل كان بعد عمرة القضاء وقبل غزوة مؤتة)) .

وقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ كتب قبل مؤتة إلى كِسْرَى وقِصْر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الإسلام .

ويذكر الشيخ العلامة محمد سعيد رمضان البوطي رحمته في كتابه : فقه السيرة ، نقلاً عن ابن سعد في طبقاته أن الرسول ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست من الهجرة، أرسل الرسائل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً، ف قيل : يا رسول الله إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا محتوماً، فانخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة نقشه ثلاثة أسطر : محمد ، رسول ، الله ، وختم الكتب به، فخرج ستة نفر في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع من الهجرة، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم .

ويذكر أبو زهرة أن جملة رسائل الرسول ﷺ سبع وهي :

- ١ - رسالته إلى هرقل عظيم الروم .
- ٢ - رسالته إلى كِسْرَى ملك الفرس .
- ٣ - رسالته إلى النجاشي ملك الحبشة .
- ٤ - رسالته إلى المقوقس عظيم القبط .
- ٥ - رسالته إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين .
- ٦ - رسالته إلى ابني الجلندي ملك عمان .

٧ - رسالته إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة.

رسالته ﷺ إلى ملك الحبشة :

فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ هو عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فأخذ النجاشي كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينه، ونزل من سريره، فجلس على الأرض تواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال: لو كنت أستطيع أن آتبه لأتيته.

نَصُّ الرِّسَالَةِ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصخمي ملك الحبشة، سلم أنت، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته، وأن تتبعتني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى.

استجاب النجاشي وأعلن إسلامه وبعث رسالة بذلك إلى النبي الكريم ﷺ، ولما قرئت الرسالة على مسامع النبي الكريم ﷺ، قال عبارته المأثورة: «اتركوا الحبشة ما تركوكم»^(١). معنى ذلك، أن الرسول ترك مملكة الحبشة، بعد أن أسلم ملكها، دون أي اندماج بينها وبين دولة المسلمين، بل دون أي تعديل في هيكلية مؤسسات تلك المملكة.

رسالته ﷺ إلى هرقل ملك الروم:

وبعث رسول الله ﷺ، دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم، فدفع دحية بكتاب الرسول إلى عظيم بصرى، ومنه إلى هرقل، فقرأه هرقل، وبعد أن قرأ الكتاب قال لجمع من

(١) أخرجه أحمد والحاكم وأبو داود ..

عظمائهم وحاشيتهم: يا معشر الروم: هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت لكم ملككم وتتبعوا ما قال عيسى بن مريم؟ قالت الروم: وما ذاك أيها الملك؟ قال: تتبعون هذا النبي العربي، فحاصوا حيصة حُمُر الوحش، وتناجزوا ورفعوا الصليب، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخاف على نفسه وملكه، فسكتهم وقال: إنما قلت لكم ما قلت لأختبركم ولأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحببت فسجدوا له.

استشار هرقل أحد المطلعين على الكتب المقدسة والكهنة، فأكدوا له أن محمداً هو النبي المنتظر، قال هرقل لدحية الكلبي حامل الرسالة إليه: والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظر، ونجده في كتبنا، ولكن أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته.

نَصُّ الرِّسَالَةِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين،

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ٦٤].

رَوَى الواقدي أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، مع شجاع بن وهب، وأورد نصه، وقد امتعض الحارث ولم يوافق على الإسلام وحشد قواته للزحف على المدينة، ولكن هرقل تدخل ودعاه إلى إيلياء - بيت المقدس.

رسالته ﷺ إلى كِسْرَى ملك الفرس:

وبعث الرسول ﷺ عبد الله بن حذافة إلى كِسْرَى يدعوهُ إلى الإسلام وأرسل معه كتاباً، قال: فدفعت إليه الكتاب فقرأه عليه ثم أخذه ومزقه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «مَرَّقَ اللهُ مُلْكَهُ»، ثم كتب كِسْرَى إلى باذان عامله باليمن أن ابعث رجلين جليدين إلى هذا الرجل،

واكتب إليه معها كتاباً، فقدمها المدينة ودفعها كتاب باذان إلى النبي ﷺ ، فتبسم رسول الله وقال: ارجعوا عني يومكما هَذَا حَتَّى تَأْتِيَانِي الْغَدَ فَأَخْبِرْ كَمَا بَأَ أُرِيدُ، فجاءاه في الغد فقال الرسول ﷺ لهما: أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كِسْرَى في هذه الليلة لسبع ساعات منها، وأن الله سلط عليه ابنه شيرويه فقتله فرجعاً إلى باذان بذلك فأسلم هو والأبناء الذين باليمن .

نَصُّ الرِّسَالَةِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

من محمد رسول الله إلى كِسْرَى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِأَنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُحِقُّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، فَإِنِ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ .

رد كِسْرَى على الرسالة بموقف دل على حقه وكرهيته للإسلام، وذلك بأن مزق الرسالة المحمدية بغضب وغطرسة واستكباراً، بل تمادى استكباره بأن أرسل إلى ملك اليمن الخليف له، يطلب فيها منه، أن يأسر محمداً ويرسله إليه، (إلى كِسْرَى) .

لم يصدر عن الرسول الكريم أي تهديد بالرد العسكري، ضد كِسْرَى ومملكته، حين تناهى إليه - إلى الرسول - رد كِسْرَى ، وهذا يعني بكل وضوح، أن الرسول ﷺ كان يهيمه تبليغ الدعوة، إلى جانب عدم إهدار الطاقات الإسلامية البشرية في الدولة الوطنية الإسلامية.

لقد استطاع الرسول ﷺ أن يُبَلِّغَ دعوة التوحيد إلى مملكة فارس، من خلال الرسالة التي بعث بها إلى كِسْرَى ، أي أن تبليغ رسالة الإسلام إلى غير المسلمين تبدأ وتنتهي بالدعوة السلمية والحوار، لا بالعنف ولا بالسيف.

رسالة الرسول ﷺ للمقوقس حاكم مصر:

نَصُّ الرِّسَالَةِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

من محمد رسول الله إِلَى الموقوس عظيم القبط، سلامٌ عَلَى من اتبع الهدى، أما بعد ..

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجره مرتين، فإن توليت فإن

عليك إثم القبط: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ ﴿ [آل عمران ٦٤].

رد الموقوس عَلَى كتاب رسول الله وذلك بعد عدة لقاءات مع حاطب بن أبي بلتعة، حامل

الرسالة النبوية إِلَى الموقوس، الذي شرح خلالها مبادئ الإسلام، وأسس رسالة التوحيد إِلَى

الموقوس، ونبوة الرسول الكريم ودلالاتها، كتب الموقوس إِلَى الرسول محمد ﷺ بالرسالة

التالية: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لمحمد بن عبد الله من الموقوس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وقد كنت أظن

أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وكسوة،

وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك.

كان رد الموقوس أن أمر بمعاملة حامل الرسالة النبوية إليه، بمنتهى الأدب، فهو لم يدخل في

دين الإسلام، كما لم يتصرف بالتهديد والوعيد، عَلَى العكس من ذلك، عبر عن احترامه للرسول

ﷺ، وللدعوة الجديدة، وبأنه يعلم بأن نبياً قد بقي وعبر عن ذلك برسالته إِلَى الرسول الكريم،

كما بعث بهدية عبارة عن جاريتين إحداهما مارية القبطية، وكان إهداء جارية في ذلك العصر دليل

التقدير والاحترام، ولقد تعامل سيدنا محمد ﷺ مع (هدية) الموقوس، بالمبادئ النبوية

الإسلامية، وهو أن تزوج من مارية، كما تزوج الصحابي حسان بن ثابت الجارية الثانية، وتُدعى

شيرين. وهذا الرد المحمدي عَلَى هدية الموقوس، يمثل قمة التعامل الإنساني الذي يجسد عظمة

المبادئ الإسلامية في الحياة الدنيوية.

لم يتعامل الرسول محمد ﷺ مع مارية القبطية، معاملة متعة، أو (هدية) ، بل أدخلها إلى نسبه، وأعطها اسمه الكريم حين جعلها زوجة له ، كذلك فعل حسان بن ثابت مع الجارية الثانية.

كما نجد رسول الله ﷺ كذلك يُكرم رسولي كِسْرَى مع كونها جاء برسالة غير مقبولة من كِسْرَى عظيم فارس، ليأخذ رسول الله ﷺ من قعر داره بالمدينة إليه، ومع ذلك فلم يخرج رسول الله عن هدوئه وأدبه ورقة طباعه ، بل وكان يُكرم كل الوفود التي تأتي إلى المدينة المنورة بصرف النظر عن الموقف السياسي والديني الذي يُتَوَقَّع من هذه الوفود، وكان لرسول الله اهتمام خاص بالوفود : (استقبلاً وضيافةً وتجمُّلاً وجوائز) ، فكان يُجري عليهم الضيافة، ويُحسن استقبالهم، ويسائلهم ويردّد عليهم، ويلبس أحسن الثياب لاستقبالهم ، كما خصّص لهم رسول الله ﷺ بعض الديار لاستقبالهم كما جاء عند استقباله لوفد سلامان ، حيث قال لثوبان غلامه : « أَنْزِلْ هَؤُلَاءِ الْوَفْدَ حَيْثُ يَنْزِلُ الْوَفْدُ » ، فمن الواضح هنا أن هؤؤلاء الوفود داراً مخصصة لهذا الأمر، كما حدث مع وفود كلاب، ومحارب، وعذرة، وعبد قيس، وتغلب، وغسان، وغيرهم .. وكان من عادة رسول الله أن يُجْمَلَ هذه الوفود بالهدايا والجوائز، وكثيراً ما تكون هذه الجوائز من الفضة.

قبول رسول الله ﷺ الهدايا :

وفي المقابل كان النبي ﷺ يقبل الهدايا من الدول غير الإسلامية إمعاناً في التآلف والمودة، ولا سيما إن لم يكن من جانبهم غدر أو قتال ؛ كما فعل رسول الله مع هدايا المقوقس عظيم قبط مصر .

تعاملاته ﷺ مع النجاشي:

ومن أعظم صور حسن تعاملات رسول الله في حياته ما فعله مع النجاشي ملك الحبشة بداية من مدح رسول الله له قائلاً لأصحابه « إِنَّ بَارِضَ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظَلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ».

ثم مرورًا بإقرار رسول الله بوكالة النجاشي - رغم بقاءه في ذلك الوقت على دينه على ما يبدو للسيدة أم حبيبة رضي الله عنها، والتي تنصّر زوجها عبيد الله بن جحش في الحبشة، فأراد رسول الله أن يكافئها بزواجه إياها، فزوّجها إياه النجاشي ومهرها أربعة آلاف، ثمّ جهّزها من عنده، فبعث بها إلى رسول الله مع شرحبيل بن حسنة، وجهازها كلّها من عند النجاشي، ولم يرسل إليها رسول الله صلّى الله عليه وآله بشيءٍ ..

كل ذلك يجعلنا نتفهّم طبيعة العلاقة بين النبي صلّى الله عليه وآله في المدينة وبين النجاشي في الحبشة؛ فلقد كانت العلاقات -على ما تؤكده هذه الواقعة- من القوة والمتانة والقرب بمكان، بل يمكن أن نلاحظ أنّ العلاقة بين الجانبين لم تكن على المستوى السياسي أو الدبلوماسي الظاهري، بل كانت أعمق من هذا بكثير، وهو ما يؤكده جواب النجاشي لرسول الله صلّى الله عليه وآله بقوله: قد زوجتك امرأة من قومك، وهي على دينك أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديت لك هدية جامعة قميصاً، وسراويل، وخُفّين ساذجين، وانتهاءً بالرسالة التي أرسلها رسول الله صلّى الله عليه وآله له في نهاية العام السادس من الهجرة وبداية العام السابع يدعوه فيها إلى الإسلام، ويحذّره من آثار الشرك وعواقبه ..

هذا طرف من معاملات رسول الله صلّى الله عليه وآله مع الدّول غير المسلمة، والتي تؤكّد عمق تفهّم رسول الله صلّى الله عليه وآله لطبيعة هذه الدول، ومعاملته الرائعة في إنزال الناس منازلهم .



تَعَامُلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مَعَ ذَوِي الْاِحْتِيَاجَاتِ الْخَاصَّةِ

أخيراً التفت العالم المتحضر في هذا القرن إلى ذوي الاحتياجات الخاصة!! بعدما نحى جانباً نظريات عنصرية، فاسدة، تدعو إلى إهمالهم، بزعم أن هؤلاء - أمثال الصُّم والبُكم والعمي والمعاقين ذهنياً - لا فائدة منهم ترمى للمجتمع.. ولقد قدّرت منظمة العمل الدولية في تقرير لها عام (٢٠٠٠م) عدد ذوي الاحتياجات الخاصة بأكثر من (٦١٠) ملايين نسمة، منهم (٤٠٠) مليون نسمة في الدول النامية، وفي تقرير للبنك الدولي، تمثل هذه الفئة ١٥٪ تقريباً من نسبة السكان في كل دولة من دول العالم.

وإذا نظرنا - سريعاً - إلى تاريخ الغرب مع ذوي الاحتياجات الخاصة، نجد مجتمعات أوروبا القديمة، كروما وإسبرطا قد شهدت إهمالاً واضطهاداً صارخاً لهذه الفئة من البشر، فلقد كانت هذه المجتمعات - حكماً وشعباً - تقضي بإهمال أصحاب الإعاقات، وإعدام الأطفال المعاقين. وكانت المعتقدات الخاطئة والخرافات هي السبب الرئيسي في هذه الانتكاسة، فكانوا يعتقدون أن المعاقين عقلياً هم أفراد تقمصتهم الشياطين والأرواح الشريرة.

وتبنّى الفلاسفة والعلماء الغربيون هذه الخرافات، فكانت قوانين (ليكورجوس) الإسبرطي (سولون) الأثيني تسمح بالتخلص ممن بهم إعاقة تمنعه عن العمل والحرب، وجاء الفيلسوف الشهير (أفلاطون) وأعلن: أن ذوي الاحتياجات الخاصة فئة خبيثة وتشكل عبئاً على المجتمع، وتضر بفكرة الجمهورية.. أما (هيربرت سبنسر) فقد طالب المجتمع بمنع شتى صور المساعدة لذوي الاحتياجات الخاصة، بزعم أن هذه الفئة تثقل كاهل المجتمع بكثير من الأعباء دون فائدة.

ببد أن العرب - وإن كانوا يقتلون البنات خشية العار - كانوا أخف وطأة وأكثر شفقة على أهل البلوى والزمنى، وإن كانوا يتعففون عن مؤاكلة ذوي الاحتياجات الخاصة أو الجلوس معهم على مائدة طعام. وفي الوقت الذي تحبَّب فيه العالم بين نظريات نادت بإعدام المتخلفين عقلياً وأخرى نادت باستعمالهم في أعمال السخرة اهتدى الشرق والغرب أخيراً إلى "فكرة" الرعاية المتكاملة لذوي الاحتياجات الخاصة..

في ظل هذا كله نرى رسولنا المربي المعلم سيدنا محمد ﷺ كيف كانت رحمته لهذه الفئة من بني البشر، وهذا غيض من فيض رسول الله ﷺ نحو رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة.

رعاية النبي ﷺ لذوي الاحتياجات الخاصة

فعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة! فقَالَ: يَا أُمَّ فُلَانٍ! انظري أَيِّ السَّكِّ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ، فخلا معها في بعض الطرق، حَتَّى فرغت من حاجتها ^(١).

وهذا من حلمه وتواضعه ﷺ وصبره على قضاء حوائج ذوي الاحتياجات الخاصة.. وفي هذا دلالة شرعية على وجوب تكفل الحاكم برعاية ذوي الاحتياجات الخاصة، صحياً واجتماعياً، واقتصادياً، ونفسياً، والعمل على قضاء حوائجهم، وسد احتياجاتهم. ومن صور هذه الرعاية :

- ١ - العلاج والكشف الدوري لهم .
 - ٢ - تأهيلهم وتعليمهم بالقدر الذي تسمح به قدراتهم ومستوياتهم .
 - ٣ - توظيف من يقوم على رعايتهم وخدمتهم.
- ولقد استجاب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لهذا المنهج النبوي السمح، فأصدر

(١) رواه مسلم ، وأحمد .

قرارًا إلى الولايات: [أن ارفعوا إلى كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة].

فرغوا إليه، وأمر لكل كفيف بموظف يقوده ويرعاه، وأمر لكل اثنين من الزمنى - من ذوي الاحتياجات - بخادم يخدمه ويرعاه ^(١).

وعلى نفس الدرب سار الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك / ، فهو صاحب فكرة إنشاء معاهد أو مراكز رعاية لذوي الاحتياجات الخاصة، فأنشأ: [عام ٧٠٧ م - ٨٨ هـ] مؤسسة متخصصة في رعايتهم، وظف فيها الأطباء والخدام وأجرى لهم الرواتب، ومنح راتباً دورياً لذوي الاحتياجات الخاصة، وقال لهم: [لا تسألوا الناس]، وبذلك أغناهم عن سؤال الناس، وعين موظفاً لخدمة كل مقعد أو كسيح أو ضرير ^(٢).

الألوية لهم في الرعاية وقضاء احتياجاتهم :

وإذا كان الإسلام قد قرر الرعاية الكاملة لذوي الاحتياجات الخاصة، والعمل على قضاء حوائجهم، فقد قرر أيضاً أولوية هذه الفئة في التمتع بكافة هذه الحقوق، فقضاء حوائجهم مقدم على قضاء حوائج الأصحاء، ورعايتهم مقدمة على رعاية الأكفاء، ففي حادثة مشهورة أن سيدنا محمد ﷺ عبس في وجه رجل أعمى - هو عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه جاءه يسأله عن أمر من أمور الشرع، وكان يجلس إلى رجال من الوجهاء وعلية القوم، يستميلهم إلى الإسلام، ورغم أن الأعمى لم ير عبوسه، ولم يفتن إليه، فإن المولى تبارك وتعالى أبى إلا أن يضع الأمور في نصابها، والألويات في محلها، فأنزل سبحانه آيات بينات تعاتب النبي الرحيم ﷺ عتاباً شديداً: يقول الله فيها: ﴿عَسَّ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزْكِي ۚ (٢) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ﴾ [عبس: الآيات ١ - ٤]. يقول الباحث الإنجليزي "لاينتر" معلقاً على هذا الحادث: مرةً: أوحى الله تعالى إلى النبي

(١) انظر: ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبد العزيز ، ١٣٠ .

(٢) انظر: ابن كثير : البداية والنهاية، ٩ / ١٨٦ ، وتاريخ الطبري ٥ / ٢٦٥

ﷺ وحيًا شديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنياً من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان ﷺ كما يقول أغبياء النَّصَارَى بحقه ﷺ؛ لما كان لذلك الوحي من وجود! ^(١).

وقد كان النبي ﷺ - بعد ذلك - يقابل هذا الرجل الضرير، فيَهشُّ له ويبش، ويبسط له الفراش، ويقول له: ((مرحباً بمن عاتبني فيه ربي!)) ^(٢).

ففي هذه القصة، نرى 'علة' المعاتبة؛ لكونه ﷺ انشغل بدعوة الوجهاء عن قضاء حاجة هذا الكفيف، وكان الأولى أن تُقضى حاجته، وتقدم على حاجات من سواه من الناس، وفي هذه القصة دلالة شرعية على تقديم حاجات ذوي الاحتياجات الخاصة على حاجات من سواهم.

عفوه ﷺ عن سفهائهم وجهلائهم:

وتجلت رحمة الحبيب ﷺ بذوي الاحتياجات الخاصة، في عفوه عن جاهلهم، وحلمه على سفهائهم، ففي معركة أحد [شوال ٣هـ - إبريل ٦٢٤م]، لما توجه الرسول ﷺ بجيشه صوب أحد، وعزم على المرور بمزرعة لرجل منافق ضرير، أخذ هذا الأخير يسب النبي ﷺ وينال منه، وأخذ في يده حفنة من تراب وقال - في وقاحة - للنبي ﷺ: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها! حتّى هم أصحاب النبي بقتل هذا الأعمى المجرم، فأبى عليهم - نبي الرحمة - وقال: ((دعوه)) ^(٣). ولم ينتهز رسول الله ضعف هذا الضرير، فلم يأمر بقتله أو حتّى بأذيته، رغم أن الجيش الإسلامي في طريقه لقتال، والوضع متأزم، والأعصاب متوترة، ومع ذلك لما وقف هذا الضرير المنافق في طريق الجيش، وقال ما قال، وفعل وما فعل، أبى رسول الله إلا العفو عنه، والصفح له، فليس من شيم المقاتلين المسلمين الاعتداء على أصحاب العاهات أو النيل من

(١) لايتنر: دين الإسلام، ص ١٢، ١٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٩ / ١٨٤، والبيضاوي ٤٥١

(٣) ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٣٤٧.

أصحاب الإعاقات، بل كانت سنته معهم؛ الرفق بهم، والاتعاظ بحالهم، وسؤال الله أن يشفيهم ويعافينا مما ابتلاهم.

تكريمه ومواساته ﷺ لهم :

فمن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله لأ أوحى إلي أنه من سلك مسلماً في طلب العلم سهلت له طريق الجنة ومن سلبت كريمته [يعني عينيه] أثبتته عليهما الجنة...))^(١). وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه، عن النبي ﷺ عن رب العزة - قال: (إذا سلبت من عبدي كريمته وهو بها ضنين، لم أرض له ثواباً دون الجنة، إذا حمدني عليهما)^(٢).

ويقول النبي ﷺ لكل أصحاب الإصابات والإعاقات: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَحُجِّتَ عَنْهُ بِهَا حَاطِيَةٌ))^(٣).

ففي مثل هذه النصوص النبوية والأحاديث القدسية، مواساة وبشارة لكل صاحب إعاقة؛ أن إذا صبر على مصيبته، راضياً لله ببلوته، واحتسب على الله إعاقته، فلا جزاء له عند الله إلا الجنة.

وقد كان النبي ﷺ يقول عن عمرو بن الجموح رضي الله عنه، تكريماً وتشريفاً له: ((سيدكم الأبيض الجعد عمرو بن الجموح)) وكان أعرج، وقد قال له النبي ﷺ ذات يوم: ((كأي أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة))، وكان تؤولم على رسول الله ﷺ إذا تزوج^(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ استخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرتين يصلي بهم وهو أعمى^(٥).

(١) صحيح، البيهقي، شعب الإيمان ح: ٥٥١١.

(٢) صحيح، ابن حبان ح: ٢٩٩٣.

(٣) البخاري، ح: ٥٢١٦، ومسلم، ح: ٤٦٦٤.

(٤) أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة ١٤ / ١٥٥.

(٥) الحديث حسن، رواه أحمد، ١٣٠٢٣.

وعن عائشة رضي الله عنها أن ابن أم مكتوم كان مؤذناً لرسول الله ﷺ وهو أعمى ^(١).

وعن سعيد بن المسيب: أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم، وكانوا يسلمون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ^(٢).

وعن الحسن بن محمد قال: دخلت على أبي زيد الأنصاري فأذن وأقام وهو جالس قال: وتقدم رجل فصلي بنا، وكان أعرج أصيبت رجله في سبيل الله تعالى ^(٣).

وهكذا كان المجتمع النبوي، يتظافر في مواساة ذوي الاحتياجات الخاصة، ويتعاون في تكريمهم، ويتحد في تشريفهم، وكل ذلك اقتداء بمنهج نبي الرحمة ﷺ مع ذوي الاحتياجات الخاصة.

زيارته ﷺ لهم :

وشرع الإسلام عيادة المرضى عامة، وأصحاب الإعاقات خاصة؛ وذلك للتخفيف من معاناتهم.. فالشخص المعاق أقرب إلى الانطواء والعزلة والنظرة الشاؤمية، وأقرب من الأمراض النفسية مقارنة بالصحيح، ومن الخطأ إهمال المعاقين في المناسبات الاجتماعية، كالزيارات والزواج..

وقد كان رسول الله ﷺ يعود المرضى، فيدعو لهم، ويطيب خاطرهم، ويبث في نفوسهم الثقة، وينشر على قلوبهم الفرح، ويرسم على وجوهه البهجة، وتجده ذات مرة يذهب إلى أحدهم في أطراف المدينة، خصيصاً؛ ليقضي له حاجة بسيطة، أو أن يصلي ركعات في بيت المبتلى تلبية لرغبته.. فهذا عِثْبَانُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه - وكان رجلاً كفيفاً من الأنصار- يقول للنبي ﷺ: وددتُ يا رسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأأخذهُ مُصَلِّئاً.

فوعده ﷺ بزيارة وصلاة في بيته قائلاً - في تواضع جم -: ((سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)) ..

(١) رواه مسلم، ح: ٣٨١

(٢) تفسير الرازي، ج ١١ / ص ٣٧٤

(٣) الحديث حسن، رواه البيهقي .

قال عتبان فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنتُ له فلم يجلس حتى دخل البيت، ثم قال: ((أَيْنَ نُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ))، فأشرتُ له إلى ناحية من البيت فقام رسول الله ﷺ، فكبر فقمنا، فصفنا، فصلّى ركعتين، ثم سلم (١).

الدعاء لهم :

وتتجلى -أيضاً- رحمة نبي الإسلام ص بالفئات الخاصة -من ذوي الاحتياجات- عندما شرع الدعاء لهم، تثبيتاً لهم، وتحميساً لهم على تحمل البلاء.. ليصنع الإرادة في نفوسهم، ويبني العزم في وجدانهم.. فذات مرة، جاء رجل ضير البصرِ إلى حضرة النبي ﷺ.. فقال الضير: ادعُ الله أن يُعافيني..

قال الرحمة المهداة ﷺ: ((إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ)) . قَالَ: فَادْعُهُ. فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحَسِّنَ وُضُوءَهُ وَيَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: ((اَللّٰهُمَّ اِنِّي اَسْأَلُكَ وَاتُوَجَّهُ اِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ اِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ اِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِي، اَللّٰهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ)) (٢).

وَأَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ امْرَأَةٌ تُصْرَعُ، فَقَالَتْ: اِنِّي اُصْرَعُ، وَاِنِّي اَتَكْشَفُ، فَادْعُ اِلٰهِي! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((اِنِّ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَاِنِّ شِئْتَ دَعَوْتُ اَللّٰهَ اَنْ يُعَافِيَكَ)) فقالت: أَصْبِرُ. ثم قالت: اِنِّي اَتَكْشَفُ! فَادْعُ اَللّٰهَ لِي اَنْ لَا اَتَكْشَفَ. فَدَعَا لَهَا ﷺ (٣).

وهكذا المجتمع الإسلامي ؛ يدعو -عن بكرة أبيه- لأصحاب الإعاقات والعايات وما رأينا مجتمعاً على وجه الأرض يدعو بالشفاء والرحمة لأصحاب الاحتياجات الخاصة، غير مجتمع المسلمين، ممن تربوا على منهج نبي الإسلام!

(١) البخاري، ح: ٤٠٧، ٦٢٧، ومسلم، ح: ١٠٥٢

(٢) صحيح، الترمذي، ح: ٣٥٧٨، وابن ماجه، ح: ١٣٨٥

(٣) صحيح، البخاري، ح: ٥٢٢٠، ومسلم، ح: ٤٦٧٣

تحريم السخرية منهم :

كان ذوو الاحتياجات الخاصة ، في المجتمعات الأوروبية الجاهلية، مادة للسخرية، والتسلية والفكاهة، فيجد المعاق نفسه بين نارين، نار الإقصاء والإبعاد، ونار السخرية والشهامة، ومن ثم يتحول المجتمع -في وجدان أصحاب الإعاقات- إلى دار غربة، واضطهاد وفرقة.. فجاء الشرع الإسلامي السمح ؛ ليحرّم السخرية من الناس عامة، ومن أصحاب البلوى خاصة، ورفع شعار :
[[لا تظهر الشهامة لأخيك فيرحمه الله وبيتليك]].

وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى آيَاتٍ بَيْنَاتٍ تُوَكِّدُ تَحْرِيمَ هَذِهِ الْخِصْلَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((الكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ))^(١)... وغمط الناس: احتقارهم والاستخفاف بهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المبتلى أعظم قدرًا عند الله، أو أكبر فضلًا على الناس، علمًا وجهادًا، وتقوى وعفة وأدبًا.. ناهيك عن القاعدة النبوية العامة، الفاصلة: ((فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ))^(٢).

ولقد حذر النبي ﷺ أشد التحذير، من تضليل الكفيف عن طريقه، أو إيذائه، عبسًا وسخرية، فقال: ((مَلْعُونٌ مَنْ كَمَّهُ أَعْمَى عَنْ طَرِيقٍ))^(٣).

فهذا وعيد شديد، لمن اتخذ العيوب الخلقية سببًا للتندر أو التلهي أو السخرية، أو التقليل من شأن أصحابها، فأصحاب الإعاقات هو أخ أو أب أو ابن امتحنه الله؛ ليكون فينا واعظًا، وشاهدًا على قدرة الله، لا أن نجعله مادة للتلهي أو التسلي.

(١) رواه مسلم، ح: ٩١ .

(٢) البخاري، ح: ٥٥٨٣

(٣) الحديث حسن، رواه أحمد، ح: ١٧٧٩

رفع العزلة والمقاطعة عنهم:

فقد كان المجتمع الجاهلي القديم، يقاطع ذوي الاحتياجات الخاصة، ويعزلهم، ويمنعهم من ممارسة حياتهم الطبيعية، كحقوقهم في الزواج، والاختلاط بالناس.

وقد كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعرج ولا أعمى ولا مريض، وكان الناس يظنون بهم التقدر والتقرّز، فأنزل الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١] (١).

أي ليس عليكم حرج في مؤاكلة المريض والأعمى والأعرج، فهو لاء بشر مثلكم، لهم كافة الحقوق مثلكم، فلا تقاطعوهم ولا تعزلوهم ولا تهجروهم، فأكرمكم عند الله أتقاكم، ((والله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)).

وهكذا نزل القرآن، رحمة لذوي الاحتياجات الخاصة، يواسيهم، ويساندتهم نفسياً، ويخفف عنهم، وينقذهم من أخطر الأمراض النفسية التي تصيب المعاقين، جراء عزلتهم أو فصلهم عن الحياة الاجتماعية.

وبعكس ما فعلت الأمم الجاهلية، فلقد أحل الإسلام لذوي الاحتياجات الخاصة الزواج، فهم -والله- أصحاب قلوب مرهفة، ومشاعر جيّاشة، وأحاسيس نبيلة، فأقرّ لهم الحق في

(١) انظر: تفسير الطبري، ١٩ / ص ٢١٩

الزواج، ما داموا قادرين، وجعل لهم حقوقاً، وعليهم واجبات، ولم يستغل المسلمون ضعف ذوي الاحتياجات، فلم يأكلوا لهم حقاً، ولم يمنعوا عنهم مالا، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: [أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَبِهَا جُنُونٌ أَوْ جُدَامٌ أَوْ بَرَصٌ؛ فَمَسَّهَا فَلَهَا صَدَاقُهَا كَامِلًا. ^(١)]

التيسير عليهم ورفع الحرج عنهم: ومن الرحمة بذوي الاحتياجات الخاصة مراعاة الشريعة لهم في كثير من الأحكام التكليفية، والتيسير عليهم ورفع الحرج عنهم، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء ٩٥]. قال: فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها عليّ (لتدوينها)، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلاً أعمى، قال زيد بن ثابت: فأنزل الله تبارك وتعالى عليّ رسوله ﷺ، وفخذه عليّ فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي [من ثقل الوحي]، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله ﷻ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ^(٢).

وقال تعالى -مخففاً عن ذوي الاحتياجات الخاصة:-

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

فرفع عنهم فريضة الجهاد في ساحات القتال، فلم يكلفهم بحمل سلاح أو الخروج إلى نفي في سبيل الله، إلا إن كان تطوعاً..

ومثال ذلك، قصة عمرو بن الجموح رضي الله عنه في معركة أحد، فقد كان رضوان الله عليه رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله لأ قد عذرك! فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن بني يريدون أن

(١) رواه ابن أبي شيبة، ج ٣ / ص ٣١٠

(٢) رواه البخاري، ج ٩٥.

يحبسوني عن هَذَا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أظأ بعرجتي هذه في الجنة! فقال نبي الرحمة ﷺ: ((أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك))، ثم قال لبيته: ((ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة))، فخرج مع الجيش فقتل يوم أحد^(١).

بيد أن هَذَا التخفيف الذي يتمتع به المعاق في الشرع الإسلامي، يتسم بالتوازن والاعتدال، فخفف عن كل صاحب إعاقة قدر إعاقته، وكلفه قدر استطاعته، يقول القرطبي: [إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به من المشي، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها، والجهاد ونحو ذلك] ^(٢).

ومثال ذلك الكفيف والمجنون، فالأول مكلف بجلّ التكاليف الشرعية باستثناء بعض الواجبات والفرائض كالجهاد.. أما الثاني فقد رفع عنه الشارع السّمح كل التكاليف، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: ((رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ)) ^(٣).

فمهما أخطأ المجنون أو ارتكب من الجرائم، فلا حد ولا حكم عليه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى عمر بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناساً فأمر بها عمر أن ترجم، فمرّ بها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وعليهما، فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: مجنونة بني فلان زنت، فأمر بها عمر أن ترجم. فقال: ارجعوا بها! ثم أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين! أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة، عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ قال: بلى. قال:

(١) انظر: ابن هشام ٢ / ٩٠ .

(٢) تفسير القرطبي ١٢ / ٣١٣ .

(٣) صحيح، ابن ماجه، ح: ٢٠٤١، وابن خزيمة، ح: ١٠٠٣.

فما بال هذه ترجم؟! قال: لا شيء. قال علي: فَأَرْسَلَهَا. فَأَرْسَلَهَا. فجعل عمر يُكَبِّرُ^(١).

هكذا كان المنهج النبوي في التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة، في وقت لم تعرف فيه الشعوب ولا الأنظمة حقاً هذه الفئة، فقرر - الشرع الإسلامي - الرعاية الكاملة والشاملة لذوي الاحتياجات الخاصة، وجعلهم في سلم أولويات المجتمع الإسلامي، وشرع العفو عن سفيهم وجاهلهم.

وتكريم أصحاب البلاء منهم، لا سيما من كانت له موهبة أو حرفة نافعة أو تجربة ناجحة، وحث على عيادتهم وزيارتهم، ورغب في الدعاء لهم، وحرّم السخرية منهم، ورفع العزلة والمقاطعة عنهم، ويسّر عليهم في الأحكام ورفع عنهم الحرج^(٢).



(١) صحيح، أبو داود، ح: ٤٣٩٩.

(٢) إه مقتبس من بحث ل محمد مسعد ياقوت ..

تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْيَتِيمِ

وهذا نموذج آخر من نماذج تعامل الحبيب ﷺ مع مجتمعه وهو : تعامله مع اليتيم والإحسان إليه وتوجيهه لأمته بأن يُحسنوا الرعاية للأيتام وحثَّ على ذلك بجزيل الثواب وحثَّ من الإساءة إليهم باليُم العقاب .

وقد وُلد سيدنا رسول الله ﷺ يتيماً الأب، وكان هَذَا اليتيم يراد من ورائه غرس بذور الرحمة في هَذَا القلب الذي سيعمل الحب لكل البشر والرحمة للعالم أجمع .

فهَذَا القلب الذي ذاق مرارة اليتيم والحرمان من عطف الوالدين، تعلم كيف يكون رحيماً بمن حوله، حتَّى وإن عادوه، وكيف يكون حريصاً عليهم وإن عذّبوه وأهانوه، فهو لا يريد لهم الخلود في النار أو ذوق لهيبتها، بل يريد لهم التمتع بمرضاة الله والخلود في جناته .

ولذلك حثَّ على الإحسان والتلطف بالأيتام في عدة أحاديث منها :

قال رسول الله ﷺ (أنا وكافل اليتيم كهاتين - وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى-)، فالعلم أساس نهضة الأمم وتقدّمها ورفعتها، وبالعلم تُدرك الأمور وتفتح العقول ويرقى الأشخاص بتصرفاتهم، والعلم مطلب أساسي في الدين الإسلامي ويكفي أن ﴿ أَقْرَأ ﴾ كانت أول كلمة نزلت على الرسول ﷺ وهو في الغار .

وعند العلم بأن اليتيم لا حول له ولا قوة في هذه الدنيا وأن أحدنا قد يكون مكانه لولا لطف

الله تَعَالَى بنا، وأن أجر حُسن التعامل معه وتربيته عظيم عند الله، وعند الشعور ولو للحظة بأن أبناءنا قد يكونون في أي لحظة يُعافلنا فيها الموت مكان هذا اليتيم، سنعرف ونحس بشعور هَذَا اليتيم وحرقة قلبه التي لا شك فيها، ويكفي شعوره بأن كل من حوله من الأطفال يملك أمًا وأبًا وأنه محروم ليس لشخصه وإنما هي حكمة الله ﷻ .

فبعض الأطفال لا يعي ولا يعرف أن الله ﷻ دائماً يختار للشخص الأفضل، وكثيرٌ منهم من هو ناقد على هذه الدنيا التي لا يملك فيها أباً أو أمًا أو كلاهما ولا يستطيع أن ينطق بهذه الكلمة تجاه أحد، لا وحتى لا يستطيع أن يطلب من أحد أن يأتيه بأي شيء من متطلباته، كم هو قاسٍ هَذَا الشعور، والأقسى من ذلك أن ندرِكَ هَذَا الشعور ولا نحرك ساكنًا تجاه الأيتام.

ونعود إلى توجيهات الحبيب محمد ﷺ ، ولولا أن الفضل والأجر الكبير لمن يرعى الأيتام لما كان رفيق الرسول ﷺ في الجنة، فهناك الكثير من الأعمال الخيرة التي تتقدم أحب الأعمال إلى الله كالصلاة على وقتها وبر الوالدين والجهاد في سبيل الله ولكل منها أجره، ولكن لم يقل عليه الصلاة والسلام عن صاحبها أنه رفيقاً له في الجنة.

طُرق التعامل مع اليتيم كثيرة وهدفها واحد وهو أن لا يشعر أنه يتيم، ومنها:

- التعامل معه كما يتعامل الشخص مع أبناءه ويعتبره أحدهم بل أفضلهم وأقربهم إلى قلبه وذلك إن كان كافلاً له بشكل رسمي.
- النفقة عليه كما يُنفق على أبناءه.
- حُسن تربيته وتأديبه وتعليمه.
- توفير المسكن الكريم له والمأكل والملبس بل وإن كان في ضيق من العيش مراعاته أفضل من مراعاته لأبنائه.

- عدم ذكر والديه أمامه أو تذكيره بهم بأي شكل من الأشكال.
- عدم أذيته نفسياً تحت أي ظرف من الظروف حتى وإن أخطأ فلا يجب توبيخه أو تذكيره

بالماضي أو وصفه أنه عديم التربية أو إنسان بدون أهل أو لقيط.

• مراعاة ومراقبة الله لأ في جميع التصرفات وطريقة التعامل معه وإرشاد الأشخاص المحيطين بعدم أذيته نفسياً.

• تزويجه وتعليمه في الكِبَر عندما يُصبح شاباً أو فتاةً ناضجةً.

• زيارته بشكل دوري و توفير الدعم المادي والمعنوي له في المناسبات إن لم يكن مكفولاً وكان يسكن في دار لرعاية الأيتام أو كان يتيم الأب.

• إدراجه بالمجتمع بشكل عادي وطبيعي وعدم إشعاره بأي شكل من الأشكال بأنه يتيم وذلك لأن هذه الصفة لم يكتسبها بإرادته.

إن حُسن التعامل مع الأيتام يورث الرقة في القلب واللين وحب المساكين، وقد كان هَذَا دُعاء أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام وهو حُب المساكين. ومما جاء من حديث الرسول ﷺ (الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

تعامله ﷺ مع اليتيم

لقد ضرب لنا معلم البشرية وخير البرية سيدنا محمد ﷺ أروع الأمثلة وبيّن لنا أفضل السبل في فن التعامل مع اليتيم فها هو عليه الصلاة والسلام يمسح على رأس اليتيم ويقول: «مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا اللَّهُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ السَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى»^(١).

وها هو كذلك عليه الصلاة والسلام يُقبل اليتيم ويدعو له ويحتضنه ويسأل عنه وعن احواله فهو صاحب القلب الرحيم وصانع المواقف العظيمة فقد اشتكى إليه رجل قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين»^(٢).

(١) غاية المقصد في زوائد المسند - (ج ٢ / ص ٢٦٨) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ.

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

إنها التربية والتعليم منه عليه الصلاة والسلام أنه مهما تحدّث الانسان عن تلك الطرق والمُثل في كيفية فن التعامل مع اليتيم فلا بد له من أن يربط ذلك بالرعيّل الأول من قادة وعلماء وصلحاء وكيف كانت حياتهم مع اليتيم ..

لقد اهتم رسول الله ﷺ بالمُثل العالية والأخلاق السامية ، التي تصوغ الحياة في إطار المودة والتعاطف ، وتوحد طاقات المجتمع في إطار التكافل الاجتماعي ..

وقد بيّن لنا ﷺ ما ينبغي أن تكون عليه علاقة المؤمنين بعضهم ببعض ، فجعلها مثل البناء المتلاحم الذي لا خلل فيه ، فقال ﷺ : «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(١).

وصوّر لنا النبي ﷺ تلاحم العواطف ، وقوة شعور الفرد بإخوانه المسلمين بقوله : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، يَأْلَمُ الْمُؤْمِنُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، كَمَا يَأْلَمُ الْجَسَدُ لِمَا فِي الرَّأْسِ»^(٢) ..

ومن ثم فإن رابطة الأخوة بين المسلمين توجب على الموسر منهم مساعدة المعسر، وأي عسر أعظم من اليتيم ، فاليتم مظهر واضح للضعف ، والحاجة إلى المعونة والرفق والرعاية ..

وكما تقدم أن رسول الله ﷺ من أوائل الذين لمسوا آلام اليتيم وأحزانه ، ومن ثم اهتم ﷺ باليتيم اهتماماً بالغاً من حيث تربيته ورعايته ومعاملته ، وضمان سبل العيش الكريمة له ، حتّى ينشأ عضواً نافعاً ، ولا يشعر بالنقص عن غيره من أفراد المجتمع ، فيتحطم ويصبح عضواً هادماً في الحياة .. فقال ﷺ حاثاً وأمرأً ومحفزاً على رعاية اليتيم كما تقدم : «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى» ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا قَلِيلًا^(٣) ، قال ابن بطال : حق على من سمع هَذَا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك .

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه أحمد .

(٣) رواه البخاري .

وجعل رسول الله ﷺ الإحسان إلى اليتيم علاجاً لقسوة القلب ، وإن أبعد القلوب عن الله القلب القاسي ، فعن أبي الدرداء رضي عنه قال : أتى النبي ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه ، فقال له النبي ﷺ : «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟» ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَذِنِ الْيَتِيمَ إِلَيْكَ، وَامْسَحْ بِرَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ»^(١).

بل كان رسول الله ﷺ يحرص كل الحرص على رعاية مشاعر الأيتام وإدخال السرور عليهم ، ففي قصة اختصام أبي لبابة رضي عنه ، وبتيم في نخلة ، قضى رسول الله ﷺ لأبي لبابة بالنخلة لأن الحق كان معه ، لكنه رضي عنه لما رأى الغلام اليتيم يبكي ، قال لأبي لبابة : (أعطه نخلتك ، فقال : لا ، فقال أعطه إياها ولك عذق في الجنة ، فقال : لا ، فسمع بذلك ابن الدحداحة فقال لأبي لبابة : أتبيع عذقتك ذلك بحدقتي هذه ؟ ، فقال نعم .. ثم جاء رسول الله ﷺ فقال : النخلة التي سألت لليتيم إن أعطيتة ألي بها عذق في الجنة؟! ، فقال رسول الله ﷺ نعم . ثم قُتِل ابن الدحداحة شهيداً يوم أحد ، فقال رسول الله ﷺ : رُبَّ عَذْقٍ مِثْلُ لابن الدحداحة في الجنة)^(٢).

وقد مدح النبي ﷺ نساء قريش لرعايتهن اليتامى ، فقال رضي عنه : (خير نساء ركن الإبل نساء قريش ، أحناه على يتييم في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده)^(٣).
ولما مات جعفر بن أبي طالب رضي عنه تعهد الرسول ﷺ أولاده وأخذهم معه إلى بيته ، فلما ذكرت أمهم من يتمهم وحاجتهم ، قال رضي عنه : (العيلة (يعني الفقر والحاجة) تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة)^(٤).

ثم إن النبي ﷺ لم يقتصر في اهتمامه باليتيم على أسلوب الحث والترغيب ، بل استخدم أيضاً

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه البيهقي .

(٣) رواه أحمد .

(٤) رواه أحمد .

أسلوب التحذير من الإساءة إِلَى الأيتام ، أو أكل أموالهم بالباطل ، بحيث لا يُقَدِّم عَلَى فعل ذلك إلا من قسى قلبه ، وغلبت عليه شقوته ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات (المهلكات) ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ ، قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)^(١) .. فعَدَّ الرسول ﷺ أكل مال اليتيم من السبع الموبقات ، ومن كبائر الذنوب وعظائم الأمور ..

ولخطورة وعظم حق مال اليتيم ، وجَّه رسول الله ﷺ من كان ضعيفاً من الصحابة ألا يتولين مال يتييم ، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يا أبا ذر ، إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرن عَلَى اثنين ، ولا تولين مال يتييم)^(٢) ، وقد ترجم المسلمون الأوائل هذه التوجيهات النبوية ترجمة عملية ، ومن ينظر في حال سلفنا الصالح ، يظهر له بوضوح مقدار الحرص عَلَى رعاية اليتيم وكفالاته ، طلباً وبحثاً عن ترقيق القلوب والأجر العظيم ، ومرافقة النبي ﷺ في الجنة ، فهو القائل كما تقدم : (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً)^(٣) ...



(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخاري .

تَعَامَلُوا صَالِحًا مَعَ الْوَالِدِ وَالْوَالِدَاتِ

مَعَ الْأَطْفَالِ وَصِغَارِ السِّنِّ

وأما الأطفال وِصْغَارِ السِّنِّ فقد كان لهم النصيب الوافر من عنايته ﷺ لهم ، فقد كان النبي ﷺ شديد الاهتمام بالأطفال ؛ ولذلك فقد دعا إِلَى تَأْدِيبِهِمْ ، وغرس الأخلاق الكريمة في نفوسهم ، وحث عَلَى رَحْمَتِهِمْ وَالشَّفِيقَةَ عَلَيْهِمْ ، فقال ﷺ : «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرَنَا ، فَلَيْسَ مِنَّا»^(١) .

ولقد كَانَ ﷺ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهِ ، وَعَلُو مَنْزِلَتِهِ ، هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ عَلَى الْأَطْفَالِ حَبَابًا لَهُمْ ، وَرِفْقًا بِهِمْ ، وَتَلْفَافًا مَعَهُمْ ، وَإِلْشَاعَارَهُمْ بِمَكَانَتِهِمْ وَإِعْطَائِهِمْ الثِّقَةَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ مَدَحَهُمْ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ ، كَمَا فَعَلَ مَعَ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ^(٢) .

وقد كان لا يكثر عتابهم ويعذرهم ويرفق بهم ؛ كما فعل مع أنس بن مالك^(٣) . وكان لا يأنف من الأكل معهم ، ومع ذلك لو رأى منهم مخالفة للأدب ، فكان ينصح لهم ويأمرهم بما يصلحهم ، فقد نصح عمرو بن أبي سلمة بأداب الطعام بلين ورفق ورحمة ، لَمَّا رَأَى مِنْهُ مَخَالَفَةَ الْأَدَبِ^(٣) .

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه البخاري .

(٣) أخرجه البخاري .

وكان يوصيهم بالخير، ويعلمهم التوحيد والدين، فلم يكن رفقته وشفقته العظيمة عليهم بمانعة له من نصحهم وإرشادهم وإصلاحهم، فقد أوصى ابن عباس رضي الله عنهما. فقال له رسول الله ﷺ: ((يا غلام إني معلمك كلمات احفظ الله يحفظك الله يحفظك الله تجده تجاهك وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفِعَتِ الأَقلام وجفَّتِ الصُّحف))^(١).

وكل هذا الاهتمام منه ﷺ بالأطفال جاء لعلمه بأنهم في أشد الحاجة إلى الرعاية والعطف والحنو أكثر من غيرهم، وذلك لتنمية ثقة الطفل بنفسه حتى ينشأ قوياً ثابت الشخصية، مريحاً عطوفاً على غيره، عضواً فعلاً في مجتمعه^(٢).

وإليك -أخي الكريم- نماذج جلية، ومواقف شريفة، وأساليب حكيمة من تعامل النبي ﷺ مع الأطفال، وكيف كان تواضعه، وحبهم، ورحمته بهم، وشفقته عليهم، والغرض من ذلك تحفيز القلوب، وحثها على التآسي بقدوتنا وإمامنا وحبينا رسول الله محمد بن عبد الله -عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم-، فمن تلك النماذج المشرقة ما يلي:

١. تبريكنهم وتحنيكنهم والدعاء لهم:

كان ﷺ يؤتى بالصبيان، فيبرك عليهم، ويحنكهم، ويدعو لهم؛ فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالصبيان، فيبرك عليهم، ويحنكهم، ويدعو لهم^(٣).

يقول ابن حجر رحمته الله في الفتح: ومن فوائد هذا الحديث: الرفق بالأطفال، والصبر على ما يحدث منهم، وعدم مؤاخذتهم، لعدم تكليفهم^(١).

(١) رواه أحمد، والترمذي وقال - حسن صحيح - والحاكم، وابن السني في عمل يوم وليلة).

(٢) راجع "مبدأ الرفق في التعامل مع المتعلمين من منظور التربية الإسلامية"، ص (١٢٣-١٢٤) لصالح بن سليمان المطلق.

(٣) أخرجه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه قال: ذهبتُ بعبد الله بن أبي طلحة الأنصاري إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وُلِدَ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في عباءةٍ يهناً بغيراً له فقال: (هل معك تمر؟) فقلت: نعم. فناولته تمرات، فألقاهن في فيه فلاكهن ثم فغرَ فَا الصبي فمَجَّه في فيه، فجعل الصبي يتلمضه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حُبُّ الأنصار التمر) وسَمَّاه عبد الله ^(٢). وعن أنس قال: غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أبي طلحة ليحَنِّكه فوافيته في يده الميسم يسم إبل الصدقة ^(٣).

٢. السلام عليهم:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على غلمانٍ يلعبون فسَلَّم عليهم . لقد كان صلى الله عليه وسلم بهذه الأسلوب يدخل السرور والفرح إلى نفوس هؤلاء الناشئة، ويعطيهم الدفعة المعنوية على التعود في محادثة الكبار والرّد والأخذ والعطاء معهم، وهذا من حكمته -عليه الصلاة والسلام-.

٣- مسحه صلى الله عليه وسلم رؤوس الصغار:

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار، ويُسَلِّم على صبيانهم ويمسح على رؤوسهم ^(٤).

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رأسي، قال: أظنه قال ثلاثاً، فلما مسح قال: «اللهم اخلف جعفرًا في ولده» ^(٥).

(١) فتح الباري (ج ١٠ - ص ٤٣٤) .

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود وأبي يعلى الموصلي ومعنا اللؤك : إدارة الشيء في الفم ومضغه ، فغر : فتح ، مجّه : لفظه وألقى به ، تَلَمَّط : أدار لسانه في فيه وحركه لتذوق الشيء وتتبُّعه وأخرج لسانه فمسح به شفّيته .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه النسائي وابن حبان .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک وقال الذهبي : صحيح .

وعن مصعب بن عبد الله قال: عبد الله بن ثعلبة ولد قبل الهجرة بأربع سنين، وحمل إليّ رسول الله ﷺ فمسح وجهه، وبرك عليه عام الفتح، وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن أربع عشرة^(١).
ومن هذه الأحاديث نعرف كيف كان النبي ﷺ يشعر هؤلاء الصغار بلذة الرحمة والحنان، والحب والعطف، وذلك بالمسح على رؤوسهم، والأمر الذي يشعر الطفل بوجوده، وحب الكبار له، واهتمامهم به.

وعن جابر بن سمرة قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأُولَى ثم خرج إليّ أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم واحداً واحداً، قال: وأما أنا فمسح خدي قال: فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنها أخرجها من جُؤنة عطار^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: انتهى إلينا رسول الله ﷺ وأنا غلام في الغلمان، فسلم علينا، ثم أخذ بيدي فأرسلني برسالة وقعد في ظل جدار، أو قال إليّ جدار حتى رجعت إليه^(٣).

٣. مداعبته ﷺ وملاظفته للصغار:

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول: «يا زوينب، يا زوينب» مراراً^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ليدلع لسانه للحسين بن علي فيرى الصبي حمرة لسانه، فيهش إليه، أي يسرع إليه^(٥).

وَرَوَى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فدعينا إلى الطعام، فإذا الحسين يلعب في الطريق مع صبيان فأسرع النبي ﷺ أمام القوم ثم بسط يده فجعل -الغلام- يفر هاهنا وهناك،

(١) رواه الحاكم في المستدرک .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود .

(٤) رواه الضياء المقدسي .

(٥) رواه أبو الشيخ في كتاب "أخلاق النبي وآدابه"،.

فيصاحكه رسول الله ﷺ حَتَّى أَخَذَهُ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ فِي ذِقْنِهِ، وَالْأُخْرَى بَيْنَ رَأْسِهِ وَأُذُنَيْهِ، ثُمَّ اعْتَنَقَهُ وَقَبْلَهُ، ثُمَّ قَالَ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، سَبِطَانِ مِنَ الْأَسْبَاطِ»^(١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ وَالطَّبْرَانِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ أُذْنَيْ هَاتَانِ وَبَصُرْتُ عَيْنَيْ هَاتَانِ، وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَخَذَ بِيَدَيْهِ جَمِيعاً، بِكَفَيْ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وَقَدَمَيْهِ عَلَى قَدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ارْزُقْهُ» قَالَ: فَرَقِي الْغُلَامَ، حَتَّى وَضَعَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْتَحْ فَاكْ»، ثُمَّ قَبَّلَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبُهُ فَأَحْبِبْهُ»^(٢).

وَقَدْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ذَاتَ مَرَّةٍ مُحَمَّدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ، فَمَجَّ رضي الله عنه وَجْهَهُ مَجَّةً مِنْ مَاءٍ مِنْ دَلْوٍ يَبَازِحُهَا، فَكَانَ ذَلِكَ مِنَ الْبَرَكَةِ أَنَّهُ لَمَّا كَبُرَ لَمْ يَبْقَ فِي ذَهْنِهِ مِنْ ذِكْرِ رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا تِلْكَ الْمَجَّةُ، فَعُدَّ بِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ^(٣).

وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ رَبِيبَتُهُ زَيْنَبُ بِنْتُ أُمِّ سَلْمَةَ وَهُوَ فِي مَغْتَسَلِهِ، فَنَضَحَ الْمَاءَ فِي وَجْهَيْهَا، فَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَرَكَةِ فِي وَجْهَيْهَا أَنَّهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، فَكَانَ مَاءُ الشَّبَابِ ثَابِتاً فِي وَجْهَيْهَا ظَاهِراً فِي رَوْنِقِهَا وَهِيَ عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ^(٤).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقاً وَكَانَ لِي أُخٌ، يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ -وَهُوَ فَطِيمٌ- كَانَ إِذَا جَاءَنَا قَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟!» النُّغَيْرُ: طَائِرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَبْرٍ رضي الله عنه فِي الْفَتْحِ: إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ فِيهِ جَوَازُ الْمَازِحَةِ وَتَكَرُّرِ الْمَزَاحِ، وَأَنَّهَا إِبَاحَةٌ سَنَةٌ لَا رُخْصَةٌ، وَأَنَّ مَازِحَةَ الصَّبِيِّ الَّذِي لَمْ يَمِيزْ جَائِزٌ وَتَكَرُّرُ زِيَارَةِ الْمَمْزُوحِ مَعَهُ، وَفِيهِ تَرْكُ التَّكْبِيرِ وَالتَّرْفَعِ، وَمِنْهُ التَّلَطُّفُ بِالصَّدِيقِ، صَغِيراً كَانَ أَوْ كَبِيراً، وَالسُّؤَالُ عَنْ حَالِهِ^(١).

(١) رواه البخاري في الأدب، والترمذي وابن ماجه والحاكم، راجع: منتهى السؤل على وسائل الوصول (٢ / ٤٤٠-٤٤١).

(٢) واللفظ الأخير في البخاري كتاب المناقب.

(٣) رواه البخاري.

(٤) راجع "المواهب الدينية بالمنح المحمدية" (٢/٣٥٤).

وفي هذا الحديث من الفوائد التربوية الشيء الكثير، فمنها:

١. على الرغم من حجم الدعوة التي يقوم بها الرسول ﷺ، ورغم كثرة المشاغل التي تواجهه والعبادات التي يقوم بها من عبادة وتربية وجهاد وتسيير أمور الدولة الإسلامية إلا أنه جعل له وقتاً لتربية أطفال المسلمين، وهذا الوقت المستقطع يعتبر بحد ذاته مكسباً تربوياً.

٢. استخدام الرسول ﷺ أسلوب التكنية للطفل الصغير، فقال له: ((يا أبا عمير!))، وهذه التكنية تشعر إخوانه وأهله بأن ابنهم كأنه أصبح في مصاف الشباب، وتكنية الولد تكسر الميوعة في النداء.

٣. الجملة التي قالها -عليه الصلاة والسلام- جاءت بصفات تربوية عظيمة، وهي: الجملة كانت قصيرة من حيث عدد الكلمات؛ حيث كان عد الكلمات ست كلمات وعدد أحرفها اثني عشر، وتلك الكلمات مناسبة لسن الصغير.

الجملة سهلة الحفظ، لوجود السجع، والسجع محب لنفس الطفل، ويستجيب له استجابة نفسية يعبر عنها بابتسامه وضحكة.

فواصل الجملة مناسبة لنفس الطفل؛ نلاحظ في الجملة فواصلها مناسبة للوقت الزمني الذي يردده الطفل، فالجملة تبدأ: يا أبا عمير! هذا المقدار مناسب لنفس الطفل. ما فعل النغير، هذا المقدار مناسب لنفس الطفل. بداية الجملة: نداء-سكته-استراحة-استفهام أغلقت الجملة. يا أبا عمير ما فعل النغير!؟

٤. نزل الرسول ﷺ للمستوى العقلي للطفل (أبا عمير) وهذا مما يدخل السرور في نفس الطفل وأهله، ويعتبر ذلك سلوكاً تربوياً، ودعويّاً حيث تزداد محبة أهل الطفل لرسول الله ﷺ وأيضاً يثمر التفاعل بين الرسول ﷺ والطفل ولعلّ من الأمراض النفسية التي تصيب الشباب لها

أبعاد طفولية، نتيجة حرمانهم العطف من والديهم فيصابون بتلك الأمراض كالانطواء، التوحد، الغيرة، التبرير، وغيرها.

٥ . عندما يكبر (أبو عمير) ويعلم بأن رسول الله ﷺ قد داعبه، فإن ذلك يدعو إلى ازدياد محبته لرسول الله ﷺ ومنها تنهياً نفسه لتلقي الجوانب التربوية والعبادية والجهادية من رسول الله ﷺ وهذا ما وجدناه في وقتنا الحاضر عندما يقوم بتعليمنا مدرس فبلا شك سترك أثراً في نفوسنا وخاصة عندما يكون دمث الأخلاق متديناً يحب التلاميذ ويقدرهم ويشجعهم على تلقي العلوم وعندما نراه بعد عدة سنوات فإننا نقدره ونحترمه ونود أن نقضي له حاجة وذلك ناتج عن جذور العلاقة السابقة، ولهذا تبقى العلاقة بين المدرس والتلميذ مستمرة قليلاً وفكرياً لعدة سنوات لوجود جسر المحبة والألفة^(١).

وكان ﷺ رحيماً بالصغار وأمهاً لهم، إذا كان في الصلاة وسمع بكاء طفل صغير، لم يطل الصلاة رحمة بالطفل وبأمه، التي لا بد من أنها تتألم لبكاء صغيرها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأدخل في الصلاة، وإني أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم لوجد أمه يبكائه»^(٢).

ولم تقتصر رحمة النبي ﷺ على أطفال المسلمين فحسب، بل امتدت لتشمل جميع الأطفال حتى لو كانوا أبناء غير المسلمين.

تربيته ﷺ للأولاد على حسن السلوك:

فلم تكن معاملته ﷺ للصبيان تقف عند حدّ الملاعبة والملاطفة والتقبيل، بل تجاوزت ذلك إلى التربية النافعة، والتوجيه السديد.

(١) راجع " من أساليب الرسول في التربية دراسة تحليلية" لنجيب خالد العامر ص (٩٦) وما بعدها.

(٢) رواه ابن ماجه .

فمن أنس بن مالك رضي عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ « يا بُنَيَّ ، إذا دخلتَ على أهلِكَ فسَلِّمْ ، يَكُنْ سلامُكَ بركةً عليك وعلى أهل بيتك » ^(١).

أي : يكون السلام سبب زيادة بركة ، وكثرة خيرٍ ورحمة ..

تعليمهم آداب الأكل :

فمن عمر بن أبي سلمة رضي عنه قال : « كنتُ غلاماً في حجرِ رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيشُ في الصحفة ، فقال لي رسول الله ﷺ : يا غلامُ ، سَمِّ الله ، وكلِّ بيمينك ، وكلِّ مما يليك ، فما زالت تلك طعمتي بعدُ ». وفي رواية قال : « أكلتُ يوماً مع رسول الله ﷺ طعاماً ، فجعلت آكلُ من نواحي الصَّحفة ، فقال لي رسول الله ﷺ : كُلْ مما يليك » ^(٢).

وللبخاري من رواية مالك عن وهب بن كيسان قال : « أتى رسول الله ﷺ بطعام ، ومعه ربيبه عمرُ بن أبي سلمة : فقال : سَمِّ الله ، وكلِّ مما يليك » ^(٣).

وللترمذي وأبي داود : « أنه دخل على رسول الله ﷺ وعنده طعام فقال : ادنُ يا بُنَيَّ ، فسَمِّ الله ، وكلِّ بيمينك ، وكلِّ مما يليك » .

وفي هَذَا الحديث أن النبي ﷺ كان لا يأنف من الأكل مع الصغير ، لكنه كان إذا رأى منهم مخالفة للأدب نصحهم وأرشدهم .

وإذا أخطأ أحدهم أرشده ﷺ برفق ولين :

فيتعامل ﷺ مع خطئه بأسلوبٍ تربوي رشيد ، بما يتناسب وصغر سنّه .

عن أبي رافع بن عمرو [الغفاري] رضي عنه قال : « كنتُ أرمي نَحْلَ الأنصار ، فأخذوني ، فذهبوا بي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رافع ، لم ترمِ نخلهم ؟ قلت : يا رسول الله ، الجوعُ ، قال : لا ترمِ ،

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) مرسل أخرجه الموطأ رواية البخاري .

وَكُلُّ مَا وَقَعَ ، أَشْبَعَكَ اللَّهُ وَأَرْوَاكَ»^(١) ، وفي رواية أبي داود قال : عن ابن أبي حكم الغفاري قال : حَدَّثَنِي جَدِّي عَنْ عَمِّ أَبِي رَافِعِ بْنِ عَمْرِو الْغِفَارِيِّ قَالَ : « كُنْتُ غُلَامًا أَرُمُ نَخْلَ الْأَنْصَارِ ، فَأَيُّ بِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لِي : لِمَ تَرُمُ النَّخْلَ ؟ قُلْتُ : لِأَكُلَ ، فَقَالَ : لَا تَرُمِ النَّخْلَ ، وَكُلُّ مَا سَقَطَ فِي أَسْفَلِهَا ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ أَشْبِعْ بَطْنَهُ . »

تقدير شخصية الطفل :

وهذا من أهم الأمور التي يحتاج إليها الطفل دائماً ، ويغفل عنها الآباء غالباً .

فقد كان النبي ﷺ يُشْعِرُ النَّاشِئَةَ بِمَكَانَتِهِمْ وَتَقْدِيرِ ذَاتِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكِبَارِ ، لَهُمْ حَقُوقٌ مَرَاعَاةٍ . فعن سهل بن سعد رضي عنه أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ - وَفِي رِوَايَةٍ أُصْغِرُ الْقَوْمَ - وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاحُ ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ : أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ ؟ فَقَالَ الْغُلَامُ : « وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا أُؤَثِّرُ بِنَصِيْبِي مِنْكَ أَحَدًا ، فَتَلَّهُ^(٢) ، رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ »^(٣) . وزاد رزين « والغلام : الفضل بن العباس » .

إن احترام شخصية الطفل يبعث فيه الاعتدال على النفس ، والشعور بالراحة ، ويُعَمِّي مواهبه ، في حين أن التعامل معه باستخفافٍ ، والتقليل من مكانته ، يؤدي به إلى العقد النفسية والاضطراب والدونية .

وأخيراً : كان النبي ﷺ يُؤَكِّدُ عَلَى أَمْهِيةِ الصِّدْقِ مَعَهُمْ ، وَعَدَمِ الْكُذْبِ عَلَيْهِمْ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ رضي عنه أَنَّهُ قَالَ : دَعَانِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا فَقَالَتْ : هَا ، تَعَالَ أُعْطِيكَ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟ »

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) وتلَّهُ : أي وضعه في يده ..

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

قَالَتْ أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكَ كِذْبَةٌ»^(١).

[ففي الحديث : أن ما يتفوه به الناس للأطفال عند البكاء مثلاً بكلماتٍ هزلاً أو كذباً بإعطاء شيء أو بتخويفٍ من شيء حرامٍ داخلٍ في الكذب]^(٢).

فالكذب على الطفل يفقده ثقته بأبويه ، فينصرف عن الاستماع إليهما ، ويعمد إلى تقليدهما في الكذب ؛ لأنه يُراقب سلوك الكبار ، ويقتدي بهم .

فيجب مراعاة الصّدق معه عند تسليته ، أو إضحائه أو سرد قصص وحكايات عليه ، والكذب من أشنع الطباع ، ولكنه من أسهلها اكتساباً ، وأصعبها علاجاً .

وينشأ ناشئُ الفتيانِ فينا على ما كان عودُهُ أبوهُ
وختاماً نقول : إن التعامل مع الأطفال برفقٍ ولين ، مع احترامهم وتقديرهم ، يجعلهم أقوياء ، ويعودهم على الاعتماد على النفس ، ويُربّي فيهم حُبَّ الآخرين ، والتألف مع غيرهم والتآخي ، ومعاملة غيرهم بالمودة والرأفة كما كانوا يُعاملون ، وكما تعودوا في صغرهم^(٣).



(١) رواه أبو داوود في سننه برقم ٤٣٣٩ .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داوود [٣ / ٢٢٩] .

(٣) اقتباس من كتاب : كيف عاملهم للشيخ محمد المنجد ص [٨٢٧ - ٨٣٢] .

تَعَامَلْ لِرَبِّكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ الشَّبَابِ

رَبِّي النبي ﷺ جيلاً مؤمناً وملتزماً بمفاهيم وقيم الإسلام، وكان الغالب في هذا الجيل شريحة الشباب، فعادة ما يتفاعل الشباب مع كل جديد، وهم أكثر الناس تأثراً، وأسرعهم استجابة، وأشدهم تفاعلاً؛ بخلاف جيل الشيوخ الذين في الغالب ما يقفون حجر عثرة أمام أيّ تغيير أو إصلاح، وأشد الناس تمسكاً بالقديم، ورفضاً للحديث والجديد، تمسكاً بمبادئهم ورفضاً لمبادئ الآخر أو ما يخالفهم؛

وكان للشباب دورٌ رئيسي في الالتفاف حول سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ودعم ما جاء به النبي ﷺ، والدعوة إليه، والدفاع عنه، كما كان للنبي ﷺ اهتمام خاص برعاية الشباب وتربيتهم وإعدادهم لتحمل المسؤوليات الكبيرة.

وما نريد التركيز عليه هو: كيف تعامل النبي ﷺ مع الشباب؟ وما هي القواعد التي ربّي عليها النبي ﷺ شباب الجيل الأول؟

يمكننا أن نلخص الإجابة على هذه التساؤلات ضمن النقاط التالية:

(١) التربية المتوازنة:

إن النبي ﷺ، ربّي لشباب على التربية القائمة على الموازنة بين العاطفة والعقل، والروح والجسد، والعلم والعمل، وهذا التوازن الدقيق هو المنهج السليم في التربية، بيد أن طغيان جانب على حساب الجانب الآخر، سيؤدي إلى خلل في بناء الذات، وانحراف عن منهج الإسلام.

وقد كان النبي ﷺ ، يقف ضد كل توجه غير صحيح، أو تفكير خاطئ ، أو ممارسة سلبية ؛ من ذلك ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها ، قالوا : فأين نحن من رسول الله ﷺ ، وقد عُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله ، إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأزقد ، وأتزوج النساء ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » (١) .

وأخرجه النسائي ، وهذا لفظه : أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ قال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، وقال بعضهم : أصوم ولا أفطر ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ؟ لكني أصلي وأناصم ، وأفطر ، وأتزوج النساء ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » .

من خلال هذه الرواية نستنتج أن النبي ﷺ ، قد رفض بقوة التوجه الخاطئ نحو الرهبانية ، وترك الطيبات ، وأوضح بكل جلاء أنه ليس في الإسلام رهبانية ، بمعنى الانعزال عن الدنيا ، وترك الزواج ، وعدم استخدام الطيب إلخ . وإنما الإسلام يدعو إلى التوازن بين متطلبات الجسم ولوازم الروح ، والإنسان كما يحتاج لإشباع غرائزه وشهوته المادية من مأكَل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح ، يحتاج كذلك لإشباع ميوله ورغباته المعنوية ؛

وأي طغيان لجانب على حساب الآخر سيؤدي إلى خلل في الشخصية ، وانحراف عن منهج الإسلام .

وهكذا ربّي النبي ﷺ ، أصحابه على التوازن بين متطلبات الجسم ، ومستلزمات الروح .

وفي هذا العصر حيث طغت المادة على كل شيء ، وأصبح شعار الفلسفة المادية الحديثة هو التركيز على كل ما هو مادي، وتجاهل كل ما هو معنوي وروحي ، يحتاج كل شاب أن ينتبه إلى ذاته وأن يسعى لتحصيل الكمالات الروحية، وهذا يتطلب مجاهدة النفس، والتدرب على ممارسة الرياضة الروحية، وترويض الذات على سلوك طريق الحق والخير والصلاح. وليكن شعارنا قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

(٢) - الرفق بالشباب:

تعامل الرسول ﷺ ، برفق مع الشباب، وهذا مما زاد في إيمان الشباب بالنبي ﷺ ، والتفافهم حوله، وقد مدح القرآن الكريم تعامل النبي ﷺ ، مع الناس باللين والرفق، يقول تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد كان النبي ﷺ ، يحث على الرفق، فقد روي عنه ﷺ ، قوله: « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ »^(١).

وعنه ﷺ أيضاً: ((إِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقُ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَهُ سَهْلًا، فَخُذُوا مِنْهُ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ مَا دَامَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ وَإِنْ كَانَ يَسِيرًا))^(٢).

والمطلع على سيرة النبي ﷺ ، يجد الكثير من الأمثلة التي تدل على رفقته ﷺ بالشباب، نذكر من ذلك ما يلي:

(١) أخرجه مسلم.

(٢) رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه عن عمر رضي الله عنه (كنز العمال - ج ٣ / ص ٣٥ .

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده ^(١).

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا حدث الحديث أو سُئِلَ عن الأمر كرّره ثلاثاً ليفهم ويفهم عنه ..

(٣) وروى زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا إذا جلسنا إليه ﷺ إن أخذنا في حديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ.

(٤) عبد الله بن أبي الحمساء رضي الله عنه قال: « بايعت رسول الله ﷺ ببيع، قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، فَبَقِيَتْ لَهُ عَلَى بَقِيَّةٍ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ ذَلِكَ قَالَ: فَنَسِيتُ يَوْمِي وَالْعَدَدَ، فَأَتَيْتُهُ مِنَ الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ ذَلِكَ، فَقَالَ لِي: يَا فَتَى، لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ، أَنَا هَهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِ أَنْتَظِرُكَ » ^(٢).

(٥) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل بعض بيوته فامتلاً البيت، ودخل جرير فقعد خارج البيت، فأبصره النبي ﷺ فأخذ ثوبه فلفه ورمى به إليه وقال: اجلس على هذا، فأخذه جرير فوضعه على وجهه وقبله .

(٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَ سَلْمَانَ عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه ، وَهُوَ مُتَكِيٌّ عَلَى وِسَادَةٍ، فَأَلْقَاهَا لَهُ، فَقَالَ سَلْمَانُ: اللَّهُ أَكْبَرُ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: حَدَّثْنَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَكِيٌّ عَلَى وِسَادَةٍ، فَأَلْقَاهَا إِلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: « يَا سَلْمَانُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْخُلُ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فَيُلْقِي لَهُ وِسَادَةً إِكْرَامًا لَهُ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ » ^(٣).

(١) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) رواه الطبراني والحاكم في المستدرک ..

من هذه النماذج من سيرة النبي ﷺ ، يتضح لنا رفق رسول الله ﷺ بالشباب، وتعامله معهم بكل لطف وليونة، وهذا من أسباب نجاح الدعوة، واستقطاب الشباب لرسالة الإسلام ، وهذا ما يجب أن يتصف به الدعاة والقادة والعلماء إذا ما أرادوا استقطاب الشباب، والتأثير فيهم، وكسبهم نحو التدين، ومنهج الإسلام.

٣) الثناء على الشباب:

للثناء تأثير كبير على النفوس، وبالأخص نفوس الشباب، ولذلك كان النبي ﷺ كثيراً ما يثني على الشباب المؤمن ؛ فقد روي عن النبي ﷺ قوله: ((ما من شاب يدع الله الدنيا وهوها، وأهرم شبابه في طاعة الله، إلا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صديقاً)) . وفي رواية عن شريح ، قال: حَدَّثَنِي الْبَدْرِيُّونَ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَا مِنْ شَابٍّ يَدْعُ لَذَّةَ الدُّنْيَا وَلَهُوَهَا وَيَسْتَقْبِلُ بِشَبَابِهِ طَاعَةَ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَاهُ أَجْرَ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صَدِيقًا، ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَيُّهَا الشَّابُّ التَّارِكُ شَهْوَتَهُ لِي، الْمُبْتَذِلُ شَبَابَهُ لِي، أَنْتَ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلَائِكَتِي))^(١).

وعنه ﷺ أيضاً أنه قال: ((إن أحب الخلائق إلى الله عز وجل شاب حَدَثَ السِّنِّ في صورة حسنة جعل شبابه وجماله لله وفي طاعته، ذلك الذي يباهي به الرحمن ملائكته، يقول: هَذَا عَبْدِي حَقًّا))^(٢). وقد كان لثناء الرسول ﷺ ، على الشباب دور مهم ومؤثر في كسب المزيد منهم، والتفافهم حول قيادة النبي ﷺ ، وهذا ما جعل للشباب دوراً فاعلاً في تقدم الدعوة، ونشر رسالة الإسلام إلى مختلف المناطق ، فالشباب هم عماد أي تقدم، وسر نهضة الأمم، وقوة أي مجتمع ؛ لأنهم في مرحلة القوة، والقدرة على العطاء والإنتاج، والاستعداد للتضحية والفداء، وحب المغامرة، وتوكيد الشخصية ؛

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ، والحسن بن سفيان عن شريح قال حدثني البدريون منهم عمر رضي الله عنه أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٢) رواه ابن عساکر - عن ابن مسعود ﷺ ، كنز العمال - (ج ١٥ / ص ٧٨٥).

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَرَّتَيْنِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ أَرْجِعُ، فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَرَّتَيْنِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ مَرَّتَيْنِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ مَرَّتَيْنِ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِذَا أَدْنَتْ بِالْأَوَّلِ مِنَ الصُّبْحِ فَقُلْ: الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ، الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ، وَإِذَا أَقَمْتَ فَقُلْهَا مَرَّتَيْنِ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، أَسَمِعْتَ؟ قَالَ: وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ لَا يَجُزُّ نَاصِيَتَهُ، وَلَا يُفَرِّقُهَا لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَسَحَ عَلَيْهَا^(١).

(٤) في أواخر حياة النبي ﷺ جَهَّزَ ﷺ المسلمين لقتال الروم، وضم جيشه كبار الضباط وأمراء الجيش ورجال المهاجرين والأنصار وشيوخ العرب والشخصيات البارزة آنذاك، لاشك في أن قائد هذا الجيش العظيم لابد وأن يكون ذا شأن ومنزلة يختاره الرسول ﷺ لهذا الأمر الخطير من بين نخبة العسكر، فمن يا ترى حمل هذا اللواء؟ لقد استدعى الرسول ﷺ، أسامة بن زيد، وعقد له لواء القيادة وخوله إمارة الجيش، واستعمله النبي ﷺ وهو ابن ثمانٍ عشر سنة.

وبات على الجميع أن يمد يد الطاعة والولاء لهذا القائد الشاب الذي عينه الرسول ﷺ بالرغم من وجود كبار القوم في هذا الجيش المتجه لقتال الإمبراطورية الرومية. ولا يخفى أن الشرط الأساس لاختيار الشباب هو كفاءتهم وصلاحتهم، ويتضح هذا الشرط جلياً في خطبه ﷺ وأحاديثه.

فالشباب الذين كان يقع عليهم اختيار النبي ﷺ، لتقليدهم المناصب الحساسة في الدولة كانوا يتمتعون بالكفاءة واللياقة المطلوبة من حيث العقل والفكر والذكاء والإيمان والعلم والأخلاق والتدبير وبقية الجوانب.

ومن هذه النماذج التاريخية يتبين لنا كيف أن النبي ﷺ، قد أجاد توظيف طاقات الشباب، واستطاع أن يزرع في نفوسهم الثقة بالنفس، والإرادة القوية، والعزيمة الفولاذية، مما جعلهم

يقومون بأدوار كبيرة، ويتحملون مسؤوليات خطيرة؛ كان لها الفضل الأكبر في نشر راية الإسلام خفاقة في بقاع الدنيا .

٥ - وكان رسول الله ﷺ يُشَجِّعُهُمْ عَلَى الرِّيَاضَةِ بِأَنْوَاعِهَا :

فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ^(١) بِالسِّيْفِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اِرْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنْ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًّا ، اِرْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانِ ، قَالَ : فَأَمْسِكْ أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ ؟ فَقَالُوا : كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اِرْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلَّكُمْ »^(٢) .



(١) ينتضلون : يَرْمُونَ بالسهم. يقال : انْتَضَلَ الْقَوْمُ وَتَنَاضَلُوا : أَي رَمَوْا لِلسَّبْقِ.

(٢) أخرجه البخاري.

تَعَامُلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ كِبَارِ السَّنِّ

لقد مضت سنة الله تعالى في الإنسان أن جعله يمرُّ بمراحلٍ متعدّدة في رحلته الدنيوية ، فيبدأ وليداً ضعيفاً ، ثم شاباً قوياً ، وأخيراً شيخاً ضعيفاً .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] .

ولقد حرص الإسلام على العناية بمرحلة الشيخوخة ، وجعلها محطة تكريم وعناية خاصة ؛ وذلك لأن صاحبها يتصف بالضعف ، ويحتاج إلى من يخدمه ، ويقوم بشئونه ، ولذلك فهي مرحلة حرجة .

وقد كان النبي ﷺ يقول : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ)^(١) .
وكان يقول : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ)) .

وأردل العمر هو أخسّه وأنقصه ؛ لأن الإنسان تنقص قواه الظاهرة والباطنة حتّى قواه العقلية تنقص ، فينسى الإنسان ما كان يعمله ..

ولقد كان للرسول ﷺ معاملةً خاصّة مع كبار السنّ ، فقد أولاهم كلّ رعاية واهتمام ، ومع أنّه ﷺ كان حسن الخلق مع جميع الناس إلا أنه كان أشد عطفاً ورفقاً على الضعفاء كالأطفال والنساء ، وكبار السنّ .

(١) رواه البخاري ومسلم عن أنس ابن مالك رضي الله عنه .

وقد عدَّ النبي ﷺ الرجل الكبير من خير الناس إذا حسن عمله :

عن أبي بكرة رضي عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أيُّ النَّاسِ خيرٌ ؟ قال : ((مَنْ طَالَ عمرُهُ وحسنَ عمله)) . قال : فأَيُّ النَّاسِ شرٌّ ؟ قال : ((من طال عمره وساء عمله))^(١) .

رعاية المسنين في الإسلام :

ينطلق منهج رعاية المسنين - في الإسلام - من منطلق إنساني سامي، بعيداً عن التمييز بين فئات المسنين على أساس الجنس أو اللون أو الدين ، فالإسلام لا يقرّر قواعد الرعاية للمسنين من منطلق عنصري أو عرقي كما هو الحال في العالم " المتحضر " في هَذَا الوقت الراهن .

فالمسن الفرنسي ذو البشرة البيضاء له الرعاية الشاملة والحقوق الكاملة ، أما المسن الأسود والذي يحمل نفس الجنسية لا يتمتع بمعشار ما يتمتع به المسن الأبيض، رغم أنهم أصحاب وطن واحد ودين واحد ولغة واحدة..! فإليت هَذَا العالم " المتحضر " ينظر إلى منهج نبي الإسلام ﷺ مع المسنين، كل المسنين، البيض والسود، العرب وغير العرب، المسلمين وغير المسلمين .

وإليكم بعض تعاليمه ﷺ في رعاية المسنين ..

حثه ﷺ على إكرام المسنين والرفق بهم :

أولاً: مناشدة الشباب لإكرام المسنين : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي عنه قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا أَكْرَمُ شَابٌّ شَيْخاً لِسَنِّهِ إِلا قِيَصَ اللهُ لَهُ مِنْ يُكْرَمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ »^(٢) .

وهكذا أوصى شباب المجتمع بشيوخه، وشباب اليوم هم شيوخ الغد، وتبقى الوصية المحمدية متواصلة ومتلاحقة مع حقب الزمن، توصي الأجيال بعضها ببعض، وفيه بشارة بطول العمر وبالقرين الصالح الذي يكرم من أكرم شيخاً، والجزاء من جنس العمل .

(١) رواه أحمد والترمذي والدارمي .

(٢) أخرجه الترمذي .

وانظر إِلَى هَذَا التعميم : ((مَا أَكْرَمَ شَابُّ شَيْخًا لِسِنِّهِ)) ، أي شيخ مُسن، مهما كان لونه، ومهما كان دينه، فالمسلم مطالب بإكرام المسن دون النظر إِلَى عقيدته أو بلده أو لونه.

كما في حديث أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : ((والذي نفسي بيده لا يضع الله رحمته إلا عَلَى رحيم)) ، قالوا : يا رسول الله ، كلنا يرحم ، قال : ((ليس برحمة أحدكم صاحبه ، يرحم الناس كافة))^(١) . فيرحم الناس كافة، والأطفال كافة، والمسنين كافة، بعجرهم وبجرهم، مسلمهم وغير مسلمهم ..

ثانيًا: إكرام المسن من إجلال الله : فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ : إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ ، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسَطِ »^(٢) .

فجعل إكرام المسنين من إجلال الله ، وربط بين توقير الخالق وتوقير المخلوق ، وإجلال القوي سبحانه وإجلال المسن الضعيف، وذكر علامةً، يُكرم بها صاحبها، هي الشيب، فكان حقاً عَلَى كل من رأى هذه العلامة في إنسان إن يكرمه ويحمله .

ثم انظر كيف جمع بين المسن وحامل القرآن والسلطان، وقدم المُسن، كأنه يقول لك : وقّر المسن كما توقّر السلطان والرئيس والحاكم، وعظم المسن كما تعظم حامل القرآن الخادق.

وتحت لفظ : ((إكرام ذي الشيبة المسلم)) ، تأتي كل صور الرعاية والإكرام للمُسْنين، كالرعاية الصحية، والرعاية النفسية، والرعاية الاجتماعية والاقتصادية، ومحو الأمية، والتعليم الثقيف، وغيرها من صور العناية التي ينادي بها المجتمع الدولي الآن .

ثالثًا: ليس من المسلمين من لا يوقر الكبير : فعن عبد الله بن عمرو : أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُقَرِّرْ كَبِيرَنَا))^(٣) .

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في مُسنده ..

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي .

فجعل من الذين لا يوقرون الكبراء والمسنين عناصر شاذة في مجتمع المسلمين، بل وتبرأ منهم! إذ ليس من المسلمين من لا يحترم كبيرهم، وليس من المجتمع من لم يوقر مشايخه وأكابرهم من المسنين.

وتأمل لفظة النبي ﷺ: ((يوقر كبيرنا)) هكذا بضمير الجمع، تعظيماً للكبير والمسن -، ولم يقل ((يوقر الكبير))، ليقدر أن الاعتداء على الكبير أو المسن بالقول أو الفعل أو الإشارة هو اعتداء على جناب رسول الله ﷺ، الذي نسب المسن إليه وانتسب إليه، بقوله: ((كبيرنا)) .

رابعاً: تسليم الصغير على الكبير: فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((يُسَلَّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ))^(١).

فقرر النماذج العملية البسيطة، فيما يتعلق بجوانب الذوقيات الاجتماعية العامة، وبدأ بأهم هذه المظاهر الأخلاقية والذوقية، وهو مظهر توقير الكبير واحترام المسن، فهو البند الأول في - الأسلوب الإسلامي - الجميل، ولما كان الصغير هو المبادر في مثل هذه الأحوال، كان عليه فيما دون ذلك، فيبدأ بالمساعدة، ويبدأ بالملاطفة، ويبدأ بالزيارة، ويبدأ بالنصيحة، ويبدأ بالاتصال .. الخ

خامساً: تقديم المسن في وجوه الإكرام عامة:

قال النبي ﷺ: ((أمرني جبريل أن أقدم الأكاير)) .

وهذه قاعدة عامة في تقديم الكبير والمسن في وجوه الإكرام والتشريف عامة .

وقد أمر النبي ﷺ أن يُبدَأَ الكبير بتقديم الشراب ونحوه للأكاير .. فقال: ((ابدؤوا بالكبراء - أو قال - بالأكاير))^(٢).

ولقد مارس هذا الخلق عملياً، فتقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ: يستن وعنده رجلان، فأوحي إليه: أن أعط السواك أكبرهما! ^(٣) .

(١) أبو داود، والترمذي .

(٢) رواه مالك في الموطأ ..

(٣) رواه أبو داود ..

وعن عبد الله بن كعب رضي عنه: كان عليه السلام إذا استن أعطى السواك الأكبر، وإذا شرب أعطى الذي عن يمينه . قال ابن بطال : فيه تقديم ذي السن في السواك ، و يلتحق به الطعام والشراب والمشى والكلام ، ومن ثم كل وجوه ..

كما أن الكبير - في الهدي النبوي - أحق بالبداة في الكلام، والحوار، فعن رافع بن خديج وسهل بن أبي حثمة أن عبد الله بن سهل ومحيفة بن مسعود أتيا خبير فتفرقا في النخل، فقتل عبد الله بن سهل فجاء عبد الرحمن بن سهل وحويفة ومحيفة ابنا مسعود إلى النبي عليه السلام فتكلموا في أمر صاحبهم، فبدأ عبد الرحمن وكان أصغر القوم، فقال له النبي عليه السلام : ((كَبْرَ كَبْرَ ..))^(١)، يعني ليلى الكلام الأكبر .

سادساً : التخفيف عن المسنين في الأحكام الشرعية إذا لم يستطيع :

فالأحكام الشرعية في الإسلام دائما تأخذ في الاعتبار مبدأ التخفيف عن صاحب الحرج، كالمسن ، نرى ذلك بوضوح في جل التشريعات الإسلامية ، فقد خفف الشرع عن المسن في الكفارات والفرائض والواجبات .

أما التخفيف عن المسن في الكفارات، فقصة المجادلة (خولة بنت ثعلبة) في القرآن خير دليل، عندما وقع زوجها (أوس بن الصامت) - وهو شيخ مسن - في قضية الظهار، ونزل الحكم الشرعي العام : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٤] .

وقال رسول الله عليه السلام خولة المجادلة: «مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً»، قَالَتْ: وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِنْدَهُ مَا يَعْتِقُ، قَالَ: «فَلْيُصِّمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ، مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ، قَالَ: «فَلْيُطْعَمْ سِتِّينَ مَسْكِينًا وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ»، فَقُلْتُ: وَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا ذَلِكَ

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

عِنْدَهُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَنَا سَتَعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ سَأَعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ، فَقَالَ: «أَصَبْتُ، وَأَحْسَنْتِ، فَادْهَبِي فَتَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكَ خَيْرًا»^(١).

وفي الفرائض: أجاز للمسِّن أن يفطر في نهار رمضان - ويطعم - إذا شق عليه الصيام، وأن يصلي مضطجعا إذا شق عليه القيام، وأن يصلي جالسا إذا شق عليه الجلوس، وهكذا.

ولقد عَنَّفَ الرسول ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه، ذات يوم، لما صلى إماماً فأطال، فَشَقَّ عَلَى المأمومين، قائلاً ﷺ: ((يا معاذ! أفتان أنت! [ثلاث مرات] فلو لا صليت بسبح اسم ربك والشمس وضحاها والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة!))^(٢).

ورخص للمسِّن أن يرسل من يحج عنه إن لم يستطع أن يمتطي وسيلة النقل.

فعن الفضل أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله، إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج، وهو لا يستطيع أن يستوي عَلَى ظهر بعيره، فقال لها النبي ﷺ: ((فُحِّجِي عَنْهُ))^(٣).

نماذج من تعامله ﷺ للمسنين:

أولاً: إنصاته ﷺ لِعُبَّةٍ وتلطفه معه:

جاء عبدة بن ربيعة - أحد شيوخ المشركين في مكة - يتحدث إلى النبي ﷺ، بحديث طويل يريد أن يشنيه عن دعوته، وكان من بين ما قال: أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت النبي ﷺ، تأدباً وإعراضاً عن الجاهلين!

(١) رواه أحمد في المسند وابن حبان والطبراني ..

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم .

(٣) رواه أحمد ومسلم وابن خزيمة وغيرهم .

فواصل عتبة قائلاً: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبّت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد أفضحتنا في العرب حتّى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتّى نتفانى، فلما عاين عتبة هَذَا الأدب اجم من رسول الله، خفف من حدة الحديث، وقال: يا بن أخي، إن كنت إنسا تريد بما جئت به من هَذَا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتّى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هَذَا الذي يأتيك رثياً [يعني جنون أو مس] تراه لا تستطيع رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتّى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتّى يتداوى منه، ولا زال عتبة يتحدث إلى النبي ﷺ، بهَذَا الحديث الذي لا يخلوا من التعريض أو من التجريح، ورسول الله ﷺ في إنصات واستماع بكل احترام للشيخ ..

حتّى إذا فرغ عتبة، قال له النبي ﷺ - في أدب ورفق - ((أفرغت يا أبا الوليد؟)) قال: نعم ، قال: ((اسمع مني))، قال: أفعل. فقرأ عليه النبي ﷺ أول سورة فصلت. ثانياً: سعيه ﷺ لفك أسر شيخ كبير: فلما أسر عمرو بن أبي سفيان بن حرب، في معركة بدر، ووقع أسيراً في يد رسول الله ﷺ فقيل لأبي سفيان: افد عمرا ابنك! قال: أجمع علي دمي ومالي، قتلوا حنظلة وأفدي عمرا، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم.

فبينما هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله ﷺ إذ خرج شيخ كبير مسلم إلى مكة لأداء العمرة، وكان اسمه سعد بن النعمان بن أكال - أخو بني عمرو بن عوف - فخرج معتمراً، رغم أن الظروف السياسية عصبية لاسيما بعد بدر، ولم يظن أنه يجبس بمكة، وقد كان عهد أن قريشاً لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة، فحبسه بابنه عمرو ..

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروا خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان، فيفكوا به الشيخ، ففعل رسول الله ﷺ، وأفرج عن ابن أبي سفيان على الفور، دون فداء، فبعثوا به إلى أبي سفيان فحلى سبيل الشيخ .

ثالثاً: رفقه بأبي قحافة وتوقيره له : لما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً (في رمضان ٨هـ)، ودخل المسجد الحرام، أتى أبو بكر بأبيه يقوده إلى النبي ﷺ ، ليتعرف عليه، لعله أن يسلم .

فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ((هَلَا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ فِيهِ ؟)) .
 قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ» ، فَأَسْلَمَ ؛ وَدَخَلَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَأْسُهُ كَأَنَّهُ نَعَامَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «عَيَّرُوا هَذَا مِنْ شَعْرِهِ»^(١) ..

رابعاً : كان ﷺ يطمعهم في رحمة الله ولا يُفَنِّطهم منها : عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ شَيْخٌ كَبِيرٌ يَدْعِمُ عَلَى عَصَا لَهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ لِي غَدْرَاتٍ وَفَجْرَاتٍ فَهَلْ يُغْفَرُ لِي ؟ قَالَ ﷺ : ((أَلَسْتَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟)) قَالَ : بَلَى ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ ﷺ : ((قَدْ غُفِرَ لَكَ غَدْرَاتُكَ وَفَجْرَاتُكَ))^(٢) .

وفي رواية : فانطلق وهو يقول : الله أكبر الله أكبر ..

وأخيراً، يمكن أن نلخص الهدى النبوي في التعامل مع المسنين في عدة نقاط هي :

١ - كان رسول الله يوقر كبار السن ويمزح معهم ويقدمهم في العطاء ، ويوليهم المسؤوليات لأنهم أصحاب الخبرة والتجربة ، وكان يُذكّرهم بالله ويقرب آجالهم ، ويُجذّرهم من الحرص على الحياة وجمع المال ..

(١) رواه أحمد وابن حبان والطبراني وغيرهم ..

(٢) رواه أحمد في مسنده ، والفجرات : جمع فجرة وهي المرة من الفجور وهو اسم جامع لكل شر ..

٢- مسؤولية المجتمع بكامله - خاصة الشباب - عن الشيوخ والمسنين ، علماً بأن رعاية المسنين واجب عيني على الأنظمة والحكومات والشعوب ، ويمتد الواجب إلى حشد الجهود الفردية والجماعية والرسمية وغير الرسمية لرعاية المسنين .

٣- الرعاية الكاملة والشاملة للمسن، صحياً ونفسياً وعقلياً واجتماعياً، وغيرها من صور العناية وقد جمعها اللفظ النبوي في جملة : ((إكرام ذي الشيبة)) .

٤- توقيف المسنين في المعاملات الاجتماعية اليومية المختلفة ..

٥- تقديم المسنين في وجوه الإكرام عامة، كالإمامة والطعام والشراب .

٦- التخفيف عن المسنين في الأحكام الشرعية، ومراعاة الفتوى الشرعية لهم .

وأحبّ أن أختتم هذا الفصل بتوجيهات مهمة أرسلها إليّ بعض الأحاب ، وهي بعنوان :

كِبَارُ السَّنِّ البركة الخفية:

◆ كِبَارُ السَّنِّ: أحوج من أطفالنا إلى التدليل ، والاسترضاء ، والعاطفة ، والحنان ، والرفق ، والرحمة ، والصبر ، والسَّهر ، والتضحية .

◆ كِبَارُ السَّنِّ: الكلمة التي كانت لا تريحهم حال قوتهم ، الآن تجرُّحهم والتي كانت تجرحهم الآن تذبُّحهم !!

◆ كِبَارُ السَّنِّ: فقدوا الكثير من حيوية الشباب وعافية الجسد ورونق الشكل ومجد المنصب وضجيج الحياة وصخب الدنيا !!

◆ كِبَارُ السَّنِّ: فقدوا والديهم وفقدوا كثيراً من رفقاتهم ، فقلوبهم جريحة ونفوسهم مطوية على الكثير من الأحزان .

◆ كِبَارُ السَّنِّ: لم يعودوا محور البيوت وبؤرة العائلة كما كانوا قبل فانتبه ولا تكن من الحمقى فتشقى !!

◆ كِبَارُ السَّنِّ: قد يرقدون ولا ينامون ، وقد يأكلون ولا يهضمون ، وقد يضحكون ، ولا يفرحون ، وقد يوارون دمعهم تحت بسمتهم .

- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: يؤلمهم بُعْدُكَ عنهم ، وانصرافُكَ من جوارهم ، واشتغالُكَ بهاتفك في حضرتهِم .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: يحتاجون من يسمع لحديثهم ، ويأنس لكلامهم ، ويبدو سعيداً بوجودهم .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: أولى من الأطفال بمراعاتهم والحنو عليهم والإحساس بهم .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: حوائجهم أبعد من طعام وشراب وملبسٍ ودواء بل وأهم من ذلك بكثير... فهل من عاقل .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: يحتاجون إلى بسمَةٍ في وجوههم ، وكلمةٍ جميلة تطرق آذانهم ، ويداً حانية تمتد لأفواههم ، وعقلاً لا يضيق برؤاهم .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: يراوحن بين ذكريات ماضٍ ولىّ ويزداد بُعداً وبين آمالٍ مستقبلٍ آتٍ وقد لا يجيء فلا يفوتك تقدير هَذَا .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: لديهم فراغ يحتاج عُقلاء رُحماء يملؤونه .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: غادر بهم القطار محطة اللذة ، وصاروا في صالة انتظار الرحيل .. يتتظرون الداعي لِيَلْبُوهُ .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: قريبون من الله فدعائهم أقرب للقبول ... فأغتنم قبل نفاذ الرصيد .
- ◆ كِبَارِ السَّنِّ: هم الأب ، والأم ، والجد ، والجدة ، وسواهم من ذوي القربيات ممن شابت شعورهم ويبست مشاعرهم ؛ اجعلهم يعيشون أياماً سعيدة ، وليالي مشرقة ويختمون كتاب حياتهم بصفحات مانتعة من البر والسعادة حتّى إذا خلا منهم المكان لا تصبح من النادمين .
- ◆ هم كِبَارِ السَّنِّ الآن ، وسيذهبون وعمّا قليل ستكون أنت هَذَا الكَبِيرَ المَسْنً ...
- فانظر ما أنت صانع وما أنت زارع !
- ◆ كن العَوْضَ عمّا فقدوا ، وكن الربيعَ في خريف عمرهم وكن العُكَّازَ فيما تبقى .
- ◆ سلامٌ على كِبَارِ السَّنِّ... وسلامٌ على من يراعون كبار السَّنِّ .



تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ عَمَلِهِ مِنَ النِّسَاءِ

كان تعامل الحبيب ﷺ مع النساء يتسم بالرفق والحنو والرحمة ؛ وذلك لما طبعه الله عليه من كريم الأخلاق والرحمة بالناس والرفق بهم ، ولما يعلمه ﷺ من ضعف النساء وقلة حيلتهن .

فكان ﷺ يوصي أمته بالنساء خيراً : فَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَحْوَصِ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي ، أَنَّهُ شَهِدَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ ، وَوَعَّظَ ، فَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ قِصَّةً ، فَقَالَ : « أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُؤْطِنَنَّ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكَرَّهُونَ ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكَرَّهُونَ ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ » : قال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : « عَوَانٌ عِنْدَكُمْ » ، يَعْنِي : أَسْرَى فِي أَيْدِيكُمْ ^(١) .

وكان ﷺ يُعِدُّ النساءَ نظائر الرجال :

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ : ﷺ « إِنَّهُنَّ النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ » ^(٢) .

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما .

(٢) رواه الترمذي وأبو داود .

وقوله : النساء شقائق الرجال أي نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطباع فكأنهن شققن من الرجال .

وكان ﷺ يتعامل مع النساء بالرفق :

فيتعامل معهن باللين والرحمة والمحبة والعطف والرفق ، لما في المرأة من ضعفٍ ورقّةٍ ،
ولذلك يُطلق عليهن : القوارير .

فعن أنس رضي الله عنه أَنَّ الْبَرَاءَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يَحْدُو بِالرِّجَالِ وَكَانَ أَنْجَشَةً يَحْدُو بِالنِّسَاءِ وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا أَنْجَشَةُ رُؤَيْدِكَ سَوْفًا بِالْقَوَارِيرِ » ^(١) .

قَالَ أَبُو قَابَلَةَ : « تَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَلِمَةٍ لَوْ تَكَلَّمَ بِهَا بَعْضُكُمْ لَعَبِئُوهَا عَلَيْهِ » .

(سوقاً) أي ارفق في سوقك بالقوارير (بالقوارير) قال العلماء : سمى النساء قوارير لضعف عزائمهن تشبيها بقارورة الزجاج لضعفها وإسراع الانكسار إليها .

وذكر ابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري تعليقاً على هذا الحديث : قَالَ قَتَادَةُ يَعْنِي ضَعْفَةَ النِّسَاءِ وَالْقَوَارِيرُ جَمْعُ قَارُورَةٍ وَهِيَ الزُّجَاجَةُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِاسْتِقْرَارِ الشَّرَابِ فِيهَا وَقَالَ الرَّامَهُزْمِيُّ كَتَبَ عَنِ النِّسَاءِ بِالْقَوَارِيرِ لِرِقَّتِهِنَّ وَضَعْفِهِنَّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالنِّسَاءُ يُشَبَّهْنَ بِالْقَوَارِيرِ فِي الرِّقَّةِ وَاللِّطَافَةِ وَضَعْفِ الْبُنْيَةِ وَقِيلَ الْمَعْنَى سَقَّهِنَّ كَسَوْقِكَ الْقَوَارِيرَ لَوْ كَانَتْ مَحْمُولَةً عَلَى الْإِبِلِ وَقَالَ غَيْرُهُ شَبَّهَهُنَّ بِالْقَوَارِيرِ لِسُرْعَةِ انْقِلَابِهِنَّ عَنِ الرِّضَا وَقِلَّةِ دَوَامِهِنَّ عَلَى الْوَفَاءِ كَالْقَوَارِيرِ يُسْرِعُ إِلَيْهَا الْكَسْرُ وَلَا تَقْبَلُ الْجَبْرِ ..

وَجَوَزَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُنْفِهِمِ الْأَمْرِينَ فَقَالَ شَبَّهَهُنَّ بِالْقَوَارِيرِ لِسُرْعَةِ تَأَثُرِهِنَّ وَعَدَمِ مَجْلُدِهِنَّ فَخَافَ عَلَيْهِنَّ مِنْ حَثِّ السَّيْرِ بِسُرْعَةِ السَّقُوطِ أَوْ التَّأَلُّمِ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَةِ وَالْإِضْطِرَابِ النَّاشِئِ عَنِ السُّرْعَةِ أَوْ خَافَ عَلَيْهِنَّ الْفِتْنَةَ مِنْ سَمَاعِ النَّشِيدِ ^(٢) .

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن حبان والترمذي وغيرهم .

(٢) فتح الباري [١٠ / ص ٥٦٤] .

وكان عليه السلام يُثني على نساء قريش لما فيهن من الصفات الحسنة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ نِسَاءِ رَكِبَنِ الْإِبِلَ، صَالِحِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَزْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ»^(١).

قال المهلب: إنما يركب الإبل نساء العرب، ونساء قريش من العرب، فنساء قريش خير نساء العرب، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بما استوجب ذلك، وهو: حنوهن على أولادهن، ومراعاتهن لأزواجهن، وحفظهن لأموالهن، وإنما ذلك لكرم نفوسهن، وقلة غائلتهم لمن عاشرهن وطهارتهن من مكايده الأزواج ومشاحتتهن.

وفيه: جواز مدح الرجل نساء قومه وولياته بفضائلهن^(٢).

وكان عليه السلام يهتم بتعليم النساء ما يحتاجن إليه، فكان يُخصص لهن يوماً لتعليمهن، ووعظهن: عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رضي عنه ، قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الرَّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ، نُعَلِّمُنَا بِمَا عَلَّمَكَ اللَّهُ، قَالَ: «اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا»؛ فَاجْتَمِعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُنَّ مِنْ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا، مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إِلَّا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ» فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ»^(٣).

وكان عليه السلام يحرص على وعظ النساء وتذكيرهن:

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي عنه ، قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْعِيدِ، فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، بِغَيْرِ أَدَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى بِلَالٍ، فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَعِظَ النَّاسَ وَذَكَرَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ، فَوَعِظَهُنَّ وَذَكَرَهُنَّ، فَقَالَ: «تَصَدَّقْنَ،

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ١٧٥).

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

فَإِنْ أَكْثَرَ كَنْ حَطْبُ جَهَنَّمَ». فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفَعَاءُ الْحَدِيثِ، فَقَالَتْ: لِمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا تَكُنَّ تُكْثِرِينَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرِينَ الْعَشِيرَ»؛

قَالَ: فَجَعَلَنَ يَتَصَدَّقَنَّ مِنْ حُلِيِّهِنَّ، يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ^(١).

وكان كثيراً ما يحثهن على الصدقة؛ فعن زينب، امرأة عبد الله ابن مسعود قالت: قال رسول الله ﷺ: «تصدقن، يا معشر النساء، ولو من حليكن» قالت: فرجعت إلى عبد الله فقلت: إنك رجلٌ خفيفٌ ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته فأسأله، فإن كان ذلك يجزي عني وإلا صرفتها إلى غيركم، قالت: فقال لي عبد الله: بل ائتيه أنت، قالت: فانطلقت، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها، قالت: وكان رسول الله ﷺ قد ألقى عليه المهابه، قالت: فخرج علينا بلال فقلنا له: ائتي رسول الله ﷺ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أئجزي الصدقة عنهما، على أزواجهما، وعلى أيتام في حُجورهما؟ ولا تُخبره من نحن، قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ: «من هما؟» فقال: امرأة من الأنصار وزينب، فقال رسول الله ﷺ: «أي الزينب؟» قال: امرأة عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: «لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة»^(٢).

وكان النساء كذلك يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الجمعة:

عَنْ أُمِّ هِشَامٍ بِنْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، قَالَتْ: «لَقَدْ كَانَ تَنْوَرُنَا وَتَنْوُرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحِدًا، سَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضُ سَنَةٍ، وَمَا أَخَذْتُ قِ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقْرُوهَا كُلَّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، إِذَا خَطَبَ النَّاسَ»^(٣).

(١) رواه مسلم وغيره ..

(٢) رواه البخاري ومسلم ..

(٣) رواه مسلم وغيره ..

(وسبب اختيارها اشتغالها على ذكر البعث والموت والمواعظ الشديدة والزواج الأكيدة وفيه استحباب قراءة هذه السورة أو بعضها في الخطبة)^(١).

وكان ﷺ يُخَفِّفُ من صلاته شفقةً على من تُصَلِّي خلفه من النساء إذا سمع بكاء صبي:
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ فَأُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي، مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ»^(٢)، أي: من حزنها واشتغال قلبها به.

وكان ﷺ يُطَيِّبُ خَاطَرَ من انتقص من مكانتها منهنَّ: وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: بَلَّغْنَا مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ فَخَرَجْنَا مَهَا جَرِينَ إِلَيْهِ، وَأَخْوَانِي لِي أَنَا أَصْغَرُهُمَا: أَحَدُهُمَا أَبُو بُرْدَةَ، وَالْآخَرُ أَبُو رُحْمٍ - إِمَّا قَالَ: بِضْعٌ، وَإِمَّا قَالَ: فِي ثَلَاثَةِ أَوْ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي - فَرَكِبْنَا سَفِينَةً، فَأَلْقَيْنَا سَفِينَتَنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ، فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ. قَالَ: جَعْفَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْإِقَامَةِ فَأَقِيمُوا مَعَنَا، فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا، قَالَ: فَوَافَقْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَتَحَ خَيْبَرَ فَأَسْهَمَ لَنَا - أَوْ قَالَ: فَأَعْطَانَا - مِنْهَا، وَمَا قَسَمَ لِأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ - يَعْنِي خَيْبَرَ - شَيْئًا إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ إِلَّا أَصْحَابَ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرَ وَأَصْحَابِهِ، قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ، قَالَ: فَكَانَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا - يَعْنِي أَهْلَ السَّفِينَةِ -: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهَجْرَةِ، قَالَ: فَدَخَلْتُ أَسْمَاءَ بِنْتُ عُمَيْسٍ - وَهِيَ مِنْ قَدِيمِ مَعَنَا - عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءَ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، قَالَ عُمَرُ: الْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ؟ الْبَحْرِيَّةُ هَذِهِ؟ فَقَالَتْ: أَسْمَاءُ. نَعَمْ، قَالَ عُمَرُ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهَجْرَةِ، نَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَغَضِبَتْ، وَقَالَتْ كَلِمَةً: يَا عُمَرُ، كَلَّا وَاللَّهِ، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُطْعَمُ جَائِعُكُمْ، وَيَعْطَى جَاهِلُكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارٍ أَوْ فِي أَرْضِ الْبُعْدَاءِ الْبُعْضَاءِ بِالْحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِيْمِ اللَّهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا، وَلَا أَشْرَبُ

(١) مسند الشافعي - ترتيب السندي (١ / ١٤٦).

(٢) رواه مسلم وابن خزيمة وابن حبانة وابن ماجه ..

شَرَابًا حَتَّىٰ أَذْكَرَ مَا قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذِي وَنَخَافُ، وَسَأَذْكَرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَسْأَلُهُ، وَاللَّهُ لَا أَكْذِبُ وَلَا أَزِيغُ وَلَا أَزِيدُ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ عَمْرًا قَالَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَا قُلْتَ لَهُ؟» قَالَتْ: قُلْتُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلَا أَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ»؛

قَالَتْ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَىٰ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونَنِي أَرْسَالًا يَسْأَلُونَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلَا أَغْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: قَالَتْ أَسْمَاءُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَىٰ وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنِّي ^(١).

وكان ﷺ يسارع في قضاء حوائجهم :

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ انظري أَيَّ السِّكِّكِ شِئْتِ، حَتَّىٰ أَفْضِي لَكَ حَاجَتَكَ» ، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، حَتَّىٰ فَرَعَتْ مِنْ حَاجَتِهَا ^(٢).

وهذا من تواضع النبي ﷺ ، ولطفه بالمرأة التي تحتاج المساعدة ، والرعاية منه والرفق .

ومن شفقتة ﷺ عليهن : أنه كان يراجع بعض أزواجهن فيما يهمن من الأمور :

عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَىٰ خُوَيْلَةَ بِنْتِ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بِنِ حَارِثَةَ بِنِ الْأَوْقَصِ السُّلَمِيَّةِ وَكَانَتْ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ قَالَتْ: فَرَأَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدَاذَةَ هَيْئَتِهَا، فَقَالَ لِي: «يَا عَائِشَةُ، مَا أَبَدَ هَيْئَةَ خُوَيْلَةَ؟» .

قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْرَأَةٌ لَا زَوْجَ لَهَا يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ فَهِيَ كَمَنْ لَا زَوْجَ لَهَا، فَتَرَكَتْ نَفْسَهَا وَأَصَاعَتْهَا؛ قَالَتْ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ فَبَجَاءَهُ، فَقَالَ: «يَا عُثْمَانُ، أَرَعْبَةٌ عَنْ سُنَّتِي؟» .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

(٢) رواه مسلم ..

قَالَ: فَقَالَ: لَا وَ اللهُ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَلَكِنْ سُنَّتِكَ أَطْلُبُ، قَالَ: «فَإِنِّي أَنَامُ وَأَصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللهُ يَا عُمَرَانُ، فَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَصَيفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأُفْطِرُ، وَصَلِّ وَنَمْ»^(١).

وكان ﷺ يحفظ المعروف لأهله ممنهون ويراعيه :

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ كُنَّا فِي سَفَرٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسُرِينَا لَيْلَةً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ آخِرِ اللَّيْلِ قَبْلَ الصُّبْحِ وَقَعْنَا تِلْكَ الْوَقْعَةَ الَّتِي لَا وَقْفَةَ عِنْدَ الْمُسَافِرِ أَحَلَى مِنْهَا فَمَا أَيْقَظْنَا إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَيْقَظَ فُلَانٌ ثُمَّ فُلَانٌ ، وَكَانَ أَبُو رَجَا يُسَمِّيهِمْ وَيُسَمِّيهِمْ عَوْفٌ ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَامَ لَمْ نُوقِظْهُ مِنْ نَوْمَتِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَسْتَيْقِظُ ، لِأَنَّا لَا نَدْرِي مَا يَكُونُ فِي نَوْمَتِهِ تِلْكَ مِنَ الْحَدِيثِ ؛

فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَرَأَى مَا أَصَابَ وَكَانَ أَجُوفَ جَلِيدًا فَكَبَّرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ حَتَّى اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِشِدَّةِ صَوْتِهِ فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَكَوَ إِلَيْهِ الَّذِي أَصَابَهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (لَا ضَيْرَ أَرْجُلُوهَا) فَارْتَحَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَارَ ثُمَّ نَزَلَ فَدَعَا بِوُضُوءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ نُودِيَ فِي النَّاسِ الصَّلَاةَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ ؛

فَلَمَّا أَقْبَلَ مِنْ صَلَاتِهِ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مُعْتَزِلٍ مِنَ الْقَوْمِ فَقَالَ : (يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ) فَقَالَ أَصَابَنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ قَالَ (عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ) ثُمَّ سَارَ فَشَكَى إِلَيْهِ النَّاسُ الْعَطَشَ فَدَعَا فُلَانًا سَمَاهُ أَبُو رَجَا وَنَسَبَهُ عَوْفٌ وَدَعَا عَلِيًّا فَقَالَ (أَذْهَبَا فَابْغِيَانَا مَاءً) ؛

فَانطَلَقَا فَيَلْقِيَانِ امْرَأَةً بَيْنَ مَرَادَتَيْنِ أَوْ سَطِيحَتَيْنِ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا ، فَقَالَا لَهَا أَيْنَ الْمَاءُ ؟

فَقَالَتْ عَهْدَنَا بِالْمَاءِ أَمْسَ هَذِهِ السَّاعَةَ . وَنَفَرْنَا حُلُوفٌ فَقَالَا لَهَا انطَلِقِي فَقَالَتْ إِلَى أَيْنَ ؟

فَقَالَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَتْ أَهَذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِيُّ ؟

قَالَ الَّذِي تَعِينَنِي فَأَنْطَلِقِي فَبَجَاءَ وَابِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَدَّثَاهُ الْحَدِيثَ ، فَاسْتَنْزَلُوهَا عَنْ بَعِيرِهَا وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِنَاءٍ فَأَفْرَغَ فِيهِ مِنْ أَفْوَاهِ الْمَزَادَتَيْنِ أَوِ السَّطِيحَتَيْنِ ثُمَّ مَضَمَصَ بِالسَّاءِ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي الْإِنَاءِ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي أَفْوَاهِ الْمَزَادَتَيْنِ أَوِ السَّطِيحَتَيْنِ ثُمَّ أَوْكَأَ أَفْوَاهَهُمَا وَأَطْلَقَ الْعَرَالِي وَنُودِيَ فِي النَّاسِ أَنْ اسْقُوا وَاسْتَقُوا ؛

قَالَ فَسَقَى مَنْ شَاءَ وَاسْتَقَى مَنْ شَاءَ حَتَّى كَانَ آخِرُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ أَجْنَبَ فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ السَّاءِ فَقَالَ لَهُ (أَفْرِغْهُ عَلَيْكَ) وَهِيَ قَائِمَةٌ تَنْظُرُ مَا يَفْعَلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهَا بِهَا قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اجْمَعُوا لَهَا) ؛

فَجَمَعُوا لَهَا طَعَامًا وَدَقِيقًا وَعَجْوَةً ، جَمَعُوا لَهَا طَعَامًا فَوَضَعُوهُ فِي ثَوْبٍ لَهَا وَحَمَلُوهَا عَلَى بَعِيرِهَا وَوَضَعُوا الثَّوْبَ بَيْنَ يَدَيْهَا .

فَذَهَبَتْ إِلَى قَوْمِهَا وَقَدِ احْتَبَسَتْ عَنْهُمْ ، فَقَالَ لَهَا قَوْمُهَا مَا حَبَسَكَ ؟

قَالَتْ الْعَجَبُ ، أَتَانِي رَجُلَانِ فَذَهَبَا بِي إِلَى هَذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِيُّ فَفَعَلَ بِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الَّذِي كَانَ قَالَتْ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَأَسْحَرُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَقَالَتْ بِأُصْبُعَيْهَا السَّبَابِيَةَ وَالْوُسْطَى تَرَفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ يَعْنِي السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ أَوْ إِنَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ حَقًّا .

قَالَ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَظْهَرُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَلَا يُصِيبُونَ الصِّرْمَ الَّذِي هِيَ مِنْهُ فَقَالَتْ لَهُمْ يَوْمًا وَاللَّهِ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَيَدْعُونَكُمْ عَمْدًا فَمَا رَأَيْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ ؟ قَالَ فَطَاوَعُوهَا فَبَجَاءَ وَابِهَا جَمِيعًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْلَمُوا ^(١) .

فقد حفظ النبي ﷺ لهذه المرأة المعروف الذي قدمته لهم ، فراعى ذلك فيها ، فقدم لها طعاماً كثيراً ، وراعى ذلك في قومها أيضاً حفظاً لمعرفها .

وَإِذَا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِحْدَاهُنَّ عَلَى خَطَأٍ أَنْكَرَ عَلَيْهَا بِرَفِقٍ وَلِينٍ :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ لَامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ: تَعْرِفِينَ فُلَانَةَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِهَا وَهِيَ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ، فَقَالَ:

((اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي))، فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ خَلَوْتُمْ مِنْ (وَفِي رِوَايَةٍ: لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، [وَلَمْ تَعْرِفْهُ]، قَالَ: فَجَاوَزَهَا وَمَضَى، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: مَا عَرَفْتُهُ، قَالَ: إِنَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَجَاءَتْ إِلَى بَابِهِ، فَلَمْ تَجِدْ عَلَيْهِ بَوَّابًا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنْ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ. (وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى) (١).

قال المؤلف: إنما أمرها بالصبر لعظيم ما وعد الله عليه من جزيل الأجر. قال ابن عون: كل عمل له ثواب إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]. فأراد ﷺ ألا تجتمع عليها مصيبتان مصيبة الهلاك، ومصيبة فقد الأجر الذي يبطله الجزع، فأمرها بالصبر الذي لا بد للجزاع من الرجوع إليه بعد سقوط أجره، وقد أحسن الحسن البصري في البيان عن هذا المعنى، فقال: الحمد لله الذي آجرنا على ما لا بُدَّ لنا منه، وأثابنا على ما لو تكلفنا سواه صرنا إلى معصيته. فلذلك قال ﷺ لها: (اتقي الله واصبري)، أي اتقي معصيته بلزوم الجزع الذي يحبط الأجر، واستشعري الصبر على المصيبة بما وعد الله على ذلك (٢).

ونهى ﷺ الرجال عن ضربهنَّ :

فَعَنْ إِيَّاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ». فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ذَرْنِ النَّسَاءَ عَلَى أَرْوَاجِهِنَّ؛ فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ (٣).

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

(٢) شرح ابن بطلان على صحيح البخاري ..

(٣) أي نشزن عليهم واجترأ ..

فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَرْوَاجَهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَرْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أَوْلَيْكَ بِخِيَارِكُمْ»^(١).

أي: ليس أولئك الرجال الذي يضربون نساءهم بخياركم، بل خياركم من لا يضربهن ويتحمل عنهن. فالتحمل والصبر على سوء أخلاقهن وترك الضرب أفضل وأجمل^(٢).

والإماء: جمع أمة وهي الجارية لكن المراد هنا المرأة أي لا تضربوهن لأنكم وهن خلق الله فان وافقوكم فأحسنوا إليهن وسامحوهن وإلا ففارقوهن^(٣).

وكان ﷺ يقبل منهن الهدية:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَدَخَلَ بِأَهْلِيهِ، قَالَ: فَصَنَعَتْ أُمِّي أُمَّ سُلَيْمٍ حَيْسًا، فَجَعَلْتُهُ فِي تَوْرٍ، فَقَالَتْ: يَا أَنَسُ، اذْهَبْ بِهَذَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْ: بَعَثْتُ بِهَذَا إِلَيْكَ أُمِّي وَهِيَ تُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَتَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَكَ مِنَّا قَلِيلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛

قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي تُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَتَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَكَ مِنَّا قَلِيلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «صَعُهُ»، ثُمَّ قَالَ: «اذْهَبْ، فَادْعُ لِي فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا، وَمَنْ لَقِيتَ»، وَسَمَى رِجَالًا؛ قَالَ: فَدَعَوْتُ مَنْ سَمَى، وَمَنْ لَقِيتُ، قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسٍ: عَدَدَ كَمْ كَانُوا؟

قَالَ: زُهَاءٌ ثَلَاثِيئَةً، وَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ، هَاتِ التَّوْرَ»، قَالَ: فَدَخَلُوا حَتَّى امْتَلَأَتِ الصُّفَّةُ وَالْحُجْرَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ حَلَقُ عَشْرَةَ عَشْرَةَ، وَلِيَأْكُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ»، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، قَالَ: فَخَرَجَتْ طَائِفَةٌ، وَدَخَلَتْ طَائِفَةٌ، حَتَّى أَكَلُوا كُلُّهُمْ، فَقَالَ لِي: «يَا أَنَسُ، ازْفَعْ»، قَالَ: فَرَفَعْتُ، فَمَا أَدْرِي حِينَ وَصَعْتُ كَانَ أَكْثَرَ، أَمْ حِينَ رَفَعْتُ^(٤).

(١) رواه أبو داود وغيره..

(٢) عون المعبود [١٣٠ / ٦] .

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢ / ٤٩٥).

(٤) رواه مسلم.

وكان عليه السلام لا يزوج المرأة إلا بعد موافقتها :

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِرَجُلٍ : « أَتَرْضَى أَنْ أُزَوِّجَكَ فُلَانَةَ ؟ » ، قَالَ : نَعَمْ ؛ وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ : « أَتَرْضَيْنِ أَنْ أُزَوِّجَكَ فُلَانًا ؟ »

قَالَتْ : نَعَمْ ، فَزَوَّجَ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ فَدَخَلَ بِهَا الرَّجُلُ وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا صَدَاقًا ، وَلَمْ يُعْطِهَا شَيْئًا وَكَانَ يَمْنَنُ شَهَدَ الْحُدَيْبِيَّةَ وَكَانَ مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَّةَ لَهُ سَهْمٌ بِخَيْبَرَ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم زَوَّجَنِي فُلَانَةَ ، وَلَمْ أَفْرِضْ لَهَا صَدَاقًا ، وَلَمْ أُعْطِهَا شَيْئًا ، وَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي أُعْطَيْتُهَا مِنْ صَدَاقِهَا سَهْمِي بِخَيْبَرَ ، فَأَخَذَتْ سَهْمًا فَبَاعَتْهُ بِمِائَةِ أَلْفٍ .

قَالَ أَبُو دَاوُدَ : وَزَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَحَدِيثُهُ أَتَمُّ فِي أَوَّلِ الْحَدِيثِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ النِّكَاحِ أَيْسَرُهُ »^(١) .

أي : أقله مؤونة وأسهله إجابة للخطبة بمعنى أن ذلك يكون مما أذن فيه وعلامة الإذن التيسير ، ويستدل بذلك على يمين المرأة وعدم شؤمها لأن النكاح مندوب إليه جملة ويجب في حالة فينبغي الدخول فيه بيسر وخفة مؤونة لأنه ألفة بين الزوجين فيقصد منه الخفة فإذا تيسر عمت بركته ومن يسره خفة صداقها وترك المغالاة فيه وكذا جميع متعلقات النكاح من وليمة ونحوها^(٢) .



(١) رواه أبو داود ..

(٢) فيض القدير (٣ / ٤٨٢) .

تَعَامَلُوا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ لُغَاتِ النَّاسِ وَتَعَلَّمُوا وَمَعَ مَنْ يَأْتِي مِنَ الْبُلْدَانِ الْأُخْرَى

لقد كان النبي المصطفى ﷺ يخاطب كل قوم بلغتهم كي يفهموه، وجبراً لخاطرهم، وتأليفاً لهم.. قال القاضي عياض في كتابه: [الشفاء بتعريف حقوق سيدنا المصطفى]: -

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل سلاسةً طبع، وبراعةً منزع، وإيجازاً مقطوع، ونصاعةً لفظ، وجزالةً قول، وصحة معان، وقلة تكلف، وأوتي جوامع الكلم، وخصَّ ببدائع الحكم، وعلم السنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتَّى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله.

من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النهدي، وقطن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقبال^(١) حضرموت وملوك اليمن، وانظر كتابه ﷺ إلى همدان: ((إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها، تأكلون عِلافها، وترعون عفاءها، لنا من دفتهم

(١) الأقبال جمع قبيل، وهو الملك من ملوك حمير..

وَصِرَامِهِمْ^(١) مَا سَلِمُوا بِالْمِيثَاقِ وَالْأَمَانَةِ ، وَلَهُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ الثَّلَاثُ وَالنَّابِ ، وَالْفَصِيلُ وَالْفَارِضُ
الدَّاجِنُ وَالْكَبْشُ الْحَوَارِيُّ وَعَلَيْهِمْ فِيهَا الصَّالِحُ^(٢) وَالْقَارِحُ^(٣) .

وَقَوْلُهُ لِنَهْدٍ^(٤) : ((اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُحَضَّهَا وَمُخَضَّهَا^(٥) وَمَذْقَهَا^(٦)) وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدُّثْرِ^(٧) ،
وَافْجِرْ لَهُمُ الثَّمَدَ وَبَارِكْ لَهُمْ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسَلِّمًا ، وَمَنْ أَتَى الزَّكَاةَ كَانَ
مُحْسِنًا ، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعَ الشَّرِكِ^(٨) وَوَضَائِعَ الْمَلِكِ ، لَا
تَلْطَطُ^(٩) فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تَلْحُدُ^(١٠) فِي الْحَيَاةِ وَلَا تَتَنَاقَلُ عَنِ الصَّلَاةِ)) .

وَكُتِبَ لَهُمْ فِي الْوِظِيْفَةِ الْفَرِيضَةُ^(١١) : ((وَلَكُمْ الْفَارِضُ وَالْقَرِيْشُ وَذُو الْعِنَانِ الرَّكُوبُ^(١٢) ،
وَالْفَلُو الضَّبِيْسُ ، لَا يَمْنَعُ سِرْحَمُ^(١٣) وَلَا يَعْضُدُ^(١٤) طَلْحَمُ ، وَلَا يُجْبَسُ دَرْكَمٌ مَا لَمْ تَضْمُرُوا
الرِّمَاقَ^(١٥) وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ^(١٦) ، مَنْ أَقْرَفَ فَلَهُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةُ ، وَمَنْ أَبَى فَعَلِيهِ الرِّبْوَةُ))^(١٧) .

(١) معناه من إبلهم وغنمهم ، وقيل سماها دفناً لأنه يُتخذ من أوبارها وأصوافها ما يتدفون به ..

(٢) من البقر والغنم الذي كمل وانتهى سنه في السنة السادسة .

(٣) من ذوي الحافر ..

(٤) قبيلة من اليمن ..

(٥) اللبب الخالص والزبدة ..

(٦) اللبب المخلوط .

(٧) المال الكثير يقع على الواحد والاثنين والجماعة .. قاله ابن الأثير .

(٨) أي عهوده وموآثيقه ..

(٩) يقال : لط الغريم وألط إذا منع الحق ..

(١٠) أي لا يحصل منكم ميلٌ عن الحق ما دتمم أحياء .

(١١) وهي المُسْتَة ..

(١٢) يريد الفرس الذلول لأنه يلجم ويُركب .

(١٣) أي : ماشيتكم ..

(١٤) أي لا يُقَطع .

(١٥) الرماق من ينظر إليك شزراً .

(١٦) شبه ما يلزم الأعناق من العهد بالرباق واستعمار الأكل لنقض العهد .

(١٧) أي من تقاعد عن أداء الزكاة فعليه الزيادة في الفريضة الواجبة عقوبةً عليه ..

ومن كتابه لوائل بن حجر: ((إِلَى الْأَقْيَالِ الْعَبَاهِلَةَ ^(١)، وَالْأَوْرَاعِ الْمَشَابِيبِ ^(٢)، وَفِيهِ: فِي التَّبِعَةِ ^(٣) شَاةٌ لَا مَقْوَرَةَ الْأَلْيَاطِ ^(٤)، .. وَلَا ضَنَّاكَ ^(٥) وَأَنْطَوَا الثَّبَجَةَ ^(٦)، وَفِي السِّيُوبِ الْخُمْسُ ^(٧) وَمَنْ زَنَى مِنْ بَكْرٍ: فَاصْقَعُوهُ ^(٨) مِائَةً وَاسْتَوْفِضُوهُ ^(٩) عَامًا، وَمَنْ زَنَى مِنْ ثَيِّبٍ فَضَرَّجُوهُ ^(١٠) بِالْأَضَامِيمِ ^(١١) وَلَا تَوْصِيمِ ^(١٢) فِي الدِّينِ، وَلَا عُمَّةَ ^(١٣) فِي فَرَائِضِ اللَّهِ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ يَتْرَقُّ عَلَى الْأَقْيَالِ ^(١٤) » .

أين هذا من كتابه لأنس ^(١٥) في الصدقة المشهور لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد وبلاغتهم على هذا النمط وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ؟ استعملها معهم ليبيّن للناس ما نُزِّل إليهم وليُحدّث الناس بما يعلمون؛

وكقوله كما جاء عن عُرْوَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَطِيَّةَ، قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي، أَنَّ أَبَاهُ، أَخْبَرَهُ قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَنَاسٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ وَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ فَخَلَفُونِي فِي رِحَالِهِمْ ثُمَّ أَتَوْا

(١) عباهلة اليمن ملوكهم ..

(٢) قال الهروي: أراد الرؤوس السادة الزهر الألوان، زاد ابن الأثير: واحدهم مشبوب كأنما أوقدت ألوانهم بالنار

(٣) هي الأربعون من الغنم، وقال بعضهم: هي أذنّي ما يجب من الصدقة ..

(٤) قال الهروي: لا مسترخية الجلود لهاها من الإقورار وهو الاسرخاء في الجلود والهزال ..

(٥) الكثير اللحم ..

(٦) يعني اعطوا الوسط في الصدقة ولا تعطوا من خيار المال ولا من رذالته وحشوه ..

(٧) السيوب الركاز، وقيل السيوب عروق من الذهب والفضة تسبب في المعدن أي يتلون فيها ويظهر ..

(٨) أي اضربوه ..

(٩) أي: غربوه وانفوه واطردوه ..

(١٠) أي ادموه بالضرب ..

(١١) يريد الرجم في جماعات الناس ..

(١٢) أي: لا تفتروا في إقامة الحد ولا تحابوا فيه، والوصم الكسل والتواني ..

(١٣) لا تُسْتَرَّ وَلَا تُخْفَى فَرَائِضُهُ .

(١٤) أي: يتسوّد ويتأس ..

(١٥) قيل لم يكتب ﷺ إلى أنس وإنما أبو بكر ﷺ هو الذي كتب إليه ..

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَضَى مِنْ حَوَائِجِهِمْ ثُمَّ قَالَ: «هَلْ بَقِيَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: نَعَمْ غُلَامٌ مَعَنَا خَلَفْنَا فِي رِحَالِنَا، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَيَّ، فَأَتُونِي فَقَالُوا: أَحَبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ، فَلَمَّا رَأَى قَالَ: «مَا أَغْنَاكَ اللَّهُ فَلَا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْطَبَةُ وَإِنَّ الْيَدَ السُّفْلَى هِيَ الْمُنْطَاةُ، وَإِنَّ مَالَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَسْئُولٍ وَمُنْطَبِي» قَالَ: فَكَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلُغَتِنَا^(١). وقوله في حديث العامري حين سأله فقال له النبي ﷺ: «سل عنك» أي: سل عما شئت. وهي لغة بني عامر^(٢)؛ وقال رسول الله ﷺ لرجل من أهل زبيد صام في السفر: «لَيْسَ مِنْ أُمَّرٍ أَمْصِيَامٌ فِي أَمْسَفَرٍ»، ومعناه ليس من البر الصيام في السفر.

قَالَ الْخَطِيبُ: أَرَادَ: لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ، وَهَذَا لُغَةٌ الْأَشْعَرِيِّينَ، يَقْلِبُونَ اللَّامَ مِيمًا، فَيَقُولُونَ: رَأَيْنَا أَوْلَيْكَ أَمْرَ جَالٍ، يُرِيدُونَ الرَّجَالَ، وَمَرَرْنَا بِأَمْقَوْمٍ، أَيْ بِالْقَوْمِ، وَهِيَ لُغَةٌ مُسْتَفِيضَةٌ إِلَى الْآنَ بِالْيَمَنِ^(٣).

وأيضاً كان النبي ﷺ حريصاً على أن يتعلم المسلمون اللغات المختلفة من أجل التواصل مع الآخر، وفهم الثقافات المختلفة، وكذلك من أجل الحرص على حيازة العلم بوجه خاص، ولقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأه على النبي ﷺ إذا كتبوا إليه، فتعلمه في خمسة عشر يوماً.

وحيث أسر المسلمون عدداً من محاربي قريش في غزوة بدر، عرض عليهم النبي ﷺ حريتهم وفك أسرهم: مقابل أن يُعلم كل أسير عشرة من المسلمين.

هكذا كان النبي ﷺ حريصاً على العلم، فالعلم عنده قبل المال، فهو ﷺ لم يطلب منهم مالا، بل طلب علماً ينتشر خيره بين الناس.

(١) أخرجه الحاكم وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَمَنْ يُحَرِّجَاهُ، ورواه الطبراني وغيرهما..

(٢) من كتاب الشفاء للقاضي عياض ص (٥٥ - ٦٠).

(٣) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص: ١٨٣).

وكان النبي ﷺ حريصاً على تعليم النساء، كما كان حريصاً على تعليم الرجال، فهذا هو يطلب من الشفاء - إحدى متقنات الكتابة - أن تُعَلِّم حفصة رضيها، ولما تعلمت حفصة، حرص النبي ﷺ ألا تقف عند ذلك، بل أن تزيد من علمها، فشجعها على تعلم تجويد الخط، وإذا كان العلم له هذا الشأن في حياة الإنسان، فهو ذو شأن كبير كذلك بعد مماته، وهذا ما أخبرنا به النبي ﷺ حين قال: « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » (١).

وهكذا كان العلم شغلاً شاغلاً في حياة النبي ﷺ، يريد أن يغمر المسلمين والبشرية بنوره. فهكذا تعامل النبي ﷺ مع لهجات الناس من أجل جبر خواطهم وإشعارهم بالإخوة الإسلامية، وأيضاً يعلمنا أن لا نضحك على لهجة ولغة أي إنسان ولا نسخر منه ولا نهزأ به، فهذا من كمال خلق المؤمن ..



تَعَامَلُوا صَلي الله عليه وآله وسلم

مَعَ مَنْ يَدْعُونَ إِلَى الْمَوَاطِنَةِ بِالْعُنْصَرِيَّةِ

وَمَدْحِهِ لِلْبُلْدَانِ وَالْمَنَاطِقِ

لقد انتشر في الآونة الأخيرة مظاهر المواطنة بالعنصرية والكرهية التي جاء الحبيب المصطفى ﷺ لمحاربتها ولجعل المسلمين كلهم سواسية في حُسن المعاملة بينهم ، فقال في الحديث الذي روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ »^(١)، ثم ذكر الحديث في تحريم الدماء والأموال والأعراض .

والمواطنة بمعنى حُبِّ الوطن والبلد والدفاع عنه فهذا أمر مشروع ومهم ومقبول ، ولكن نحن نتحدث عن المواطنة بالعنصرية والتعالي على الآخرين ، والمواطنة بالعنصرية هي من مبادئ النفاق ، فإن أول من بدأ بهذه النزعة العنصرية هو كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان يُرْسَخُ مبدأ (المواطنة) ، وِإِلَى هَذَا المبدأ أشار القرآن في سورة المنافقين : ﴿ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون ٨] .

(١) رواه أحمد والبخاري وغيرهما ..

أما مبادئ الإسلام فهي تدعو إلى الأخوة وإلى المحبة والوحدة الشرعية ، وكان رسول الله ﷺ يحترم ويُقدّر كل من يأتيه من أي بلاد الله كان ، ويمدح قبائلهم وبلدانهم ويحفّزهم بذلك إلى الروابط والعلاقات التي تربطهم به ﷺ .

وعلى مقدمة هذه البلدان التي مدحها لكي يكون بين المسلمين كلهم الاحترام والود : مكة والمدينة وأهل دوس وأهل اليمن وأهل الشام وأهل مصر وغفار وأسلم وجهينة ومزينة وغير ذلك من الدول والمناطق التي امتدحها رسول الله ﷺ فكان عاملاً على انتشار الإسلام والسلام .

أولاً : بلده ﷺ مكة المكرمة : — حُب الأوطان أنشودة طالما تغنى بها الشعراء ، وتباروا فيمن يعبر عن حبه لوطنه أكثر ممن سبقوه ، ولو أمعنا النظر ، لوجدنا لوحة فنية رقيقة ، يرسمها النبي ﷺ بكلماته العذبة ، حين يُعبر عن حبه لوطنه ، فهذا هو ﷺ حين يخرج من مكة مهاجراً إلى المدينة ، إذا به وعيناه تتعلقان بحدود وطنه ، وقلبه يكاد لا يفارقه الحب لهذا الوطن ، ولسانه ينطق بهذه المشاعر التي تحالج نفسه الكريمة ، ويقول وهو ينظر إلى بلده ودموعه تلامس خده الكريم ، في الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي ، عن عبد الله بن عدي بن الحصراء أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحزورة من مكة يقول : « وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ » (١) .

نعم ، رغم كل ما عانى منه النبي ﷺ في هذا البلد من متاعب وشقاء وهموم ، إلا أنه كان يحب بلده بكل كيانه وبكل ذرة في قلبه ، وعلى الرغم من أن مكة كانت معقلاً للشرك والظلم والبطش ، إلا أن قلبه ظل يفيض حباً لهذا البلد ، إنها مشاعر سامية تربطه بوطنه ، وعلاقة وجدانية بينه وبين الأرض التي أفلته ، وحبٌ حري بكل مواطن أن يتعلمه من هذا المحب ، ويشعر به تجاه الأرض التي ولد فيها وعاش وتربى فيها ، مهما قاسى وعانى في بلده .

ثانياً المدينة المنورة : — وأما المدينة المنورة فهي التي هاجر إليها ﷺ ، وهي بلاد أخواله من بني النجار وأيضاً أنصاره من الأوس والخزرج وغيرهم وهي البلاد التي أقام فيها دولة الإسلام ، وقد امتدحها المصطفى ﷺ بعدة أحاديث منها : عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الإيمان ليأرز^(١) إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »^(٢) .

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال : « المدينة قبة الاسلام ، ودار الايمان وأرض المهجرة ، ومتبواً الحلال والحرام »^(٣) .

وقال رضي الله عنه : « افتتحت القرى بالسيف ، وافتتحت المدينة بالقرآن »^(٤) .

ثالثاً: مدحه رضي الله عنه لأهل اليمن : — وقد نال أهل اليمن نصيباً من عناية المصطفى ﷺ بهم ومدحه لهم وتديلاً على صدقهم بالإتباع والإسراع إلى الاستجابة بالرسالة لا بالسلاح ، وقد جمع بعض العلماء أكثر من سبعين حديثاً وردت عن النبي ﷺ في فضائل أهل اليمن منها : — عن أنس عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ نظر قبيل اليمن فقال : « اللَّهُمَّ أَقْبِلْ بقلوبهم وبارك لنا في صاعنا ومُدنا »^(٥) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرْقُ قُلُوبًا الْإِيمَانُ يَمَانِ الْفِقْهُ يَمَانِ الْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ))^(٦) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((الْمَلِكُ فِي قُرَيْشٍ ، وَالْقَضَاءُ فِي الْأَنْصَارِ ، وَالْأَذَانُ فِي الْحَبَشَةِ ، وَالْأَمَانَةُ فِي الْأَزْدِ - يعني اليمن -))^(٧) .

(١) يجتمعي ويسكن ويجتمع وينضم .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط .

(٤) رواه الشيرازي في الألقاب ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها .

(٥) أخرجه الترمذي .

(٦) رواه أحمد في مسنده ..

(٧) أخرجه الترمذي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((الأَرْدُ أَسَدُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُ النَّاسَ أَنْ يَضَعُوهُمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَرْفَعَهُمْ وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَقُولُ الرَّجُلُ يَا لَيْتَ أَبِي كَانَ أَرْدِيًّا يَا لَيْتَ أُمِّي كَانَتْ أَرْدِيَّةً)) (١).

ويمدح الأشاعرة بقوله في الحديث المروي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الْأَشْعَرِيَّ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ ، وَقَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ : جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوا بَيْنَهُمْ فِي إِنْءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهَمَّ مَنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)) (٢).

وعن أبي عامر الأشعري رضي الله عنه قال : قال ﷺ : ((نَعَمَ الْحَيُّ الْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ لَا يَفْرُونَ فِي الْقِتَالِ وَلَا يَغْلُونَ ، هَمَّ مَنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)) (٣).

رابعاً : مدحه ﷺ لأهل الشام : —

عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا» ، قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا» ، قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: «هُتَالِكَ الزَّلَازِلُ، وَالْفِتَنُ مِنْهَا أَوْ قَالَ: بِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ» (٤).

وعن عبد الله بن حوالة عن رسول الله ﷺ قال : ((سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَيَّ أَنْ تَكُونُوا جُنُوداً مُجَنَّدَةً : جُنْدُ الشَّامِ ، وَجُنْدُ الْعِرَاقِ ، فَقُلْتُ : خَرِي لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : عَلَيْكَ بِالشَّامِ ، فَإِنَّهَا خَيْرَةٌ لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خَيْرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ ، وَاسْقُوا مِنْ عُدْرِكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ)) (٥).

(١) رواه الترمذي، وابن جميع في معجمه ، والضياء عن أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ..

(٣) رواه أحمد ، والترمذي ، وأبو يعلى ، والحاكم في الكنى ، والبقوي ، والحاكم عن أبي عامر الأشعري رضي الله عنه .

(٤) رواه الترمذي وقال لهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث ابن عون .

(٥) أخرجه أبو داود .

وعن ربيعة بن يزيد ، عن رجل يقال له : خولي ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنكم ستجدون أجناداً ، جنداً بالشام و جنداً باليمن)) ، فقال له خولي : يا رسول الله خسر لي قال : ((عَلَيْكَ بِالشَّامِ ، فَإِنَّهُ خَيْرَةٌ لِلَّهِ مِنْ أَرْضِهِ ، يَجْتَبِي إِلَيْهِ خَيْرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَإِنْ أَبِيئْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِبِمَنْكُمْ ، وَاسْقُوا مِنْ عُذْرِكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ)) (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ دِمَشْقَ وَمَا حَوْلَهَا ، وَعَلَى أَبْوَابِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا حَوْلَهَا ، لَا يَضُرُّهُمْ خِذْلَانٌ مَنْ خَذَلَهُمْ ، ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٢) .

أهل مصر ووصية المصطفى ﷺ بهم : —

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّكُمْ سَتَمْتَحُونَ أَرْضاً يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ » .
وفي رواية أخرى : ((إِنَّكُمْ سَتَمْتَحُونَ مِصْرَ ، وَهِيَ أَرْضٌ يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خيراً ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ رَجُلٌ يَعْلَمُ بِهَا)) .

وفي أخرى : ((فَإِنْ فَتَحْتُمُوهَا ، فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ رَجُلٌ يَعْلَمُ بِهَا)) .
— فإذا رأيتَ رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة ، فاخرج منها ، قال : فمرَّ بربيعة وعبد الرحمن ابني شرجيل يتنازعان في موضع لبنة ، فخرج منها)) ، وفي أخرى : « فرأيتُ ، فخرجتُ » (٣) .

وأخيراً نذكر بعض البلدان التي ذكرها النبي ﷺ وأثنا عليها وعلى أهلها :

عَنْ أَبِي لَبِيدٍ قَالَ : خَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الْأَرْدَنِ مِنْ طَاحِيَةٍ يُقَالُ لَهُ : بَيْرُحُ بْنُ أَسَدٍ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُبَيْلَ ذَلِكَ . قَالَ : فَرَأَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بَيْرِحًا يَطُوفُ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ فَأَنْكَرَهُ . فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ عَمَانَ . فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَدَهَبَ بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ .

(١) رواه الطبراني ..

(٢) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده ..

(٣) أخرجه مسلم .

فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ أَهْلَهَا مِنْ أَهْلِ عَمَانَ.
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لِأَعْلَمُ أَرْضًا يَنْضَحُ بِنَاحِيَّتِهَا الْبَحْرُ بِهَا حَيٌّ
مِنَ الْعَرَبِ لَوْ أَنَّهُمْ رَسُولِي لَمْ يَرْمُوهُ بِسَهْمٍ وَلَا حَجَرٍ» (١).

وَعَنْ أَبِي الْوَاظِعِ جَابِرِ بْنِ عَمْرٍو الرَّاسِبِيِّ، سَمِعْتُ أَبَا بَرَزَةَ، يَقُولُ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
رَجُلًا إِلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَسَبَّوهُ وَضَرَبُوهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ عَمَانَ أَتَيْتَ، مَا سَبَّوكَ وَلَا ضَرَبُوكَ» (٢).

وَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((غَفَارٌ وَأَسْلَمٌ وَجَهِينَةٌ وَمَزِينَةٌ مَوْءِدٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَرَسُولُهُ)). وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ((أَسْلَمٌ سَالِمٌ اللَّهُ، وَغَفَارٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا)).

وَروَى الدَّيْلَمِيُّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((كِنَانَةٌ عِزُّ الْعَرَبِ وَأَنْتُمْ أَرْكَانُهَا، وَأَسَدُ
حَيْطَانِهَا، وَقَيْسُ فَرَسَانِهَا)). وَرَوَى نَعِيمُ بْنُ حَمَادٍ فِي الْفِتَنِ عَنِ الْوَزَاعِيِّ بِلَاغًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
قَالَ: ((قَيْسُ فَرَسَانَ النَّاسِ يَوْمَ الْمَلْحَمِ، وَالْيَمَنُ رَحَى الْإِسْلَامِ)).

وَعَنْ أَبِي الْوَاظِعِ جَابِرِ بْنِ عَمْرٍو الرَّاسِبِيِّ سَمِعْتُ أَبَا بَرَزَةَ يَقُولُ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا
إِلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَسَبَّوهُ وَضَرَبُوهُ فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
((لَوْ أَنَّ أَهْلَ عَمَانَ أَتَيْتَ مَا سَبَّوكَ وَلَا ضَرَبُوكَ)).

وَروَى الْخَطِيبُ فِي كِتَابِ الْبِخْلَاءِ عَنْ سَيْفِ بْنِ عَمْرِو بْنِ بَكْرِ بْنِ وَاثِلِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((قَسَمَ الْخَفِظُ عَشْرَةَ أَجْزَاءَ فَتَسَعَةَ فِي التَّرْكِ وَجِزَاءَ فِي سَائِرِ النَّاسِ، وَقَسَمَ الْبِخْلُ
عَشْرَةَ أَجْزَاءَ فَتَسَعَةَ فِي فَارَسٍ وَجِزَاءَ فِي سَائِرِ النَّاسِ، وَقَسَمَ الشُّجَاعَةُ عَشْرَةَ أَجْزَاءَ فَتَسَعَةَ فِي
السُّودَانَ وَجِزَاءَ فِي سَائِرِ النَّاسِ، وَقَسَمَ الْحَيَاءُ عَشْرَةَ أَجْزَاءَ فَتَسَعَةَ فِي الْعَرَبِ وَجِزَاءَ فِي سَائِرِ النَّاسِ،
وَقَسَمَ الْكِبَرُ عَشْرَةَ أَجْزَاءَ فَتَسَعَةَ فِي الرُّومِ وَجِزَاءَ فِي سَائِرِ النَّاسِ)).

(١) رواه أحمد وأبو يعلى الموصلي وغيرهما ..

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن حبان والترمذي وغيرهم ..

وأورد البغوي عن أبي نجیح القيسي عن النبي ﷺ قال: ((ألا أخبركم بخير قبائل العرب؟ السكون سكون كندة، والأملوك أملوك رَدمان، والسكاسك وفرق من الأشعرين وفرق من خولان)).

وَرَوَى الطبراني عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: ((إن من خيار الناس الأملوك أملوك حمير وسفيان والسكون والأشعرين)).

هكذا تعامل النبي ﷺ مع القبائل والمناطق والبلدان: يُقَرِّبهم ويمدحهم ويثني عليهم ويجبر بخواتمهم، فيعودون إلى بلدانهم فرحين مُستبشرين، قد امتلأت قلوبهم محبة وتعلق برسول الله ﷺ وتأثروا بحسن أخلاقه ﷺ معهم..

وهذا التعامل نحتاج إلى أن نُحييه بيننا في هذا الزمان ونُعيدَه، وننبذ العنصرية والمناطقية والتجزؤ والانقسام، لأن ذلك من سياسة الكافر والشيطان بالمبدأ الخبيث [فَرَّقَ تَسُدًا].. نسأل الله أن يجمع كلمتنا ويوحّد صفنا ويصلح بآلنا وأحوالنا.. آمين اللهم آمين.



تَعَامَلُ مَعَ الضُّيُوفِ وَالْمُسْتَضِيفِينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ الضُّيُوفِ وَالْمُسْتَضِيفِينَ

أَوَّلًا: النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُضَيِّفًا:

قد كان النبي ﷺ أجود الناس وأكرمهم وأوسعهم إعطاءً، وأحسنهم سخاءً لا سيما في مواسم الخير: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ»^(١).

وإن من أخصّ خصائص الأجواد: إكرام الضيفان، [والعرب لم تكن تعد الجود إلا قرى الضيف، وإطعام الطعام؛ ولا تعدّ السخيّ من لم يكن في ذلك؛ حتّى إن أحدهم ربما سار في طلب الضيف الميل والميلين]^(٢).

وهذه أم المؤمنين خديجة عليها السلام، وهي أعلم الناس به؛ تصفه فتقول: [فَوَاللَّهِ لَا يُجْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ] ^(٣). فذكرت سيدتنا خديجة عليها السلام من جملة أخلاق النبي ﷺ: (قرى الضيف).

(١) رواه مسلم .

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص [٢٥٩].

(٣) رواه البخاري ومسلم .

وأخبر النبي ﷺ أن الله كريم يحب الكرم وكان النبي ﷺ يجعل إكرام الضيف من علامات الإيمان: فقال ﷺ: «.. مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ،» (١).

ومدح النبي ﷺ من يقري الضيف وجعله من خيرة الناس :

فعن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ تَبُوكَ، فَقَالَ: «مَا فِي النَّاسِ مِثْلُ رَجُلٍ آخَذَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ، فَيَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَجْتَنِبُ شُرُورَ النَّاسِ، وَمِثْلُ رَجُلٍ بَادٍ فِي غَنَمِهِ، يَقْرِي ضَيْفَهُ، وَيُؤَدِّي حَقَّهُ» (٢).

وبين ﷺ مقدار الضيفة وحدودها : عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْكَعْبِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ، يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَّوِيَّ عِنْدَهُ حَتَّى يُجْرِيَهُ » (٣).

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رحمته الله : قَوْلُهُ: " جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ " مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَتَكَلَّفُ لَهُ إِذَا نَزَلَ بِهِ الضَّيْفُ يَوْمًا وَلَيْلَةً فَيَتَحَفَّهُ وَيَزِيدُهُ فِي الْبِرِّ عَلَى مَا يَحْضُرُهُ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ، وَفِي الْيَوْمَيْنِ الْآخِرَيْنِ يُقَدِّمُ لَهُ مَا حَضَرَ، فَإِذَا مَضَى الثَّلَاثُ فَقَدْ مَضَى حَقُّهُ، فَإِنْ زَادَ عَلَيْهَا اسْتَوْجَبَ بِهِ أَجْرَ الصَّدَقَةِ.

وكان النبي ﷺ يجالس ضيوفه ويضحك معهم ويتبسّط معهم في الحديث : فعن ثوبان مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: نَزَلَ بِنَا ضَيْفٌ بَدْوِيٌّ فَجَلَسَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، أَمَامَ بَيْتِهِ ، فَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنِ النَّاسِ كَيْفَ فَرَحَهُمْ بِالْإِسْلَامِ وَكَيْفَ حَزَنَهُمْ فِي الصَّلَاةِ ، فَمَا زَالَ يُجْبِرُهُ مِنْ ذَلِكَ بِالَّذِي يَسْرُهُ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَضْرًا ؛

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد في مسنده .

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ .

حَتَّى إِذَا انْتَفَخَ النَّهَارُ ، وَحَانَ أَكْلُ الطَّعَامِ أَنْ يُؤْكَلَ ، دَعَانِي فَأَشَارَ إِلَيَّ مُسْتَخْفِيًا لَا يَأْلُوا أَنْ
 آتَيْتَ بَيْتَ عَائِشَةَ رضي الله عنها فَأَخْبَرَهَا أَنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ضَيْفًا ، قَالَتْ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْهُدَى وَدِينِ
 الْحَقِّ مَا أَصْبَحَ فِي بَيْتِنَا شَيْءٌ يَأْكُلُهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَرَدَّنِي إِلَى نِسَائِهِ ، كُلُّهُنَّ يَعْتَذِرْنَ بِيَا اعْتَذَرْتُ بِهِ
 عَائِشَةُ رضي الله عنها ، حَتَّى رَأَيْتُ لَوْنَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كُسِفَ ؛

وَكَانَ الْبَدْوِيُّ عَاقِلًا فَفَطِنَ ، فَمَا زَالَ الْبَدْوِيُّ يُعَارِضُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، حَتَّى قَالَ : إِنَّا أَهْلُ
 الْبَادِيَةِ مُعَانُونَ فِي زَمَانِنَا لَسْنَا كَأَهْلِ الْحَضَرِ ، إِنَّمَا يَكْفِي أَحَدَنَا الْقَبْضَةُ مِنَ التَّمْرِ يَشْرَبُ عَلَيْهَا أَوْ
 الشَّرْبَةُ مِنَ اللَّبَنِ فَذَلِكَ الْخِصْبُ ، فَمَرَّتْ عِنْدَ ذَلِكَ عَنزٌ لَنَا قَدِ احْتَلَبَتْ ، كُنَّا نُسَمِّيهَا ثَمْرَاءَ فَدَعَا بِهَا
 رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، بِاسْمِهَا وَقَالَ : « ثَمْرَاءُ ثَمْرَاءُ » ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِ مُتَمَحِّمٌ فَأَخَذَ بِرِجْلِهَا وَمَسَحَ صُرْعَهَا
 وَقَالَ : « بِاسْمِ اللَّهِ » فَحَفَلْتُ ، فَدَعَانِي بِمِحْلَبٍ لَنَا ، فَأَتَيْتُهُ بِهِ فَحَلَبَ وَقَالَ :

بِاسْمِ اللَّهِ ، فَمَلَأَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « اذْفَعُ بِاسْمِ اللَّهِ » فَدَفَعْتُ إِلَى الضَّيْفِ فَشَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً ضَخْمَةً ، ثُمَّ
 أَرَادَ أَنْ يَضَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « عُدْ » فَعَادَ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَضَعَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : « عُدْ »
 فَكَرَّرَ حَتَّى امْتَلَأَ وَشَرِبَ مَا شَاءَ اللَّهُ ؛

ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ وَقَالَ : « بِاسْمِ اللَّهِ » وَمَلَأَهُ ثُمَّ قَالَ : « أَبْلِغْ هَذَا عَائِشَةَ فَلْتَشْرَبْ مِنْهُ مَا بَدَا لَهَا »
 ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهِ فَحَلَبَ فِيهِ وَقَالَ : « بِاسْمِ اللَّهِ » فَمَلَأَهُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى نِسَائِهِ كُلِّمَا شَرِبَتْ امْرَأَةٌ رَدَّنِي
 إِلَى الْأُخْرَى وَقَالَ : « بِاسْمِ اللَّهِ » حَتَّى رَدَّهِنَّ كُلُّهُنَّ ، ثُمَّ رَدَدْتُ إِلَيْهِ وَقَالَ : « بِاسْمِ اللَّهِ » وَقَالَ : « اذْفَعُ
 إِلَيَّ » فَرَفَعْتُهُ فَقَالَ : « بِاسْمِ اللَّهِ » فَشَرِبَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَعْطَانِي ، فَلَمْ أَلْ أَنْ أَضَعُ شَفْتَيَّ عَلَى دَرَجِ
 الْقَدَحِ فَشَرِبْتُ شَرَابًا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَطْيَبَ مِنَ الْمِسْكِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأَهْلِهَا فِيهَا » ^(١) .

وَإِذَا لَمْ يَجِدِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مَا يَقْرِي بِهِ الضَّيْفَ ؛ دَفَعَهُ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ ؛ لِيَقْرِيَهُ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : إِنِّي مُجْهَدٌ ^(٢) .

(١) رواه الأجرى في كتاب الشريعة (١٠٤٨) .

(٢) (إني مجهد) أي أصابني الجهد وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع .

فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحْمَةً اللَّهُ؟»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاذْهَبِي بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدِكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتٌ صِيبَانِي، قَالَ: فَعَلَّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ صَيِّفُنَا فَأَطْفِئِي السَّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ حَتَّى تَطْفِئِيهِ، قَالَ: فَفَعَدُوا وَأَكَلَ الصَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمْ بِضَيْفِكُمْ اللَّيْلَةَ»^(١).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وكان ﷺ يقوم على خدمة أضيافه: ففي حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه الذي قال: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفَرُ فَعَرَضْتُ كَدِيَةَ شَدِيدَةً فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كَبِدَةٌ عَرَضْتُ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَارِلٌ»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ.

وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوْاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلًا أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْتِنِّي لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا فِي ذَلِكَ صَبْرٌ. وفي رواية: خَصَّصَا شَدِيدًا.

فَهَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ، فَفَرَعْتُ إِلَى فَرَاعِي، وَقَطَعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَحِثُّهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحْنَا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَتْ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ؛

فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا»، وَالسُّورُ بِالْفَارِسِيَّةِ الْوَلِيمَةُ، «فَحَيِّ هَلَّا بِكُمْ». فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكَ، جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ. قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ: «ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغُطُوا». فَقَالَ رَسُولُ

الله ﷺ: «لَا تُنَزِّلَنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تُخْبِزَنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّىٰ أَجِيءَ»، فَحِثُّتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ؛ حَتَّىٰ جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَيَّ بُرْمَتَنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ خَازِبَةً فَلْتُخْبِزْ مَعِيَ وَأَقْدِحِي مِن بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا»، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّىٰ تَرَكَوهُ وَانْحَرَفُوا وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغَطُّ كَمَا هِيَ وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبِزُ كَمَا هُوَ. قَالَ ﷺ: «كُلُّ هَذَا وَأَهْدِ فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»^(١).

ثَانِيًا: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ضَيْفًا:

وأما عن أدبه ﷺ إذا حلَّ ضيفاً: فقد كان ﷺ متواضعاً يقبل الدعوة على الطعام، وإن كان شيئاً يسيراً: فقال ﷺ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أَهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ»^(٢). قال ابن بطال: أشار إلى الحض على قبول الهدية، وإن قلت لثلاثا يمتنع الباعث من الهدية لاحتقار الشيء فحض على ذلك لما فيه من التآلف، وفي الحديث إجابة الداعي وإن قلَّ المدعو إليه، وفي ذلك كله تحريض على التواضع وحث على تعاطي ما يبعث على التآلف ويغرس الوداد^(٣).

وإذا دعاه أحدٌ، فتبعه من ليس بمدعوٍ؛ استأذن له من صاحب الدعوة:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو شُعَيْبٍ وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ لِحَامٌ فَرَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَرَفَ فِي وَجْهِهِ الْجُوعَ فَقَالَ لِغُلَامِهِ وَيْحَكَ اصْنَعْ لَنَا طَعَامًا لِخَمْسَةِ نَفَرٍ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُو النَّبِيَّ ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ قَالَ فَصَنَعَ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَدَعَاهُ خَامِسَ خَمْسَةٍ وَاتَّبَعَهُمْ رَجُلٌ فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ هَذَا اتَّبَعَنَا فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ وَإِنْ شِئْتَ رَجَعِ قَالَ لَا بَلْ آذَنُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٤).

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البيهقي والنسائي وابن أبي شيبه .

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين .

(٤) رواه مسلم ..

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ جَارًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَارِسِيًّا كَانَ طَيِّبَ الْمَرْقِ فَصَنَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ فَقَالَ وَهَذِهِ لِعَائِشَةَ ^(١) فَقَالَ : لَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا فَعَادَ يَدْعُوهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهَذِهِ قَالَ لَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهَذِهِ قَالَ نَعَمْ فِي الثَّلَاثَةِ فَقَامَا يَتَدَاغَعَانِ ^(٢) حَتَّى آتِيَا مَنْزِلَهُ ^(٣) .

وربما قصد ﷺ بعض أصحابه ليضيِّفه ويطعمه :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَقَالَ : « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ » . قَالَ : الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « وَأَنَا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا ، قُومُوا » ، فَقَامُوا مَعَهُ ، فَآتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ ، قَالَتْ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا ؛

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيْنَ فُلَانٌ ؟ » قَالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي ، قَالَ : فَانْطَلَقَ ، فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ ، فَقَالَ : كُلُوا مِنْ هَذِهِ ، وَأَخَذَ الْمُدِيَّةَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِيَّاكَ ، وَالْحَلُوبَ » ، فَدَبَحَ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ وَشَرِبُوا ، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ ^(٤) .



(١) يعني فقال النبي ﷺ مشيراً إلى عائشة: (وهذه) أي وتدعو هذه؟

(٢) أي يمشي كل واحد منهما في إثر صاحبه.

(٣) رواه مسلم ..

(٤) رواه مسلم ..

تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مَعَ الْفُقَرَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَكَيْفَ وَجْهَهُمْ

وأما الفقر والفقراء فقد تعامل الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ بأحسن التعامل فقد علم الناس كيفية التعامل مع الفقر باتخاذ الاكتفاء الذاتي بالحرف والتكسب ليحلّوا مشكلة الفقر من أساسها ، وتعامل مع الفقراء بتوجيههم وياكرامهم ، وكان كريماً مع الناس أجمعين فقد ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : (ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا) (١) .

وعن موسى بن أنس عن أبيه رضي الله عنه قال : (ما سُئِلَ رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، قال : فَبِجَاءِ رَجُلٍ فَأَعْطَاهُ غَمّاً بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ) (٢) .

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَمًّا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، فَاتَى قَوْمَهُ فَقَالَ : « أَيُّ قَوْمٍ أَسْلِمُوا ، فَوَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ » فَقَالَ أَنَسٌ : « إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا ، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » (٣) .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا عِنْدِي شَيْءٌ وَلَكِنْ ابْتَعِ عَلَيَّ فَإِذَا جَاءَنِي شَيْءٌ قَضَيْتُهُ فَقَالَ عُمَرُ يَا

(١) رواه أحمد و البخاري ومسلم وغيرهم ..

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٠٦) .

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٠٦) .

رَسُولِ اللَّهِ قَدْ أُعْطِيَتْهُ فَمَا كَلَّفَكَ اللَّهُ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ فَكَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَ عُمَرَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْفِقْ وَلَا تَخَفْ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَاحًا ، فَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَرَفَ الْبَشَرَ فِي وَجْهِهِ لِقَوْلِ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ قَالَ : هَذَا أُمِرْتُ (١) .

وقد كان جوده عليه الصلاة والسلام كله لله ، وفي ابتغاء مرضاته تعالى ، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج ، وتارة ينفقه في سبيل الله تعالى ، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه وكان يؤثر على نفسه وأولاده ، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل : كِسْرَى وقيصر ، ويعيش في نفسه عيش الفقراء فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار ، وربما ربط الحجر على بطنه الشريفة من الجوع ، واختار الفقر لنفسه اختياراً ؛

وكان ﷺ قد أتاه سبي فشكت إليه فاطمة عليها السلام ما تلقى من خدمة البيت ، فعن علي عليه السلام : أَنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ حَامِلًا ، فَكَانَتْ إِذَا حَبَزَتْ أَصَابَ حَرْفُ التَّنُورِ بَطْنَهَا فَآتَتِ النَّبِيَّ ﷺ تَسْأَلُهُ خَادِمًا فَقَالَ : « لَا أُعْطِيكَ وَأَدْعُ أَهْلَ الصَّفَةِ تُطَوِّى بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ ، أَوْ لَا أَذُكُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ تُسَبِّحِينَ اللَّهَ تَعَالَى ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدِينَهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتُكَبِّرِينَهُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ » (٢) .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ : جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِبُرْدَةٍ ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ : أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدُ؟ قَالَ الْقَوْمُ : هِيَ شِمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ ، فِيهَا حَاشِيَتُهَا ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : جِئْتُ أَكْسُوكَ هَذِهِ ، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، فَلَبِسَهَا ، فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ فَأَكْسِينِيهَا؟ فَقَالَ : « نَعَمْ » ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَامَهُ أَصْحَابُهُ ، فَقَالُوا : مَا أَحْسَنَتْ حِينَ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، ثُمَّ سَأَلَتْهُ إِيَّاهَا ، وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهُ

(١) كَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الشَّمَانِلِ .

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ .

لَا يُسَأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهُ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ إِلَّا رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا^(١).

وكان ﷺ يجعل ما يزيد عن حاجته وحاجة أهله من النفقة للفقراء والمساكين :

قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْفِقُ مِنْ مَالِهِ عَلَى أَهْلِهِ، وَيَتَصَدَّقُ بِفَضْلِهِ^(٢).

ولما فتح خيبر ، وأخذ نصيبه منها وهو الخمس ؛ فعل به ذلك أيضاً ، قال عمر رضي الله عنه ((وَأَمَّا خَيْبَرُ فَجَزَّأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ : جُزْأَيْنِ قَسَمَهُمَا بَيْنَ النَّاسِ، وَجُزْأً نَفَقَةً لِأَهْلِهِ، وَمَا فَضَلَ عَنِ نَفَقَةِ أَهْلِهِ حَبَسَهُ أَوْ جَعَلَهُ فِي فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ))^(٣).

وكان ﷺ يتأثر إذا رأى الحاجة في وجوه بعض أصحابه أو هيئتهم :

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاءَ عُرَاهُ مُجْتَابِي النَّارِ - أَوْ الْعَبَاءِ - مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، قَالَ: فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِأَلَا، فَأَذَنَ، وَأَقَامَ، فَصَلَّى، ثُمَّ حَطَبَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدٍ﴾ [النساء: ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وَقَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهِمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ» حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» .

(١) رواه الطبراني وغيره .

(٢) رواه أبو داود [٢٩٧٥] وأصله في البخاري ومسلم .

(٣) رواه أبو داود [٢٥٧٧] .

قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كُفَّهُ تَعَجُّزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ، يَعْنِي كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُتَّقَصَّ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُتَّقَصَّ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

وكان ﷺ يقدر ما فيهم من الحاجة والفقير؛ فيكرمهم ويواسيهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، كَانَ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يُخْرَجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيَسْتَبْعِنِي، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَمَرَّ عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيَسْتَبْعِنِي، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَمَرَّ أَبُو الْقَاسِمِ رضي الله عنه فَعَرَفَ مَا فِي وَجْهِي، وَمَا فِي نَفْسِي، فَقَالَ: «أَبَا هُرَيْرٍ» فَقُلْتُ لَهُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «الْحَقُّ» وَاسْتَأْذَنْتُ فَأَذِنَ لِي، فَوَجَدْتُ لَبَّنًا فِي فِدْحٍ، فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا اللَّبَنُ؟» فَقَالُوا: أَهْدَاهُ لَنَا فُلَانٌ أَوْ أُلْ فُلَانٍ. قَالَ: «أَبَا هُرَيْرٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «انْطَلِقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ، فَادْعُهُمْ لِي».

قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ لَمْ يَأْوُوا إِلَى أَهْلِ، وَلَا مَالٍ، إِذَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَدِيَّةٌ، أَصَابَ مِنْهَا وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مِنْهَا، وَإِذَا جَاءَتْهُ الصَّدَقَةُ أُرْسِلَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يُصَبَّ مِنْهَا فَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَصِيبَ مِنَ اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا بَقِيَّةَ يَوْمِي وَلَيْلَتِي. فَقُلْتُ: أَنَا الرَّسُولُ، فَإِذَا جَاءَ الْقَوْمُ كُنْتُ أَنَا الَّذِي أُعْطِيهِمْ، فَقُلْتُ: مَا يَتَّقَى لِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ؟ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ بَدًّا، فَانْطَلَقْتُ فَدَعَوْتُهُمْ، فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «أَبَا هُرَيْرٍ خُذْ فَأَعْطِهِمْ».

فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِمْ، فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الْقَدَحَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرُودَ الْقَدَحَ،
وَأُعْطِيهِ الْآخَرَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرُودَ، ثُمَّ يَرُدُّ الْقَدَحَ، حَتَّى آتَيْتُ عَلَى آخِرِهِمْ، وَدَفَعْتُ إِلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ، فَوَضَعَهُ فِي يَدِهِ، وَبَقِيَ فِيهِ فَضْلَةٌ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَنَظَرَ إِلَيَّ وَتَبَسَّمَ، فَقَالَ:
«أَبَاهِرٌّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ» فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ:
«فَأَقْعُدْ فَاشْرَبْ» قَالَ: فَجَعَلْتُ فَشَرِبْتُ، ثُمَّ قَالَ لِي: «اشْرَبْ» فَشَرِبْتُ، ثُمَّ قَالَ لِي: «اشْرَبْ»
فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ لِي: «اشْرَبْ» فَاشْرَبْتُ، حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَحَدُ لَهَا
فِي مَسَلِكًا. قَالَ: «نَاوِلْنِي الْقَدَحَ» فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ الْقَدَحَ، فَشَرِبَ مِنَ الْفُضْلَةِ ..

[قال: فلقيتُ عمرَ، وذكرْتُ له الذي كان من أمري، وقلتُ له: تولَّى اللهُ ذلك من كانَ أحقَّ به
منك يا عمر! والله لقد استقرَّ أُنْكَ الآية، ولأنا أقرأ لها منك، قال عمر: والله لأنَّ أكونَ أدخلتُكَ
أحبُّ إليَّ من أن يكونَ لي مثلُ حُمْرِ النَّعَمِ] ^(١).

فكان النبي ﷺ يفتن للفقير، ويتبته لأمارات الجوع البادية عليه؛ فيواسي بما يستطيع.

وكان النبي ﷺ يُقسِّمُ هؤلاء الفقراء بين أصحابه؛ ليطعموهم:

عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى، قَسَمَ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَةِ بَيْنَ أَنَاسٍ مِنْ
أَصْحَابِهِ»، فَكَانَ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِالرَّجُلِ، وَالرَّجُلُ بِالرَّجُلَيْنِ، وَالرَّجُلُ بِالثَّلَاثَةِ حَتَّى ذَكَرَ عَشْرَةَ،
قَالَ: فَكَانَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ بِتَمَازِينٍ يُعَشِّيهِمْ» .

و عَنْ يَعِيشَ بْنِ طِخْفَةَ بْنِ قَيْسِ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: كَانَ أَبِي مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَةِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ بِهِمْ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْقَلِبُ بِالرَّجُلِ، وَالرَّجُلُ بِالرَّجُلَيْنِ، حَتَّى بَقِيَتْ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْطَلِقُوا» فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَطْعَمِينَا»، فَجَاءَتْ
بِحَشِيشَةٍ فَأَكَلْنَا، ثُمَّ جَاءَتْ بِحَيْسَةٍ مِثْلَ الْقَطَاةِ، فَأَكَلْنَا، ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ اسْقِينَا» فَجَاءَتْ بِعُسِّ

فَشَرِبْنَا، ثُمَّ جَاءَتْ بِقَدَحٍ صَغِيرٍ فِيهِ لَبَنٌ فَشَرِبْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ شِئْتُمْ بِتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ» فَقُلْتُ: لَا بَلْ نَنْطَلِقُ إِلَى الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا مِنَ السَّحْرِ مُضْطَجِعٌ عَلَى بَطْنِي، إِذَا رَجُلٌ يُحَرِّكُنِي بِرِجْلِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ ضِجْعَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، فَظَنَرْتُ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١).

وكان ﷺ يُقاسمهم ما عنده من طعام :

عَنِ الْمُقَدَّادِ، قَالَ: أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ، فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَانْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ، فَإِذَا ثَلَاثَةٌ أَعْزُرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اِحْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا»؛ قَالَ: فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا نَصِيبُهُ، وَتَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبُهُ، قَالَ: فَيَجِيءُ مِنْ اللَّيْلِ فَيَسْلَمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ، فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الْأَنْصَارَ فَيُتَحَفُونَهُ، وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ، فَأَتَيْتَهَا فَشَرِبْتُهَا، فَلَمَّا أَنْ وَعَلْتُ فِي بَطْنِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ، قَالَ: نَدَمَنِي الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ، مَا صَنَعْتَ أَشْرَبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ، فَيَجِيءُ فَلَا يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ، وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمِي خَرَجَ رَأْسِي، وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ، وَجَعَلَ لَا يَجِيئُنِي النَّوْمُ، وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ، قَالَ: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ: الْآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي».

قَالَ: فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَاَنْطَلَقْتُ إِلَى الْأَعْزِرِ أَيُّهَا أَسْمَنُ، فَأَذْبَحُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ، وَإِذَا هُنَّ حُفْلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدْتُ إِلَى إِنْاءٍ لَالٍ لِحُمْدِ ﷺ، مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَشْرَبْتُمْ شَرَابَكُمْ اللَّيْلَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَشْرَبُ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاولَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَشْرَبُ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاولَنِي، فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ، ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِحْدَى سَوَاتِكَ يَا مَقْدَادُ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، أَفَلَا كُنْتَ أَذْنَتَنِي فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصَيِّيانِ مِنْهَا»، قَالَ: قُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتَهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ (١).

وكان ﷺ يُعَاشِرُ أَحْوَالَهُمْ ؛ لِيَكُونَ الْقَدْوَةَ لَهُمْ فِي الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ :

عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّعْمَانَ يَعْنِي ابْنَ بَشِيرٍ، يَحْتَبُ قَالَ: ذَكَرَ عَمْرٌ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «يَظُلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ دَقْلًا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ» (٢).

وَعَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَهُمْ يَخْفِرُونَ الْخَنْدَقَ ثَلَاثًا، لَمْ يَدُوقُوا طَعَامًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَاهُنَا كُدْيَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُشُوها بِالسَّاءِ»، فَرَشُوها، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ - أَوْ الْمِسْحَاةَ - ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، فَضْرَبَ ثَلَاثًا، فَصَارَتْ كَثِيبًا يِهَالُ، قَالَ جَابِرٌ: فَحَانَتْ مِنِّي التِّفَاتَةُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ شَدَّ عَلَى بَطْنِهِ حَجْرًا (٣).

(١) رواه مسلم [٢٠٥٥].

(٢) رواه مسلم [٢٩٧٨].

(٣) أخرجه أحمد وغيره.

وَعَنْ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْجُوعَ وَرَفَعْنَا عَنْ بَطُونِنَا، عَنْ حَجْرٍ حَجْرٍ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ بَطْنِهِ عَنْ حَجْرَيْنِ»^(١).

وكان من هديه ﷺ معهم : مجالستهم ، والقرب منهم ، وعدم التكبر عليهم :

فَعَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْيَمَانِ - وَهُوَ مِنْ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ - قَالَ: «لَمَّا كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بِالْمَدِينَةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَارٌ وَلَا مَأْوَى أَنْزَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، وَسَمَّاهُمْ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ، فَكَانَ يُجَالِسُهُمْ وَيَأْتِسُ بِهِمْ»^(٢).

وفي هذه المجالسة تسليئة لهم وموانسة ، وفيها امثال لأمر الله تعالى كما قال : ﴿ وَأَصْبِرْ

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف ٢٨].

وكان ﷺ يتفقدهم ، ويسأل عن أحوالهم :

سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ مِسْكِينَةً مَرَضَتْ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَرَضِهَا، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُ الْمَسَاكِينَ، وَيَسْأَلُ عَنْهُمْ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَتْ فَأَذْنُونِي بِهَا»، قَالَ: فَأَتَيْتُ بِحِنَازَتِهَا لَيْلًا، فَكَرِهُوا أَنْ يُؤْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِاللَّيْلِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَخْبَرَ بِالَّذِي كَانَ مِنْ شَأْنِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ أَمُرْكُمْ أَنْ تُؤْذِنُونِي؟»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَرِهْنَا أَنْ نُخْرِجَكَ لَيْلًا، أَوْ نُوقِظَكَ، قَالَ: «فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَفَّ بِالنَّاسِ عَلَى قَبْرِهَا، فَصَلَّى عَلَى قَبْرِهَا، فَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ»^(٣).

(١) رواه الترمذي [٢٣٧١].

(٢) سنن البيهقي [٤١٣٥].

(٣) رواه مالك في الموطأ [٥٣١] والنسائي والبخاري ومسلم ..

وكان عليه السلام يشيدُ بفضلهم ، وعظيم قدرهم حتَّى لا يحتقرهم أحدٌ من الناس ؛ لفقرتهم
 عن سهل بن سعيد الساعديّ قال: مرَّ رجلٌ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله فقال: ما تقولون في هذا؟
 قالوا: (وفي رواية: فقال رجلٌ من أشرفِ الناس: هذا والله) حريٌّ إن خطبَ أن يُنكحَ، وإن شفعَ
 أن يُشفعَ، وإن قال أن يُستمعَ. قال: ثمَّ سكَّت، فمرَّ رجلٌ من فقراءِ المسلمين، فقال: ما تقولون
 في هذا؟ قالوا (وفي الرواية الأخرى: فقال: يا رسولَ الله! هذا رجلٌ من فقراءِ المسلمين، هذا)
 حريٌّ إن خطبَ أن لا يُنكحَ، وإن شفعَ أن لا يُشفعَ، وإن قال أن لا يُستمعَ [لقوله]. فقال رسولُ
 الله صلى الله عليه وآله: هذا خيرٌ من ملءِ الأرضِ مثلَ هذا^(١).

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا ذرٍّ أتري كثرةَ المالِ هو الغنى؟ قلتُ
 نعم يا رسولَ الله قال: «فترى قلةَ المالِ هو الفقرُ؟» قلتُ نعم يا رسولَ الله.

قال: «إِنَّما الغنى غنى القلبِ والفقرُ فقرُ القلبِ» ثمَّ سألتني عن رجلٍ من قريشٍ فقال: «هل
 تعرفُ فلاناً» قلتُ نعم يا رسولَ الله قال: «فكيف تراه وتراه؟» قلتُ إذا سألَ أُعطيَ وإذا حضرَ
 أُدخلَ ثمَّ سألتني عن رجلٍ من أهلِ الصِّفةِ فقال: «هل تعرفُ فلاناً» قلتُ لا والله ما أعرفُهُ يا
 رسولَ الله. قال فما زال يُحليهِ وَيَنعته حتَّى عرَفته فقلتُ قد عرَفته يا رسولَ الله قال: «فكيف تراه أو
 تراه» قلتُ رجلٌ مسكينٌ من أهلِ الصِّفةِ فقال: «هو خيرٌ من طلاعِ الأرضِ مِنَ الآخرِ» قلتُ يا
 رسولَ الله أفلا يُعطى من بعضِ ما يُعطى الآخرُ فقال: «إذا أُعطيَ خيرًا فهو أهلُهُ وإن صرِفَ عنه
 فقد أُعطيَ حسنةً»^(٢).

عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «كم من أشعثٍ أعبَرَ ذي طمرينٍ لا يُؤبه له لو
 أقسمَ على الله لأبره منهم البراء بنُ مالكٍ»^(٣).

(١) رواه البخاري [٥٠٩١].

(٢) رواه ابن حبان [٦٨٥].

(٣) رواه الترمذي [٣٨٥٤].

وَكَانَ ﷺ يَسْعَى فِي تَزْوِيجِ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ مِنْهُمْ :

عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ: أَنَّ جُلَيْبِيًّا كَانَ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَ يَدْخُلُ عَلَى النِّسَاءِ، وَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِنَّ، قَالَ أَبُو بَرزَةَ: فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ جُلَيْبِيٌّ؛

قَالَ: فَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَيْمٌ لَمْ يُزَوِّجْهَا حَتَّى يَعْلَمَ الرَّسُولُ ﷺ فِيهَا حَاجَةً أَمْ لَا؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: «يَا فَلَانُ زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ»، قَالَ: نَعَمْ وَنُعْمَى عَيْنٍ، قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ لِنَفْسِي أُرِيدُهَا»، قَالَ: فَلِمَنْ؟، قَالَ: «لِجُلَيْبِيٍّ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى أَسْتَأْمَرَ أُمَّهَا؛

فَاتَّأَهَا، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكَ، قَالَتْ: نَعَمْ وَنُعْمَى عَيْنٍ، قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَتْ لِنَفْسِهِ يُرِيدُهَا، قَالَتْ: فَلِمَنْ يُرِيدُهَا؟، قَالَ: لِحُلَيْبٍ، قَالَتْ: حَلَقَى الْجُلَيْبِيَّ؟، قَالَتْ: لَا لَعَمْرُ اللَّهِ ، لَا أَزُوجُ جُلَيْبِيًّا، فَلَمَّا قَامَ أَبُوهَا لِيَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَتْ الْفَتَاةُ مِنْ خِدْرِهَا لِأُمِّهَا: مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ قَالَا: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَتْ: أترُدُون عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ اذْفَعُونِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنَّهُ لَنْ يُضَيِّعَنِي، فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ: شَأْنُكِ بِهَا، فَزَوِّجْهَا جُلَيْبِيًّا ؛

قَالَ حَمَّادٌ: قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ: هَلْ تَدْرِي مَا دَعَا لَهَا بِهِ قَالَ: وَمَا دَعَا لَهَا بِهِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ صَبِّ الْخَيْرِ عَلَيْهَا صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا» .

قَالَ ثَابِتٌ: فَزَوِّجَهَا إِيَّاهُ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، قَالَ: «تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيًّا، فَاطْلُبُوهُ فِي الْقَتْلِ»، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ، قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْتَلْ سَبْعَةً، ثُمَّ قَتَلُوهُ؟ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ»، يَقُولُهَا سَبْعًا، فَوَضَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى سَاعِدِيهِ، مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى وَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ، قَالَ ثَابِتٌ: وَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيْمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا^(١) .

(١) رواه أحمد وابن حبان وغيرهما .

ومع هذا كله فقد كان ﷺ يوجه الناس إلى العمل ، والاعتماد على النفس ، ويحث الفقراء على التعفف ، وترك البطالة وسؤال الناس .

وكان ﷺ يعطي من سأله عن حاجة وفاقه ولو تكررت مسأله ، وربما بين له أن التعفف أولى وأفضل .

وقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على هذه الصفة الجميلة :

فمن حكيم بن حزام، قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خصرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى».

فقال حكيم: فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا ؛

«فكان أبو بكر، يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله».

ثم إن عمر، دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئاً، فقال عمر: «إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أنني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه» فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس شيئاً بعد رسول الله ﷺ حتى توفي^(١).

و الأحاديث المرغبة في العمل وترك البطالة و سؤال الناس فكثيرة منها : —

(١) عن أبي هريرة رضي عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لأن يحتطب أحدكم حزمة على

ظهره، خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»^(٢).

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

(٢) رواه البخاري .

(٢) عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: مَرَّ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَيَّ وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَيَّ أَبُوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَيَّ نَفْسِهِ يُعَقِّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»^(١).

(٣) وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَمْسَى كَالَا مِنْ عَمَلٍ يَدِيهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ»^(٢).

(٤) عَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُرْعَةٌ لَحْمٍ»^(٣).

(٥) عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَيَّ أُسْكِفَةَ الْبَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِي الْمَسْأَلَةِ، مَا مَشَى أَحَدٌ إِلَيَّ أَحَدٍ يَسْأَلُهُ شَيْئًا»^(٤).

(٦) وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: لَكَ فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضُهُ، وَنَبْسُطُ بَعْضُهُ، وَقَدْ خُشِرَ فِيهِ الْمَاءُ، قَالَ: «إِئْتِنِي بِهِمَا»، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ: «مَنْ يَزِيدُ عَلَيَّ دِرْهَمٍ؟» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدَّرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «اشْتَرِ

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط .

(٣) رواه أحمد في مسنده .

(٤) رواه النسائي .

بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَاذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخِرِ قَدُومًا، فَأْتِنِي بِهِ، فَفَعَلَ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَشَدَّ فِيهِ عُودًا بِيَدِهِ، وَقَالَ: «اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَلَا أَرَاكَ عَشْرَ يَوْمًا»، فَجَعَلَ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ، فَقَالَ: «اشْتَرِ بِبَعْضِهَا طَعَامًا وَبِبَعْضِهَا ثَوْبًا»، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَحِيَّءَ وَالْمَسْأَلَةَ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَنْصُلِحُ إِلَّا لِذِي فِقْرٍ مُدْفِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْطَعٍ، أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ»^(١).

والمُدْفِع هو الشديد الملتصق صاحبه بالدعاء يعني الأرض التي لا نبات بها ، والغرم هو الذي يلزم صاحبه أداؤه يتكلف فيه لا في مقابلة عوض ، والمفطع هو الشديد الشنيع ، والدم الموجه هو الذي يتحمل عن قريبه أو حميمه أو نسيبه دية إذا قتل نفساً ليدفعها إلى أولياء المقتول ، ولو لم يفعل قتل قريبه أو حميمه الذي يتوجع لقتله. والله تَعَالَى أعلم .

ففي هذا الحديث النبوي الشريف قَدَّمَ ﷺ خُطَّةً لِعِلاج مشكلة الفقر، فنحن أمام طاقات مُعَطَّلَةٌ وهي من أمثال الرجل الأنصاري الذي جاء إلى النبي ﷺ طالباً طعاماً أو مالاً، ونجد النبي ﷺ يعلمه ويعلم البشرية درسا في التنمية؛ حيث جعله يبحث في موارده وكانت أشياء بسيطة ثم عرضها للبيع ثم اشتراها رجل بدرهمين، أخذهما الرجل، وجعله يشتري بأحدهما قادوماً، ثم أصلحه له ، فوفر له رسول الله ﷺ فرصة عمل حقيقية ، وحلَّ له مشكلة فقره ، وهذا هو الذي نحتاجه، نحتاج فكرٍ واسعٍ بشريٍّ واسعٍ لاستثمار الموارد وخلق فرص عمل حقيقية لنحل مشكلة الفقر والفقراء .



تَعَامُلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

فِي الْمَزَاحِ وَالضَّحِكِ

رغم الأعباء الثقيلة والمهام الجسام التي كان رسول الله ﷺ متحملاً لها، إلا أنك ترى وجهه الشريف دوماً مُشْرِقاً بالبِشْر والحبور، ابتسامةً عذبة لا تفارق وجهه المملوء تفاؤلاً وسروراً، لم يُر قط عابساً ولا متجهاً، بل كان دوماً ناشراً لجو المرح والبهجة في المكان الذي يتواجد فيه؛ يريد للبشرية أن تغلّف حياتها السعادة، يمزح ويُمَازح، يتسم ويداعب، يُبَازح بأدب وذوق، يُعلِّم ويربي بمزاحه، يعلمنا كيف نجعل من المزاح وسيلةً للتربية تارة، ووسيلة لنشر الحب تارة أخرى؛

مزاحه ﷺ: يجعلك تتعلق به وتحبه، وتشعر أنك أمام رجل عظيم مختلف عن كل البشر ﷺ، أنّى له بهذا الوقت، وهذه القدرة على المرح والمزاح، وهو في ما هو فيه من تحمّل لمهام الدعوة ونشر الإسلام؟

يمزح، فيعلمنا فنّ الترفيه عن النفس ومداعبة الآخرين، ومن الجميل أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يفرحون ويسعدون بالضحك حين يمازحهم النبي ﷺ، وهذه الرسالة النبوية يرسلها لنا النبي ﷺ البسام، دائم البِشْر، أن تمتعوا أيها الناس بالحياة، تفاءلوا، فالمسلم يتوقع غداً مشرقاً بثقته في ربه، وفي أقدار ربه له، اقتنصوا وقتاً من حياتكم للهو والمرح، أدخلوا السرور على قلوبكم وقلوب من حولكم، لماذا هذا التجهم؟

ديننا دين البشر والأمل ، الدنيا حلوة خضرة ، تحتاج لأن نتعامل معها بفرن وسعادة ، هَذَا النبي ﷺ الذي يعلمنا كيف نمتلك أدوات المرح والسعادة ، يصفه لنا أنس رضي الله عنه خادم النبي ﷺ فيقول: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَفْكِهِ النَّاسِ»^(١).

وما يدفع للدهشة حقاً ، ويجعلك تحني جبينك أمام هَذَا الرجل العظيم ، أن مزاحه لم يكن أجوف بلا مضمون ، بل كان يعلم ويُربِّي بمزاحه ، ويحل المشاكل ، ويؤلِّف بين القلوب ، ويوحِّد بين الناس ، وينشر البهجة بين أصحابه ؛

لم يكن مزاحه بلا هدف أو قصد ، بل كان يترك من وراء مزاحه عبرة وعظة للناس أجمعين ، ونحن هنا نعرض لبعض هذه المشاهد المرححة في حياة النبي ﷺ ، علنا نرفع الستائر عن هَذَا الجزء الجميل في شخصية سيدنا محمد ﷺ ، الذي يجعله الكثيرون ؛

قال ابن قتيبة : إنما كان ﷺ يمزح لأن الناس مأمورون بالتأسي به والاعتداء بهديه فلو ترك اللطافة والبشاشة ولزم العبوس والقطوب لأخذ الناس من أنفسهم بذلك على ما في مخالفة الغريزة من المشفقة والعناء ، فيمزح ليمزحوا ..^(٢).

لقد كان يربي بالضحكة ، ويهدِّب بالابتسام ، ويُتقوّم بالمزحة ، ويدعو بالطرفة ، فلضحكاته منافع ، ولابتساماته مقاصد ، ومن مآزحته عبر ، ولطرفه حِكَم وعظات ، فهَذَا علي رضي الله عنه حين دَبَّ خلاف بينه وبين فاطمة رضي الله عنها ، يصالحه النبي ﷺ بالمزاح ؛

يحكي لنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قَالَ: (إِنْ كَانَتْ أَحَبَّ أَسْمَاءَ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، إِلَيْهِ لِأَبُو تَرَابٍ ، وَإِنْ كَانَ لَيَفْرُحُ أَنْ يُدْعَى بِهَا ، وَمَا سَمَّاهُ أَبُو تَرَابٍ ، إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَاظَبَ يَوْمًا فَاطِمَةَ رضي الله عنها فَخَرَجَ فَاضْطَجَعَ إِلَى الْجِدَارِ إِلَى الْمَسْجِدِ) فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ ، فَقَالَ: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ؟» ، قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاظَبَنِي ، فَخَرَجَ فَلَمْ يَقُلْ

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط والصغير .

(٢) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ج ٤ ص (١٢٠ - ١٢١) ط المكتبة العصرية .

عِنْدِي^(١) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: « أَنْظِرْ أَيْنَ هُوَ » ، فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ فَأَصَابَهُ تُرَابٌ - فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: « قُمْ أَبَا تُرَابٍ ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ »^(٢) .

فكان أبو تراب أحب الألفاظ إلى علي عليه السلام .

و هَذَا أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ يَمَازِحُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رَجُلًا ضَاحِكًا مَلِيحًا قَالَ: فَبَيَّنَّا هُوَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَيُضْحِكُهُمْ فَطَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْبُعِهِ فِي خَاصِرَتِهِ ، فَقَالَ: أَوْجَعْتَنِي ، قَالَ: « افْتَصَّ » قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ قَمِيصٌ ، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَمِيصَهُ فَاحْتَضَنَهُ ، ثُمَّ جَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ هَذَا^(٣) .

وعن عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ صَيْفِيٍّ ، مِنْ وَلَدِ صُهَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ صُهَيْبٍ قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَجْرَةِ وَهُوَ يَأْكُلُ تَمْرًا ، فَأَقْبَلْتُ أَكُلُ مِنَ التَّمْرِ وَبِعَيْنِي رَمَدٌ ، فَقَالَ: « أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَبِكَ رَمَدٌ؟ » فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَكُلُ عَلَى شِقِّي الصَّحِيحِ لَيْسَ بِهِ رَمَدٌ ، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «^(٤) .

يا لها من مزحة خفيفة حقاً! ما علاقة التمر بالرمد في العين؟ إنها دعابة تدخل السرور على قلب شخص مريض .

ومما روي من مَازِحَتِهِ ﷺ ودعابته لبسط أمته وتطيب قلوب المؤمنين من صحابته وتأكيدهم في تحببهم ومسرة نفوسهم : فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عليه السلام قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَحْمِلُهُ ، فَقَالَ: « أَنَا حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ » ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ نَاقَةٍ؟ فَقَالَ

(١) أي: لم ينم عندي في فترة الظهيرة.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه أبو داود والبيهقي وغيرهما .

(٤) رواه ابن ماجه والحاكم في المستدرک وقال : صحیح الإسناد، ولم يُخرجاه .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا التُّوقَ »^(١) وقوله ﷺ للمرأة التي سألته عن زوجها: أهو الذي بعينه بياض؟ وهذا كله صدق لأن كل جمل ابن ناقة وكل إنسان بعينه بياض .

وقد قال ﷺ «إِنِّي لَأَمْزَحُ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»^(٢).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال له: «يا ذا الأذنين»^(٣).

يا ذا الاذنين! ومن منا بلا أذنين؟ طريقة لطيفة في المزاح، لا تجرح ولا تترك أثراً نفسياً سيئاً في نفس من تمازحه.

وعن أنس بن مالك أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيَجْهَرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْرَجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتَنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ» .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَلَا يُبْصِرُهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أُرْسِلْنِي مِنْ هَذَا، فَالْتَمَتَ فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا وَ اللَّهِ تَحْدِثُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتُ بِكَاسِدٍ أَوْ قَالَ: «لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَ غَالٍ»^(٤).

هَذَا الْمَوْقِفُ الرَّائِعُ يَتْرِكُ فِي نَفْسِ سَامِعِهِ انْطِبَاعًا صَادِقًا وَعَاقِلًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَيْفَ كَانَ يَمَازِحُ وَيَرْفَعُ الرُّوحَ الْمَعْنَوِيَّةَ لَدَى مَنْ يَمَازِحُهُ، وَإِنْ كَانَ لَدَيْهِ نَقْصٌ فِي صِفَةِ مَا، فَهُوَ لَا يَسْخَرُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ بَلْ يَظْهَرُ الْمَزَايَا الْآخْرَى فِي الشَّخْصِيَّةِ، مِمَّا يَتْرِكُ أَثْرًا إِيْجَابِيًّا فِي نَفْسِ هَذَا الشَّخْصِ ؛

(١) رواه الترمذي في الشمالي .

(٢) نقلاً من كتاب : الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ص (٣٥٢) .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) من مختصر الشمالي نقلاً من كتاب : المعلم الأول ص : (٤٠).

ولما علم عوف بن مالك الأشجعي أن رسول الله ﷺ لا يأنف من المزاح، ولا يغضب منه، بدأ رسول الله بالمزاح، قال عوف بن مالك الأشجعي: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي عَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ وَقَالَ: «ادْخُلْ» فَقُلْتُ: أَكَلِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «كُلُّكَ» فَدَخَلْتُ»^(١).
 وإنما مزح عوف بن مالك بقوله: أكلِّي يا رسول الله؟ لأن القبة كانت صغيرة.

مزاحه ﷺ مع النساء: -

المرأة في حياة النبي ﷺ لم تلق سوى كل تقدير واحترام وحب، لم يترك النبي ﷺ فرصة إلا ومنح فيها المرأة لمسة دفء أو تقدير، حتى المرح لم ينس نصيب المرأة منه، فقد كان يداعب زوجاته ويمازحهن ويمرح معهن، كما تقدم بعض ذلك؛

انظر إليه ﷺ وهو يلاطف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ويمازحها، وهو يسابقها مرتين فتسبقه في الأولى ويسبقها في الثانية، فيقول لها: هذه بتلك، والحديث عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَعَالِي حَتَّى أُسَابِقَكَ» فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالِي حَتَّى أُسَابِقَكَ» فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «هَذِهِ بَيْتُكَ»^(٢).

عظيم أنت يا رسول الله.. لم تنس إدخال السرور على قلب زوجتك حتى في لحظات التعب، هذا السفر الشاق المرهق والطريق الطويل، تتذكر فيه إسعاد زوجتك وإدخال السرور إلى قلبها، لم يمنعك وجود الصحابة معك أن تتذكر إدخال السرور على قلب زوجتك، وكيف ذلك، وأنت من قال كما جاءنا عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَيَّ اللَّهُ بَعْدَ الْفَرَائِضِ إِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَى الْمُسْلِمِ»^(٣).

(١) رواه أبو داود في سننه ..

(٢) رواه أحمد في المسند وغيره ..

(٣) جزء من حديث ابن المبارك عن أبي شريك مرسلاً .

مزاحه ﷺ مع الأطفال : -

وقد كان النبي ﷺ يمازح الأطفال ، وكما نعلم جميعاً ، أن الأطفال لهم نصيب وافر في حياة النبي ﷺ . لم يكن ينسى نصيبهم منه ، يعاملهم وكأنهم جزء لا يتجزأ منه ، يدرك قيمتهم في الحياة فلا يتجاهلهم ، بل يعيش معهم لحظات طفولتهم بمرح ؛ حتى جانب المزاح ، لم يهمل النبي ﷺ الأطفال فيه ، وذلك من عظمته ﷺ ، أن يراعي كل الأمور لكل الفئات ؛

عن أنس قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا، حتى يقول لأخ لي صغير: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ كان له نغير يلعب به فمات^(١).

وكما تقدم أنه كان يلعب الحسين ويخرج له لسانه، وكأنها طفلان يلعبان معاً ، هَذَا الأسلوب في التعامل مع الصغار، جاءت به نظريات علم النفس الحديثة، لتؤكد على أهميته، مبنية أهمية التعامل مع الأطفال بأسلوبهم وطريقة تعاطيهم للأمور ، فالطفل يحتاج ممن يلاعبه أن يلاعبه بطريقة الأطفال، لا بأسلوب الكبار ، والمزاح بين البشر له مظاهر شتى، وقليل هم الذين يدركون الطريقة المثلى للمزاح ، وهذه القلة، يُعتبر النبي ﷺ قائدها بحق، فلم يُعرف عنه أنه سخر من أحد في مزاحه معه، أو قلل من قيمته بين أقرانه.

مزاحه ﷺ مع الآخرين وتقبله منهم :-

لا يقبل المزاح من الآخرين سوى قلب مملوء بالحب ، وعقل معروف بالرجاحة ، لم يكن النبي ﷺ يغضب من أصحابه حين يمازحونه، بل كان يشاركهم المزاح ويتفاعل معهم ويتعاش مع مواقفهم الطريفة.

ذكر ابن حجر في الإصابة، مزاح أصحاب النبي ﷺ معه، فقال: قال الزبير: وكان نعيان لا يدخل المدينة طرفه - أي طعام - إلا اشترى منه، ثم جاء به إلى النبي ﷺ ، فيقول ها أهديته

(١) تقدم تخريجه .

لك، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيان بثمانها، أحضره إلى النبي ﷺ وقال: أعط هَذَا ثمن متاعه، فيقول: أولم تهده لي؟، فيقول إني والله لم يكن عندي ثمنه، ولقد أحببت أن تأكله، فيضحك - أي النبي ﷺ من هَذَا الفعل -، ويأمر لصاحبه بثمانه .

والتأمل للأحاديث السابقة والمواقف المتقدمة يدرك هدي النبي ﷺ في المداعبة والمزاح والترويح عن النفس حتى لا تمل، وقد بينها النبي ﷺ صراحةً لسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين دَخَلَ عَلَى ابنته عائشة رضي الله عنها، وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ تُغْنِيَانِ بِدُفَيْنِ، وَتُغْنِيَانِ فِي أَيَّامِهِمَا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَرِّبٌ يَثْوِيهِ، فَانْتَهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ، فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَوْبَهُ وَقَالَ: «دَعُوهَا يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّهَا أَيَّامٌ عِيدٌ»^(١).

والذي يظهر من هَذَا كله: أن المزاح ليس محرماً شرعاً، ولا ممنوعاً عرفاً، وكذلك الضحك؛ إنما ممنوع الإكثار الذي تضيع معه الحقوق، ويُخرج به من الصدق إلى الكذب، والله در أنس حين وصف النبي ﷺ فقال: ((كان رسول الله من أفكه الناس)). ولذا لم يمنع أصل الضحك؛ بل هو في حديث أبي ذر المتقدم قال: «لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»^(٢).

فهو ﷺ لم يمنع الضحك، إنما دعا إلى التقليل منه ويكون بضوابط..

ولم يكن رسول الله ﷺ خارجاً عن الفطر السوية في فعل من أفعاله، أو قول من أقواله. ويحاول البعض أن يمنع الضحك بحجة هموم الدعوة، وهم الدين، بيد أن هذه حجة واهية، فلم يكن هناك، ولن يكون، من هو أكثر اهتماماً بالدعوة من رسول الله ﷺ، وليس هناك من تعددت لديه الواجبات كما تعددت لدى رسول الله ﷺ، فلقد كان -بأبي هو وأمي- إماماً للناس، ومعلماً للخلق، ومفقهً للدين، وحاكماً بين الناس، وقاضياً بينهم، ومجيشاً للجيوش، وبعثاً للسرايا، كما كان أباً رحيماً، وزوجاً باراً، وأخاً ودوداً، وصديقاً وفيّاً، رضي الله عنه؛

(١) رواه مسلم وابن حبان وغيرهما ..

(٢) رواه ابن ماجه .

وقد يظهر التعارض بين الأحاديث فيزيله قول الإمام السيوطي: كان من أضحك الناس، لا ينافيه خبر: أنه كان لا يضحك إلا تبسماً؛ لأن التبسم كان أغلب أحواله، فمن أخبر به أخبر عن أكثر أحواله، ولم يعرج على ذلك لندوره، أو كل راوٍ روى بحسب ما شاهد، فالاختلاف باختلاف المواطن والأزمان، وقد يكون في ابتداء أمره كان يضحك حتى تبدو نواجذه، وكان أخرى لا يضحك إلا تبسماً؛.

بل لقد كانت بعض المواقف تأخذ من رسول الله ﷺ كل المآخذ حتى يضحك ويستعلي به الضحك - ولكن ذلك على سبيل الندرة - فعن أبي أمامة رضي عنه، أن رسول الله ﷺ، قال يوماً لأصحابه: «هل أصبح منكم اليوم صائماً؟» فسكتوا، فقال أبو بكر رضي عنه: «أنا يا رسول الله، ثم قال: «هل عاد أحد منكم اليوم مريضاً؟» فسكتوا، فقال أبو بكر رضي عنه: «أنا يا رسول الله، ثم قال: «هل تصدق أحد منكم اليوم بصدقة؟» فسكتوا، فقال أبو بكر رضي عنه: «أنا يا رسول الله، فضحك رسول الله ﷺ حتى استعلي به الضحك، ثم قال: «والذي نفسي بيده، ما جمعهن في يوم واحد إلا مؤمناً، وإلا دخل بهن الجنة» (١).

ولله در صاحب كتاب: تأويل مختلف الحديث، حين قال: فلو ترك رسول الله ﷺ طريق الطلاقة والهشاشة والدمائة إلى القطوب والعبوس والزماتة أخذ الناس أنفسهم بذلك على ما في مخالفة الغريزة من المشقة والعناء، فمزح رضي عنه ليمزحوا؛ وقد درج الصالحون والأخيار على أخلاق رسول الله ﷺ في التبسم والطلاقة والمزاح بالكلام المجانب للقدح والشتم والكذب، فكان علي رضي عنه، يكثر الدعابة وغيره رضي عنه أجمعين.



تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ

أما تعامله مع أصحابه فيطول بيان ذلك وشرحه ، ولكن نورد ما تيسر وروده ، ومن يريد الاستفادة فليطالع كتب الحديث والسيرة .

فقد كان يلاقيهم في بشرٍ وطلاقة ، ويخالطهم في تواضع ، ويحمل لهم من الرحمة ما هو أرق من النسيم ، وأجود من الغيث العميم ، أما البشاشة وطلاقة المحيا فقد جاء في الصحيح عن جرير بن عبد الله أنه قال : « مَا حَجَبَنِي عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنْذُ أَسَلَمْتُ ، وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ »^(١) .

فالذين يلقون ذوي النفوس الطاهرة في كُلوحٍ وانقباض بعلة المحافظة على الوقار - لم يهتدوا إلى السيرة الحميدة سبيلاً ، كما تقدم ذلك ؛

وأما التواضع فقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير يقال له: أبو عمير: «يا أبا عمير ما فعل النغير»، فالذين يخرجون للناس في وجوه عليها غبرة الكبرياء إنما يلقون قلوباً نافرةً، وألسنةً ساخرةً، ولقد كان لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة لو شاؤوا أن يكونوا أجلاء محترمين .

وأما الرحمة فقد قال -تعالى- في كتابه الكريم: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ..

وحدثنا عن هذه الرحمة أبو سليمان مالك بن الحويرث قال: أتينا النبي ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَا اشْتَهَيْنَا أَهْلِينَا، فَسَأَلْنَا عَنْ مَنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِينَا؟ فَأَخْبَرَنَا - وَكَانَ رَفِيقًا رَحِيمًا - فَقَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَعَلَّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ» (١).

رسول الله ﷺ يشاور أصحابه : -

كان الحبيب ﷺ يعمل بمبدأ التشاور والمشاورة مع أصحابه ويستشيرهم قال الله تعالى :

﴿ فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

فهذا توجيه رباني لسيدنا محمد ﷺ ؛ لنبي هذه الأمة ، بأن يعمل بمبدأ الشورى في حياته، وهذا ما كان عليه النبي ﷺ بالفعل ، فرغم مكانة النبي ﷺ عند ربه ومكانته بين أصحابه، إلا أنه كان يشاور من حوله دوماً في مختلف الأمور ، لم يكن يأخذ برأيه فحسب، بل كان يقدم رأيه من حوله على رأيه لو اتفقت عليه الأغلبية، ولو كان هذا الرأي لصالح الأمة.

وأوضح دليل على ذلك كلمة النبي المشهورة: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، حين أراد الخروج إلى غزوة بدر، قال المقداد بن عمرو بكلمات خالدة: يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ (٢).

فاستبشر النبي ﷺ خيراً، وتوجه إلى الأنصار يطلب رأيهم، فنطق سعد بن معاذ رضي الله عنه بأعظم كلمات، فقال سعد بن معاذ: وَاللَّهِ لَكَائِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرِيدُنَا؟ ، قَالَ: « أَجَلٌ » ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ آمَنَّا

(١) رواه أحمد في الأدب المفرد وابن خزيمة وغيرهما ..

(٢) رواه أحمد في المسند والبخاري والطبراني والنسائي ..

بِكَ وَصَدَقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ
وَالطَّاعَةِ، فَاْمُضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَتَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا
هَذَا الْبَحْرَ، لَخَضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا وَاحِدٌ، وَمَا نَكَّرَهُ أَنْ نَلْقَى عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ
الْحَرْبِ، صُدِّقَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ فَيَسِرَ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، فَسُرَّ
بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(١).

ومشاهد الشورى في حياة النبي ﷺ مع من حوله عديدة:

منها على سبيل المثال ذلك المشهد الذي دارت أحداثه يوم غزوة بدر، حيث رأى النبي ﷺ أن
يعسكر المسلمون في مكان معين، بينما رأى الحباب ابن المنذر (أحد الصحابة) خلاف ذلك، فما كان
من النبي العظيم إلا أن استجاب لهذا الرأي، لما رأى فيه من مصلحة وخير للجيش، ولم تكن هذه
المواقف هي الوحيدة التي تبين لنا قيمة الشورى في حياة النبي ﷺ،

بل كانت الشورى مبدأ عاماً يسير به النبي ﷺ في دربه، وكانت الشورى صفة أصيلة من
صفات النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ^(٢).

فها هو النبي ﷺ يستشير صحابته في أسرى بدر، فيقول: إن الله أمكنكم. فقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر
رضي الله عنه: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء.

وإن كان هذا الحديث يحمل من الرحمة معاني رائعة، إلا أنه في الوقت ذاته ينطوي على معانٍ
عظيمة تدرج تحت بند الشورى.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ..

(٢) أخرجه أحمد والترمذي ..

وفي غزوة أحد، لم يرد النبي ﷺ الخروج لقريش خارج المدينة، وأراد التحصن بها، ولكن الشباب من المسلمين أرادوا الخروج لملاقاة قريش، فما كان من النبي ﷺ إلا ترك رأيه وأخذ برأيهم. وفي لمحة أخرى من لمحات الشورى، نتعلم أهمية هذا المبدأ من النبي ﷺ، حين أخذ برأي سلمان الفارسي في غزوة الخندق.

وفي صلح الحديبية، كان النبي قد عزم على الخروج إلى مكة، والصحابة يحملون بعمرة يزورون فيها بيت الله الحرام. فلما علموا بالصلح، حزنوا ورفضوا الانصياع لأوامر النبي ﷺ بذبح الهدي والحلق، فأشارت عليه السيدة أم سلمة أم المؤمنين ﷺ بأمر أخذ به، وكانت الشورى سبباً في نجاة الصحابة من غضب الله عليهم لعصيانهم أمر رسول الله ﷺ؛

وحين كان الرسول ﷺ داخلًا مكة فاتحاً لها، أشار عليه عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بأن يجعل لأبي سفيان مقاماً، لحبه للفخر، فاستجاب له وقال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»^(١).

ولقد كان النبي ﷺ يحث على اتخاذ مبدأ الشورى في كل مناسبة تستدعي ذلك، فكان ﷺ يقول: «إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَسْرَ عَلَيْهِ»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، فَلْيَبْتَوِّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمِ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ، فَقَدْ خَانَهُ، وَمَنْ أَفْتَى بِفُتْيَا غَيْرِ ثَبْتٍ، فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَيَّ مَنْ أَفْتَاهُ»^(٣).

والشورى التي يحثنا النبي ﷺ عليها، تتحقق من ورائها أهداف عظيمة، كما علمنا النبي ﷺ، فهي تعمل على نشر الألفة بين أفراد المجتمع، حين تنتشر فيه الحرية والعدالة، ويتعد

(١) رواه أحمد وغيره ..

(٢) رواه ابن ماجه ..

(٣) أخرجه أحمد ..

عن الفردية في اتخاذ القرارات ، وهي وسيلة للكشف عن الموهوبين فكرياً، ومن بإمكانهم وضع خطط يؤخذ بها في المواقف الطارئة، كما ظهر لنا في غزوتي بدر والخذق، مما يفتح الباب لاستثمار هذه المواهب والطاقات الفكرية، والاستفادة من كل العناصر المتميزة في المجتمع. وحين تكون الشورى أمراً إلهياً وأمرًا نبوياً، لا بد أن هذا المجتمع (إن تمسك ب هذا الأمر وسار على دربه) سيحوز التوفيق والنجاح.

النبي ﷺ يشارك أصحابه : -

ذكر المحب الطبري أيضاً أنه ﷺ كَانَ فِي سَفَرٍ فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِإِصْلَاحِ شَاةٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ عَلِيٌّ دَبْحُهَا، وَقَالَ آخَرُ: عَلِيٌّ سَلْحُهَا، وَقَالَ آخَرُ: عَلِيٌّ طَبْحُهَا فَقَالَ ﷺ : عَلِيٌّ جَمَعَ الْحَطَبَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكْفِيكَ الْعَمَلَ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَكْفُونِي، وَلَكِنْ أَكْرَهُ أَنْ أَمْتَمَزَ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرَاهُ مُتَمَمِّزًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ [(١)] .

مع انه سيد الخلق ، لا يجب أن يرى أصحابه يعملون وهو جالس بينهم ، فمد يد العون وساعدهم ، ووصى أصحابه بالرفق على الضعيف فقال: « أَبْغُونِي ضِعْفَاءَكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُرْزُقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضِعْفَائِكُمْ » (٢) . ويكره أن يرى أحداً يتعالى عليهم.

وعن أبي قتادة : قدم وفد النجاشي ، فقام ﷺ يخدمهم ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله؟ قال: « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم » .

كان الحبيب المصطفى ﷺ يعود أصحابه : -

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَدْبَرَ الْأَنْصَارِيَّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا أَخَا الْأَنْصَارِ كَيْفَ أَخِي

(١) سبيل الهدى والرشاد للصالحى ..

(٢) رواه أحمد والحاكم وابن حبان ..

سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟ فَقَالَ صَالِحٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟ فَقَامَ وَقَمْنَا مَعَهُ وَنَحْنُ بِضِعَةِ عَشَرَ، مَا عَلَيْنَا نِعَالَ وَلَا خِفَافٌ وَلَا قَلَانِسٌ وَلَا قُمُصٌ نَمْشِي فِي تِلْكَ السَّبَاخِ حَتَّى جِئْنَاهُ، فَاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حَوْلِهِ حَتَّى دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ^(١).

رحمة الحبيب ﷺ بالصحابة وتربيته لهم :-

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

ويمضي السياق القرآني في جولة جديدة ، جولة محورها شخص رسول الله وحقيقته النبوية الكريمة وقيمة هذه الحقيقة الكبيرة في حياة الأمة المسلمة ؛ ومدى ما يتجلى فيها من رحمة الله بهذه الأمة وحول هذا المحور خيوط أخرى من المنهج الإسلامي في تنظيم حياة الجماعة المسلمة ، فنجد حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة في أخلاق النبي ﷺ وطبيعته الخيرة الرحيمة الهينة اللينة ، المَعْدَّة لأن تتجمع عليها القلوب وتتألف حولها النفوس ؛ يتوجه الخطاب إليه بطيب قلبه وإلى المسلمين بتذكيرهم نعمة الله عليهم به ، فهي رحمة الله نالته ونالتهم ؛ فجعلته رحيماً بهم ، ليناً معهم ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب ولا تجمعت حوله المشاعر ..

فالناس في حاجة إلى كنفٍ رحيم وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحة وودٍ يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ، والناس في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ، ولا يحتاج منهم إلى عطاء ؛ ويحمل همومهم ولا يعينهم بهمة ويجدون عنده الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء وهكذا كان قلب رسول الله ، وهكذا كانت حياته مع الناس ، ما غضب ﷺ لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم البشري ، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة ، بل أعطاهم كل ما كانت يدها في ساحة ندية ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم ، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه ؛ نتيجة لما أفاض عليه من نفسه الكبيرة الرحيمة ، وكان الله ﷻ يقول له : فبرحمة الله يا محمد

(١) رواه مسلم والحاكم في المستدرک ..

ورأفته بك، وبمن آمن بك من أصحابك، لنت لهم ، حتّى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجُرم منهم جرمه، وأغضبت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه ، لتركك ففارقك ولم يتبعك ولا ما بعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم .

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

إذاً فعلاقة النبي ﷺ مع أصحابه ، كانت علاقةً تربويةً متكاملة ، ومن هنا نلاحظ مع أنه سنوات التربية لأصحابه ، أنها سنوات ليست طويلة في مجال تربية الأمة - عشر سنوات - ، وكانت سنوات مليئة بالأحداث ؛ ولكن الجيل الذي تخرّج من هذا المدرسة الكبرى ، كان جيلاً متميزاً لا يتناسب مع هذه السنوات ؛

ومن عوامل ذلك : أنه هنالك المدد الإلهي ، وهنالك الصفات الذاتية للنبي ﷺ ، وهنالك تجاوب الناس معه ؛ بحيث خرج منهم البديون ، وباقي الأصحاب الذين صدقوا الصحبة مع النبي ﷺ الأكرم ، ومن المعلوم أن هذه الثلثة و هذا الجيل من صحابة النبي ﷺ الذين نفتخر بما نقل عنهم من كلمات كبيرة جداً- ، كيف كانت حياتهم في الجاهلية ، حيث كثرة الحروب التي لا مبرر لها لأسباب تافهة ، والعادات السيئة : من وأد البنات ، وشرب الخمر ؛ والزنا وغير ذلك مما يعكس مستوى الحياة المتدني إلى درجة كبيرة ، كما يعبر أحدهم عن هذه الحالة الانتقالية من قمة الحضيض إلى قمة التقوى والحياة الراقية : حيث يقول -مضمون كلامه-: كنا رعاة الإبل ، واليوم أصبحنا رعاة الشمس - أي كانت عيوننا في البراري على الإبل ، والآن أصبحت في آفاق السماء - ؛ بحثاً عن طلب وقت الصلاة نرعى الشمس ، حتّى نرى متى تزول فنصلي الظهر ، ومتى تغيب حتّى نصلي العشاءين ، هذه عينة من عينات التربية المحمدية لأصحابه ﷺ ، فالنبي ﷺ ما أهمل الأمر ، وما أعتمد على الإفادات الغيبية ؛ وإنما كانت له الأساليب التربوية في إدارة جمع الصحابة .

والمدينة كانت مجتمعاً فيه ما فيه من عينات مختلفة ، كما نلاحظ في هذا النص الذي يُبين لنا ، كيف أن النبي ﷺ كان قد ضبط الوضع الاجتماعي بكل حدوده : مجلسه : مجلس حلم وحياء ، وصدق وأمانة

، ولا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤين فيه المحرم (أي لم يكن النبي ﷺ يسمح بالتجاوز في الكلام) ، متعادلين متواصلين فيه بالتقوى ، متواضعين ، يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

والملاحظ في بعض المجتمعات الإنسانية ، أن الذي له دورٌ قيادي في تلك الدائرة -ولو ربُّ الأسرة- ، عندما يَرَى منكرًا ، أنه قد يجاري المنكر ، وقد لا يتكلم شيئًا ، لئلا يخسر الطرف المقابل ، بينما التكليف النبوي ، يعلمنا أن يكون الإنسان حاسماً في ضبط الدائرة الإنسانية التي حوله ، فإذا رأى منكرًا ، يحاول أن يقف أمام المنكر ، بكل ما أوتي من قوة ، كما كان النبي ﷺ ، رَبِّي أصحابه عَلَيَّ مثل هَذَا الأدب ، فكان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ..

النبي ﷺ تجلت فيه هذه الصفة من صفات المتقين : بِشْرِهِ فِي وَجْهِهِ ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ ، فالمؤمن موجود يحمل هموم كثيرة ، فله هموم رسالية ، وليست الهموم هموم شخصية محضة ، ولكنه مع ذلك دائم البشر في وجوه الآخرين ، لأن الإنسان ذا الوجه القطب ، والفظ الغليظ ؛ الناس تنفر منه ، كما يشير قوله تَعَالَى فِي خُطَابِ لِلرَّسُولِ : ﴿ وَكَوُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، أي يا رسول الله ، أنت مع الوحي ، ومع القرآن الكريم ، ومع نزول جبريل ، ومع كل هذه الصفات ؛ لو كنت فظاً غليظ القلب ، لانفضوا من حولك ، الناس لها الحرية في اختيار من ترتاح إليه ، ومن تجبه ، فالذي يريد أن يتصدر الأمة -في الجانب الإيجابي ، لا بمعنى الصدارة لحب الرئاسة- ، الذي يريد أن يؤثر على المجتمع البشري .

فإن المصلح الاجتماعي من أول صفاته ، أن يكون ممتلكاً للقلوب ؛ فإن القلب إذا إنقاد ، والفكرة والعقل أيضاً ينقادان ، ومن هنا عندما نجد بعض الشكاوي من بعض الآباء أن الأسرة متمردة : فالزوجة لا تسمع الكلام ، والأولاد لا يسمعون الكلام ؛ فهذا لأنه لم يوفق في امتلاك القلب ، لو ملك قلب الزوجة والأولاد ، فإن كلمة واحدة كافية لأن تُغَيِّرَ مَجْرَى حياتهم .

ولكن لأنه هو يريد أن يكون مسيطراً على الأبدان ، وبالتالي فالقلوب تنفر منه ، فإذا ن : النبي الأكرم ﷺ وصل إلى هذه المرحلة من امتلاك قلوب أصحابه .

من حِكْمَتِهِ ﷺ الجميلة أنه : كان متغافلاً..

المؤمن لا يبدي ردة فعل فجائية وآنية ، تجاه كل ظاهرة سلبية ، فلو يَرَى حركة سلبية في الأسرة ، فإنه يتغافل ، أي لا يبدي انزعاجاً فجائياً ، وإنما يدرس الأسباب الخفية ، ليحاول أن يعالج ويتدارك الأمر ، مثلاً : عندما يَرَى انحرافاً في مزاج ولده ، أو تقصيراً في صلواته وفي غيره ؛ فإنه يبحث عن الأسباب ، فيبحث عن حوله من أصدقائه ، عندما يَرَى سلوكية منحرفة ، لا يحاول أن يقرع ، وأن يصرح بما رآه من السلبيات ، بل يحاول أن يبحث عن الجذور الكامنة في هَذَا المجال ، إذن النبي ﷺ من صفاته وتعامله مع أصحابه أنه يتغافل ، و هَذَا التغافل ليس تغافل الغافلين ، وإنما تغافل الإنسان الذي ينتظر الفرصة المناسبة لعلاج القضية.

ومن صفاته ﷺ وتعامله مع أصحابه أنه : كان إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنها على رؤوسهم الطير ، هذه من الصفات التي تُعطَى للإنسان على شكل هبة إلهية ، ويعبر عنها في سير العلماء أن فلاناً -سواء كان خطيباً أو كان مرجعاً- رُزق القبول أي عندما يتكلم ، فإن الناس تصغي لقلوه ، وتسمع كلامه ، وتبعاً لذلك : أنه فيما مضى من الأيام -حيث لم تكن الساعات في تلك الأيام متداولة- ، كان يباع ويشترى الأماكن الأولى في المسجد أو في المجلس ، أي هناك من يأتي ويحجز المكان ، حتَّى يكون قريباً من ذلك الخطيب .. وهذه القدرة على التأثير ، من الهبات الإلهية في هَذَا المجال ، فإن الله ﷻ يعطيها لمن يحب من أوليائه ، كما يبين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦]. فإن هَذَا الود المَجْعول ، من بركات الإيمان ، والعمل الصالح ، وإذا سكت تكلموا ، وإذا تكلم عنده أحد أنصتوا له حتَّى يفرغ من حديثه ، انظروا إِلَى التشجيع الاجتماعي !.

النبي ﷺ أراد أن يطور القابليات في الأمة ، إذا تكلم أحد - صحيح هَذَا الكلام في مقابل النبي ﷺ لا قيمة له - حيث هو يتكلم أمام سيّد الأنبياء والحكماء ، ولكن مع ذلك يعطي الفرصة للذي له ما له من المنطق ، لكي يتكلم.

كذلك من صفاته ﷺ وتعامله مع أصحابه أنه : كان لا يقطع على أحد كلامه ، فمن صفات المؤمن أنه له هذه الأريحية في التعامل ، وإعطاء الطرف المقابل ما يستحق من تقدير ، ومن مجمل هذه الصفات

في مقابل إجابة على السؤال ، نستفيد : أن النبي الأكرم ﷺ كان داعياً بغير لسانه ، فإنه بهذه الحركات الإيجابية ، أمكنه أن يمتلك قلوب الأصحاب ؛

ومن هنا نلاحظ هَذَا التجاوب السريع في الغزوات وفي السرايا وفي الحروب ، ونلاحظ أن الصحابة كانوا يتنافسون في الامتثال لأوامر النبي المصطفى ﷺ .

حُبّه ﷺ لأصحابه:

العلاقة بين النبي ﷺ وأصحابه، كانت علاقة حبّ قوية الأواصر، متينة الأركان ، وعلاقة الشيخ بتلاميذه ؛

فهذا أبو بكر رفيق رحلة الحياة، تربطه بالنبي ﷺ علاقة إنسانية رائعة، وعلاقة حب عظيم. ولقد بدت دلائل هَذَا الحب من الرسول ﷺ لأبي بكر، حين استعد للهجرة ، فقد اختار أبا بكر ليكون رفيقه في هذه الهجرة، وليكون حامل سر هذه الهجرة.

كان النبي ﷺ يحب أبا بكر كثيراً، ويقضي معه أجمل أوقاته، ويعبر له عن حبه، ويتكلم كثيراً عن فضل أبي بكر فعن عبد الله بن مسعود رضي عنه أَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خَلِيهِ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ وُدُّ إِخَاءٍ وَإِيمَانٍ، وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ »^(١).

وقد وصفه الرسول ﷺ بالصديق، فعن أنس رضي عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَعِدَ أَحَدًا، فَتَبِعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ فَضْرَبَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ: « اثْبُتْ أَحَدٌ، نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ »^(٢).

وكان رسول الله ﷺ يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه ، فعن أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ » فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: هَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟^(٣)

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن حبان وغيرهم.

(٢) رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما ..

(٣) رواه أحمد وغيره ..

هَذَا الْحُبُّ الَّذِي عَاشَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ لِصَدِيقِهِ وَرَفِيقِ رِحْلَةِ حَيَاتِهِ، يَعْلَمُنَا كَيْفَ تَكُونُ الصَّدَاقَةُ خَالِيَةً مِنَ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ، وَيَعْلَمُنَا قِيَمَةَ الصَّدِيقِ الْحَقِيقِيِّ، وَقِيَمَةَ وَجُودِهِ إِلَى جَوَارِنَا فِي الْحَيَاةِ، وَيَعْلَمُنَا قِيَمَةَ الْإِحْتِفَافِ بِهَذَا الصَّدِيقِ، وَكَيْفَ نَكُونُ لَهُ خَيْرَ عَوْنٍ فِي الْحَيَاةِ، وَكَيْفَ نَشْبَعُهُ مِنْ صَدَاقَتِنَا، وَمَا تَحْوِيهِ هَذِهِ الصَّدَاقَةُ مِنْ حُبٍّ وَرَحْمَةٍ.

أَرْبَعُ دَلَائِلٍ مِنْ مِظَاهِرِ فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ :

يَقُولُ الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدٌ سَعِيدٌ رَمَضَانَ الْبُوطِي رَضِيَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : [فَهْهُ السِّيْرَةُ] :

وَفِيهَا أَسْلَفْنَا مِنْ قِصَّةِ مَرَضِهِ رَضِيَ اللَّهُ أَرْبَعُ دَلَائِلٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ مِنْ الْمَزِيَّةِ وَالْفَضْلِ عِنْدَ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ :

الْأُولَى :- حِينَمَا بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطَابَهُ بِقَوْلِهِ : «عَبْدُ خَيْرِهِ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَقَدْ أَدْرَكَ أَبُو بَكْرٍ مَا يَعْنِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِذَلِكَ أَخَذَهُ الْبَكَاءُ وَصَرَخَ قَائِلًا : (فَدَيْنَاكَ يَا بَائِتْنَا وَأُمَّهَاتِنَا) ، وَلَمْ يَنْتَبِهْ أَحَدٌ غَيْرِهِ إِلَى هَذَا الَّذِي اسْتَشْعَرَهُ رَضِيَ اللَّهُ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ طُرُقِ هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ أَنَّهُ لَمَّا بَكَى أَبُو بَكْرٍ لِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ قَلَّتْ فِي نَفْسِي : مَا يَبْكِي هَذَا الشَّيْخُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُنَا عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ فَاخْتَارَ ؟ قَالَ : فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ .

الثَّانِيَّةُ :- قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : «إِنَّ أَمَنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ، لَا تُبْقِيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةَ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ» ، وَإِنهَا لِكَلِمَاتُ خَالِدَاتٍ مَا سُجِّلَ مِثْلُهَا لِغَيْرِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الثَّلَاثَةُ :- مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ رَوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ قَالَ لَهَا : « اذْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ، أَبَاكَ، وَأَخَاكَ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنَّيٌّ وَيَقُولُ قَائِلٌ : أَنَا أَوْلَى ، وَيَأْتِي اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ » . وَإِنْ هَذَا الْحَدِيثُ لِيَعْدَّ بِمِثَابَةِ النَّصِّ عَلَى اسْتِخْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَلِئِنْ كَانَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ اقْتَضَتْ أَنْ لَا يَأْخُذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ عَهْدًا بِذَلِكَ وَأَنْ لَا يَسْجَلُ لَهُمْ كِتَابًا بِهِ ، فَكُلُّ ذَلِكَ كَيْ لَا يَصْبِحَ تَوَارِثُ الْحُكْمِ وَالْخِلَافَةِ سُنَّةً مُتَبَعَةً مِنْ بَعْدِهِ ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ مَفْسَدَةِ الْقَضَاءِ عَلَى

إتباع شروط الصلاح في الحاكم ما هو غير خافٍ على أحد .

الرابعة: - استخلافه ﷺ للصلاة بالناس في مكانه عندما قال ﷺ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فَقَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: «إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ (رقيق) وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعِ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَتْ لَهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ نَصَوَاحِبُ يُوسُفَ . مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» ، ولقد رأيت مدى شدته في تعيين أبي بكر لذلك ورده الشديد على عائشة ﷺ فيها راجعته به .

ولئن كنا نقول أن هذه المزايما الثابتة في صحاح الأحاديث لأبي بكر ﷺ هي التي رجحت مبايعة المسلمين له بالخلافة بعد رسول الله ﷺ ، فهذا لا يغض من خصائص وميز الصحابة والخلفاء الآخرين خصوصاً علي ابن أبي طالب ﷺ ، فقد رأيت أنه ﷺ في غزوة خيبر قال : «لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» فذهب الناس يتساءلون في تلك الليلة من سيكون صاحب الراية، فكان صاحبها هو علي ﷺ .

ولقد إنتهى أمر الخلافة وأبرم المسلمون الحكم فيها عقب وفاته ﷺ دون أن يستلزم ذلك أي تفرق أو شقاق بينهم من وراء حدود المذاكرة والمناقشة التي لا بد منها.

وظل كل من أبي بكر وعلي ﷺ مظهرًا ولسانًا ناطقًا بفضل الآخر .

ولا ريب أن من تافه القول والعمل أن نعمد بعد مرور أربعة عشر قرناً على ذلك التاريخ فنضيع الوقت ونستثير الشحناء والبغضاء ، في سبيل القول بأن هَذَا كان أولى بالخلافة أم ذاك ، مع أن أصحاب العلاقة أنفسهم لم يقيم بينهم أي شقاق من هَذَا القبيل ، وما مضوا إلى لقاء ربهم إلا وهم ينبضون بقلب واحد حباً وتضامناً^(١) .

وهَذَا عمر بن الخطاب يمدحه النبي ﷺ بعدة أحاديث منها : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا دَارًا أَوْ قَصْرًا ، فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا : لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ »

(١) فقه السيرة ص : [٣٤٣ . ٣٤٤] .

فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ أَوْ عَلَيْكَ يُعَارُ؟^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَكْلُمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَ، وَعَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فُئِمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَكَ اللَّهُ سِنَّكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ» قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يَهَيَّبَنَّ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عِدْوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَمَّهِنَّنِي وَلَا تَهَيَّبَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قُلْنَ: نَعَمْ، أَنْتَ أَغْلَطُ وَأَفْطُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَبَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَبَجًّا غَيْرَ فَبَجِّكَ»^(٢).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ» قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: تَفْسِيرُ مُحَدِّثُونَ: مُلْهُمُونَ^(٣) ..

وأيضاً صاحبه عثمان بن عفان: فقد كرمه، ومدحه في عدة أحاديث منها:

عن حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رضي الله عنها ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ قَدْ وَضَعَ ثَوْبَهُ عَن فَخِذِهِ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ فَأَذِنَ لَهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ عَلَى هَيْئَتِهِ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لَهُ وَالنَّبِيُّ ﷺ عَلَى هَيْئَتِهِ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَوْبَهُ، فَتَجَلَّلَهُ، فَتَحَدَّثُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، جَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ وَأَنْتَ عَلَى هَيْئَتِكَ، فَلَمَّا جَاءَ عُثْمَانُ تَجَلَّلْتَ ثَوْبِكَ؟ فَقَالَ: «أَلَا أَسْتَحِي بِمَنْ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»^(٤).

(١) رواه مسلم ..

(٢) رواه مسلم ..

(٣) رواه مسلم ..

(٤) رواه أحمد والطبراني وغيرهما ..

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَيَّتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فِي حَائِطٍ مِنْ حَائِطِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُتَّكِيٌّ يَرْكُزُ بِعُودٍ مَعَهُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ، إِذَا اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ، فَقَالَ: «افْتَحْ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» قَالَ: فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، فَفَتَحَتْ لَهُ وَبَشَّرَتْهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: «افْتَحْ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» قَالَ: فَذَهَبَتْ فَإِذَا هُوَ عُمَرُ، فَفَتَحَتْ لَهُ وَبَشَّرَتْهُ بِالْجَنَّةِ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ آخَرُ، قَالَ فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «افْتَحْ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تَكُونُ» قَالَ: فَذَهَبَتْ فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، قَالَ: فَفَتَحَتْ وَبَشَّرَتْهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ وَقُلْتُ الَّذِي قَالَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَبْرًا، أَوْ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ^(١)..

وأما سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه وعلينا، فقد كان ربيب بيت النبوة ورباه النبي ﷺ ومدحه في أحاديث كثيرة منها :

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: خَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخَلِّفُنِي فِي النَّسَاءِ وَالصَّبِيانِ؟ فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» ^(٢).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ مُعَاوِيَةَ، ذَكَرَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: «وَاللَّهِ لَأَنْ تَكُونَ لِي إِحْدَى خِلَالِهِ الثَّلَاثِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ لِأَنْ يَكُونَ» قَالَ لِي مَا قَالَ لَهُ حِينَ رَدَّ مِنْ تَبُوكَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي؟» أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَلِأَنَّ يَكُونَ قَالَ لِي مَا قَالَ فِي يَوْمِ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسَ بِفَرَارٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَلِأَنَّ أَكُونَ كُنْتُ صَهْرَهُ عَلَى ابْنَتِهِ لِي مِنْهَا مِنَ الْوَالِدِ مَا لَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» ^(٣).

والأحاديث كثيرة من أن تُحصى في فضائله وفضائل كثير من أصحاب النبي ﷺ.

(١) رواه مسلم ..

(٢) رواه أحمد و مسلم والترمذي والطبراني والنسائي وابن حبان ..

(٣) رواه النسائي وغيره ..

ومن حُبِّه لأصحابه فقد وجّه الأمة كلها بكثيرٍ من التوجيهات الواردة في الأحاديث في بيان موقف المؤمن المتبع للنبي ﷺ كيف يكون حبه لأصحاب النبي ﷺ .

ومن تلك التوجيهات الآتي : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ عَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فِجَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فِيبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَمَنْ آذَى اللَّهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ» (١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ» (٢).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ» (٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَمَعْنَى قَوْلِهِ: نَصِيفُهُ، يَعْنِي نِصْفَ مُدِّهِ.

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَتْ لِي عَائِشَةُ: يَا ابْنَ أُخْتِي «أَمَرُوا أَنْ يَسْتَعْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَبُّوهُمْ» (٤).

والأحاديث في ذلك كثيرة جداً ، فليفهم المؤمن المحب للنبي ﷺ : أن الدين الإسلامي الذي جاءنا من عند الله هو دين التسامح والمحبة والأخلاق الكريمة ، وليس دين الكراهية والبغضاء والأحقاد على أحد، والمؤمن العاقل الذي يريد السلامة والمحافظة على دينه وجب عليه أن يمثل أمر المولى ﷺ في قوله

(١) رواه أحمد الترمذي وغيرهما ..

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه مسلم ..

(٤) رواه مسلم ..

تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

كرهه ﷺ أن يحمل حقداً على أصحابه :

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: « لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا؛ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ » (١).

يقول الإمام الشعراي في كتابه العهود المحمدية: فقد أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نسعى في تحصيل مقام سلامة صدورنا من الغل والحسد وغير ذلك، فإن من كان غير سليم الصدر محروم من الخيرات كلها، فكان أحلم الناس، وأرغبهم في العفو مع القدرة، فإنه يتمنى أن يخرج من الدنيا وقلبه راض عن أصحابه من غير سخط على أحد منهم، وهذا تعليم للأمة أو من مقتضيات البشرية.

وكان ﷺ يعتمد على بعضهم في أموره الخاصة :

فكان ﷺ يعتمد على بلال بن رباح وهو من السابقين إلى الإسلام في تدبير أمور نفقته: فعن عبد الله الهوزني، قَالَ: لَقِيتُ بِلَالًا مُؤَدِّنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَلَبَ، فَقُلْتُ: يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي كَيْفَ كَانَتْ نَفَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: مَا كَانَ لَهُ شَيْءٌ، كُنْتُ أَنَا الَّذِي أَلِي ذَلِكَ مِنْهُ مُنْذُ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيَّ أَنْ تُوْفِّي، وَكَانَ إِذَا أَنَاهُ الْإِنْسَانُ مُسْلِمًا، فَرَأَاهُ عَارِيًا، يَأْمُرُنِي فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَقْرِضُ فَأَشْتَرِي لَهُ الْبُرْدَةَ فَأَكْسُوهُ، وَأُطْعِمُهُ، حَتَّى اعْتَرَضَنِي رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ:

يَا بِلَالُ، إِنَّ عِنْدِي سَعَةً، فَلَا تَسْتَقْرِضْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مِنِّي، فَفَعَلْتُ فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ تَوَضَّأْتُ، ثُمَّ قُمْتُ لِأُوذِّنَ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا الْمُشْرِكُ قَدْ أَقْبَلَ فِي عِصَابَةِ مِنَ التُّجَّارِ، فَلَمَّا أَنْ رَأَيْتِي، قَالَ: يَا حَبَشِي، قُلْتُ: يَا لَبَّاهُ فَتَجَهَّمَنِي، وَقَالَ لِي قَوْلًا غَلِيظًا، وَقَالَ لِي: أَتَدْرِي كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّهْرِ؟

قَالَ: قُلْتُ قَرِيبٌ، قَالَ: إِنَّمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَرْبَعٌ، فَأَخَذَكَ بِالذِّي عَلَيْكَ، فَأَرَدْتُكَ تَرَعَى الْغَنَمَ، كَمَا كُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ فَأَخَذَ فِي نَفْسِي مَا يَأْخُذُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ، حَتَّى إِذَا صَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ، رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ،

فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذَنَ لِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنَّ الْمُشْرِكَ الَّذِي كُنْتُ أَتَدِينُ مِنْهُ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، وَلَيْسَ عِنْدَكَ مَا تَقْضِي عَنِّي، وَلَا عِنْدِي، وَهُوَ فَاضِحِي، فَأَذَنَ لِي أَنْ أَبْقَى إِلَى بَعْضِ هَؤُلَاءِ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ قَدْ أَسْلَمُوا، حَتَّى يَرْزُقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَقْضِي عَنِّي، فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا أَتَيْتُ مَنْزِلِي، فَجَعَلْتُ سِنْفِي وَجِرَابِي وَنَعْلِي وَمِحْجِي عِنْدَ رَأْسِي، حَتَّى إِذَا انْشَقَّ عَمُودُ الصُّبْحِ الْأَوَّلِ أَرَدْتُ أَنْ أَنْطَلِقَ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يَسْعَى يَدْعُو: يَا بِلَالُ أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَاَنْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ، فَإِذَا أَرْبَعُ رَكَائِبَ مُنَاخَاتٍ عَلَيْهِنَّ أَحْمَالُهُنَّ، فَاسْتَأْذَنْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَبْشِرْ فَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِقَضَائِكَ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَمْ تَرَ الرِّكَائِبَ الْمُنَاخَاتِ الْأَرْبَعِ» فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ:

«إِنَّ لَكَ رِقَابَهُنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ، فَإِنَّ عَلَيْهِنَّ كِسْوَةً وَطَعَامًا أَهْدَاهُنَّ إِلَيَّ عَظِيمٌ فَدَكَ فَاقْبِضُهُنَّ، وَاقْضِ دَيْنَكَ» فَفَعَلْتُ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، ثُمَّ أَنْطَلَقْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ مَا قَبْلَكَ؟» قُلْتُ: قَدْ قَضَى اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ، قَالَ: «أَفْضَلَ شَيْءٍ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «انْظُرْ أَنْ تُرِيحَنِي مِنْهُ، فَإِنِّي لَسْتُ بِدَاخِلٍ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي حَتَّى تُرِيحَنِي مِنْهُ» فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَتَمَةَ دَعَانِي، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الَّذِي قَبْلَكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: هُوَ مَعِيَ لَمْ يَأْتِنَا أَحَدٌ، فَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، وَقَصَّ الْحَدِيثَ حَتَّى إِذَا صَلَّى الْعَتَمَةَ - يَعْنِي - مِنْ الْعَدِ دَعَانِي، قَالَ: «مَا فَعَلَ الَّذِي قَبْلَكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: قَدْ أَرَاكَ اللَّهُ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَبَّرَ وَحَمِدَ اللَّهُ شَفَقًا مِنْ أَنْ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ، وَعِنْدَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَرْوَاجَهُ فَسَلَّمَ عَلَى امْرَأَةٍ، امْرَأَةٍ حَتَّى أَتَى مَبِيتَهُ فَ هَذَا الَّذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ» (١).

وكان ﷺ يتفقّد من غاب من أصحابه :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

النَّبِيِّ ﷺ﴾ [الحجرات: ٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ اشْتَكَى؟» قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ

(١) رواه أبو داوود في سننه والطبراني وابن حبان والبخاري وغيرهم ..

لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فاتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»^(١). وعن قرة بن إياس، رضي عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ ومعه ابن له فقال له: «أحبه؟» فقال: أحبك الله كما أحبه، فمات، ففقده، فسأل عنه، فقال: «ما يسرك أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك؟»^(٢).

وكان ذلك التفتد يتأكد في الأوقات الحرجة :

فمن زيد بن ثابت رضي عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع، وقال لي: «إن رأيت فاقرته مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تحمك؟». قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأصبتُهُ وهو في آخر رمقٍ وبه سبعون ضربةً ما بين طعنه برمحٍ وضربةٍ بسيفٍ ورميةٍ بسهمٍ، فقلت له: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «خبرني كيف تحمك؟»، قال: على رسول الله السلام، وعليك السلام قل له: يا رسول الله، أجدني أجد ریح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف، قال: وفاضت نفسه رحمه الله^(٣). وهذا اشتغال واهتمام منه ﷺ بأصحابه، وبعثه عن من فقد منهم بعد الموت ليعلم ما خبره، وما الذي غيبه ..

وكان رسول الله ﷺ يُفدِّي بعضهم بأبيه وأمه :

عن سعد بن أبي وقاص رضي عنه يقول: نثّل لي النبي ﷺ كينانته يوم أحد فقال: «أزم فذاك أبي وأمي»^(٤)، وقوله: «فذاك أبي وأمي» هي كلمة تقولها العرب على الترغيب أي: إن كان إلى الفداء سبيل فديتك بها أجمعين، هما يكبران عندي .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ..

(٢) رواه النسائي ..

(٣) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين والبيهقي ..

(٤) متفق عليه .

وأخرج أن النبي ﷺ جَمَعَ له أبويه يوم أحد ، قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال له النبي ﷺ «ارم فداك أبي وأمي» ، قال: فنزعت له بسهم ليس فيه نصلٌ، فأصبت جنبه، فسقط فانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ نظرت إلي نواجذه.

[فضحك أي: فرحاً بقتل عدوّه، لا لانكشافه] ^(١).

وعن عبد الله بن الزبير رضي عنه قال: كنت يوم الأحزاب جُعِلْتُ أنا وعمر بنُ أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلفُ إلي بني قريظة، مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت: يا أبت! رأيتك تختلفُ؟ قال: أو هل رأيتني يا بُني؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتيهم بخبرهم؟ «فانطلقتُ، فلما رجعتُ جمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه، فقال: «فداك أبي وأمي» ^(٢).

وكان ﷺ يحزن عند وفاتهم ، ويبكي عليهم :

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ، فَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى زَيْدٍ، قَالَ: فَإِنْ أُصِيبُوا جَمِيعًا؟ قَالَ: قَالَ أَنَسُ: فَتَعَاهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ الْحَبْرُ، قَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ»، قَالَ: فَجَعَلَ يُحَدِّثُ النَّاسَ وَعَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ ^(٣).

وَعَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ: لَمَّا مَاتَ عُمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ، أُخْرِجَ بِجَنَازَتِهِ فُدَيْنَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا أَنْ يَأْتِيَهُ بِحَجْرٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ حَمَلَهُ، فَقَامَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِيهِ؛ قَالَ كَثِيرٌ: قَالَ الْمُطَّلِبُ: قَالَ الَّذِي يُخْبِرُنِي ذَلِكَ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بِياضِ ذِرَاعِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَسَرَ عَنْهَا ثُمَّ حَمَلَهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَقَالَ: «أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي، وَأُذْفِنُ إِلَيْهِ مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي» ^(٤).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [١٨٥ / ١٥] .

(٢) رواه البخاري ومسلم ..

(٣) رواه أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم .

(٤) رواه أبو داود .

وكان النبي ﷺ يهتم بشؤون أصحابه ، ويرثي لحال بعضهم ، ويحزن لذلك :

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، يَقُولُ: خَرَجْتُ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَحَذْتُ إِهَابًا مَعْطُونًا فَجَوَّبْتُ وَسَطَهُ فَأَدْخَلْتُهُ عُنُقِي، وَشَدَدْتُ وَسْطِي فَحَرَمْتُهُ بِخَوْصِ النَّخْلِ، وَإِنِّي لَشَدِيدُ الْجُوعِ وَلَوْ كَانَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَعَامٌ لَطَعِمْتُ مِنْهُ، فَخَرَجْتُ أَلْتَمِسُ شَيْئًا فَمَرَرْتُ بِيَهُودِيٍّ فِي مَالٍ لَهُ وَهُوَ يَسْقِي بِبِكْرَةٍ لَهُ فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ ثُلْمَةٍ فِي الْحَائِطِ. فَقَالَ: مَا لَكَ يَا أَعْرَابِيٌّ؟ هَلْ لَكَ فِي كُلِّ دَلْوٍ بِتَمْرَةٍ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، فَافْتَحَ الْبَابَ حَتَّى أَدْخُلَ فَفَتَحَ فَدَخَلْتُ فَأَعْطَانِي دَلْوَهُ فَكَلَّمَا نَزَعْتُ دَلْوًا أَعْطَانِي تَمْرَةً حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ كَفَيْتُ أَرْسَلْتُ دَلْوَهُ وَقُلْتُ: حَسْبِي فَأَكَلْتُهَا ثُمَّ جَرَعْتُ مِنَ الْمَاءِ فَشَرِبْتُ ثُمَّ جِئْتُ الْمَسْجِدَ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهِ ..

وإِنَّا جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ طَلَعَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ مَا عَلَيْهِ إِلَّا بُرْدَةٌ لَهُ مَرْقُوعَةٌ بِفَرْوٍ فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَكَى لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالَّذِي هُوَ الْيَوْمَ فِيهِ؛ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ وَوَضَعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةً وَرَفَعَتْ أُخْرَى وَسَتَرْتُمْ بِيُوتِكُمْ كَمَا تُسْتَرُّ الْكَعْبَةُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنَّا الْيَوْمَ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ وَنُكْفَى الْمُؤَنَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [لَأَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ] (١).

وكان ﷺ يطيب خاطرهم إذا لم يعطهم لأجل المصلحة :

فَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَاتِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ؛

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفِيءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ؛

قَالَ: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا أَمْرٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا؟
قَالَ: «فَأَجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَضِيرَةِ»؛

قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَضِيرَةِ، قَالَ: فَبَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ، فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ:

قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ وَجِدَّةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ؟ وَعَالَةٌ فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءٌ فَآلَفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟»؛ قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ وَأَفْضَلُ.

قَالَ: «أَلَا تُحِبُّونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟»، قَالُوا: وَبِمَاذَا نُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ.
قَالَ: «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصَدَّقْتُمْ، أَتَيْنَنَا مُكَذِّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَتَخَذُوا لَنَا فَتَنًا، وَطَرِبُوا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَاسْتَيْنَاكَ، أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا، وَوَكَلْتُمْ إِلَيَّ إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ؟»

فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ» قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحِطًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا (١).

قال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله في كتابه: (فقه السيرة) مُعَلِّقًا عَلَى هَذَا

الموقف من رسول الله ﷺ تجاه أصحابه من الأنصار :

صَدَقَ رسول الله ﷺ إذ قال : «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ» ، فقد أراد الشيطان أن يبيث في نفوس جماعة من الأنصار معنى النِّقْدِ عَلَى السياسة التي إتبعها عليه الصلاة والسلام في توزيع الغنائم ، وربما أراد لهم الشيطان أن يتصوروا أن النبي ﷺ قد أدركته محبة قومه وبني وطنه فنسي في جنبهم الأنصار ..!

فماذا قال لهم رسول الله ﷺ لما أخبر بذلك ؟

إن الخطاب الذي ألقاه عليهم جواباً عَلَى هذه الوسوس ليفيض بمعاني الرِّقَّةِ و الذوق الرفيع ، ومشاعر المحبة الشديدة للأنصار ، وهو يفيض في الوقت ذاته بدلائل التألم من أن يُتَّهَمَ مِنْ قِبَلِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ بنسيانهم والإعراض عنهم .

عُدْ إِلَى خطابهِ هَذَا فتأملهُ .. فسترى أنه قد ضمنه أدق خفقات قلبه وألطف إحساساته ! .

وقد لامست هذه الرقة والخفقات مشاعر الأنصار فهزتها هزاً ونفضت منها ما كان قد علق بها من الوسوس والهواجس ، فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحاً بنبيهم وابتهاجاً بقسمتهم ونصيبتهم .

فما المال وما الشياه والغنائم في جنب حبيبتهم رسول الله ﷺ إذ يعودون به ويعود بهم إِلَى ديارهم ليكون المَحْيَا بينهم والمات فيما بينهم ؟ وأي برهان منه عليه الصلاة والسلام ينطق بالوفاء وخالص المحبة والود أكثر من هَذَا .. أي أكثر مِنْ أَنْ يَدَعَ وطنه ومسقط رأسه ليقضي بقية أيامه فيما بينهم ؟ ! .

ثم مَتَى كان المال في ميزان رسول الله ﷺ دليلاً عَلَى التقدير والحب ؟ !

إنه أعطى قريشاً كثيراً من الأموال والغنائم ... فهل خَصَّ نفسه بشيء من ذلك أم جعل نصيبه منه كنصيب الأنصار ؟ لقد عمد إِلَى (الخمسة) الذي جعله الله خاصاً برسوله يضعه حيث شاء ، فوزَّعَه بين أولئك الأعراب الذين كانوا من حوله .

وتأمل فيما قاله لهم ، وهم يحدقون به ويستزيدون في العطاء : « أيها الناس والله مالي من فيئكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

صلى الله عليك يا رسول الله وعلى أصحابك البررة من الأنصار و المهاجرين وجمعنا تحت لواءك المحمود ، وجعلنا مع أولئك الذين سيلقونك على الحوض يوم القيامة^(١) .

وكان ﷺ يُدرك الصفات الخاصة التي يتمتع بها أصحابه :

فكان ﷺ يُدرك ما يتمتع به كل واحد منهم من صفات تميزه عن الآخر ، وهو القائل : كما ورد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ ، وَأَصْدَقُهَا حَيَاءً عُثْمَانُ ، وَأَعْلَمُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَأَقْرَبُهَا لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَبِي ، وَأَعْلَمُهَا بِالْفَرَائِضِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ؛ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ »^(٢) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : « مَا أَظَلَّتِ الْخَضِرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ وَلَا أَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ شِبْهُ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ » ، فقال عمر بن الخطاب كالحاسد^(٣) يا رسول الله أفتعرف ذلك له؟ قال : « نَعَمْ فَاعْرِفُوهُ »^(٤) .

وكان ﷺ لا يجعل أيامهم كلها مواعظ :

قال ابن مسعود رضي الله عنه : قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ ، مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا »^(٥) .

(١) فقه السيرة ص : [٢٩٤ . ٢٩٥] .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي والنسائي .

(٣) [أي : على طريق الغبطة] .

(٤) رواه الترمذي وغيره ..

(٥) رواه أحمد في المسند ..

الناس سواسية عند الحبيب ﷺ :

الأخلاق وحدها هي المحك الذي يفاضل به بين الناس ، الإنسانية لا بد وأن تُحترم أياً كانت الديانة أو الثروة، ومهما كان الوضع الاجتماعي ، وإذا أحيبنا أن نُحلّق في سماء هَذَا الخُلُق لدى النبي محمد ﷺ ، سنجد ما نحني أمامه جباهنا تبيحاً لهذا النبي العظيم الذي أرسى قواعد المساواة التي لم يعرفها العالم في قوانينه المدنية، سوى من سنوات قليلة .

ذات يوم، فوجئ الصحابة بغضب يعلو وجه النبي ﷺ وهو الذي لم يغضب لنفسه قط ، كان النبي ﷺ رافضاً لتلك الكلمات التي سمعتها أذناه من صحابي جليل له ، تُرى أي كلمات تلك التي أغضبتك يا نبي الحلم والصبر؟!

لقد خاطب عليه الصلاة والسلام من قال عن بلال بن رباح : يا ابن السوداء بقوله: « إِنَّكَ امرؤٌ فيك جاهليّة »^(١) . نعم ، هي جاهلية أن تعابر أخاك في الإنسانية بشيء أياً كان السبب ، فكرامة الإنسان لدى الرسول محمد ﷺ لها اعتباراتها وأولوياتها.

ومهما كان فضلك في تاريخ هذه الأمة، إلا أنه يجب ألا تنتهك كرامة وإنسانية أخيك في الإنسانية والبشرية .

هكذا كان النبي ﷺ يحثُ على المساواة بين الناس، لا يترك المواقف التي من شأنها أن تُعكّر صفو هذه الشيمة، ويجعلها تمرّ مرور الكرام .

وفي مشهد آخر يقوّي من إدراكنا لهذه الأخلاق لدى النبي ﷺ ، نراه ﷺ يُعقّب على ضحكات صحابته حين يصعد عبد الله بن مسعود على نخلة فتكشف ساقاه النحيفتان، فيضحك الصحابة لدقة ساقه، فإذا بالنبي ﷺ يقول لهم: « أَتَضْحَكُونَ؟ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ جَبَلٍ أَحَدٍ » .

(١) رواه أحمد ومسلم والبخاري ..

هكذا تبدو قيمة الإنسان وتتضح معالم هذه الصورة لدى الصحابة، فيسرون على نهج نبيهم ويرفضون أي انتهاك لآدمية البشر..

وموقفه من نزعة العصبية بين أصحابه فقد كان يعالجها بأسرع وقت كي يكونوا على قلب رجل واحد، وذلك من مظاهر رحمته ﷺ أنه ارتقى بالعرب إلى مستوى التَّحَضُّر الحقيقي، فوَحَّد صفَّهم، وأقام لهم دولة وجعل منهم أمةً، في ظلال دولة مدنية، وأمة متحضرة، وفي سبيل فكرة مستنيرة، لا أن يعيش في صراعات قبلية، واقتتال على الناقة والعنزة، في سبيل أفكار رجعية أو عصبية منتنة، كما كان يسميها النبي ﷺ: «دَعُوها، فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ»؛

وقال ذلك لما روي عمرو بن دينار قال: سمعت عن جابر بن عبد الله، قال: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، قَالَ فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوها، فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ»، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنٍ سَلُولٍ: قَدْ فَعَلُوها لَيْتَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: «دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(١).

وكان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على تأصيل قيمة المساواة في نفوس أصحابه، فكان يساوي بين الناس بعضهم بعضاً، وفي الوقت ذاته، لا يضع نفسه في مرتبة أعلى منهم، بل يساوي نفسه بهم دوماً؛

رَوَى ابن هشام في سيرته: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي جِبَّانُ بْنُ وَاسِعِ بْنِ جِبَّانٍ عَنْ أَشْيَاحٍ مِنْ قَوْمِهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَدَلَ صُفُوفَ أَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَفِي يَدِهِ قِدْحٌ يُعَدَّلُ بِهِ الْقَوْمَ، فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ، حَلِيفِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ وَهُوَ مُسْتَنْتَلٌ مِنَ الصَّفِّ - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: مُسْتَنْتَلٌ

(١) رواه أحمد وابن حبان وأبي عوانة وغيرهم ..

مِنَ الصَّفِّ - فَطَعِنَ فِي بَطْنِهِ بِالْقِدْحِ، وَقَالَ: اسْتَوِ يَا سَوَادُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْجَعْتَنِي وَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، قَالَ: فَأَقْدِنِي .

فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: اسْتَقِدْ، قَالَ: فَأَعْتَنَقَهُ فَقَبَّلَ بَطْنَهُ: فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَيَّ هَذَا يَا سَوَادُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَضَرَ مَا تَرَى، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الْعَهْدِ بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَيْرٍ، وَقَالَ لَهُ ^(١).

نعم إنها أسمى معاني المساواة بين البشر، تظهر معالمها في هذه الصورة العجيبة، حين يدعو الرسول هَذَا الصحابي للاقتصاص منه، وهو نبي هذه الأمة، وهو الذي وكزه حرصاً على نظام الصف في أمر له شأنه في تاريخ الأمة، ولم يكن النبي ﷺ ليوكز أحداً وكزة تؤلمه، ومع ذلك، فقد ظهر التطبيق الفعلي لقيمتي العدل والمساواة في هذه القصة.

وعند بناء الصحابة لأول مسجد في تاريخ الإسلام (مسجد قباء) كان يحمل معهم اللبَن والحجارة كأبي فرد فيهم، وحين حاول حمزة رضي الله عنه أن يحمل عنه، أبا النبي ﷺ ذلك ورفض أن يتميز على أصحابه.

قصة سيدنا جابر ابن عبد الله مع النبي ﷺ:

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ وَابْنُ هِشَامٍ فِي سِيرَتِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى غَزْوَةِ ذَاتِ الرَّقَاعِ عَلَى جَمَلٍ لِي ضَعِيفٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَعَلَتِ الرَّفَاقُ تَمْضِي، وَجَعَلْتُ أَتَخَلَّفُ حَتَّى أَدْرَكَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا جَابِرُ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبْطَأَ بِي جَمَلِي هَذَا. قَالَ: «فَأَنْعِهُ»، وَأَنَاخَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «أَعْطِنِي هَذِهِ الْعَصَا مِنْ يَدِكَ»، قَالَ: فَفَعَلْتُ. قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنَحَسَهُ بِهَا نَحْسَاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «ارْكَبْ» فَرَكِبْتُ، فَخَرَجَ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ يُوَاهِقُ ^(٢) نَافَتْهُ مُوَاهِقَةً .

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٦).

(٢) يواحق: أي يسابق.

قَالَ: وَتَحَدَّثَ مَعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتَبِيعُنِي بِجَمَلِكَ هَذَا يَا جَابِرُ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلْ أَهْبُهُ لَكَ. قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ بِعَيْنِي» قَالَ: قُلْتُ: فَسَمِّنِي بِهِ. قَالَ: «قَدْ أَخَذْتُهُ بِدِرْهِمٍ»، قَالَ: قُلْتُ: لَا. إِذَا يَغْنِينِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «فِيدِرْهِمَيْنِ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ بَلَغَ الْأَوْقِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: فَقَدْ رَضِيتُ، قَالَ: «قَدْ رَضِيتَ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ نَعَمْ قُلْتُ: هُوَ لَكَ، قَالَ: «قَدْ أَخَذْتُهُ»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا جَابِرُ، هَلْ تَزَوَّجْتَ بَعْدُ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَتَيْبًا، أَمْ بِكَرًّا؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ثَيِّبًا، قَالَ: «أَفَلَا جَارِيَةٌ تُلَاعِبُهَا، وَتُلَاعِبُكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ بَنَاتٍ لَهُ سَبْعًا، فَتَكَحَّتْ امْرَأَةٌ جَامِعَةً تَجْمَعُ رُءُوسَهُنَّ، وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ، قَالَ: «أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» قَالَ: «أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَارًا، أَمْرًا بِبَجْرُورٍ فَفُجِرَتْ، وَأَقْمَنَّا عَلَيْهَا يَوْمًا ذَلِكَ، وَسَمِعَتْ بِنَا فَتَفَضَّتْ تَمَارِقَهَا»، قَالَ: قُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا مِنْ تَمَارِقٍ، قَالَ: «إِمَّهَا سَتَكُونُ، فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلًا كَيْسًا» .

قَالَ: فَلَمَّا جِئْنَا صِرَارًا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَجْرُورٍ فَفُجِرَتْ، فَأَقْمَنَّا عَلَيْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ وَدَخَلْنَا الْمَدِينَةَ .

قَالَ جَابِرُ: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخَذْتُ بِرَأْسِ الْجَمَلِ، فَأَقْبَلْتُ بِهِ حَتَّىٰ أَنْحَيْتُهُ عَلَىٰ بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَلَسْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَرِيبًا مِنْهُ قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَى الْجَمَلَ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا جَمَلٌ جَاءَ بِهِ جَابِرٌ، قَالَ: «فَأَيْنَ جَابِرُ؟» فَدُعِيتُ لَهُ، قَالَ: «تَعَالَ أَيُّ ابْنِ أَخِي، حُذِّ بِرَأْسِ جَمَلِكَ فَهُوَ لَكَ». وَدَعَا بِلَالًا، فَقَالَ: «أَذْهَبُ بِجَابِرٍ، فَأَعْطِهِ أُوقِيَّةً» فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً، وَزَادَنِي شَيْئًا يَسِيرًا، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَنْمِي عِنْدَنَا، وَتَرَىٰ مَكَانَهُ مِنْ بَيْنِنَا ^(١).

يقول الشيخ العلامة : محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله ، في كتابه : (فقه السيرة) مُعَلَّقًا

عَلَىٰ هَذِهِ الْقِصَّةِ بِمَا يَلِي :

(١) سياق القصة بهذا اللفظ لابن إسحاق كما رواه ابن هشام في السيرة . وهي في البخاري ومسلم قريب من ذلك .

قصة جابر ابن عبد الله وما كان بينه وبين الرسول ﷺ فيها من الصورة الكاملة الدقيقة خلقت رسول الله ﷺ مع أصحابه ، وما انطوى عليه خلقه الكريم هذا من لطف المعاشرة ورقّة في الحديث و فكاهاة في المحاوراة ومحبة شديدة لأصحابه .

فأنت إذا تأملت جيداً في هذه القصة التي سردناها ، علمت أن النبي ﷺ كان متأثراً بالمحنة التي طافت على بيت جابر ابن عبد الله ، فقد استشهد والده في غزوة أحد ، فقام هو - وهو أكبر أولاد أبيه - على شأن الأسرة ورعاية الأطفال الكثيرين الذين خلفهم له والده من ورائه ، وهو على ذلك رقيق الحال ليس له نصيب وافر من الدنيا .

وكانها استشعر الرسول ﷺ في تأخر جابر عن القوم بسبب جملة الضعيف الذي لا يملك غيره ، مظهراً لحالته العامة هذه ... (وقد كان من عادته ﷺ إذا سار مع أصحابه في طريق ، أن يتفقد أصحابه كلهم ويطمئن عليهم بين كل فترة وأخرى) ، فانتهازها فرصة وتحلف حتى إلتقى معه وراح يواسيه بأسلوبه الرقيق الفكاهة الذي رأيت ، في طريق ليس معها فيه ثالث .

عرض عليه ﷺ شراء بعيره ، وهو إنما يريد أن يجعل ذلك ذريعة ومناسبة لإكرامه ومساعدته على وضعه الذي هو فيه ، ثم سأله عن زوجته و البيت ، في أسلوب فكاهة رقيق ، وراح يطمئن الزوج الجديد ، أنهم إذا وصلوا قريباً من المدينة أقاموا ساعات هناك ، حتى يتسامع أهل المدينة بمقدمهم ، فتسمع زوجته فتصلح من شأنها وتبني له البيت بزينتته ونارقه ، وينساق معه جابر في الأسلوب نفسه فيقول : والله يا رسول الله ما لنا من نارق ! ... فيجيبه ﷺ قائلاً : إنها ستكون .

صورة رائعة عن لطف معشره وأنس حديثه ، والفكاهاة الحلوة في محاورته لأصحابه ، لم يكتب لنا أن نراها ونسعد بها في مجالسه ﷺ وغزواته وأسفاره ، ولكن ها نحن نستشفها من سيرته وأخباره العطرة فيهننا الشوق إلى رؤيته التي حرمانها و مجالسه التي سمعنا بها ولم نرها ، وغزواته التي قرأناها ولم يكن لنا شرف الإشتراك فيها .

اللهم عوضنا عن ذلك كله بلقاء معه في جنان خلدك ، وهيننا لذلك بتوفيق من لدنك

للتمسك بهديه واقتفاء أثره في تحمل كل محنة وضميم في سبيل دينك وتحقيق شريعتك (١).

موقفين من رسول الله ﷺ مع أصحابه في غزوة الخندق :

هذين موقفين من مواقف النبي ﷺ في تعامله مع أصحابه الكرام ، تُلِفْتُ النظرِ إِلَى الرحمة

العظيمة والشفقة الكبيرة التي كان يحملها تجاه أصحابه وأمته ؛

في غزوة الأحزاب لما بلغ رسول الله ﷺ الخبر وسمع بخروجهم - أي المشركين - من مكة

ندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر ، فأشار عليه سلمان الفارسي بالخندق ،

فأعجب ذلك المسلمين (والخندق مما لم يكن يعلمه العرب من وسائل الحرب) فخرجوا من المدينة

وعسكر بهم رسول الله ﷺ في سفح جبل سلع فجعلوه خلفهم ، ثم هبّوا جميعاً يحفرون الخندق

بينهم وبين العدو ، كان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، وعدد ما اجتمع من قريش والأحزاب و

القبائل الأخرى عشرة آلاف . وهناك مشاهد من عمل المسلمين في حفر الخندق ، منها : المشهد

الأول : رَوَى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : « لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ ، وَخَنَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ، رَأَيْتُهُ

يَنْقُلُ التُّرَابَ الْخَنْدَقِ حَتَّى وَارَى عَنِّي التُّرَابَ جِلْدَةَ بَطْنِهِ ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ » ، وَرَوَى أَنَسُ

رضي الله عنه : « جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يُحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ وَيَنْقُلُونَ

التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَيَقُولُونَ : نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا ... عَلَى الْإِسْلَامِ مَا بَقِينَا أَبَدًا . وَرَسُولُ اللَّهِ

رضي الله عنه يُجِيبُهُمْ وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرَ الْآخِرَةِ فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ » (٢).

المشهد الثاني : رَوَى البخاري أيضاً في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال : « إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ ،

فَعَرَضَتْ كُدَيْتٌ شَدِيدَةٌ ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا : هَذِهِ كُدَيْتٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ ، فَقَالَ : « أَنَا نَازِلٌ » . ثُمَّ

(١) من كتاب فقه السيرة للشيخ العلامة محمد سعيد رمضان البوطي ، ص [٢٠٠ - ٢٠١].

(٢) رواه البخاري ومسلم .

قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجْرٍ، وَلِشِتْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوْاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضْرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلًا، أَوْ أَهِيْمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدِكَ شَيْءٌ؟^(١) قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ^(٢)، فَذَبَحَتِ الْعَنَاقَ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ^(٣)، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِي^(٤) قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعِيمٌ لِي، فَقُمِ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قَالَ: قُلْ لَهَا: لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُورِ حَتَّى آتِي، فَقَالَ: قُومُوا فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ، وَالْأَنْصَارُ .. وَفِي طَرِيقٍ أُخْرَى: فَصَّاحَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَهْلَ الْخُنْدُقِ، إِنْ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا^(٥) فَحَيِّ هَلَّا بِكُمْ».

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكَ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلْتَ كَمْ طَعَامَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «ادْخُلُوا وَلَا تَضَاعَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُجَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَعْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ» (وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى) «فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَكَلُوا حَتَّى تَرَكَوْهَا، وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغَطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَتَنَا لَتُخْبِزُ كَمَا هُوَ»^(٥).

يقول الشيخ العلامة محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله في كتابه: (فقه السيرة) معلقاً على هذين المشهدين: وفيما استعرضناه من مشهد عمل الصحابة مع رسول الله ﷺ في حفر الخندق، عبرة بالغة كبرى، توضح لك حقيقة المساواة التي يرسوها المجتمع الإسلامي بين جميع أفراد المسلمين، وتكشف لك عن أن العدالة و المساواة، ليستا في الاعتبار الإسلامي مجرد شعارات يزين بها ظاهر المجتمع أو يوضع منه في إطار لامع براق، وإنما العدالة و المساواة هما الأساس الواقعي

(١) هي الأنتى من المعز .

(٢) البرمة : القدر .

(٣) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدر .

(٤) السور : بضم السين بدون همزة يُطلق على الصنيع العام من الطعام .

(٥) صحيح البخاري : ٤٦/٦ وانظر فتح الباري : ٢٧٩/٧ و ٢٨٠ .

الذي تنبثق منه عامة القيم والمبادئ الإسلامية ظاهراً وباطناً .

فأنت تجد أن رسول الله ﷺ لم يندب المسلمين إلى حفر الخندق ، ثم ذهب يراقبهم في قصرٍ منيف له مستريحاً هادئاً ، ولا أقبل إليهم في احتفالٍ صاخبٍ رنانٍ ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه ، فيضرب به ضربة واحدة في الأرض إيداناً ببدء العمل وتخيلاً لهم أنه قد شاركهم في ذلك ، ثم يُلقِي المعول ويدير ظهره إليهم ، ينفض عن حلته ما قد علق بها من ذرات الغبار ، ولكن رسول الله ﷺ انخرط في العمل كأَيِّ واحد من أصحابه ، حتَّى لبس ثوباً من الأتربة والغبار على جسمه فما تفرقه عن أي عامل آخر من صحبه وإخوانه ، يرتجزون لينشط بعضهم بعضاً ، فيرتجز معهم ، ويتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعباً وجوعاً . وتلك هي حقيقة ما أقامته الشريعة الإسلامية من مساواة بين الحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والصعلوك والأمير ، وأنت لا تجد فرعاً من فروع الشريعة وأحكامها إلا قائماً على هذا الأساس ضامناً لهذا الحق . وأعيدك أن تخطيء فتسمي هذه ديموقراطية في السلوك والحكم ، فشتان ما بينهما من الفرق . مصدر هذه العدالة والمساواة في الدين الإسلامي ، هو العبودية لله تعالى . وهي صفة عامة شاملة للناس كلهم ، تضعهم في صف واحد من المكانة والاعتبار . ومصدر ما يسمونه بالديموقراطية ، تحكيم رأي الأكثرية أي : تأليه رأي الأكثرية على الآخرين ، مهما كانت طبيعة ذلك الرأي ومرماه .

من أجل هذا ، لا تعوج الشريعة الإسلامية على شيء مما يُسمَّى بالامتيازات لأي طبقة أو فئة من الناس ، ولا تخص جماعة منهم بحصانة ما مهما كانت الدوافع والأسباب ، لأن صفة العبودية لله تعالى من شأنها أن تذيب كل ذلك وتلغيه من الاعتبار .

ثالثاً : - وفي هذا المشهد نفسه أيضاً عظة وعبرة أخرى تكشف لك عن مظهر النبوة في شخصية النبي ﷺ ، وتضعك أمام مدى ما كانت تمتلئ به نفسه من محبة أصحابه والشفقة عليهم وتعطيك مثلاً آخر للخوارق والمعجزات التي أكرم الله بها نبيه ﷺ .

فأما ما يتجلى من شخصيته النبوية في هذا المشهد ، فذلك يبدو في مكابדתه ﷺ للجوع

الشديد أثناء عمله مع أصحابه ، حتّى إنه ليشد الحجر على بطنه ، يتقي بذلك ما يجده الجائع من ألم الفراغ في معدته ، ترى ما الذي يمكن أن يحمله على المعاناة لمثل هذه المشقة و الجهد ؟ أهو التطلع للزعامة ؟ أم هي الرغبة في المال و الملك ؟ أم هو الطموح إلى أن يجد من حوله شيعة و أتباعاً ؟ كل هذه المطامع ، تناقض مناقضة صارخة هَذَا الذي يكابده و يعانيه ، و ما أبعد الرجل الذي يطمع في جاه أو ملك أو سلطان عن الصبر على تحمل مثل هذه الآلام .

إن الذي يحمله على تحمل كل ذلك إنما هو مسؤولية الرسالة و الأمانة التي كُلف بتبليغها و السير بها إلى الناس في طريق هذه طبيعتها . فهذه الشخصية النبوية التي تتجلى في عمله ﷺ مع أصحابه في حفر الخندق .

و أما ما يبدو خلال ذلك من محبته الشديدة لأصحابه و الشفقة عليهم ، فإنك لتجده واضحاً في موقفه ﷺ من دعوة جابر رضي الله عنه له إلى طعامه القليل ، ذلك الذي صنعه له .

لقد كان الذي دفع جابر إلى دعوته ﷺ ، ما اكتشفه من شدة جوعه عليه الصلاة و السلام حينما رأى الحجر المربوط على بطنه الشريف ، و لم يكن في بيته من الطعام إلا ما يكفي لبضعة أشخاص ، فاضطر إلى أن يجعل الدعوة على قدر ما عنده من الطعام .

ولكن كيف يتصوّر أن يترك النبي ﷺ أصحابه في غمرة العمل وهم يتضورون مثله جوعاً ، لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعة من أصحابه يستريحون و يأكلون ، و إنه لأشفق على أصحابه من شفقة الأم على أولادها ؟ ! .

أما جابر فقد كان مضطراً إلى ما فعل ، و كان ذلك منه طبيعياً ، إذ أنه — كأبي مفكر عادي من الناس — لم يكن يملك أن يتصرف إلا حسب ما لديه من الأسباب المادية و الطعام الذي لديه لا يكفي فيما يُجمع عليه عرف البشر إلا لهذا العدد اليسير ، فلِيختصّ به إذاً رسول الله ﷺ و من يشاء من بعض أصحابه في حدود ضيقة .

ولكنه عليه الصلاة و السلام لم يكن ليتأثر بنظرة جابر إليه ، فهو أولاً لا يمكن أن يتميز عن أصحابه

بشيء من النعمة أو الراحة . وهو ثانياً لا يمكن أن يأسر نفسه تحت سلطان الأسباب المادية وحدودها التي ألفتها البشر ، فالله وحده مسبب الأسباب وخالقها ، ومن اليسير عليه سبحانه أن يجعل من الطعام اليسير كثيراً ، وأن يبارك في القليل منه حتّى يكفي القوم كلهم ، ومهما يكن فقد رأى رسول الله ﷺ أنه وأصحابه متضامنون متكافلون يتقاسمون النعمة بينهم مهما قلت كما يتقاسمون بينهم المحنة مهما عظمت وكثرت .. ! فمن أجل ذلك أرسل جابراً إلى داره ليهييء لهم الطعام ، وانفتل هو إلى عامة القوم يناديهم أن يقبلوا جميعاً إلى صنعة كبرى لهم في دار جابر .

وأما المعجزة الخارقة في هذه القصة : فهي ما رأيت من انقلاب شاة جابر الصغيرة إلى طعام وفير كثير ، شبع منه مئات الصحابة ، وبقيت منه بقية كثيرة تركوها بعد أن اقترح النبي ﷺ على أهل البيت أن يتصدقوا بها ! .. لقد كانت هذه الخارقة العجيبة لرسول الله ﷺ تقديراً إلهياً لمدى محبته ﷺ لأصحابه وإعراضه عن الأسباب المادية وشأنها في جنب قدرة الله وسلطانه (١) .

هذه المشاهد الحية من سيرة النبي ﷺ ، تجعلنا ندرك كيف كان النبي ﷺ يحث على معاملة الناس معاملة كريمة ..

ونتعلم منها كيف نتعامل مع أصحابنا ومع من يحيطون بنا ويعيشون معنا ..



(١) إه من كتاب : فقه السيرة للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي ص [٢١٨ . ٢٢٠] ط ٢٦ لدار الفكر .

تَعَامَلُوا صَاحِبِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَالْوَالِدِ وَسَلِّمْ

مَعَ النَّابِغِينَ

قد وُجِدَ من أصحاب النبي ﷺ الكثيرُ من تميّز بالنبوغ ، والتفوق والنجابة .

فمنهم من كان نابغاً في الشعر كحسان بن ثابت رضي الله عنه .

ومنهم من كان نابغاً في الفقه والفهم والتأويل كابن عباس رضي الله عنه .

ومنهم من كان نابغاً في القضاء بين الخصوم كالإمام علي رضي الله عنه ، ومعاذ ابن جبل رضي الله عنه .

ومنهم من كان نابغاً في القدرة على التعلّم واكتساب المهارات كزيد ابن ثابت رضي الله عنه .

ومنهم من كان نابغاً في الحفظ كأبي هريرة رضي الله عنه .

ومنهم من كان نابغاً في الحنكة العسكرية كخالد ابن الوليد رضي الله عنه .

وقد كان رسول الله ﷺ يُراعي هذه المواهب والقدرات عند نجباء أصحابه رضوان الله

عليهم ، ويتعامل مع أصحابها تعاملاً يتناسب مع قدراتهم ونبوغهم ؛

فكان يُكلّف كلّ واحدٍ منهم بما يتناسبُ مع موهبته ، والشيء الذي نبغ فيه :

فكلّف رضي الله عنه حسان ابن ثابت بالردِّ على أعداء الإسلام في شعره :

عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ» ،

وَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ، فَقَالَ: «اهْجُهُمْ» فَهَجَاهُمْ، فَلَمْ يَرْضَ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ

أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: قَدْ أَنْ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَيَّ هَذَا الْأَسَدِ الضَّارِبِ

بِذَنبِهِ ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ .

فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِهِ فَرِيَّ الْأَدِيمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَعَجَلْ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ فُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّى يَخْلُصَ لَكَ نَسَبِي» .

فَأَتَاهُ حَسَّانُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَخْلِصَ لَكَ نَسَبُكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَأَسَلَّنَكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَ مِنَ الْعَجِينِ؛

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حَسَّانَ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» . وَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى» . قَالَ حَسَّانُ رضي الله عنه:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
هَجَوْتُ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِزُّرَضِي
تَكَلَّمْتُ بِنَيْتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
يُيَارِينِ الْأَعْنَةَ مُضْمِعَاتٍ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ
فَإِنْ اغْرَضْتُمُوْنَا عَنَّا اغْتَمَرْنَا
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِضِرَابٍ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا
تَلَاقِي مِنْ مَعَدٍّ كُلِّ يَوْمٍ
وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ بَكْرٍ:

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ
سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
وَيَمْدَحْهُ وَيَنْصُرْهُ سَوَاءٌ
وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا
وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ^(١)

وكلف عليه السلام زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود :

عن خارِجَةَ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ زَيْدِ قَالَ أَتَى بِي النَّبِيُّ عليه السلام مُقَدِّمَةَ الْمَدِينَةِ فَأَعْجَبَ بِي فَقِيلَ لَهُ هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَارِ قَدْ قَرَأَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً فَاسْتَقْرَأَنِي فَقَرَأْتُ (ق) فَقَالَ لِي تَعَلَّمْ كِتَابَ يَهُودَ فَإِنِّي مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي فَتَعَلَّمْتُهُ فِي نِصْفِ شَهْرٍ حَتَّى كَتَبْتُ لَهُ إِلَى يَهُودَ وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ^(٢) ..

وهذا ذكاءٌ مُفْرِطٌ جِدًّا، وَقَدْ كَانَ مِمَّنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام مِنَ الْقُرَاءِ .

وقال ابن كثير : وقد كان زيد ابن ثابت من أشد الناس ذكاءً ، تعلم لسان يهود وكتابهم في خمسة عشر يوماً .. وتعلم الفارسية من رسول كسرى في ثمانية عشر يوماً ، وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خدام رسول الله عليه السلام^(٣) .

وكلف عليه السلام معاذ ابن جبل بأن يكون داعياً وقاضياً على أهل اليمن :

لنبوغ معاذ ابن جبل في معرفة الحلال والحرام ولأه رسول الله القضاء على أهل اليمن .
عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ : أَنَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بِالْيَمَنِ مُعَلِّمًا وَآمِيرًا ، فَسَأَلْنَا عَنْ رَجُلٍ تُؤَيِّي وَتَرَكَ ابْنَتَهُ وَأَخْتَهُ ، فَأَعْطَى الْإِبْنَةَ النِّصْفَ وَالْأُخْتَ النِّصْفَ^(٤) .

عَنْ أَنَسٍ مِنْ أَهْلِ حِمصٍ ، مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ : « كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَّضَ لَكَ قِضَاءً ؟ » . قَالَ : أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ ، قَالَ : « فَإِنْ لَمْ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ .

(٢) رواه الترمذي وأبو داود ..

(٣) البداية والنهاية [٣٣ / ٨] .

(٤) رواه البخاري ..

تَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟». قَالَ: فَبَسَّنَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدِي فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟». قَالَ: أَجْتَهُدُ رَأْيِي، وَلَا أَلُو؛ فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدْرَهُ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، رَسُولَ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ»^(١).

وَأرسل ﷺ مصعب ابن عمير إِلَى المدينة للدعوة :

فاختار مصعب ابن عمير معلماً إِلَى المدينة، وليكون أول سفير له، يُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ مَبَادِئَ الدِّينِ وَتَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَيَدْعُوا إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وَلِذَلِكَ سَمَّوْهُ بِالْمَقْرئِ^(٢). وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ الْمَدِينَةَ الْمُنُورَةَ فَتَحَتْ بِالْقُرْآنِ وَلَيْسَ بِالسِّيفِ ..

عَنْ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلَالٌ، وَسَعْدٌ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الْإِمَاءُ يَقْلُنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ فِي رِوَايَةٍ: تَعَلَّمْتُ سَبْحَ أَسْرَرِكَ الْأَعْلَى ﷻ فِي سُورَةٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ^(٣).

وَكَانَ ﷺ يَخْتَارُ النَّجَبَاءَ؛ لِتَكْلِيفِهِمُ بِالْمَهَامَاتِ الصَّعْبَةِ :

فَكَلَّفَ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْمَبِيتِ فِي فِرَاشِهِ لَيْلَةَ الْمُهْجَرَةِ: فَعِنْدَمَا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّخْلِصِ مِنْهُ، أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ بِذَلِكَ .
فَأَمَرَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْ يَنَامَ فِي فِرَاشِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَالْأَعْدَاءُ قَدْ أَحَاطُوا بِالْبَيْتِ يَتَرَبَّصُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، فَنَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَعْلَمُ الْأَخْطَارَ الَّتِي تَكْتَنِفُهَا، وَأَنْ

(١) رواه أبو داود والبيهقي وغيرهما ..

(٢) السيرة النبوية لابن هشام [١ / ٤٣٤].

(٣) رواه البخاري ..

الأعداء لا يُفرّقون بينه وبين رسول الله ﷺ في مضجعه ، فلربما يقتلونهم ظناً منهم أنه رسول الله ﷺ . ولا يقدم على ذلك إلا أبطال الرجال ، وشجعانهم ؛

ولهذا وقع اختيار رسول الله ﷺ لهذه المهمة الشاقة على علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه و عليّ ، وكلفه بهذه المغامرة عن معرفة ، ودراية لمواهبه وقدراته عليّ .

وكذلك اختار رسول الله ﷺ علياً علياً يوم خيبر ؛ لحمل الراية :

قال رسول الله ﷺ : «لَأَعْطِينَ الرَّايَةَ عِدّاً رَجُلًا يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، لَيْسَ بِفَرَارٍ، يَفْتَحُ اللَّهُ ﷻ عَلَى يَدَيْهِ». فلما أصبح دعا علياً، وهو أرمداً، فتفل في عينيه، ثم قال: «خُذِ الرَّايَةَ فَاَمْضِ بِهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكَ».

واختار ﷺ يوم الأحزاب حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، ليدخل بين صفوف الأعداء ويأتي بخبرهم :

عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: كُنَّا عِنْدَ حَذِيفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حَذِيفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذْتَنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ؛ فَقَالَ: «فَمَنْ يَا حَذِيفَةُ، فَأَتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «أَذْهَبُ فَأَتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمَّا وَكَيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَعْتُ قُرْرَتُ،

فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عِبَاءَةٍ كَأَنَّ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِبًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»^(١).

وكان ﷺ يُظْهِرُ وَيُبَيِّنُ مَكَانَتَهُمْ بَيْنَ أَصْحَابِهِ :

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ سَيْفًا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: «مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟» فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا، أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟». قَالَ فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ. فَقَالَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ: أَنَا أَخْذُهُ بِحَقِّهِ. قَالَ: فَأَخْذَهُ ففَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ^(٢).

وكان ﷺ يثني عليهم بما فيه من الصفات المتميزة :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَفْضَاهُمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَوُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي بَنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(٣).

وقد أولى النبي ﷺ ابن عمه عبدالله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اهتماماً بالغاً؛ لما تمتع به

من صفات تدلُّ على النبوغ والذكاء :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: ضَمَّنِي إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي الْحِكْمَةَ»^(٤). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، فَوَضَعْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَضُوءًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ وَضَعَ هَذَا؟».

فَقَالَتْ مَيْمُونَةُ:

(١) رواه مسلم وابن حبان وأبي عوانة ..

(٢) رواه مسلم ..

(٣) رواه ابن حبان وابن ماجه والترمذي والبيهقي ..

(٤) رواه أحمد والبخاري وابن ماجه و الترمذي وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَصَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ، وَفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١).

فكان ابن عباس رضي الله عنه من أشهر مفسري الصحابة مع أنه كان أصغرهم سنًا.. وكيف لا يكون كذلك، وقد دعا له الرسول ﷺ. وقد ورد في كتب الحديث والسيرة العديد من مواقفه وبيان ما كان عليه من النبوغ والانتباه والذكاء والفتنة..

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ، فَدَعَا هُمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مَنِّي؛

قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمْرُنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، (وفي رواية: فَتُح المَدَائِنِ وَالْقُصُورِ [وقال بعضهم: لا ندري]، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكْذَابُ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ: قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، [نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ]، أَعَلِمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾: [فَتْحُ مَكَّةَ]: وَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجَلِكَ، ﴿فَسَيِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ^(٢).

ومن النوايع الذين كان للنبي ﷺ عناية بهم: عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه:

فَعَن شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ، قَالَ: خَطَبَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْضًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَمَا أَنَا بِحَيْرِهِمْ». قَالَ شَقِيقٌ: فَجَلَسْتُ فِي الْحَلْقِ أَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، فَمَا سَمِعْتُ رَادًّا يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ^(٤).

(١) رواه ابن حبان والطبراني وغيرهما..

(٢) رواه البخاري.

(٣) أي من قم النبي ﷺ..

(٤) رواه البخاري..

وأرشد النبي ﷺ إلى أخذ القرآن عنه ، فقال : « خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ ابْنِ أُمَّ عَبْدِ - فَبَدَأَ بِهِ - ، وَمِنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ ، وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ » (١) .

ومن النابغين في الحفظ : أبو هريرة رضي الله عنه :

إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَقُولُونَ: مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؟ وَإِنَّ إِخْوَانِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ ، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَانِي مِنَ الْأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ ، وَكُنْتُ امْرَأً أَسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ ، أَلْزَمَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيَّ مِلءَ بَطْنِي ، فَأَحْضُرُ حِينَ يَغِيْبُونَ ، وَأَعْيِي حِينَ يَنْسَوْنَ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثٍ حَدَّثَهُ يَوْمًا: «لَنْ يَسْطُرَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ جَمِيعَ مَقَالَتِي هَذِهِ ، ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلَّا وَعَى مَا أَقُولُ». فَسَطَطْتُ نُمْرَةً عَلَيَّ ، حَتَّى إِذَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَيَّ صَدْرِي ، فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ (٢) .

وكان النبي ﷺ يشيد بحرصه على التعلم : وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَيَّ الْحَدِيثِ ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ » (٣) .

ومن النابغين في الخبرة العسكرية خالد ابن الوليد رضي الله عنه :

قال الإمام الذهبي فيه : سَيَفُ اللَّهُ - تَعَالَى - وَفَارِسُ الْإِسْلَامِ ، وَلَيْتُ الْمَشَاهِدِ ، السَّيِّدُ الْإِمَامُ ، الْأَمِيرُ الْكَبِيرُ ، قَائِدُ الْمُجَاهِدِينَ ، أَبُو سُلَيْمَانَ الْقُرَشِيُّ ، الْمُخْزُومِيُّ ، الْمَكِّيُّ ، وَابْنُ أُخْتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ .

(١) رواه البخاري ومسلم ..

(٢) رواه البخاري ومسلم والطبراني وابن حبان وغيرهم ..

(٣) رواه البخاري وابن حبان ..

هَاجَرَ مُسْلِمًا فِي صَفَرٍ، سَنَةَ ثَمَانٍ، ثُمَّ سَارَ غَازِيًا، فَشَهِدَ غَزْوَةَ مُوتَةَ، وَاسْتُشْهِدَ أَمْرًا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الثَّلَاثَةَ: مَوْلَاهُ زَيْدٌ، وَابْنُ عَمِّهِ جَعْفَرُ ذُو الْجَنَاحَيْنِ، وَابْنُ رَوَاحَةَ، وَبَقِيَ الْجَيْشُ بِلَا أَمِيرٍ، فَتَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ فِي الْحَالِ خَالِدٌ، وَأَخَذَ الرَّايَةَ، وَحَمَلَ عَلَى الْعَدُوِّ، فَكَانَ النَّصْرُ.

وَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ: سَيْفَ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: (إِنَّ خَالِدًا سَيْفٌ سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ).
وَشَهِدَ الْفَتْحَ، وَحُنَيْنًا، وَتَأَمَّرَ فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ وَاحْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَلَا مَتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَحَارَبَ أَهْلَ الرَّدَّةِ، وَمُسَيْلِمَةَ، وَغَزَا الْعِرَاقَ، وَاسْتَظْهَرَ، ثُمَّ اخْتَرَقَ الْبَرِّيَّةَ السَّامَوِيَّةَ بِحَيْثُ إِنَّهُ قَطَعَ الْمَفَازَةَ مِنْ حَدِّ الْعِرَاقِ إِلَى أَوَّلِ الشَّامِ فِي خَمْسِ لَيَالٍ فِي عَسْكَرٍ مَعَهُ، وَشَهِدَ حُرُوبَ الشَّامِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي جَسَدِهِ قَيْدٌ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ طَابِعُ الشُّهَدَاءِ.

وَمَنَاقِبُهُ غَزِيرَةٌ، أَمَرَهُ الصَّدِيقُ عَلَى سَائِرِ أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ، وَحَاصَرَ دِمَشْقَ، فَافْتَتَحَهَا هُوَ وَأَبُو عُبَيْدَةَ. عَاشَ سِتِّينَ سَنَةً، وَقَتَلَ جَمَاعَةً مِنَ الْأَبْطَالِ، وَمَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ، فَلَا قَرَّتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ.
تُوِّفِيَ بِحَمَصَ، سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَمَشَهِدُهُ عَلَى بَابِ حَمَصَ، عَلَيْهِ جَلَالَةٌ^(١).

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ فَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشَ الْأَمْرَاءِ وَقَالَ: «عَلَيْكُمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَإِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ، فَجَعْفَرٌ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ، فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الْأَنْصَارِيُّ».
فَوَثَبَ جَعْفَرٌ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَأُمِّي مَا كُنْتُ أَرْهَبُ أَنْ تَسْتَعْمَلَ عَلَيَّ زَيْدًا قَالَ:
«امْضُوا، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ».

قَالَ: فَانْطَلَقَ الْجَيْشُ فَلَبِثُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَعِدَ الْمُنْبَرِ، وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى بِالصَّلَاةِ جَامِعَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَابَ خَبْرٌ، أَوْ نَابَ خَبْرٌ، شَكَكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، أَلَا أَخْبَرُكُمْ عَنْ جَيْشِكُمْ هَذَا الْغَازِيِ إِيَّاهُمْ أَنْطَلَقُوا حَتَّى لَقُوا الْعَدُوَّ، فَأُصِيبَ زَيْدٌ شَهِيدًا، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ».

فَاسْتَغْفَرَ لَهُ النَّاسُ، «ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَسَدَّ عَلَى الْقَوْمِ حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا، أَشْهَدُ لَهُ بِالشَّهَادَةِ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأَثْبَتَ قَدَمَيْهِ حَتَّى أُصِيبَ شَهِيدًا، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْأُمَرَاءِ هُوَ أَمَرَ نَفْسَهُ» .

فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُصْبُعِيهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ هُوَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فَانصُرْهُ»، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَرَّةً: فَانْتَصِرْ بِهِ.

فَيَوْمَئِذٍ سُمِّيَ خَالِدٌ سَيْفَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «انصُرُوا، فَأَمِدُوا إِخْوَانَكُمْ، وَلَا يَتَخَلَّفَنَّ أَحَدٌ» فَانْفَرَ النَّاسُ فِي حَرِّ شَدِيدٍ مُشَاةً وَرُكْبَانًا» (١).



تَعَامَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْمُخْتَلِفِينَ وَالْمُتَنَازِعِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ

وهذا نموذج من نماذج تعامل الحبيب ﷺ مع المختلفين من أصحابه وأتباعه حيث أنه كان يعاملهم بالحكمة واللين ، ويربّيهم بالكلمة والحكمة والموعظة الحسنة ، وقد جاءت عدت نماذج ومواقف عاجلها الحبيب المصطفى ﷺ بأفضل المعالجة .

ولقد كان النبي ﷺ هو المعلم الرحيم والمصلح الكبير لأبناء الإنسانية، علّمهم الحياة ، والحضارة، فأصلح شؤونهم بعد فساد، يقول الباحث الهولندي واث (١٨١٤ - ١٨٩٩ م) :
"لقد جاء قرآن العرب على لسان نبيهم محمد العظيم ﷺ ، وعلّمهم كيف يعيشون في هذه الحياة ، وقد وحد صفوفهم وجمع كلمتهم وأدّبهم حتى لا ترى أمة من الأمم أحسن منهم، وبالنهاية اعتمدوه في كل أمورهم ، وكان يتلقّى الوحي من ربّه الذي يوحى إليه ، ثم ينقله إلى الناس ، بعد أن يكتبه له الكتاب الذين انتدبهم لذلك .

كما كان النبي ﷺ في سائر مراحل حياته القدوة الإنسانية ، والمثل الأعلى ، والنموذج الأمثل للمعلم الكبير، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران ٣١] . وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب ٢١] .

فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا ولأحبا بنا ، حتى نقتفي أثره ، وهذه القدوة التي تمسك بها المسلمون، عادت عليهم بانتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة في الأرض ؛

فمن نماذج تعامله ورحمته ﷺ في التربية وفضّ الخلافات بين أصحابه :

ما رواه عَنْ مُعَاوِيَةَ السُّلَمِيِّ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَأَتَكَلُّ أُمِّيَاءَ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيَّ أَفْحَاذِهِمْ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ يُصِمُّونِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا شَتَمَنِي وَلَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ هَذَا، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١).

وهناك نموذج آخر هو عندما اختلف الصحابة بعد الخندق في توجيههم إلى بني قريظة :

فَعَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: نَادَى فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أَنْصَرَفَ عَنِ الْأَحْزَابِ «أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَتَحَوَّفَ نَاسٌ فَوَتَ الْوَقْتَ، فَصَلُّوا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّي إِلَّا حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ، قَالَ: فَمَا عَنَّفَ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ (٢).

هذه الحادثة من شأنها أن تترك في نفوس ذوي الألباب أثراً عميقاً نحو قضية قبول الاختلاف مع الآخر عند النبي ﷺ، وأن الحوار لا بد وأن يكون مفتوحاً، وأن يتعامل معه الناس بعقل متقبل لهذا الاختلاف ؛

فها هو النبي ﷺ لما علم بما حدث، أقرّ الفريقين على فعلهم، ولم يعاتب أحداً منهم؛ والرسول يعلمنا بذلك التعامل مع الهدف بحكمة، وباستقلالية في الوسيلة طالما أنها لا تتعارض مع أحكام الشريعة؛ والرسول ينهانا عن التمسك بنوعية الحوار المبني على الرأي مسبقاً، لأنه سيكون حواراً عقيباً، لا جدوى منه، وذلك في قوله ﷺ: «... وَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى

(١) رواه أحمد وابن حبان وابن خزيمة وغيرهم ..

(٢) رواه مسلم في صحيحه .

مُتَّبِعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَذَرَّ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ»^(١). وهذا الحديث، رغم أنه توجيه لنا بعدم الحوار مع من يُعجبون بآرائهم ويرفضون الحوار مع الآخر، إلا أنه في الوقت ذاته، توجيهٌ لنا بعدم التشبث بآرائنا، ما دام هناك مساحة للتفاوض مع الآخر والحوار والنقاش معه.

ولقد كان من خُلق النبي ﷺ، الانفتاح على الأمم الأخرى، والأخذ منها بما لا يتعارض مع أحكام الشريعة، فلقد وافق على رأي سلمان الفارسي بحفر الخندق في غزوة الخندق، رغم أنها خطة فارسية، لم يعتدها العرب من قبل، ولم يسمعوا عنها.

وربما تعاف نفسك بعض الأمور التي اعتادتها ثقافة معينة، فيرفضها عقلك تماماً، وتتعامل معها بنفور، وربما امتد تأثير هذا الأمر عليك، فيجعلك تفرض رأيك على من حولك وترفض الحوار في هذه النقطة تحديداً، ولكن النبي ﷺ يرفض هذا الأسلوب في التعامل مع مجريات الأحداث من حولك، ويرفض أن تتعامل مع البشر من حولك بفرض ما تقبله نفسك على الآخرين.

وهناك نماذج أخرى منها :

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ مِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الْقَارِيِّ، أَنَّهُمَا سَمِعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِرَامٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ حُرُوفًا كَثِيرَةً لَمْ يَقْرَأْ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكِدْتُ أَسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ، فَنَظَرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَمَّا سَلَّمَ لَقَيْتُهُ، فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ بِهَا؟ فَقَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: كَذَبْتَ، فَوَاللَّهِ، إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَهِيَ أَقْرَأَنِي هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ بِهَا، فَاَنْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقُوْدُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ الْفُرْقَانَ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرَأْ بِهَا، وَإِنَّكَ أَقْرَأَنِي سُورَةَ الْفُرْقَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا

(١) رواه ابن حبان والطبراني وغيرهما ..

هِشَامُ، أَقْرَأُ» فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُ يَقْرَأُ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَكَذَا أَنْزَلْتُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَأُهَا يَا عَمْرُ» فَقَرَأَتْهَا الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «هَكَذَا أَنْزَلْتُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ»^(١).

وأيضاً نموذجٌ آخر : كما تقدم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ قَالَ: فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُتِنَةٌ»، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولٍ: قَدْ فَعَلُوهَا، لِيَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَقَالَ عَمْرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: «دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(٢).

ونموذجٌ آخر : وأيضاً أنهى النبي ﷺ الخلاف الذي وقع بين الأوس والخزرج بسبب شأس ابن قيس اليهودي : وذلك عندما نزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

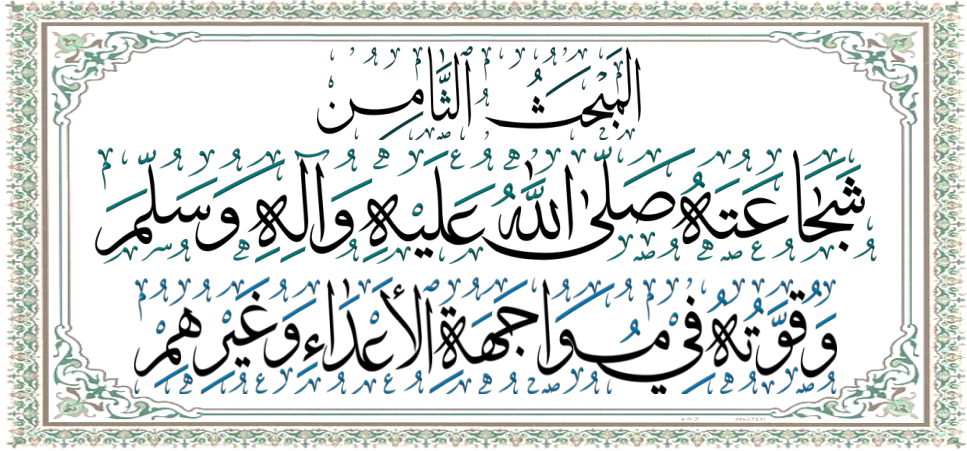
قَالَ عِكْرِمَةُ نَزَلَتْ فِي شَاسِ بْنِ قَيْسِ الْيَهُودِيِّ دَسَّ عَلَى الْأَنْصَارِ مَنْ ذَكَرَهُمْ بِالْحُرُوبِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فَتَمَادَوْا يَفْتَتِلُونَ فَأَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَهُمْ فَعَرَفُوا أَنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ فَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٣).



(١) مسند الشاميين للطبراني ..

(٢) رواه أحمد ومسلم والتزمذي وابن حبان وغيرهم ..

(٣) فتح الباري لابن حجر (٢٦٩ / ١٢) .



قد تتساءل أخي القارئ الكريم : لماذا ختمت هذا الكتاب بهذا المبحث [شجاعته ﷺ] ؟ .
وأقول : لأبّين لجميع الناس أنّ سيدنا رسول الله ﷺ لم يتعامل مع جميع من يحيط به بهذه الأخلاق والرحمة بسبب ضعفه وعجزه ، فحاشاه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أن يكون كذلك ، بل كان قوياً شجاعاً ، ولكن مع هذه القوة والشجاعة تحلّى بالأخلاق والأدب والكرم والعفو كما أمره الله ﷻ ..

فالشجاعة من أكرم الخصال التي يتصف بها الرجال ، فهي عنوان القوة، وعليها مدار إعزاز الأمة، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، فالشجاعة صفة لا يتحلّى بها إلا الأقوياء الذين لا يابهون الخوف، ولا يجعلون الخور والضعف ديدنهم.

صور من شجاعة النبي ﷺ

ولقد كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، فقد فرّت منه جيوش الأعداء وقادة الكفر في كثير من المواجهات الحاسمة، بل كان يتصدر ﷺ المواقف والمصاعب بقلب ثابت وإيمان راسخ.
ويؤكد سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ذلك بما حصل لأهل المدينة يوماً، حينما فزعوا من صوت عالٍ، فقال أنس رضي الله عنه : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ » ؛

وَلَقَدْ فَزَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَاَنْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِّي، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تَرَأُوا، لَمْ تَرَأُوا» قَالَ: «وَجَدْنَاهُ بَحْرًا، أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ» قَالَ: وَكَانَ فَرَسًا يُبْطَأُ^(١).

فهذا الموقف يبين شجاعته ﷺ ، حيث خرج قبل الناس لمعرفة الأمر، وليطمئنهم ويهدأ من روعهم.

فقد يظن بعض الجهلة أو الذين لا يعرفون عظمة الحبيب المصطفى ﷺ ، أن هذا التعامل من النبي ﷺ لأهله ولخدمه ولأصحابه ولمجتمعه ..إنما هو عن ضعفٍ وذِلَّةٍ ، أو قلة شجاعة ..؛

فحاشاه سيدي رسول الله ﷺ ، لكن حقيقة الأمر أن سيدي رسول الله ﷺ كان أشجع الأولين والآخرين ، وأقواهم وأعظمهم ، ولكنه مُعَلَّمٌ وقُدوة ، يعلمنا الأخلاق ويعلمنا مَتَى نستعمل القوة ومَتَى نستعمل الأخلاق ، ولذلك سوف نستعرض بعضاً من شجاعته ﷺ لكي ننظر إلى عظمته ، وكرامته ﷺ ويؤيد ما سبق موقفه ﷺ حين تأمر كفار قريش على قتله ، وأعدوا القوة والرجال لذلك، حتَّى أحاط بمنزله قرابة الخمسين رجلاً، فثبت عندها رسول الله ، ولم يُصبه الخوف، بل نام ولم يهتم بشأنهم، ثم خرج عليهم في منتصف الليل بشجاعة وقوة، حاثياً التراب على وجوههم، ماضياً في طريقه، مخلفاً علياً عليه السلام، مكانه ، ويجلس ﷺ في الغار مع سيدنا أبي بكر، والمشركون حول الغار، وهو يقول لأبي بكر بشجاعة الواثق بحفظ الله: ﴿لَا تَحْزَنْ

إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وصارع رسول الله ﷺ ذات مرة أبا ركانة المعروف بقوته وشدته في القتال ، فصرعه رسول الله وغلبه ، فعن عبد الله بن الحارث، قال: صَارَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا رُكَانَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ شَدِيدًا، فَقَالَ: شَاءَ بِشَاةٍ، فَصَرَعه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَبُو رُكَانَةَ: عَاوِدْنِي، فَصَارَعَهُ، فَصَرَعه

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهما ..

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيضًا، فَقَالَ: عَاوِدُنِي فِي أُخْرَى، فَعَاوَدَهُ، فَصَرَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَيضًا، فَقَالَ أَبُو رُكَانَةَ: هَذَا أَقُولُ لِأَهْلِي: شَاةٌ أَكَلَهَا الذُّبُّ، وَشَاةٌ تَكَسَّرَتْ، فَمَاذَا أَقُولُ لِلثَّلَاثَةِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا كُنَّا لِنَجْمَعَ عَلَيْكَ أَنْ نَصْرَعَكَ وَنُغْرِمَكَ خُذْ غَنَمَكَ»^(١)، فَأَيَّ شَجَاعَةٍ وَقُوَّةٍ كَانَ يَمْتَلِكُهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وذات مرة استظل عليه الصلاة والسلام تحت ظل شجرة لينام القائلة - كما تقدم في تعامله مع من يريد قتله - ، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصْفَةَ بَنِي خَلِّ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عُرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ غَوْرُثُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ؟» قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، قَالَ: «تَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: أَعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونُ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، قَالَ: فَخَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبِيلَهُ فَجَاءَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ^(٢).

وأما عن شجاعته وإقدامه في الغزوات والحروب، فقد كان الصحابة رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إذا حمى الوطيس واشتد البأس يهتمون برسول الله ﷺ، يقول سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه: «كُنَّا إِذَا احْمَرَ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ»^(٣).

ولما أصاب الصحابة يوم حنين من الأذى والهزيمة ما أصابهم، فرّ بعضهم من أرض المعركة، أما رسول الله ﷺ فلم يفر، فلقد كان على بغلته وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول بصوت عالٍ:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(٤).

(١) رواه معمر بن راشد في مجمعه ..

(٢) رواه الحاكم في المستدرک وابن حبان وغيرهما .

(٣) رواه أحمد في المسند ..

(٤) صحيح مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

يقول الإمام ابن حجر الهيتمي في المنح المكيّة بشرح القصيدة الهمزية مُعلّقاً على ذلك:

وثباته حينئذٍ نهاية الشجاعة ، كيف وقد فرّ جيشه عنه ولم يبق معه إلا بضعة عشر رجلاً؟! فوقف في نحو ألوف مؤلّفة على بلغة لا تصلح لكر ولا فر ، ومع ذلك يركضها إلى وجوههم ، وينوّه باسمه ليعرف من جهله^(١) .

ويقول الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله في كتابه : فقه السيرة :

وإنك لتبصر صورة نادرة حقاً لهذه المرأة ، عندما تفرّقت جموع المسلمين في الوادي وقد ولوا الأدبار ، ولم يبق إلا رسول الله ﷺ وسط حومة الوغى حيث تحفّ به كمان العدو التي فوجئوا بها ، فثبت ثباتاً عجبياً امتد أثره إلى نفوس أولئك الفارين من أصحابه ، فعادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش وقوة العزيمة .

روى ابن كثير في تفسيره خبر غزوة حنين ثم قال : قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة . إنه في مثل هذا اليوم ، في حومة الوغى ، وقد انكشف عن جيشه ، وهو مع هذا على بغلته ، وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب ، وهو مع ذلك أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان^(٢) .

وفي يوم أحد، يوم أن خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ ، وسيطر المشركون على زمام المعركة، لم يتزحزح النبي ﷺ من موقفه، بل وقف موقف القائد القوي الشجاع، والصحابة من حوله يتساقطون، وحوصر ﷺ من قبل المشركين، ولم يكن حوله إلا القلّة من الصحابة يدافعون

(١) المنح المكيّة بشرح القصيدة الهمزية ص : (٢٩٩). ط : دار المنهاج .

(٢) فقه السيرة ص : [٢٩٠ . ٢٩١] .

عنه، وبرز منهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حينما دعاه رسول الله فتأوله النبال وقال له: «ارْمِ يَا سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» (١).

ثُمَّ إِنَّ قُوَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَشَجَاعَتَهُ، لَمْ تَكُنْ إِلَّا فِي مَحَلِّهَا، فَهَذِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَقُولُ: (مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يَنْتَهَكَ شَيْءًا مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ عَنكَ) (٢).

لَقَدْ كَانَتْ مَوَاقِفَ النَّبِيِّ ﷺ مُضْرِبَ الْمَثَلِ، وَمَحَطَ النَّظَرِ، فَهُوَ شَجَاعٌ فِي مَوْطِنِ الشَّجَاعَةِ، قَوِيٌّ فِي مَوْطِنِ الْقُوَّةِ، رَحِيمٌ رَفِيقٌ فِي مَوْطِنِ الرَّفْقِ، فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ.

وَأخيراً نقول:

يَكْفِي الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ شَرَفًا أَنْ اللَّهُ يَجِبُهُ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

« الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ » (٣).

وَيَكْفِي الْجَبَانَ مَذْمَةً أَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ كَثِيرًا مَا يَتَعَوَّذُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، فَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَوَاتٌ لَا يَدْعُهُنَّ وَمِنْهَا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَعَلَبَةِ الرَّجَالِ» (٤).



(١) رواه أحمد والنسائي وغيرهما ..

(٢) تقدم تخريجه ..

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ..

وأخيراً

وبعد هذه الجولة حول ما جمعناه ، وفي هذه الدراسة لبعض تعاملات النبي ﷺ مع أهله وأقاربه وأصحابه ومجمعه ، نستطيع أن نُجمل بعضاً من أهم النتائج التي يتوصل إليها القارئ الكريم على النحو التالي :

١ - كان النبي ﷺ رحمةً للبشرية منذ أن بعثه الله وحتّى وقتنا هذا، بذكر القرآن لذلك ، وحتّى بشهادة علماء الغرب وغيرهم .

٢ - يتبين للباحث عظم رحمة النبي ﷺ للبشرية في ميدان التنوير والمعرفة والعلم، فظهر دوره في نقل الجزيرة العربية من مرحلة الجهل إلى مرحلة العلم، ومن عصر الظلام إلى عصر النور، وبان دوره كذلك في تحضّر العالم كله، خاصةً الغرب، وتحدّث في ذلك علماء غربيون وغيرهم .

٣ - عاش أصحاب الديانات والعقائد المختلفة في ظل حكم النبي ﷺ حياة آمنة ، قد حفظ النبي ﷺ لهم فيها حق حرية الاعتقاد، وممارسة الشعائر، وحفظ لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم من سوء كالمسلمين سواء بسواء .

٤ - وفي مجال الأخلاق، يتبين للقارئ الكريم ذلك الكم الضخم من القيم الأخلاقية والسلوكية المجتمعة في شخصية سيدنا محمد ﷺ ، كالرفق واللين والعدالة والمساواة والحب والإخاء، والتي تمثل بعض تجليات الرحمة في النبي ﷺ ودعوته لأئمة بالتخلّق بأخلاقه .

٥ - تجلت مظاهر الرحمة - كذلك - في شخصية النبي ﷺ كمُشرّع لتنظيم حياة المجتمعات البشرية، فظهرت في سياسته التشريعية مظاهر عدة على رأسها المرونة والوسطية الشرعية والاعتدال الواعي والتيسير والرخص الشرعية والتدرّج في التشريع .

٦- في ميادين الصراعات السياسية والعسكرية، تجلّت بوضوح مظاهر رحمته ﷺ، فقدّم الحوار على الصّدام، و الحل السلمي على الحل العسكري، وطبّق مبدأ الحوار بين الحضارات بنجاح، وراسل لذلك قادة وملوك العالم وأرسل إليهم الرُّسل والسفراء، وشهد أعداؤه وخصومه، بعظم أخلاقه، وسمو عفوّه، لاسيما مع الأسرى، وقد أطنب الباحثون الغربيون في تجلية هذه المظاهر.

٧- حرّر النبي ﷺ المرأة من رقّ الجاهلية، وأنقذها من مأساة الوأد، وردّها لها اعتباراتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وظهرت له ﷺ النماذج الفدّة في رحمته بالنساء وبالأطفال عامة وبالبنات خاصة، إضافة إلى الأيتام.

٨- لقد ضرب نبينا النبي ﷺ المثل الأعلى في الرحمة بالضعفاء، فظهرت رحمته الجليلة البينة بالفقراء وكيف ساندهم، والعبيد وكيف حرّره، والخدم وكيف أكرمهم، وذوي الاحتياجات الخاصة وكيف اساهم، والمسنين وكيف وقّرههم وامتدت رحمته ﷺ بالإنسانية كلها، ﷺ..

فهذه بعض نماذج تعامل النبي ﷺ مع جميع شرائح المجتمع، فلا بد أن نعرف أن رسول الله ﷺ قدوتنا وأسوتنا في كل الأحوال، وفي جميع شؤون حياتنا، فإن اتبعناه واقتدينا به وتخلّقنا بأخلاقه؛ سنُسعدُ و سنهنأُ بعيشٍ جميل، بدون مشاكلٍ ولا أحقاد، ولا أمراض، وعندما نعيش على أخلاق الحبيب المصطفى ﷺ، نتعلم العفو والإحسان إلى غيرنا ونحسن التعامل مع أمّتنا، فبذلك سنصل إلى أعلى درجات السعادة في الدنيا والآخرة.

وبالله التوفيق.



الخاتمة

تم كتاب : هَكَذَا تَعَامَلَ النَّبِيُّ ﷺ ..

فما أجمل المتابعة والعيش مع خُلق النبي الكريم ﷺ وحُسن تعامله ، وما أجمل ذلك الشعور الذي يشعر به المرء ، وقد خَطَّتْ يده طرْفاً من أخلاق أشرف الخلق أجمعين ، وكتب قلمه منافحاً عن خير خلق الله ﷺ ، الذي أرسله الله تَعَالَى رحمة للعالمين ، وذلك لترغيب جميع الناس لهذه المعاملة الحسنة وهذه الرحمة المهداة .

فلم يكن ﷺ رحمة للمسلمين أو للعرب فقط، بل كان رحمةً للعالمين ، وضع أسس الأخلاق، ونحا بذيام البشرية نحو فضائل الأخلاق ، بفضل القرآن الكريم الذي كان خُلُقَهُ ﷺ ، وبفضل سُنَّتِهِ العاطرة، التي لم تكن مجرد أقوال بلغت من الحكمة ما يفوق حكمة البشر، بل كانت أفعالاً ومواقف، عاشها ﷺ في العسر واليسر، في الرضا والغضب، في الفقر والغنى، في الفرح والحزن، وفي النصر والهزيمة، وحين أدبرت عنه الدنيا، وحين كانت تقبل عليه.

وإني قد جمعت أبواب وفصول ونماذج كتابي هَذَا عَلَى حَسَبِ ما توفرت لي من مراجع ومصادر ، لأدعو نفسي و المسلمين ، وجميع الناس إِلَى الاقتداء به ﷺ ، والبحث والإمعان في سيرته الكريمة ، ليعثروا عَلَى السراج المنير، في ظلمة هَذَا الليل البهيم ، الذي بات يغلف أرجاء البشرية، ويكتنف أركانها، فلا تكاد تعرف معروفاً أو تنكر منكرا .

والهدف الأساسي من هَذَا الجمع هو التقرب إِلَى الله تَعَالَى و إِلَى الرسول الأكرم ﷺ ، وأيضاً لإيصال بعض من نماذج الاقتداء والاهتداء بهدي الحبيب محمد ﷺ ، وأيضاً لتضافر الجهود لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من طوفان المرحلة الغنائية وتعريف الجيل المخدوع بترهات الإعلام

والأفلام، وتعريف الجليل المتخدع بنجوم الفسق والمجون وغيرهم، ولكي يحذروا من الاستتباع والتقليد الأعمى لما يُلقى لهم من سموم الإعلام والمسلسلات والقنوات الزائفة ..
فلنتعاون جميعاً لنصرة الحبيب المصطفى ﷺ بأقوالنا وأفعالنا وكتاباتنا ونياتنا ..
عسى الله أن يحيي ما مات ويعيد ما فات .

ومن عشر في هَذَا الكتاب عَلَى تقصير أو خلل - وهو موجود - .. فليصلحه وليتواصل معي لكي أَعَدِّله وَأَصَحِّحه - مثلما فعلت بعد الطبعة الأولى - والطبعة الثانية - فِي رَهين الخطأ والزلل ، وأن يصلحه بقصد النصيحة وبالنقد البناء ، وقد أحسن من قال :

يا ناظرًا في كتابي إن تجد غلطاً أصلح بفضلك ما يبدو من الخطل
لا تعترض أبداً إن كنت ذا كرم واعذر فلست بمعصومٍ من الزلل
وَأَسْأَلُ الله أن ينفع بهذا الكتاب جميع الأمة المحمدية ، ويجعل فيه النفع والانتفاع ، وأن يتقبله منا ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وَأَسْأَلُ الله أن يُحْيِي فينا أخلاق نبيه ﷺ وآل بيته وأصحابه ، وَأَسْأَلُ الله الكريم الرحيم أن يجعل ما كتبت وما جمعت خالصاً لوجهه الكريم ، وَأَسْأَلُ الله أن يفتح علينا وَعَلَى إخواني القُرَّاء فتوح العارفين وأن يُفَقِّهَنَا في الدين وأن يجعلنا من العلماء العاملين ، ونسأل الله أن يغنيننا بالعلم ويزيننا بالحلم ويكرمننا بالتقوى ويهدنا إِلَى خير سبيل ، وَأَسْأَلُ الله أن يجعل آخر كلامنا من الدنيا : لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ﷺ متحققين بحقائقها حسناً وَمَعْنَى ظاهراً وباطناً ..

وصلى الله عَلَى سيدنا ومولانا محمد وَعَلَى آلِهِ وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

كان الفراغ من مراجعته النهائية والتعديل للطبعة الثالثة ليلة السبت

ليلة عرفة ٨ / ذو الحجة ١٤٤٤ هـ الموافق ٢٧ / ٨ / ٢٠٢٣ م

قارة الحبيب أحمد المحضار مديرية دوعن محافظة حضرموت اليمن ..



تطبيق
سيدنا الحبيب

منصات
نور المحبين



أهم المصادر والمراجع

- ١ . القرآن الكريم .
- ٢ . السنة النبوية وشروحها .
- ٣ . الأذكار : للإمام النووي ط ١ لدار المنهاج .
- ٤ . الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ط المكتبة العصرية .
- ٥ . سيرة ابن هشام .
- ٦ . السيرة الحلبية للإمام علي بن برهان الدين الحلبي .
- ٧ . البداية والنهاية لابن كثير .
- ٨ . الشئائل المحمدية للترمذي .
- ٩ . الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض .
- ١٠ . إحياء علوم الدين للإمام الغزالي .
- ١١ . الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله .
- ١٢ . حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار للإمام محمد بن عمر بحرق الحضرمي .
- ١٣ . وسائل الوصول إلى شئائل الرسول للإمام النبهاني .
- ١٤ . منتهى السؤل على وسائل الوصول للشيخ العلامة أحمد زيني دحلان .
- ١٥ . خاتم النبیین للشيخ محمد أبو زهرة .
- ١٦ . الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية مختصر المواهب اللدنية للقسطلاني .
- ١٧ . محمد رسول الله للشيخ محمد رضا .

- ١٨ . فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي .
- ١٩ . كتاب آمنت بالله للشيخ محمد علي الصابوني .
- ٢٠ . علموا أولادكم محبة رسول الله للدكتور محمد عبده يمانى .
- ٢١ . كيف عاملهم للشيخ محمد صالح المنجد .
- ٢٢ . هَذَا الحبيب يا محب للشيخ أبو بكر الجزائري .
- ٢٣ . نبي الرحمة الرسالة والإنسان لمحمد مسعد ياقوت .
- ٢٤ . المعلم الأول ﷺ لفؤاد الشلهوب .
- ٢٥ . نبي الرحمة لعبد الرحمن عبدالله .
- ٢٦ . مبدأ الرفق في التعامل مع المتعلمين من منظور التربية الإسلامية لصالح المطلق .
- ٢٧ . أساليب الرسول في التربية دراسة تحليلية لنجيب خالد العامر .
- ٢٨ . الآداب الإسلامية للناشئة لمحمد خير فاطمة .
- ٢٩ . كيف نكتبُ التاريخ الإسلاميّ، لمحمد قطب .
- ٣٠ . التاريخ الإسلاميّ مواقفٌ وعِبَرٌ، للدكتور عبد العزيز الحميدي .
- ٣١ . الأسس والمنطلقات للحبيب أبوبكر العدني ابن علي المشهور (ط ٣ ، دار المعين ، الأردن : ١٤٣٦هـ) .
- ٣٢ . التليد والطارف للحبيب أبوبكر العدني ابن علي المشهور ، (ط ٣ ، دار المعين ، الأردن : ١٤٣٦هـ) .
- ٣٣ . منهج السلامة الواعي للحبيب أبوبكر العدني ابن علي المشهور ، (عدن : مركز الإبداع ، ط ٢ ، ١٤٣١هـ) .
- ٣٤ . المهيع الواضح الميمون للحبيب أبوبكر العدني ابن علي المشهور (عدن : مركز الإبداع ، ط ١ ، ١٤٣٤هـ) .

٣٥. الزوبعة العاصفة بشرح المنظومة الكاشفة للحبيب أبوبكر العدني ابن علي المشهور (عدن : مركز الإبداع ، ط ١ ، ١٤٢٦هـ)
٣٦. احياء منهجية النمط الأوسط للحبيب أبوبكر العدني ابن علي المشهور (بيروت : ط ٢ ، ١٤٣٠هـ) .
٣٧. كتاب الإحاطة والاحتياط للحبيب أبوبكر العدني ابن علي المشهور (عدن : فرع الدراسات ، ط ٢ ، ١٤٢٣هـ) .
٣٨. الرحيق المختوم للمباركفوري ط المكتبة العصرية .
٣٩. الشريعة للأجري .
٤٠. شرح الياقوت النفيس للحبيب محمد ابن أحمد الشاطري ط ١ دار المنهاج .
٤١. فقه السيرة للعلامة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي ط دار الفكر لعام ١٩٩٦م
٤٢. مقال : مع النبي في سيرته ونهجه للدكتور / راغب السرجاني .
٤٣. التحذير من المجازفة بالتكفير للسيد محمد علوي المالكي ط ١
٤٤. الدواء الشافي للحبيب حسين بن محمد الهدار ط ١ مكتبة الرفاعي .
٤٥. الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي ..
٤٦. كشف الأفتنة للحبيب أبوبكر العدني ابن علي المشهور ط ١ .
٤٧. هكذا فلندع إلى الإسلام للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ط ١ .
٤٨. حياة الحيوان الكبرى للدميري ط ١ لعام ٢٠١٤م المكتبة التوفيقية .
٤٩. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن علان الصديقي ط ١ شركة القدس للنشر ، مصر .
٥٠. سبل الهدى والرشاد للصالحين ..

٥١. المنح المكّية في شرح الهمزية ، للإمام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي الطبعة الأولى
لدار المنهاج.

٥٢. سير أعلام النبلاء للذهبي .

٥٣. منهل الصفا في شمائل المصطفى' للشيخ العلامة أبي بكر بن محمد بن عمر الملا .

٥٤. منهج النبي في تغيير المنكر وفق المواقف النبوية لزكريا أحمد الطالب .

بحوث ومقالات

٥٥. منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة، للطيب برغوث،

٥٦. في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحماية والحذر، د إبراهيم علي.

٥٧. حسن التعامل مع الجيران للدكتور. بدر عبد الحميد هميسه.

٥٨. تعامل الرسول مع الأطفال لعبدالرحمن بن محمود العسكري .

٥٩. تعامل النبي مع زوجاته في الجانب الترفيهي للدكتور. عبد السميع الأنيس.

٦٠. تعامل النبي ﷺ مع أزواجه لحسن بن علي بن حسن سنحان القحطاني.

٦١. السياسة الشرعية في تعامل النبي مع المنافقين عبد العزيز بن حمد الداوود .

٦٢. مع النبي في سيرته ونهجه للدكتور . راغب السرجاني.

٦٣. وقفة تحليلية لرسول النبي إلى الملوك والأمراء للدكتور . راغب السرجاني

٦٤. منهج النبي في التغيير والإصلاح للدكتور . ياسر أبو شبانة.

٦٥. ميزان التعامل مع المخالف. للدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

٦٦. المنهج النبوي للتعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة لإيمان الخشاب.

٦٧. آداب وأحكام التعامل مع الخدم ونحوهم لعلي بن عبد العزيز الراجحي.



المحتويات

- المطلع القرآني ٥
- شاهد الحال ٦
- الإهداء ٧
- العلامة المرَبِّي الحبيب : أبوبكر العدني ابن علي المشهور ٨
- شكر وتقدير ٩
- المقدمة ١٠
- خطة الكتاب ١٤
- المبحث الأول : أهمية دراسة سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ١٦
- وتكمن أهمية دراسة السيرة النبوية في النقاط الأساسية الآتية : ١٦
- ومن جوانب أخرى نجد بعض الفوائد الهامة لدراسة السيرة وأهميتها وهي : ١٨
- فقه العلاقة بالذات النبوية : - ١٩
- المبحث الثاني : مختصر من سيرة الحبيب محمد ﷺ ٢١
- المبحث الثالث : بعض من صفات خلقه وشأنه ﷺ ٣٧
- المبحث الرابع : محبة الحبيب محمد ﷺ ٤٢
- الفصل الأول في لزوم محبته صلى الله عليه وآله وسلم ٤٢
- الفصل الثاني : فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي وشوقهم له ٤٥
- الفصل الثالث : في علامات محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٤٨
- وكل ذلك يُلخَّص إلى معادلة وخالصة في حُبِّ النبي ﷺ : ٥٧
- بيان معنى المحبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وحقيقتها ٥٨
- المبحث الخامس : الأخلاق النبوية ودعوة النبي ﷺ إلى مكارم الأخلاق ٦٦
- الثاني : مبلغ عظمة أخلاق النبي ﷺ ، وتتجلى لنا فيه حقائق ونتائج كثيرة منها : ٦٧

- ٦٨ دعوة النبي ﷺ إِلَى مكارم الأخلاق.
- ٧٢ المبحث السادس : الرسول القدوة ﷺ .
- ٧٤ الحبيب ﷺ قدوة في بيته :
- ٧٤ الحبيب ﷺ قدوة في مجتمعه :
- ٧٥ الحبيب ﷺ قدوة في القيادة :
- ٧٦ الحبيب ﷺ قدوة في الإصلاح والتغيير :
- ٧٧ كيفية الاقتداء :
- ٧٧ إِنَّ الاقتداء الحقيقي بالنبي ﷺ يتطلَّب منَّا :
- ٧٩ المبحث السابع : تعامل النبي ﷺ مع جميع شَتَّى المجتمع :
- ٨٠ تعامله ﷺ مع أهل بيته ...
- ٨٠ (أ) مع نسائه عليه أفضل الصلاة والسلام ..
- ٨٥ الخلاصة : انظر معي إِلَى كيفية تعامل الرسول ﷺ مع زوجاته في الآتي :
- ٩٧ (ب) مع أولاده وبناته وأحفاده عليه أفضل الصلاة والسلام .
- ١٠٢ وعُرِفَ النبي ﷺ بعطفه عَلَى الأطفال ورحمته بهم .
- ١٠٥ (ج) تعامله ﷺ مع أقاربه ..
- ١١١ (د) مع خدمه عليه أفضل الصلاة والسلام :
- ١١٧ تعامله ﷺ مع أهل بيته بشكلٍ عام وتوجيهه للأمة بمحبتهم وتقديرهم .
- ١٢١ حقوق آل البيت الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : —
- ١٢٢ هكذا فليكونوا آل البيت
- ١٢٥ تعامله ﷺ مع جيرانه .
- ١٣٠ تعامله ﷺ مع الأسير .
- ١٣١ ثالثاً : هدي النبي ﷺ في معاملة الأسرى :

- ١٣٤ خلاصة معاملة النبي ﷺ للأسرى :
- ١٣٨ تعامله ﷺ مع العصاة والمذنبين والمخطئين، وبيان فضل التغافل .
- ١٥٥ تعامله ﷺ مع الأعراب ..
- ١٦١ تعامله ﷺ في الحرب ومع من يغزوهم ووصيته لجيشه وتعامله مع غير المسلمين ..
- ١٦٧ تعامله ﷺ مع المحاربين له ..
- ١٧٠ الرد على المقولة الكاذبة : الإسلام .. إنما انتشر بسطان القهر والسيف ! ..
- ١٨٧ تعامله ﷺ مع المنافقين ..
- ١٨٨ المدارس النفاقية ..
- ١٩٧ موقف النبي ﷺ من المنافقين :
- ١٩٨ ثانياً : موقف النبي ﷺ من المنافقين بعد أن نزل القرآن بفضحهم وتبيين صفاتهم :
- ٢٠١ ثالثاً : موقفه ﷺ تجاه مخططاتهم :
- ٢٠٢ تعامله ﷺ مع اليهود والنصارى ..
- ٢١٩ تعامله ﷺ مع المشركين ..
- ٢٢٤ تعامله ﷺ مع عامة المسلمين ..
- ٢٢٤ خطورة التشريك والتبديع وبيان ذلك ..
- ٢٢٩ والجواب الحاسم : -
- ٢٣٣ بيان خطر التكفير لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ..
- ٢٣٨ الجذور التاريخية لظاهرة التكفير :
- ٢٣٨ موقف السلف الصالح من التكفير :
- ٢٤٢ المشكلة الأولى : مسألة تكفير الناس :
- ٢٥٠ تعامله ﷺ مع المسلمين الجدد ..
- ٢٥٧ تعامله ﷺ مع من يريد قتله ..

- ٢٦٢ تعامله ﷺ مع الدواب والحيوانات والطيور والجمادات ..
- ٢٧٠ تعامله ﷺ مع ذوي الهيئات وكبار القوم ..
- ٢٧٩ تعامله ﷺ مع الملوك ومخاطبته لهم ..
- ٢٨١ بداية الرسائل:
- ٢٨٨ تعامله ﷺ مع ذوي الاحتياجات الخاصة ..
- ٣٠٠ تعامله ﷺ مع اليتيم ..
- ٣٠٦ تعامله ﷺ مع الأطفال وصغار السن ..
- ٣١٦ تعامله ﷺ مع الشباب ..
- ٣٢٤ تعامله ﷺ مع كبار السن ..
- ٣٣٢ كبار السن البركة الخفية:
- ٣٣٤ تعامله ﷺ مع عموم النساء ..
- ٣٤٥ تعامله ﷺ مع لغات الناس وتعلمها ، ومع كل من يأتي من البلدان ..
- ٣٥٠ تعامله ﷺ مع من يدعون إلى المواطنة بالعنصرية ومدحه للبلدان والمناطق ..
- ٣٥٧ تعامله ﷺ مع الضيوف والمستضيفين ..
- ٣٦٣ تعامله ﷺ مع الفقر والفقراء وكيف وجههم ..
- ٣٧٦ تعامله ﷺ في المزاح والضحك ..
- ٣٨٠ مزاحه ﷺ مع النساء: - ..
- ٣٨١ مزاحه ﷺ مع الأطفال: - ..
- ٣٨١ مزاحه ﷺ مع الآخرين وتقبله منهم: - ..
- ٣٨٤ تعامله ﷺ مع أصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ..
- ٤١٧ تعامله ﷺ مع النابغين ..
- ٤٢٧ تعامله ﷺ مع المختلفين والمتنازعين من أصحابه ..

- ٤٣١ المبحث الثامن : تعامله مع شجاعته بالتقوى وقُوَّتِه في مواجهة الأعداء وغيرهم ..
- ٤٣٦ وأخيراً
- ٤٣٨ الخاتمة
- ٤٤٠ أهم المصادر والمراجع



بِكُلِّ حُبِّ وَفَخْرٍ وَاعْتِزَّازُ أَهْدِي هَذَا الْكِتَابُ ، وَكُلِّي حَيَاءً وَنَجَلَ
وَخُشُوعٍ إِلَى سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، إِلَى أَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ ، إِلَى
حَبِيبِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، إِلَى مَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْفُرْقَانَ ، وَنَشَرَ لِيَوَاءِ الْإِسْلَامِ .
إِلَى مَنْ أَدَّبَهُ اللَّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِهِ ، إِلَى مَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ .
سَيِّدِي وَقُرَّةَ عَيْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .

إِلَى آلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، وَأَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ .
وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
إِلَى كُلِّ مُتَعَشِّقٍ وَمُحِبِّ وَمُشْتَاقٍ لِمُرَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ...
إِلَى كُلِّ الدُّعَاةِ وَالْحُطْبَاءِ وَالْمُرْشِدِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ النَّفْعَ لِلأُمَّةِ .
إِلَى قَادَةِ الأُمَّةِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى شُؤْنِهَا ...
إِلَى جَمِيعِ أُمَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَهْدِي هَذَا الْكِتَابُ ...